الطبعة الأولى

من كنوز القرآن

مواقف الأنبياء في القرآن

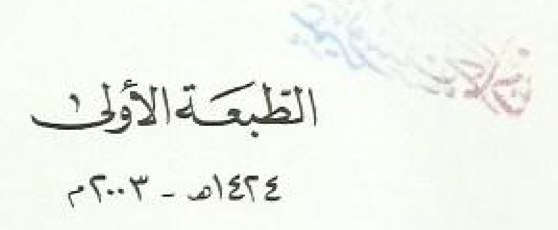
تحليل وتوجيه

الدكتور
صلاح عبد الفتاح الخالدي

دار القلم
دمشق

عمر يوسف حمادة

مواقف الأنبياء في القرآن



الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

تُطلب جميع كتبنا من :

دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧

الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦

ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق

دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥

ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

من كنوز القرآن

٨

مواقف الأنبياء في القرآن

تحليل وتوجيه

الدكتور

صلاح عبد الفتاح الخالدي

دار القلم

دمشق



مقدّمة

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُه ونستعينُه، ونتوبُ إليهِ ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ منْ شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهدِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أنْ لا إلـه إلا الله، وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه، وعلى آلهِ وصحبهِ أجمعين.

أما بعد:

فقد تحدَّث القرآنُ عن الأنبياءِ والمرسَلين، وعرضَ لنا قَصصَهم وحياتَهم، ومواقِفَهم مع أقوامِهم، ودعوتهم لهم، وما جرى بينهم وبينهم، وما انتهى بهِ الأمرُ من إهلاكِ الله للكافرين، ونصرِه للنبيّين والمرسلين.

وحديثُ القرآنِ عن الأنبياءِ والرُّسل حديثٌ مفصَّل، وردَ في معظمِ السورِ المكيةِ والمدنية، فلا تكاد سورةٌ من السورِ الطويلةِ والمتوسطةِ تخلو من عرضِ مشهدٍ لقصةِ رسولٍ مع قومه، أو إشارةٍ لما جرى بين نبيٍّ وبين قومه!.

ويوقن كلُّ مسلمٍ أنَّ حديثَ القرآنِ عن الأنبياءِ والرُّسلِ هو الصدقُ والصّحةُ والصّواب، لأنَّ القرآنَ كلامُ الله، ولا أحدَ أصدقُ من الله سبحانه! فكلُّ ما أخبرَ به القرآنُ عن رسولٍ أو نبيٍّ فهو الحقُّ، وكلُّ ما نسبَهُ له من قولٍ أو فعلٍ أو تصرّفٍ فقد وقعَ حقيقةً كما وردَ في القرآن.

ومواقفُ الأنبياءِ والرسلِ في القرآنِ مواقفُ حقيقيةٌ واقعية، حدثَتْ على الأرض.

وإذا كانتْ بعضُ هذه المواقفِ معجزات فإنَّنا لا ننكرُها ولا نستبعدُها، وإنَّما نؤمن أنها وقعتْ وحصلتْ وحدثت، كما أخبرَ القرآن، لأنَّها من فعلِ الله، والله سبحانه فعَّالٌ لما يريد، لا يُستبعَدُ حُدوثُ الآياتِ والمعجزاتِ بأمرِهِ سبحانه وتعالى.. ويجبُ علينا أن (نوسّع) عقولَنا، فلا نجعلُها عقولاً (ماديّة) صغيرةً ضعيفة، تنكرُ الخوارقَ والمعجزات، وإنَّما نجعلُها عقولاً (قرآنية) تستوعبُ

المعجزاتِ والآياتِ التي حصلتْ للأنبياءِ والرُسل، لأنَّها من فعلِ الله، القادرِ على كلِّ شيء!!.

وبعضُ مواقفِ الأنبياءِ والرُسلِ المذكورةِ في القرآن تحتاجُ إلى توضيح، قد لا يُحسنُ بعضُ المسلمين فهمَها عندما يقرأُ الآياتِ التي أخبرَتْ عنها، لأنَّ (معلوماتِه) عن التفسيرِ قليلة، ومعرفتَه بلغةِ القرآنِ ضعيفة!.

ولقد أوردَتْ أسفارُ (العهدِ القديم) كلاماً كثيراً عن الأنبياءِ والرُسلِ السّابقين، وذكرتْ رواياتٍ مطوَّلةً عن بعضِهم، ونسبتْ لهم أقوالاً أو أفعالاً أو مواقفَ فيها مساسٌ بهم، وانتقاصٌ لهم، لا تتفقُ مع نبوَّتِهم وعصمتِهم وحفظِ الله لهم.

ونحنُ نعلمُ أنَّ أحبارَ اليهودِ الكافرين هم الذين ألَّفوا أسفارَ (العهد القديم) وسجَّلوا فيها الإسرائيليات الباطلة، والرواياتِ المكذوبة، التي تنتقصُ الأنبياءَ والرّسل، ثمَّ نَسبوها إلى الله، وزَعموا أنَّها كلامُ الله في التوراة، التي أنزلَها على موسى عليه السلام! وقد كَذَبوا فيما قالوا، لأنَّهم حرَّفوا التوراة، وخلطوا كلامَ الله الذي فيها بكلامِهم الباطل.

واستهوتْ هذه الإسرائيليّاتُ والأكاذيبُ الواردةُ في أساطيرِ وأسفارِ (العهد القديم) معظمَ المؤرِّخين والمفسِّرين المسلمين، فذكَروها في كتبِ التاريخِ التي ألَّفوها، وسجَّلوها في كلامِهم عن قصصِ الأنبياءِ والرُسل، وفسَّروا بها آياتِ القرآنِ التي تحدَّثَتْ عن الأنبياءِ والرُسل. ومنهم مَنْ أكثرَ من تلك الإسرائيليات، ومنهم مَنْ توسَّطَ في ذكْرِها، ومنهم من قلَّلَ ذكرَها، ولم يسلَمْ من المفسِّرين إلا النادر جداً، الذي نزَّه تفسيره عن تلك الإسرائيليات!.

وعندما يقرأُ القارىءُ المسلمُ ما وردَ في التفاسيرِ المختلفةِ يستغرب، فهل ما وردَ فيها من تصرُفاتٍ ومواقفِ الأنبياءِ والرُسلِ صدرتْ عنهم فعلاً؟ مع مخالفتِها لطبيعةِ الرُسل، وعظمةِ شخصياتِهم، وسموِّ أخلاقِهم! وإنْ لم تكنْ صدرتْ عنهم فما معنى الآياتِ القرآنيّة التي أخبرت عن بعضِ مواقفِهم وتصرفاتِهم؟!.

وكثيراً ما كانَ يأتينا قارئون وقارئاتٍ للقرآن، يسألونَ عن معاني الآيات التي تحدَّثت عن بعضِ الأنبياءِ والرسل، ويطلبونَ معرفةَ الصحيحِ مما جرى، بعد

قراءتِهم لبعضِ الإسرائيلياتِ الواردةِ في كتبِ التفسير . .

وتمنّى بعضُهم لو كتبْنا كتاباً في توجيهِ بعضِ مواقفِ الأنبياءِ والرُسل، وتفسيرِ بعضِ أقوالِهم وأفعالِهم المذكورةِ في القرآن، وحلِّ ما يثورُ حولَها من إشكال، ونقضِ ما يوجَّهُ لها من اعتراض، وكنا نتركُ هذا إلى مشيئةِ اللهِ وقَدَرِه، فإنْ يشأ سبحانه هذا يوفِّقْ إليه.

وسبقَ أنْ أصدرنا كتابَ (القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث) في أربعةِ أجزاء، قبلَ أكثرَ من سنتين، ولله الحمد والشكر، واستعرضْنا فيه قصصَ الأنبياءِ والرُسلِ المذكورةِ في القرآن، من آدمَ إلى عيسى عليهم الصلاة والسلام. وحرصْنا فيه على البقاءِ مع القرآنِ وما صحَّ من حديثِ رسولِ الله ﷺ، ونزَّهنا الكتابَ عن أيةِ إسرائيلياتٍ أو أساطيرَ أو خرافات، وما كنّا نسجِّل فيهِ خبراً أو معلومةً إلا ونوردُ دليلَنا عليها، إما من آياتِ القرآنِ الصريحةِ أو الأحاديثِ النبويةِ الصحيحة! وكنّا نمرُّ في الكتاب ببعضِ مواقفِ الأنبياءِ والرسل، فنحلِّلُها ونوجِّهُها، ونزيلُ ما قد يُثارُ حولَها من شبهة، ونحلُّ ما قد يكونُ حولَها من إشكال.

وأحببنا أنْ نخصصَ للإشكالات التي تُثارُ حولَ مواقفِ الأنبياءِ والرسلِ كتاباً خاصّاً يكونُ مختصراً مفيداً، سهلَ التناول، فجاء هذا الكتابُ بعونِ الله وتوفيقِه.

(مواقفُ الأنبياءِ في القرآن: تحليلٌ وتوجيه) موضوعُه: الإشكالاتُ التي تُثارُ حولَ قصصِ الأنبياءِ والرُسل في القرآن، والتساؤلاتُ التي تُطرح حولَ معاني الآياتِ التي تحدَّثتْ عنهم، ونَسبتْ لهم أقوالاً وأفعالاً تحتاجُ إلى حُسنِ فهمٍ وتفسير.

ومنهجُنا في هذا الكتاب هو ذِكْرُ الآيةِ أو الآيات التي تتحدثُ عن النبيِّ أو الرّسول، وذِكْرُ الإشكالِ الذي يُثار حوله، والتساؤلِ الذي يوجَّهُ إلى موقفِه، وتشخيصُ المشكلة. ثم حلُّها وتحليلُها، وتوضيحُها وتوجيهُها، وتأويلُها وتفسيرُها.

وحرصْنا في تحليلِ وتوجيهِ المواقف، وحلِّ وتفسيرِ الإشكالاتِ، على حُسْنِ فهمِ الآياتِ التي تحدَّثتْ عنها، وتفسيرِها بآياتِ القرآنِ الأخرى، وما صحَّ

من حديثِ رسولِ الله ﷺ، ثم حُسنِ تأويلِ تلك الآيات، وبيانِ معناها.

وشَرَطْنا على أنفسنا أن لا نُسجِّل إسرائيلياتٍ أو خرافاتٍ في الحديثِ عن تلك المواقف، ولم نُوردْ في الكتابِ خبراً أو معلومةً إلاّ ذَكرْنا عليه دليلاً من القرآنِ أو الحديثِ الصحيح. فجاءَ الكتابُ (منزَّهاً) عن الإسرائيليات، ولله الحمدُ والشكر.

والأنبياءُ الذين وجَّهْنا مواقفَهم، وحلَّلْنا الإشكالاتِ التي تُوَجَّهُ لهم هم:

آدمُ عليهِ السلام، حلَّلنا عشرينَ إشكالاً حولَه، ونوحٌ عليه السلام، حلَّلنا ثمانيةَ إشكالاتٍ حوله، وهودٌ عليه السلام، حلَّلنا خمسةَ إشكالاتٍ حولـه، وصالحٌ عليه السلام، حلَّلنا خمسةَ إشكالاتٍ حوله، وإبراهيمُ عليه السلام، حلَّلنا سَبعةَ عشرَ إشكالاً حوله، ولوطٌ عليه السلام، حلَّلنا ستةَ إشكالاتٍ حولـه، ويعقوبُ ويوسفُ عليهما السلام، حلَّلنا سبعةَ عشرَ إشكالاً حولهما، وموسى عليه السلام، حلَّلنا ستةً وثلاثين إشكالاً حوله، وداودُ عليه السلام، حلَّلنا خمسةَ إشكالاتٍ حوله، وسليمانُ عليه السلام، حلَّلنا ثلاثةَ عشرَ إشكالاً حوله، وأيوبُ عليه السلام، حلَّلنا أربعةَ إشكالاتٍ حوله، ويونسُ عليه السلام، حلَّلنا ستةَ إشكالاتٍ حوله، وزكريا ويحيى عليهما السلام، حلَّلنا خمسةَ إشكالاتٍ حولهما، وعيسى عليه السلام، حلَّلنا سبعةَ عشرَ إشكالاً حوله.

أما نبيُّنا محمد ﷺ، فقد (عاتبه) اللهُ على بعضِ ما صدرَ عنهُ من أقوالٍ وأفعال، وسجَّلتْ ذلك العتابَ بعضُ آياتِ القرآن، مثلُ عتابِه على موقفِه من أسرى بدرٍ في سورةِ الأنفال، وإذنِه للمخلَّفين عن غزوةِ تبوك في سورةِ التوبة، وزواجِه زينبَ بنت جحش رضي الله عنها في سورةِ الأحزاب، وعُبوسِه في وجْهِ عبدِ الله بن أم مكتومٍ رضي الله عنه في سورة عبس.. وآياتُ العتابِ تحتاجُ إلى تحليلٍ وتوجيه، وحَلِّ إشكالاتٍ ونقضِ شبهات.

وسوفَ نُخصصُ لها دراستَنا القادمةَ من سلسلة (من كنوز القرآن) وستكونُ بعنوان (عتاب النبيِّ ﷺ في القرآن: تحليلٌ وتوجيه) بعونِ اللهِ وتوفيقِه.

وإلى اللهِ نتوجَّـهُ بهذه الدراسـةِ القرآنية، التي وجَّهْنا فيها مواقفَ بعضِ الأنبياءِ والرسلِ في القرآن، سائلينَ منه الأجرَ والثوابَ وحُسنَ القَبول، ونرجو من الإخوةِ القرّاءِ أنْ يكرمونا بأيةِ ملاحظةٍ أو توجيه، وسنستقبلُ ذلك بصدرٍ رحب،

ونعدُهم أن ننظرَ في ما يقدّمونه، وأن نأخذَ بما نراهُ منه صواباً، والحكمةُ ضالّةُ المؤمن، أنّى وجدَها فهو أحقُّ الناس بها.. كما نرجو من الإخوةِ الكرامِ دعوةً صالحةً بظهرِ الغيب.

اللهمَّ اجعل القرآنَ الكريمَ ربيعَ قلوبِنا، ونورَ صدورِنا، وذهابَ همومِنا، وجلاءَ أحزانِنا، وارزقنا تلاوتَه آناءَ الليل وآناءَ النّهار، وعلّمنا منه ما جهلْنا، وذكّرنا منه ما نُسّينا، واجعله حجّةً لنا يومَ القيامة.

وصلّى اللهُ على سيّدنا محمد، وعلى آله وصحبِهِ وسلّم.

الدكتور

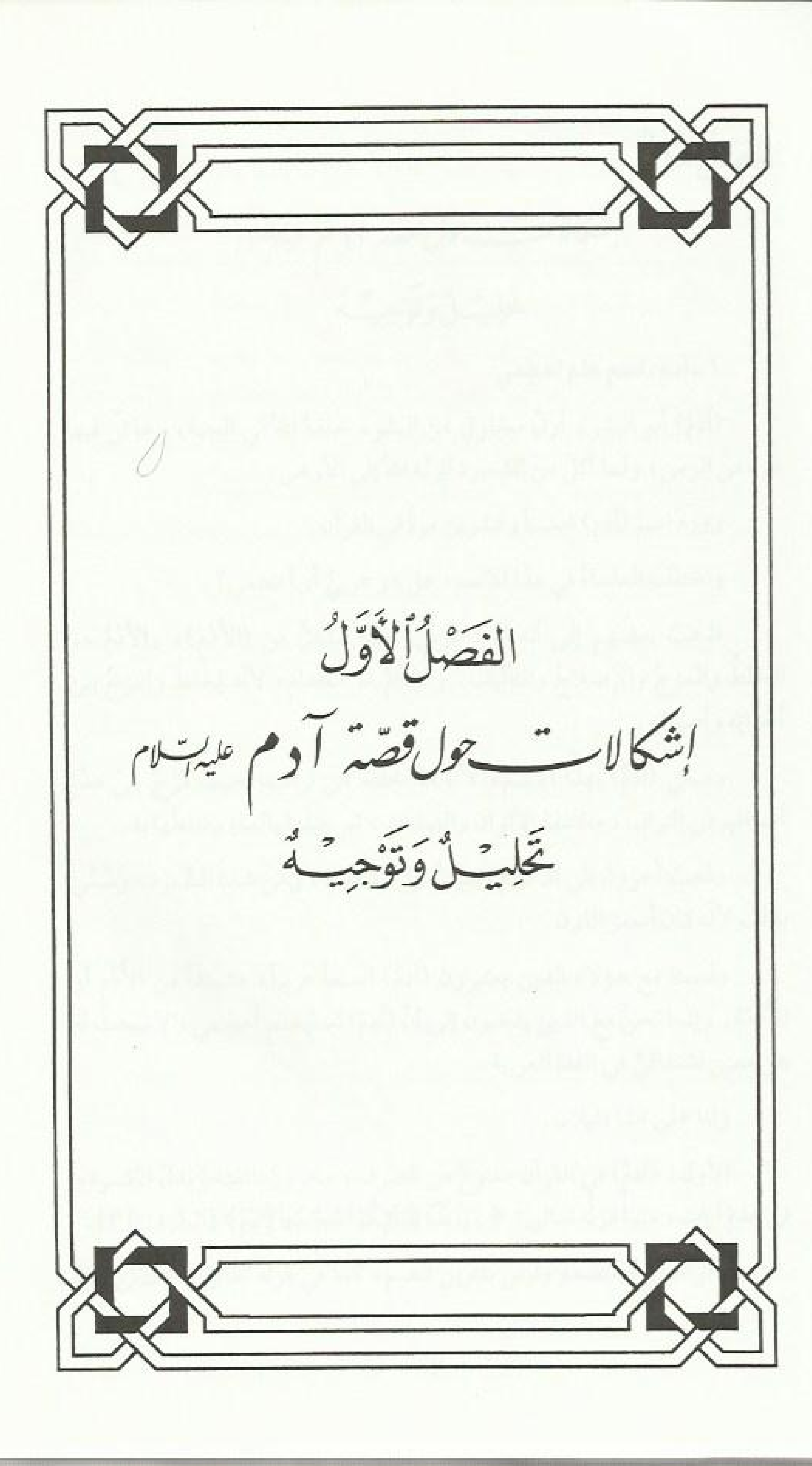
صلاح عبد الفتاح الخالدي

الإثنين ٥/ ١٠/ ١٤٢١هـ

٣١/ ١٢/ ٢٠٠٠م

صويلح: ص.ب: ٦٦٩

هاتف: ٥٣٤١٦٨٤



الفَصْلُ الأَوَّلُ

إشكالات حول قصّة آدم عليه السلام

تَحليلٌ وتَوْجِيهٌ

مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧]، ومنصوبٌ بالفتحةِ وليسَ بتنوينِ الفتح، كما في قولِه تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١].

ولو كانَ (آدم) عربياً مشتقاً، لأُدخلَ عليهِ التنوين، وكانَ مجروراً بالكسرة، وسببُ منعه من الصرف هو: العلميةُ والعجمة، كما يقول النحويُّون، أي: هو اسمُ علم، وهو أعجمي!.

الثاني: آدمُ هو أولُ مخلوقٍ من البشر، ولم تكن اللغةُ العربيةُ قد نشأت، لأنَّ اللغةَ العربيةَ نشأتْ بعدَه بآلافِ السنين، عندما نطقَ بها العربُ في الجزيرةِ العربية، فكيف نعتبرهُ عربياً مشتقاً قبل نشأةِ هذه اللغة؟.

إذن: الراجحُ عندنا أن (آدم) اسـمُ علمٍ أعجمي، ممنـوعٌ من الصرف، للعلميةِ والعُجمة، وليس اسماً عربياً مشتقاً من الأَدْم أو الأُدمة.

٢ ـ التوفيق بين الآيات المتحدثة عن خلق آدم:

تحدثَتْ آياتُ القرآنِ عن خلقِ آدم، وفي حديثِها بعض الاختلاف، حيث أخبرتْ آياتٌ أنه خُلِقَ من تراب، وأخبرتْ آيات أخرى أنه خُلق من طين، وأخبرتْ آياتٌ غيرها أنه خُلق من صلصال كالفخار.

وقد يظنُّ بعضُهم أنّ الآياتِ المتحدثةَ عن خلق آدم عليه السلام متعارضةٌ متناقضة، ويعتبرُ ذلك مطعناً ضدَّ القرآن! وسببُ ذلك سوءُ ظنه، وخطأُ فهمه!.

إنَّ الآياتِ المتحدثةَ عن خلقِ آدمَ متوافقةٌ متكاملةٌ منسجمة، تتحدَّث كلُّ آيةٍ عن مرحلةٍ من مراحل خَلْقِه، لأنَّ خَلْقَه لم يكن دفعةً واحدة، وإنما مرَّ بخمسِ مراحل، وفيما يلي ترتيبُ هذه المراحل:

المرحلة الأولى: خلقه من حفنة من تراب الأرض:

قالَ تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

والهاءُ في (خَلَقَهُ) تعودُ على آدمَ عليه السلام. أيْ: خلقَ اللهُ آدمَ من تراب، ثم قالَ له: كن، فكانَ كما أرادَ الله.

فالآيةُ صريحةٌ في أنَّ اللهَ خلقَ آدمَ من تراب، وهذا في المرحلةِ الأولى من خلقِه.

ويوضّحُ رسولُ الله ﷺ تفصيلَ ذلك، فقد روى أبو داود [رقم: ٤٦٩٣] والترمذي [رقم: ٢٩٥٥] عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن رسولِ الله ﷺ قال: «إنَّ الله خلقَ آدمَ من قبضةٍ قبَضَها من جميعِ الأرض، فجاءَ بنو آدم على قَدَرِ الأرض، فجاءَ منهم الأحمرُ والأبيضُ والأسود، وبين ذلك، والسهلُ والحَزْنُ، والخبيثُ والطيب، وبين ذلك..».

يُعللُ الحديثُ سِرَّ اختلافِ الناسِ في ألوانهم، فهو بسببِ اختلافِ ألوانِ ترابِ الأرض، كما يُعلل سِرَّ اختلافِ الناسِ في نفسياتِهم وطبائعِهم ومشاعرِهم، فهو بسببِ اختلافِ طبيعةِ التراب، بين الشدةِ والليونة.

ويدلُّ الحديثُ على أنَّ القبضةَ الترابيةَ التي خُلقَ منها آدمُ عليه السلام جمعتْ ألوانَ الترابِ المختلفة، وصفاتِه المتعددة.

المرحلة الثانية: خلقه من طين:

كان خلقُ آدمَ عليه السلام من طينٍ مرحلةً ثانية، وذلكَ بمزجِ حفنةِ الترابِ المأخوذةِ من الأرضِ بالماء، حيثُ صارتْ طيناً.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [سورة صٓ: ٧١].

وكانَ إبليسُ يرى خلقَ آدم، رأى حفنةَ التراب، ورآها لمّا مُزجتْ بالماءِ فصارتْ طيناً، ولما رفضَ السجودَ لآدمَ تباهى بأصلهِ الناري، ورأى نفسَه خيراً من آدمَ ذي الأصلِ الطيني. قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

المرحلة الثالثة: خلقه من طين لازب:

قال تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ﴾ [الصافات: ١١].

و(اللازب) هو: الثابتُ المتماسك. قالَ الراغبُ الأصفهاني: «اللازب: الثابتُ شديدُ الثبوت»(١).

وهذه المرحلةُ ناتجةٌ عن تحويلِ الطينِ الرخوِ ـ في المرحلةِ السابقة ـ إلى

---

(١) المفردات، ص٧٣٩.

طينٍ شديدٍ متماسكٍ كثيفٍ غليظ، وذلك تمهيداً لتجميدِه وتيبيسه . .

المرحلة الرابعة: خلقه من صلصال من حمأ مسنون:

قالَ تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٨].

الصَّلْصال من (الصَّلّ) والصَّلُّ هو الصوتُ. قال الراغب الأصفهاني: «أصلُ الصلصال: تردُّدُ الصوتِ من الشيء اليابس. يُقال: صَلَّ المسمار: إذا أدخل في الشيء اليابس، وسُمي الطينُ الجافُّ صلصالاً»(١).

و(الحمأُ) هو: الطينُ الأسودُ المنتن.

و(المسنون) هو: المتغيّر.

وهذه المرحلةُ ناتجةٌ عن المرحلةِ السابقة، فبعدَ أن صارَ الطينُ الرخوُ طيناً لازباً ثابتاً شديداً جامداً، تُركَ فترة، فتحوَّلَ إلى طينٍ أسودَ منتنٍ متغيّرٍ جافّ.

المرحلة الخامسة: خلقه من صلصال كالفخار:

قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤].

والصلصالُ هنا هو الطينُ اليابسُ، وسُمي بذلك لأنك إذا نقرتَ عليه يَصِلّ، أيْ: يُخرجُ صوتاً.

وشُبِّه هذا الطينُ اليابس بالفخّار، والفخّار هو الآنيةُ والجِرارُ المصنوعةُ من الطينِ المحروقِ بالنارِ بعدَ يُبْسه.

وسُميتْ هذه الآنيةُ والجرارُ (فخّاراً) من التفاخر. قال الراغب: «والفخار: الجِرار، وذلك لصوته إذا نُقر، كأنما تُصوِّرَ بصورةِ من يُكثر التفاخر . .».

وهذه هي المرحلةُ الخامسة ـ والأخيرة ـ التي مرَّ بها خَلْقُ آدمَ عليه السلام، قبلَ أنْ ينفخَ اللهُ الروحَ فيه.

ومن خلالِ ترتيبنا المرحليِّ للآياتِ التي تحدَّثَتْ عن خَلقِ آدمَ عليه السلام، قبلَ نَفخِ الروحِ فيه، نرى أنّه لا تعارضَ بينها، كما قد يظنُّ بعضُ ذوي النظرِ

---

(١) المفردات، ص٤٨٨.

القاصر، إنَّما هي متكاملةٌ متوافقة، تتحدثُ كلُّ آيةٍ عن مرحلةٍ من مراحلِ خلقِه، ويُجمعُ بينها على هذا الأساس.

أُخذتْ حفنـةٌ من التراب، كما تقـولُ الآياتُ عن المرحلةِ الأولى، فلما جُبلت بالماءِ صارتْ طيناً، كما تقولُ الآيات عن المرحلةِ الثانية، فلما زادَ خلطُ الطينِ ومزجِه، وضرْبُه بعضُه ببعض، صارَ طيناً لازباً جامداً شديداً، كما تقولُ الآياتُ عن المرحلةِ الثالثة، فلما تُركَ هذا الطينُ اللازبُ فترةً جفَّ ويبس، وصارَ منتناً متغيّراً أسود، كما تقولُ الآياتُ عن المرحلةِ الرابعة، فلما زادتْ يُبوسةُ هذا الطين، صارَ كالفخار، يُخرجُ صوتاً وصلصلةً إذا نُقرَ عليه، كما تقولُ الآيات عن المرحلةِ الخامسة!.

٣ ـ كلام الملائكة عن استخلاف آدم عليه السلام:

أخبـرَ اللهُ الملائكـةَ أنه سيجعلُ آدمَ خليفة، وكان هذا بعدَ أنْ مرَّ خلْقُه بالمراحلِ الخمسـةِ المذكورةِ سابقاً، وصارَ تمثالاً جامداً، مصنوعاً من الطينِ اليابسِ كالفخار.

قالَ تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

وقد تُثارُ حولَ هذه الآيةِ الإشكالاتُ التالية:

أولاً: تُسجّلُ الآيةُ قولَ اللهِ للملائكة، واستفهامَ الملائكةِ حوله، وجوابَ اللهِ على استفهامِهم: قالَ اللهُ لهم، وقالوا هم لله، وردَّ اللهُ على قولهم.

وبعـضُ (المفتـونيـن) بـالمصطلحـاتِ والمـذاهـبِ الفكـريـةِ المعـاصـرةِ ـ كالديمقراطية ـ قد يُسمّون هذا (حواراً) بينَ اللهِ والملائكة! وقرأنا لبعض هؤلاءِ كلاماً مكتوباً قالوا فيه: حاورَ اللهُ الملائكةَ عندما أرادَ استخلافَ آدم، بأنْ أخبرَهم، ثم ردُّوا عليه، ثم ردَّ على ردِّهم!!.

والحوارُ مصطلحٌ شائعٌ في هذا العصر، يُطالبُ به كثيرون من الناس، من بابِ سماعِ (الرأيِ الآخر) بسعةِ صدر، وإتاحةِ الفرصةِ للمعارضةِ لتقولَ ما عندها.

ولا اعتراضَ لنا على هذا، ونحنُ نُطالبُ بالحوار، وندعو كلَّ مسؤولٍ

ـ مهما كانتْ درجةُ مسؤوليته ـ إلى إتاحةِ الفرصةِ للمعارضين ليقولوا ما عندهم، وسماعِه الرأيَ الآخرَ بسعةِ صدر.

لكنَّ اعتراضَنا على تسميةِ ما قالَه اللهُ للملائكة، وما قالوه له (حوارا)!.

الحوارُ يتمُّ بين الأطرافِ المختلفةِ المتساويةِ في مستواها، يكونُ بينها اختلافٌ في الآراء، وتنازعٌ في النظرات، فتلتقي وتتحاورُ وتتناقش، ويَطرحُ كلُّ طرفٍ ما عنده، ثم ينتهي اللقاءُ بالاتفاقِ على رأيٍ معين!.

ولا مساواةَ بين اللهِ الخالقِ وبينَ الملائكةِ المخلوقين، فاللهُ له العظمةُ والجلالُ سبحانه! ولم يكن هناك خلافٌ ونزاعٌ بين الله والملائكة، أرادوا حلَّه عن طريقِ الحوار! لأنَّ اللهَ يُخبرُ ويُقدِّر ويريدُ ويأمر، والملائكةُ ينفِّذون!.

إذنْ لا يمكنُ تسميةُ ما جرى بين الله والملائكة (حوارا) إنما أخبرَهم اللهُ عن ما سيفعله، فاستفهموا عنه، فأجابهم اللهُ سبحانه!.

ثانياً: لماذا أخبرهم الله؟:

قد يُثارُ إشكالٌ عند بعض الناس: لماذا أخبرَ اللهُ الملائكةَ أنه سيجعلُ خليفةً في الأرض؟.

قد يعتبرُ بعضُهم أنَّ هذا من بابِ (الاستشارة) أي: يشاورُ اللهُ الملائكة، ويطلبُ رأيهم فيما سيفعلُه من استخلافِ آدم! وقد قرأنا لأحدهم كلاماً بهذا المعنى! ذهبَ فيه إلى أنَّ اللهَ استشارَ الملائكةَ في جعلِه آدمَ خليفة، ولهذا ردُّوا عليه معترضين!.

وهذا كلامٌ مردود، فاللهُ لا يستشيرُ الملائكة ـ ولا أحداً من خلقِه ـ فيما سيفعلُه ويريده! ولا (شورى) بين اللهِ وخلقِه!.

إنَّ (المستشير) قد تخفى عليهِ بعضُ الأمور، فيطلبُ من (المستشار) ما عنده، ليعرفَ وجهَ الصواب فيها. واللهُ سبحانه عالمٌ بكلِّ شيء، ولا تخفى عليه خافية، فلا يستشيرُ الملائكة، ولا يطلبُ منهم رأياً ولا تحليلاً!.

أخبرَ اللهُ الملائكةَ أنه سيجعلُ خليفةً في الأرض، وهذا من بابِ (تكريمهم) ليعرفوا ما سيفعله، قبلَ أنْ يفعله، فلا يُفاجؤون به، وهذا تفضُّلٌ منه سبحانه عليهم، وتكريمٌ لهم، فهو إخبارٌ وإعلامٌ ليس إلا!.

وجاءَ الإخبارُ بصيغةِ الجزم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾! و(جاعل) اسم فاعل، يدلُّ على القرارِ الحاسمِ الجازم، فلم يقلْ لهم: إني سأجعلُ في الأرضِ خليفة، وعبَّر عمَّا سيكونُ باسمِ الفاعل، قبلَ أن يكونَ، لأنَّه أرادَ ذلك سبحانه، وطالما أرادَه فلا بدَّ أنْ يحصلَ ويتحقق، لأنَّ ما شاءَ اللهُ كان، ولا رادَّ لأمرِه.

ثالثاً: توجيه سؤال الملائكة:

لمّا أخبرَهم اللهُ عن استخلافِ آدمَ قالوا له: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا..﴾ والوقفةُ هنا مع الاستفهام الذي صدرَ عنهم: (أتجعل) الهمزةُ في الجملةِ للاستفهامِ فما نوعُ هذا الاستفهام؟ ولماذا استفهموا؟.

قد يذهبُ بعضُهم إلى أنَّ الاستفهامَ هنا إنكاريّ! ويرى أنَّ الملائكةَ أنكروا على اللهِ فعلَه، واعترضوا على استخلافِه آدم، لأنهم رأوا أنفسَهم الأحقَّ والأجدرَ بالاستخلاف، فهذا الخليفةُ سيفسدُ في الأرضِ ويسفكُ الدماء، بينما هم يسبحون بحمدِ اللهِ ويقدِّسون له، فلماذا استبعدَهم اللهُ عن الاستخلافِ واختارَ آدم مكانهم؟ لذلك اعترضوا عليه: ﴿قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾!..

وهذا كلامٌ خطير، وخطأٌ كبير، لا يجوزُ أنْ نفسِّرَ به سؤالَ الملائكة.

فاللهُ خلقَ الملائكةَ عابدين مطيعين له، لا يَعصونَه، ولا يُخالفونَه، ولا يعترضونَ عليه، ولا يُنكرونَ فعله!.

قالَ تعالى عنهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

وقالَ أيضاً عنهم: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ـ٢٧].

فمن كانتْ هذه صفتُهم الفطرية، لا يَعترضونَ على الله، ولا يُنكرونَ له فعلاً. ولذلكَ لا يمكنُ أن يكونَ الاستفهامُ في الآية ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ إنكارياً!.

توجيهُ سؤالِ الملائكةِ أنهم أرادوا أنْ يعرفوا الحكمةَ من استخلافِ آدم، من بابِ العلم، وزيادةِ اليقين. إنهم يوقنون بحكمةِ اللهِ في أفعالِه، وبما أنه أرادَ استخلافَ آدم فهذا هو الصواب، ولكنهم لا يعرفونَ وجهَ الصواب، فسألوا اللهَ

عن ذلك من بابِ (الاستفهام).

كأنهم يقولون: أخبِرْنا يا ربَّنا عن الحكمةِ من جعلكَ آدمَ خليفةً، لنعرفها ونزدادَ بذلك علماً ويقيناً!.

ولذلكَ أجابهم اللهُ على سؤالهم، مبيّناً لهم حكمتَه من ذلك الاستخلاف!.

٤ ـ كيف عرفت الملائكة إفساد الخليفة وسفكه للدماء؟:

لمَّا أخبرَ اللهُ الملائكةَ أنّه جاعلٌ في الأرض خليفة، قالوا له: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾؟ أيْ: أتجعلُ في الأرض مَنْ سيفسدُ فيها، ويسفكُ دماءَ الناس فيها؟.

وقد عرفْنا قبلَ قليلٍ حكمةَ إخبارِ اللهِ للملائكة بذلك، وعن معنى سؤالِهم واستفهامِهم.

ونبحثُ هنا في مسألتيْن: كيف عرفت الملائكةُ أنَّ الخليفةَ سيفسدُ ويسفك الدماء؟ وكيف سيصدرُ عن آدمَ إفسادٌ وسفكٌ للدماء؟.

خاضَ الإخباريون والمفسِّرون كثيراً في حلِّ هذا الإشكال، والجوابِ على هذا السؤال، وذهبَ كثيرٌ منهم إلى الإسرائيليات والأساطير، وافترضوا افتراضاتٍ باطلة. ولا يعنينا هنا إيرادُ تلك الإسرائيليات، لأننا لا نرى ذكرَ شيءٍ منها في تفسيرِ قصصِ القرآن، وحلِّ إشكالاتٍ حولها.

وأجابَ بعضُهم جواباً نظرياً عقلياً ليس عليه دليل، ولكنّهُ مبنيٌّ على افتراض، حيثُ قالوا: سألَ الملائكةُ الله: ماذا سيكونُ من ذلك الخليفة؟ فقالَ لهم: إنه سيفسدُ في الأرض ويسفكُ الدماء! عندَ ذلك قالوا له: أتجعلُ فيها من يفسدُ فيها ويسفكُ الدماء؟!.

هذا كلامٌ معقول، ومقبولٌ لو كانَ عليه دليلٌ من الآياتِ الصريحةِ أو الأحاديثِ الصحيحة. ولكن ليسَ عليه دليل، ولذلك لا نقولُ به.

وللجوابِ على السؤال، نقول: لعلَّ الملائكةَ توقَّعوا ذلك، من بابِ فراستِهم وفطنتِهم، وبُعدِ نظرِهم، ودقةِ ملاحظتِهم!.

رأوا مراحلَ خلْقِ آدمَ من الترابِ والطين، ولاحظوا طبيعةَ هذا العنصرِ الأرضيِّ الترابي، فهذا الخليفةُ المخلوقُ من الترابِ سيتأثرُ بهذا، وسيلتصقُ

بالأرضِ والتراب، ولذلك سيفسدُ في الأرضِ ويسفكُ الدماء!.

لاحظوا هذا بفراستِهم الإيمانيةِ النورانيةِ الحية، ومن ثم سألوا سؤالَهم من بابِ التوقع. أي: أنت خلقتَ هذا الخليفةَ من التراب، وهو سيتأثرُ بذلك، وسيفسدُ في الأرضِ ويسفكُ الدماء.

وفراستُهم صحيحة، ولذلك لم يُخَطِّئْهم اللهُ في كلامِهم، بل أقرَّهم عليه، وقالَ لهم: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

أيْ: أعلمُ أنَّ هذا الخليفةَ سيفسدُ في الأرض، ويسفكُ الدماء، لكنّه وحده هو الذي يصلحُ ليكونَ خليفةً في الأرض رغمَ هذا!!.

ومَن المقصودُ بقولِ الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ هل هو آدم؟ وهل آدمُ سيكونُ مفسِداً سافكاً للدماء؟.

المقصودُ هو (الإنسان) الخليفةُ على العموم، وليسَ شخصاً معيناً بذاتِه، ومن ثم لم يكنْ (آدم) عليه السلام هو المقصود، لأنَّه سيكونُ نبياً، ولن يكونَ مفسِداً في الأرض، ولا سفاكاً للدماء!.

(الإنسانُ) الخليفةُ باعتبارِ جنسِه سيُفسدُ ويسفكُ الدماء، وهذا ينطبقُ على أُناسٍ كثيرين بأعيانهم وأشخاصهم، فكم ظهرَ مفسدون في الأرضِ من البشر! وكم ظهرَ سفَّاكون للدماءِ منهم!.

ولماذا نذهبُ بعيداً، فابنُ آدمَ من صلبِه هو أولُ مفسدٍ في الأرض، سفَّاكٍ للدماء، حيثُ أقدمَ على قتلِ أخيه ظلماً، وارتكبَ بذلك أولَ جريمةِ قتلٍ وقعتْ على وجهِ الأرض، وقد أخبرَنا اللهُ عن قصةِ ابني آدم، في آياتِ سورةِ المائدة: [٢٧ ـ ٣١]، وبذلك صدقتْ فراسةُ الملائكة، وصحَّ توقعهم!.

وإنَّ إفسادَ بعضِ الناس في الأرض وسفْكهم للدماء من لوازمِ استخلافِهم في الأرض!.

٥ ـ آدم خليفة لمن؟:

جعلَ اللهُ آدمَ عليه السلام خليفةً في الأرض: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

لكنه خليفةٌ لمن؟ أو خليفةٌ عن من؟.

ذهبَ بعضُ الإخباريين والمفسِّرين إلى الإسرائيليات، يبحثونَ فيها عن (سكانِ) الأرضِ قبلَ آدم، الذين صارَ آدمُ خليفةً لهم، وأوردوا في هذا رواياتٍ غير ثابتة، لأنها لم تردْ في الأحاديثِ الصحيحةِ عن رسولِ الله ﷺ، ولذلكَ لا نسجِّلُ منها شيئاً هنا.

والظاهرُ أنه لم يكنْ سكانٌ في الأرضِ قبلَ آدم، لا من الإنسِ ولا من الجنِّ، ولا من غيرهما من المخلوقاتِ الحيةِ العاقلة، ولا توجدُ رواياتٌ صحيحةٌ تخبرُ عن هؤلاءِ السكان، ولو وجدنا أحاديثَ صحيحةَ مرفوعةً للنبيِّ ﷺ تتحدَّث عن ذلك لقلنا بها.

وبناءً على ذلك نقولُ: لم تكن مخلوقاتٌ عاقلةٌ على الأرضِ قبلَ آدم، ليكونَ آدمُ خليفةً عنهم، وآدمُ عليه السلام هو أول مخلوقٍ حيٍّ عاقلٍ أُنزلَ على الأرض، ولذلك نقرِّر مطمئنين: لم يكنْ آدمُ عليه السلام خليفةً عن أيِّ أناسٍ قبلَه.

بقيَ أن نتساءلَ: هل يجوزُ أن نقولَ: كانَ آدمُ خليفةَ للهِ في الأرض؟.

بعضُ العلماءِ منعوا ذلك، وذهبوا إلى عدم جوازِه، لأنَّ اللهَ سبحانه لا يحتاجُ إلى خليفةٍ له في الأرض، فهو (قائم) عليها، مدبِّر لكلِّ شيءٍ فيها، أحاطَ بها علماً وسمعاً وبصراً، لا يغيبُ عنها لحظة، ولذلك لا يحتاجُ إلى خليفةٍ له فيها!.

وبعضُ العلماءِ ذهبوا إلى جوازِ ذلك، ومن ثم قالوا: آدمُ خليفةٌ لله في الأرض! ونحنُ مع هؤلاء في جوازِ وصحةِ هذه العبارة.

وليسَ معنى اعتبارِ آدمَ خليفةً لله أنَّ اللهَ يحتاجُ إلى مَنْ يخلفُه، أو أنه يغيبُ عنها ليخلفَه غيرُه فيها، فاللهُ أحاطَ بالأرض علماً وسمعاً وبصراً.

واستخلافُ اللهِ لآدمَ عليه السلام تكريمٌ منه له، ليقومَ هو ـ وذريتُه من بعدِه ـ باستصلاحِ الأرضِ وتعميرِها، وإدارتِها وقيادةِ باقي المخلوقات الحيةِ عليها، التي سخَّرها الله له!.. كرَّمه اللهُ بذلك، وجعلَ هذه مهمتَه عليها، مع حضورِ الله وقيامِه على كل شيءٍ فيها.

ولا يُشترَطُ في الخليفةِ غيابُ (المستخلِف)، فقد يكونُ المستخلِفُ موجوداً، ومع ذلك يكرمُ (المستخلَفَ)، ويعطيهِ صلاحياتٍ تحتَ إشرافه.

قالَ الإمامُ الراغب: «والخلافةُ: النيابةُ عن الغير، إمّا لغيبةِ المنوبِ عنه، وإمّا لموته، وإمّا لعجزِه، وإما لتكريمِ المستخلَف، وعلى هذا الوجهِ الأخيرِ استخلفَ اللهُ أولياءَه في الأرض..»[1].

بناءً على ذلك نرى أنَّ اللهَ جعلَ آدمَ عليه السلام خليفةً له سبحانه في الأرضِ تكريماً منه له.

أما ذريّتُه فإنَّ اللهَ جعلَهم خلائفَ عن بعضِهم بعضاً، كلّما ماتَ جيلٌ خلَفه جيلٌ بعده، وورثَ الأرضَ منه، وصار فيها نائباً عنه. قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

٦ ـ معنى قول الله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾:

خلقَ اللهُ آدم جسماً مصوَّراً، وتمثالاً مجسَّماً جامداً، ليس فيه روحٌ ولا حياةٌ ولا حركة، وبعد ذلكَ أرادَ اللهُ أن يجعلَه حياً، فنفخَ فيه من روحه.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [سورة ص: ٧١ ـ ٧٢].

لا نتحدَّثُ هنا عن (الروح) التي نفخَها اللهُ في آدم، لأنَّ هذه الروحَ سِرٌّ من أسرارِ علمِ الله، لا يعلمُ حقيقتَها ولا كنهَها إلا اللهُ سبحانه، استأثرَ اللهُ بذلك، ولم يُعلمْ به أحداً من البشر.

ويبقى قولُه تعالى عن (سِرِّ) الروح، يتحدَّى الناسَ حتى قيام الساعة، ويُعلنُ عجزَهم عن معرفةِ حقيقتِها. قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

وقفتُنا أمامَ حرفِ الجرِّ (مِنْ) في قوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ ما معناها؟ إنّها (بيانية)، وليستْ (تبعيضية)!.

لا يمكنُ أنْ تكونَ (تبعيضية)، لأنها لو كانتْ كذلك لكانَ لله روح، وهذه الروحُ يمكنُ أنْ تتبعَّضَ أو تتجزَّأ! وأخذَ اللهُ (بَعْضاً) من روحِه، وجزءاً منها، ووضعَها في جسمِ آدمَ فصارَ حياً! فما في آدمَ ـ وفي ذريّته من بعده ـ هو جزءٌ وبعضٌ وقسمٌ من روحِ الله!!.

---

(١) المفردات، ص٢٩٤.

وهذا كلامٌ خطيرٌ جداً! لأنه يجعل لله روحاً مجسَّمة، ويجعلُ هذه الروحَ قابلةً للتبعيضِ والتقسيم، ويجعلُ في آدمَ جزءاً من روحِ الله، أي فيه جزءٌ من الله!.

وهذا يقودُ إلى الفكرةِ الكافرةِ (الحلول والاتحاد)، التي يؤمنُ بها بعضُ الكافرين، والتي تجعلُ اللهَ حالاً في خلقِه، متّحداً معهم، بحيثُ صاروا صورةً مجسمةً ماديةً عن الله!!.

ولعلَّ أساسَ انحرافِ النصارى في تأليهِ عيسى عليه السلام أنَّ عقولَهم لم (تستوعب) ولادةَ عيسى بدونِ أب، والروحَ التي نفخَها جبريلُ عليه السلام في مريمَ رضي الله عنها، والتي أخبرَنا اللهُ عنها في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١].

ولعلَّهم ذهبوا إلى أن (مِنْ) في قولِه: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ للتبعيض، وما حملَه جبريلُ معه هو جزءٌ من روحِ الله، نفخَها في مريم، فحملتْ بعيسى عليه السلام، فجاءَ عيسى وفيهِ جزءٌ من الله، ولهذا قالوا: هو ابنٌ لله، لأنه اتّحدَ فيه الجانب الإلـٰهيُّ (اللاهوت) مع الجانبِ البشريِّ (الناسوت)!.

إذن (مِنْ) في قولِه: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ ـ وفي قولِه عن عيسى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ ـ لا يمكنُ أنْ تكونَ (للتبعيض).

إنها (بيانية) تبيّنُ أنَّ هذه الروحَ التي في آدمَ عليه السلام هي من عندِ الله، أيْ: هي من أمرِ الله، خلقَها اللهُ سبحانه بإرادتِه، وأرادَ جعلَها في آدمَ بمشيئتِه، ووضعَها في آدمَ بأمرِه، فصارَ آدمُ إنساناً حياً. كما قالَ تعالى: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

خلقَ اللهُ الروحَ خلقاً، كما خلقَ أيَّ مخلوقٍ آخر، ولم يخبرْنا عن كيفيةِ خلقِها، ولا المادةَ التي خلقَها منها، وجعلَها في آدمَ عنواناً للحياة، وجعلَها في ذريتِه من بعدِه عنواناً لحياتهم، وخروجُها من أبدانهم دليلٌ على موتهم.

وإضافةُ الروحِ إلى الله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ لتكريم تلك الروح وتشريفها، كما أُضيفت الناقةُ إلى الله، في قوله تعالى: ﴿هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ [الأعراف: ٧٣]، وكما أُضيفَ البيتُ الحرامُ إلى الله، في قولِه تعالى: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

٧ ـ ما الذي علّمه الله لآدم عليه السلام؟

قال الله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣١ ـ ٣٣].

أرادَ اللهُ أن يبيِّنَ للملائكةِ الحكمةَ من جعلِه آدمَ خليفة، وأنه هو (المؤهَّل) بما زوَّده اللهُ بـه ـ لهذهِ الخلافة، فامتحنَه وامتحنَهم، ونجحَ هو في الامتحانِ بإجابتِه على السؤالِ الذي وُجِّه له، بينما عجزوا هم عن الإجابة.

علَّم اللهُ آدمَ الأسماءَ كلَّها، وأحضرَ الملائكة، وطلبَ منهم الإخبارَ بتلك الأسماء، فلم يستطيعوا، لأنَّ الله لم يُعَلِّمهم، وقالوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ عندَ ذلك طلبَ من آدمَ أن يخبرَ بالأسماءِ المطلوبة، فأخبرَ بها، ونجحَ فيما عجزَ عنهُ الملائكة!.

عندَ ذلكَ عرفَ الملائكةُ حكمةَ اختيارِ آدمَ للخلافة، وقالَ اللهُ لهم: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

ما هي الأسماءُ التي علَّمها اللهُ لآدم؟ وكيفَ علَّمه إياها؟ وكيفَ أجابَ عنها أمامَ الملائكة؟.

ظاهرُ الآيةِ أنَّ اللهَ علَّمَ آدمَ أسماءَ كلِّ شيء: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾، والآيةُ حريصةٌ على العمومِ والشمول، ولذلكَ أكَّدت (الأسماء) بكلمةِ (كلَّها).

ولا تُفصِّلُ الآيةُ الأسماءَ التي علَّمَه إياها، ولا تبيِّنُ كيفيةَ تعليمِهِ لها! هل حفَّظَه اللهُ (قاموسَ) أسماءِ الأشياءِ كلِّها؟ أم حفظهُ أسماءَ الأشياءِ التي يحتاجُها فقط؟ وهل علَّمَهُ الأسماءَ باللغةِ العربيةِ أم بلغةٍ أخرى؟ وهل كانَ تعليمُه بالتحفيظِ أم بكيفيةٍ أخرى؟..

لا نملكُ نصوصاً معتمدةً في الآياتِ والأحاديثِ الصحيحةِ للإجابةِ على هذه الأسئلة، ولا نذهبُ إلى الإسرائيليات والأساطيرِ للإجابةِ عليها، كما ذهبَ بعضُ المؤرِّخين والمفسِّرين، ونعتبرُ الكلامَ عنها بدونِ دليلٍ غيرَ مقبول، فهي من (المبهماتِ) التي أبهمها اللهُ علينا!.

علَّمَ اللهُ آدمَ الأسماءَ كلَّها، ولعلَّ ذلك كان بأنْ جعلَ فيه النطقَ والكلام، والتعبيرَ والبيان، والإفصاحَ عما في نفسه، وترجمةَ ما يدور في خَلَده، والرمزَ بالأسماءِ للمسميات، بأنْ يجعلَ اسماً لفظاً للشيءِ الذي أمامَه، أو الشيءِ الذي يحتاجُه!.

والنطقُ والبيانُ نعمةٌ من اللهِ أنعمَ بها على الإنسانِ الخليفةِ في الأرض، وهو ضروريٌّ للقيامِ بهذه الخلافة، فلو لم يقدر الإنسانُ على النطقِ والكلام، والإفصاحِ عما في نفسِه، والتعبيرِ عن حاجته، وتسميةِ كلِّ شيءٍ باسمه، فكيف سيحققُ خلافتَه؟ وكيف ينجحُ في حياته؟.

ولذلك امتنَّ اللهُ على الإنسان في تعليمِه الأسماء، وجعلهُ قادراً على النطقِ والكلام والتعبيرِ والبيان، فقال تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ [الرحمن: ١ ـ ٤].

ولمعرفةِ قيمةِ هذه النعمةِ الربانيةِ الغامرةِ نتذكر صعوبةَ حياةِ الأخرسِ الأبكم، العاجزِ عن النطق، في تعاملِه مع الآخرين، وفي ممارسةِ حياتِه وقضاءِ حاجاتِه! ولو كانَ الناسُ كلُّهم مثلَه بكماً خرساً صُمّاً، فكيف تكونُ حياتُهم؟ وكيف ستتحققُ الخلافة؟.

لعلَّ تعليمَ اللهِ لآدمَ الأسماءَ كلَّها هو ما جعلَه في نفسه من القدرةِ على النطقِ والتعبير، والرمزِ بالأسماءِ للمسميات، والإفصاحِ عما في نفسه.

وهذا النوعُ من الكلامِ لا يحتاجُه الملائكة، ولذلك لم يُعلِّمهم ذلكَ لأنهم ليستْ لهم خلافةٌ في الأرض، وإنما هم (عابدون) لله.

وتعليمُ آدمَ الأسماءَ كلَّها تكريمٌ من اللهِ له، وبيانٌ لفضلهِ على الملائكةِ بذلك التعليمِ الضروريِّ للخلافةِ في الأرض، وتقريرٌ لفضلِ العلم وشرفِه، ومنزلةِ العلماءِ العاليةِ عند اللهِ سبحانه!.

٨ ـ توجيه سجود الملائكة لآدم عليه السلام:

بعدما خلقَ اللهُ آدم، ونفخَ فيه من روحه، فصارَ إنساناً حياً، أمرَ الملائكةَ أنْ يسجدوا له، فنفَّذوا أمرَ الله، وسجدوا كلُّهم أجمعون.

قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ

﴿مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٧٢ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [سورة ص : ٧١ ـ ٧٣].

وظاهرُ الآياتِ أنَّ الأمرَ شملَ الملائكةَ كلَّهم، وأنَّ (أل التعريف) في (الملائكة) للاستغراق، فجميعُ الملائكةِ الذين كانوا مخلوقين في ذلك الوقت أمروا بالسجودِ لآدم، وجميعُ هؤلاء الملائكةِ المأمورين سجدوا لآدم، لأنَّ الملائكةَ ينفِّذون أمرَ اللهِ ولا يخالفونَه.

والآياتُ حريصةٌ على تأكيدِ شمولِ تنفيذِ الأمرِ لجميعِ الملائكة: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ حيثُ أوردتْ لفظيْن للتوكيد، هما: (كلُّهم أجمعون).

وقد اختلفَ المفسِّرون في بيانِ كيفيةِ سجودِهم لآدم:

فذهبَ بعضُهم إلى أنَّ سجودَهم له كانَ مجرَّدَ انحناء، من باب التحيةِ والتكريم، فعندما التقوا به في الجنةِ انحنوا أمامَه، وكانَ هذا الانحناءُ تحيةً له، كما يلتقي أحدُ الناس بزعيمٍ فينحني له، ويخفضُ رأسَه أمامه، احتراماً وتعظيماً له!!.

ولا نوافقُ هؤلاءِ على هذا التفسيرِ للسجود، لأنَّ السجودَ هو السجودُ الحقيقيّ.

نرى أنَّ سجودَهم له كانَ سجوداً حقيقياً على الأرض، كسجودِنا نحن لله في الصلاة، لأنَّ كلمةَ (السجود) عند الإطلاقِ تنصرفُ إلى السجودِ الحقيقيِّ على الأرض، ولا تُصرفُ عن هذا المعنى إلا لقرينة، ولا توجدُ هنا قرينةٌ صارفة.

ثم إنَّ ظاهرَ الآيةِ يدلُّ على ذلك، فقد قالَ اللهُ لهم: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾.

إنَّ (قعوا) فعلُ أمر، الماضي منه (وقعَ) يُقالُ: وقعَ، يقعُ، قعْ!.

وعندما يُقالُ: وقعَ فلانٌ ساجداً، فإنَّ معناهُ أنه خرَّ إلى الأرضِ وسجدَ عليها.

فالكلمتان (قعوا) و(ساجدين) تدلأن على أنَّ سجودَ الملائكةِ لآدمَ كانَ سجوداً حقيقياً، حيثُ خرُّوا إلى الأرض، وسجدوا عليها!.

وقد يتساءلُ بعضُهم: كيفَ سجدَ الملائكةُ لآدم؟ مع أنَّ السجودَ لا يكونُ إلا لله؟!.

وتوجيهُ سجودِهم لآدم بأنه سجودُ تكريمٍ وتحية، وليس سجودَ عبادة، لأنَّ سجودَ العبادةِ لا يكونُ إلا لله، ومن سجدَ لغيرِ الله عابداً له كانَ مُشركاً بالله!.

ثم إنَّ الملائكةَ عندما سجدوا لآدمَ عليه السلام إنما كانوا منفِّذين لأمرِ الله، عابدين له سبحانه.

اللهُ هو الذي أمرَهم بالسجودِ لآدم، فسجدوا له منفِّذين لأمرِ الله، مخلصين في عبادتِهم له سبحانه، أيْ أنهم كانوا ساجدين للهِ في الحقيقة!!.

وكأنَّ آدمَ عليه السلام كان قِبلةً لهم في سجودِهم لله، فسجودُهم له في الظاهر، مع أنّه سجودٌ لله في الحقيقة! كما نفعلُ نحنُ في الصلاة، فنحنُ نستقبلُ القبلةَ في صلاتنا، ونولي وجوهَنا شطرَ الكعبة، وصلاتُنا إنما هي لله، فكما أن الكعبةَ قبلةٌ لنا في سجودِنا وصلاتِنا لله، كان آدمُ كأنه قبلةٌ للملائكةِ في سجودِهم لله!!.

ولعلَّ الملائكةَ كانوا في سجودِهم لآدم عليه السلام، معترفين بفضلِه عليهم، وكانَ سجودُهم تكريماً وتشريفاً وتحية، فقد سبقَ أن عرفوا فضلَه عليهم في الامتحانِ الذي أجراه الله لهم وله، وطلبَ منهم تسميةَ الأسماءِ للمسميات، فعجزوا عن ذلك، وقامَ به آدمُ عليه السلام.

وكأنَّهم بسجودِهم يسجِّلون شهادةً بفضلِ العلم ومنزلةِ العالم العالية عند الله!.

٩ ـ توجيه عدم سجود إبليس:

عندما سجدَ الملائكةُ كلُّهم أجمعون لآدم، رفضَ إبليسُ السجود، وعصى أمرَ الله، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٣٤].

وكانَ إبليسُ مأموراً بالسجودِ لآدم، بنصِّ القرآن، قال تعالى: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ... ﴾ [الأعراف: ١٢].

وإبليسُ ليسَ من الملائكة، لأنّه لو كانَ من الملائكةِ لنفَّذ أمرَ الله وسجدَ لآدم، كما فعلَ الملائكة، فاللهُ خلقَ الملائكةَ من نور، وجعلَهم مطيعين له، وهم

لا يعصون اللهَ ما أمرَهم، ويفعلونَ ما يؤمرون، وهم عبادٌ مكرَمون، يسبِّحون الليلَ والنهارَ لا يفتُرون.

قال تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩ ـ ٢٠].

وإبليسُ من الجنِّ بنصِّ القرآن، قالَ تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠].

ولا معنى لاختلافِ المفسِّرين والمؤرِّخين في أصلِ إبليس، بعد هذا التصريحِ القرآني بأنه من الجن!.

يجبُ أنْ يتفقَ العلماءُ جميعاً على أنَّ إبليسَ من الجنِّ وليسَ من الملائكة، بهذا الدليلِ القرآنيِّ الصريح، كما أنه عليهم أن يتفقوا على أنه كانَ مأموراً بالسجودِ لآدم، قد شملَه أمرُ اللهِ للملائكة: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾!.

إبليسُ من الجن، وليسَ من الملائكة، ومع ذلكَ شملَه أمرُ اللهِ للملائكةِ بالسجودِ لآدم، ويبدو أنه كانَ معهم، فانطبقَ عليه ما انطبقَ عليهم، ولم تخبرْنا الآياتُ عن السببِ الذي جعل إبليسَ مع الملائكة، ولا العمل الذي كان يعملُه في الجنة، ولا نحاولُ معرفةَ ذلك من الإسرائيليات!.

وبما أنَّ إبليسَ من الجنِّ فإنَّ الاستثناءَ في قوله: ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ استثناء منفصل ـ كما يقول علماء النحو ـ أي أنَّ المستثنى ليس من جنسِ المستثنى منه.

وإبليسُ هو أولُ من كفرَ بالله، وتمرَّدَ عليه، لأنه استكبرَ وعصى، قال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

والذي دفعَه إلى عدمِ السجودِ هو استكبارُه وافتخارُه، وشعورُه بأنه خيرٌ من آدم، وهذا ما صرَّح به لله، عندما سأله عن سببِ عدم سجوده، قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

إبليسُ من الجنِّ، مخلوقٌ من النار، وآدمُ مخلوقٌ من طين، وفي مقياس

إبليس النارُ خيرٌ من الطين، فهو خيرٌ من آدم، وكيف يسجدُ الفاضلُ للمفضول؟.

هذا هو الاستكبارُ الذي دفعَ إبليسَ إلى العصيانِ والكفر، لم ينظرْ للأمرِ على أنه تكليفٌ من الله، وأنَّ اللهَ هو الحكيمُ العليم، يختارُ الخير، ويأمرُ بالصواب، وبما أنه أمرَ إبليسَ أن يسجدَ لآدم، فإنَّ هذا هو الصواب!.

و(إبليسُ) هو اسمُ ذلكَ المخلوق الجني، الذي كانَ أولَ من كفرَ بالله من الخلقِ أجمعين، فاستحقَّ لعنةَ الله إلى يومِ الدين، وكانَ إمامَ الكفارِ وقائدَهم.

وذهبَ بعضُ العلماءِ إلى أنَّ (إبليس) اسمٌ عربيّ، مشتقٌّ من (الإبلاس)، وهو الحيرةُ والتردُّد، يُقال: أبلسَ فلان: إذا تحيَّر وتردَّد ولم يعرف بماذا يجيب!.

ولسنا مع هؤلاء، ونرى أنَّ (إبليسَ) اسمُ علمٍ أعجميّ، سُمّي به ذلك المخلوقُ الجنّي الكافر، وهو ممنوعٌ من الصرف، للعلميةِ والعجمة، مثلُه في ذلك مثلُ (آدم) الذي رجَّحنا أنه اسمُ علمٍ أعجمي، وليسَ عربياً مشتقاً. ولا صلةَ بين (إبليس) الأعجميّ وبين (الإبلاس) باللغةِ العربية، لأنه سُمّي بذلك الاسم قبلَ أنْ توجدَ اللغةُ العربية، وقبل أن يتكلم بها أول عربي!.

اسمه (إبليس) ووصْفُه (شيطان).

١٠ ـ الجن وإبليس والشيطان:

مصطلحاتٌ ثلاثةٌ قد لا يُحسنُ بعضُ الناسِ التفريقَ بينها، فيظنّونها مترادفةً بمعنى واحد، مع أنَّ بينها فروقاً ملحوظة.

الجنُّ وإبليسُ والشيطان، ما هو الفرقُ بينها؟.

(الجنُّ): اسمُ جنس، يُطلقُ على ذلك الصنفِ من المخلوقين، حيث خلقهم اللهُ من النار، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٤ ـ ١٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٦ ـ ٢٧].

ونارُ السَّموم هي النارُ الحارة، شديدةُ الحرارة.

ومارجُ النارِ هو آخرُ جزءٍ حارٍّ من لهيبِ النار، وأولُ جزءٍ من الدخان

الأسودِ المتصاعدِ من النار، ومزجُ هذين الجزأين وخلطُهما معاً.

وهذا ما أكّده رسول الله ﷺ، فقد روى مسلم [برقم: ٢٩٩٦] عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «خُلقت الملائكةُ من نور، وخُلقَ الجانُّ من مارجٍ من نار، وخُلقَ آدمُ مما وُصف لكم...».

ولأنَّ الجنَّ مخلوقون من (مارجٍ من نار) كانتْ طبيعتُهم ناريةً خفية!.

طبيعتُهم ناريةٌ بسببِ ذلك الجزءِ من لهيبِ النار الحار، وهي خفية (مستترة) بسببِ ذلك الجزءِ من الدخانِ الأسـود، ومعلومٌ أنَّ الدخانَ الأسودَ يحجبُ ما وراءَه ويستره.

الجنُّ المخلوقون من مارجِ النار، في مقابلِ الإنسِ المخلوقين من الطين، وهما الصنفان العاقلان المكلَّفان، اللذان يعيشان على وجهِ الأرض.

والجنُّ لهم عالمُهم الخاص، وحياتُهم الخاصة، ويتحرّكون معنا على الأرض، وهم يروننا، ونحنُ لا نراهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧].

والجنُّ المكلَّفون مثلنا، مأمورون بالإيمان بالله وحده، وعبادتِه وحده، ومنهم من أسلمَ واهتدى، ومنهم من تمرّدَ وكفر، مسلموهم في الجنةِ مثابون منعَّمون، وكافروهم في النارِ معذَّبون!.

قالَ تعالى عن الجنِّ المسلمين والجنِّ الكافرين: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٤ـ١٥].

ولهذا أعلنَ الجنُّ إيمانَهم لمّا سمعوا القرآن، كما وردَ في الآياتِ الأولى من سورةِ الجن. قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١ـ٢].

هذا عن عالمِ الجنِّ بقسميه: الجنِّ المسلمين والجنِّ الكافرين، مثل عالم الإنسِ بقسميه: الإنسِ المسلمين والإنسِ الكافرين.

وننتقلُ الآنَ للحديثِ عن المصطلحِ الثاني (إبليس):

إنَّ (إبليس) اسمُ علمٍ أعجمي، أُطلقَ على أولِ كافرٍ بالله، وهو من الجنّ، كما صرَّحَ القرآن: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾ [الكهف: ٥٠].

وهو مخلوقٌ من النار، باعترافِه، عندما قالَ لله: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف: ١٢].

و(إبليسُ) كانَ مخلوقاً قبلَ آدم، وكانَ مأموراً بالسجودِ لآدم، كباقي الملائكة، وكانَ في الجنة، ولما كفرَ وعصى طردَه اللهُ من الجنة، وأهبطَه إلى الأرضِ مع آدم، ولما طلبَ من اللهِ أنْ يبقيَه حياً إلى يومِ القيامة، أبقاهُ حياً إلى قربِ قيامِ الساعة، فهو من أطولِ المخلوقاتِ عمراً، لكنهُ سيموتُ قبلَ قيامِ الساعة، ثم يُبعثُ كباقي الإنسِ والجنِّ يومَ القيامة، ليعذَّب مع حزبِه الكفارِ في النار.

ولعلَّ (إبليس) هو أبو الجن، كما أنَّ (آدم) أبو الإنس، وهذا ما يمكنُ أن يُلحظَ من قصةِ آدمَ وإبليس، والإنس والجن.

آدمُ هو أولُ مخلوقٍ من البشر، ولما خلقَه اللهُ وجدَ إبليسَ أمامَه، خلقَه اللهُ قبلَه: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٢٦ وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٦ ـ ٢٧].

وإبليسُ كان في الجنة، والظاهرُ أنه لم يكنْ معهُ أحدٌ من الجنِّ في الجنة، وصارت العداوةُ في الجنة بين آدمَ أبي الإنسِ وإبليسَ أبي الجن، ولما أهبطهما الله إلى الأرضِ تناسلَ الإنسُ من آدم، وتناسلَ الجن من إبليس!.

وبما أنَّ الإنسانَ خليفةٌ في الأرض، كانَ آدم أبو الإنس نبياً مؤمناً، بينما كان إبليسُ أبو الجن شيطاناً! وذريةُ آدم من الإنسِ منهم المؤمنون ومنهم الكافرون، وذريةُ إبليسَ من الجنِّ منهم المؤمنون ومنهم الكافرون أيضاً!!.

أما (الشيطانُ) فإنَّه وصفٌ عام، وليسَ اسماً خاصاً، وهو مصطلحٌ عربي، مشتق، جذرُه الثلاثي (شطَنَ) ـ على الراجح ـ.

يُقالُ: شَطَن، يَشْطُن، شَطْناً. بمعنى ابتَعَد، والمكانُ الشَّطون: المكان البعيد.

والشيطانُ هو البعيدُ عن الإيمان، البعيدُ عن الخير، البعيدُ عن رحمةِ الله، وهو بهذا يكونُ قريباً من عذابِ الله، قريباً من الشر، قريباً من الكفر!.

والشيطانُ وصفٌ للذمّ، يُطلقُ على كلِّ كافر، مهما كانَ أصلُه، إنسياً أم جنياً!.

كلُّ كافرٍ شيطان، وبما أنَّ الكفارَ قسمان: كفارُ جنٍّ وكفارُ إنس، لذلك الشيطانُ يُطلَقُ على نوعين من الكفار: كافرُ الجنِّ شيطان، وكافرُ الإنسِ شيطان.

وبما أنَّ (إبليسَ) هو أولُ كافر، كانَ شيطاناً بهذا الاعتبار.

وهذا معناهُ أنَّ (الشيطان) وصفٌ عامٌّ يُطلقُ على أصنافٍ ثلاثة:

الأولُ: إبليسُ الذي هو من الجنّ، والذي هو أولُ كافر. وقد أُطلقَ عليه وصفُ (الشيطان) في صريحِ آياتِ القرآن. قال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦].

إذن أولُ كافرٍ اسمُه (إبليس)، ووصفُه (الشيطان).

الثاني: الجنيُّ الكافر: كلُّ كافرٍ من الجنِّ شيطان، لأنه وصفٌ يُطلقُ على كلِّ كافر.

الثالث: الإنسيُّ الكافر: كلُّ كافرٍ من الإنسِ شيطان، سواءٌ كان يهودياً أم نصرانياً أم مجوسياً أم ملحداً.

والدليلُ على أنَّ كلَّ كافرٍ من الإنس والجنِّ شيطانٌ آياتٌ من القرآن. قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

اعتبرت الآيةُ أعداءَ الأنبياءِ من الإنسِ والجنِّ شياطين، وهم الكافرون.

وقال تعالى في سورة الناس: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [سورة الناس].

اعتبرت السورةُ الوسواسَ الخناسَ ـ وهو الشيطان ـ صنفين: صنفاً من الجِنَّة ـ وهم الجن ـ وصنفاً من الناس: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾.

والخلاصةُ أنَّ إبليسَ من الجن، وهو قائدُ الكافرين من الإنسِ والجن، والشيطانُ وصْفٌ يُطلقُ على كلِّ كافرٍ من الإنسِ والجن، أما الجنُّ فليسوا كلُّهم

شياطين، الكافرون منهم شياطين، والمؤمنون منهم مثلُ مؤمني الإنس صالحون.

١١ ـ خلق آدم وحواء من النفس الواحدة:

خلقَ اللهُ (حواء) وجعلَها زوجاً لآدم، وأسكنها معه في الجنة، وقد عرفْنا أنَّ لآدم زوجاً في الجنةِ من خلال آياتِ القرآن. قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥].

ولم يَرِدْ اسمُ زوجه (حواء) في آياتِ القرآن، وإنما وردَ في حديثِ رسولِ اللهِ ﷺ. روى البخاري [برقم: ٣٣٣٠] عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «لولا بنو إسرائيل لم يَخْنَزِ اللحم، ولولا حواء لم تَخُنْ أُنثى زوجَها».

ومعنى (خَنَز اللحم): أنتنَ وفسدَ وتغيّر.

يدلُّ الحديثُ على أنّ بني إسرائيل كانوا أولَ من ادَّخر اللحم. ولعلَّ هذا كان بسببِ بخلهم، فالكرماءُ يأخذون حاجتَهم من اللحمِ الذي يذبحونه، وما زاد عن حاجتِهم يعطونَه لغيرهم!.

أما بنو إسرائيل فقد كانوا ـ بسببِ بخلهم ـ يدَّخرون اللحمَ للأيام القادمة، وبما أنه لم تتوفرْ لهم أدواتُ الحفظِ والتبريدِ المتوفرةِ للناس في هذا العصر، لذلك كانَ اللحمُ عندهم (يَخْنَزُ) وينتنُ ويفسد..

وليسَ المرادُ بالخيانةِ في قوله: «ولولا حواء لم تخن أنثى زوجَها» الخيانةَ في العرض، وارتكابَ فاحشةِ الزنا، فإنَّ (حواء) رضي الله عنها كانتْ منزَّهة عن الزنا، إنما المرادُ بالخيانة الخيانةُ في الدين والطاعة، وارتكابُ الذنبِ والمعصيةِ، بمعنى أنَّ معظمَ الزوجاتِ يكنَّ عوناً للشيطانِ على أزواجهن، ولهنَّ دورٌ كبيرٌ في تزيين المعصيةِ لهم، وحملهم عليها!!.

ولا يدلُّ الحديثُ على أنَّ (حواء) هي التي أعانتْ إبليسَ على زوجها آدم، وقامتْ بإغرائه ليأكلَ من الشجرة، كما تذكرُ ذلك الإسرائيليات، إنما يدلُّ على أنَّ جنسَ (حواء) ـ في الغالب ـ لهنَّ دورٌ في إغواءِ أزواجهن، وتزيين المعصيةِ لهم، وذكْرُ (حواء) في الحديثِ يُرادُ به أيُّ امرأة، ولا يُرادُ به أُمُّهنَّ (حواء) زوجُ آدم على وجه الخصوص!.

والراجحُ أنَّ اسمَ (حواء) أعجميّ وليس عربياً مشتقاً، كما قلنا في اسمي: آدمَ وإبليس، لأنَّ العربَ جاؤوا بعد حواء بفترةٍ طويلة.

ونتوقفُ الآنَ للحديثِ عن النفسِ الواحدة، التي خلقَ اللهُ منها آدمَ وحواء.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١].

ذهبَ كثيرٌ من المفسّرين إلى أنَّ المرادَ بالنفسِ الواحدةِ آدمُ عليه السلام، والمرادَ بزوجِها حواء. أيْ: أنَّ اللهَ خلقَ حواءَ من نفسِ آدم.

واعتمدوا على حديثٍ صحيحٍ لرسولِ الله ﷺ، وقالوا: خُلقتْ حواءُ من ضلعِ آدم.

روى البخاري [برقم: ٣٣٣١] ومسلم [برقم: ١٤٦٨] عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «استوصوا بالنساءِ خيراً، فإنَّ المرأةَ خُلقَتْ من ضلع، وإنَّ أعوجَ شيءٍ في الضلع أعلاه، فإنْ ذهبتَ تقيمُهُ كسرتَه، وإنْ تركتَه لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساءِ خيراً..».

اعتبروا الحديثَ صريحاً في خلقِ حواء من ضلعِ آدم، لأنه يقول: فإنَّ المرأةَ خُلقَتْ من ضلع، وإنَّ أعوجَ شيء في الضلع أعلاه، وأخذوا (الضلع) على ظاهرِه المادي، وقالوا: خُلقَتْ حواءُ من ضلعِ آدم حقيقة.

ولسنا مع هؤلاءِ العلماءِ في فهمهم للآيةِ والحديث، ولا نقولُ: إنَّ حواءَ خُلقتْ من ضلع آدم حقيقة، إنما نقول: خُلقتْ حواءُ من نفسِ الطبيعةِ الإنسانيةِ التي خُلقَ منها آدم، وتمثّلت الصفاتُ والخصائصُ الإنسانيةُ فيهما، مع الفروق بين الذكرِ والأنثى، البدنيةِ والنفسيةِ والعقلية!.

ليسَ المرادُ بالنفسِ الواحدةِ في الآية: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ آدمَ على وجهِ الخصوص، إنما المرادُ بها النفسُ الإنسانية الواحدة، التي جعلَها أساسَ الوجودِ الإنساني، المتمثلِ في الرجال والنساء، والتي (أبْدعَ) الرجالُ والنساءُ على أساسِها!.

النفسُ الواحدةُ في الآيةِ هي الكيانُ الإنساني، القائمُ على: الجسمِ والروحِ والعقل. وهذا متحقّقٌ في الذكر والأنثى، مع فروقٍ بينهما، ولكن هذه الفروق

الضروريةَ ليؤدي كلٌ منهما دورَه في الحياة، وهي لا تنفي عن كلٍّ منهما صفتَه الإنسانية، وطبيعتَه البشرية!.

هذه النفسُ الإنسانيةُ الواحدةُ كانت أمراً تكوينياً في علمِ الله، حيثُ أرادَ خلْقَ الإنسانِ على أساسِها، وجعْلَهُ خليفةً في الأرض، وبقيتْ أمراً تكوينياً في علمِ الله الغيبي، إلى أن أرادَ اللهُ إيجادَها في عالم الواقع، فخلقَ (آدم) أبا البشرِ منها، أيْ: خلقَه وفقَ ذلك (الأنموذج) الإنسانيّ القائم على: الطينِ والروح: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ٧١ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾.

وبعدمَا خلقَ اللهُ الذكرَ من تلك النفسِ الإنسانيةِ الواحدة، خلقَ الأنثى حواء، وفقَ طبيعةِ وصفاتِ وخصائصِ النفسِ الواحدة، مما يتلاءَمُ مع طبيعةِ الأنثى وخصائصها: ﴿وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾!.

وهذا معناهُ أنَّ الرجلَ نفسٌ إنسانية سوية، في جسمِه وعقلِه وروحِه، وأنَّ المرأةَ نفسٌ إنسانيةٌ سوية، في جسمِها وعقلِها وروحِها!. وهذا فيه ما فيه من تكريمِ المرأةِ وتشريفها.

هذا هو المعنى التكريميُّ للمرأة، الذي تريدُ الآيةُ تقريرَه، وبخاصةٍ أنها الآيةُ الأولى من سورةِ النساءِ التي عرضتْ بعضَ الأحكامِ المتعلقةِ بالنساء.

إذن: لا تدلُّ الآيةُ دلالةً صريحةً على أنَّ حواءَ خُلقتْ من آدمَ خلقاً مادياً محسوساً!.

ولا يتكلمُ الحديثُ الصحيحُ السابقُ على أنَّ حواءَ خُلقتْ من ضلعِ آدم خلقاً مادياً محسوساً كذلك. إنما يتحدّث الحديثُ عن طبيعةِ المرأةِ الانفعالية، أية امرأة، ولهذا يوصي الرجالَ بالنساء.

إنَّ الحديثَ يقرِّرُ التركيبَ (العاطفي الانفعالي) للمرأة، حيثُ جعلَ اللهُ المرأةَ - على الغالب - عاطفيةً انفعاليةً مندفعة، وذلك لتحقّقَ وظيفتَها ورسالتَها في الحياة، تلك الرسالةُ القائمةُ على الاندفاعِ والعاطفة!.

المرأةُ - على الغالب - ليستْ متأنيةً في تفكيرها، بينما الرجلُ - على الغالب - يتصفُ بالتأنّي والموضوعية، لتحقيقِ رسالتِه في الحياة!.

ويعرضُ الحديثُ الصحيحُ الاندفاعَ والانفعالَ والعاطفةَ في المرأة في

صورةٍ مادية، لتقريبِ المعنى وتوضيحِه، يعرضُه في صورةِ (ضلَع)! ومعلومٌ أنَّ الضلعَ أعـوج، وأنَّ أعـوجَ ما فيـهِ أعلاه، ويسـتحيلُ تقويمُ هـذا الضلع وإزالةُ اعوجاجِه، ومَنْ أرادَ ذلك فسوفَ يكسرُه!.

والمرأةُ في طبيعتِها النفسيةِ والعاطفيةِ هكذا، فلا تستطيعُ المرأةُ أنْ تكونَ موضوعيـةً ـ في الغالبِ ـ ولا يستطيعُ الرجلُ أن يقضي على انفعالها السـريع، وعاطفتِها المندفعة، وإنْ حاولَ ذلك فسوفَ يطلّقها ويفارقها، ولذلك عليه أنْ يقبلَ بها كمـا هي، وأنْ يرضاهـا بطبيعتِها الانفعاليـةِ العاطفية، التي خلقَها اللهُ عليها!!.

فـالضلعُ الـواردُ في الحديثِ ليسَ ضلعَ آدم ـ على ما نرجِّحه ـ وإنما هو لتصويرِ العاطفةِ والاندفاع في طبيعةِ المرأة.

وبهذا الفهمِ للآيةِ والحديث، لا نجدُ فيهما تصريحاً بخلْقِ حواءَ من ضلعِ آدم..

وتبقى كيفيةُ خلقِ حواءَ من (مبهماتِ القرآن) التي لم يبينْها، ولا يمكنُ أنْ نعلمَ عنها شيئاً، لسكوتِ الآياتِ والأحاديثِ عنها.

كلُّ ما نقولُه حولَ خلقِ حواء: خلقَها اللهُ من الطبيعةِ الإنسانيةِ الواحدة، التي خلَقَ منها آدمَ قبلَها، وجعلَها زوجـاً له في الجنـة، ولما أهبطَهما إلى الأرضِ عاشرَها وأنجبَ منها البنينَ والبنات!.

١٢ ـ توجيه نهي آدم وحواء عن الاقتراب من الشجرة:

أسكنَ اللهُ آدمَ وحواءَ في الجنة، وأباحَ لهما أنْ يأكُلا منها رغداً، من حيثُ شاءا، ونهاهما عن الاقتراب ـ والأكل ـ من شجرةٍ معينةٍ من أشجارِها. قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥].

ومعنى قوله: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾: كُلا منها أكلاً هنيئاً رغيداً، فهو كثيرٌ ميسور، كلُّ أشجارِ الجنةِ يُباحُ لكما الأكلُ منها إلا شجرةً واحدة فقط!.

وقالَ تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٩].

نهاهما اللهُ عن شجرةٍ معينةٍ من أشجارِ الجنةِ الكثيرة، واعتبرَ الاقترابَ منها ظلماً، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وقد يتساءلُ بعضُهم: ما هذه الشجرةُ التي نهاهما الله عن الاقتراب منها؟.

إنَّ نصوصَ القرآنِ والحديثِ الصحيح لا تحددُ لنا تلك الشجرة، ولا تعيّنُها، وإنما تُبقيها مبهمة.. ونحنُ مطالَبون أنْ نُبقيها على إبهامها، ولا نَذهبُ إلى الإسرائيليات في تحديدها.

كلُّ ما نقولُه بشأنها: كانت شجرةً معينةً من أشجارِ الجنة الكثيرة، عرفَها آدم وحواء، وحرصا على عدمِ الاقتراب منها، أو الأكلِ منها، ولا يضرُّنا نحنُ الجهلُ بها.

وقد يتساءلُ بعضُهم تساؤلاً آخر: لماذا نهاهما الله عن الاقترابِ أو الأكلِ من تلك الشجرة؟ وما هي الأضرارُ المترتبةُ عليهما من الأكلِ من الشجرة؟ وطالما أنهما كانا في الجنةِ فهل في الجنةِ تكليفٌ ومحظورٌ وممنوع؟ ما حكمةُ ذلك؟.

بدايةً نقررُ أنَّ اللهَ حكيمٌ في كلِّ ما يفعل، وفعلُه هو الصواب، ونهيُه لهما عن تلك الشجرةِ مرتبطٌ مع حكمتِه سبحانه!.

صحيحٌ أنَّ الجنةَ دارُ نعيم، وأنه ليسَ فيها تكليفٌ أو محظور، هذا على الحالةِ العامةِ العادية، ولكن لهذه الحالةِ العامةِ تخصيص، ولهذه القاعدةِ استثناء. فتكليفُ اللهِ لهما بعدمِ الاقترابِ أو الأكلِ من الشجرةِ استثناءٌ من القاعدة، ومسألةٌ خاصةٌ لا تُعمم ولا يُقاس عليها.

ولعلَّ الحكمةَ من نهيهما عن ذلكَ تربوية، فآدمُ وحواءُ أساسُ البشرية، واللهُ يعلمُ أنه سيهبطُهما إلى الأرض، وسيخلقُ من نسلهما الكثيرَ من الرجال والنساء، وسيكلِّفُ الناسَ على الأرضِ بالتكاليفِ والمواثيق، وسيقولُ لهم: هذا حلالٌ فافعلوه، وهذا حرامٌ فاجتنبوه.

لعلَّ تكليفَ الأبوين آدمَ وحواءَ بذلك التكليفِ في الجنة كان لتقويةِ الإرادة البشرية، وشحذِ الهمةِ الإنسانية، للالتزامِ بشرعِ اللهِ وعهده، وكانَ هذا التكليفُ لهما تمهيداً وتهيئةً للتكاليفِ القادمة لذريتهما على الأرض!.

واللافتُ للنظرِ أنَّ اللهَ عندما أرادَ منعهما من الأكلِ من الشجرةِ نهاهما عن الاقترابِ من الشجرة، وليسَ عن الأكلِ منها، فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾.

إنَّ النهيَ عن الاقترابِ من الشجرةِ أبلغُ من النهيِ عن الأكل منها، لأنَّه يتضمنُ النهيَ عن الأكل وزيادة! إنه نهيٌ عن الطريقِ الذي يؤدّي إلى الأكل، لأنَّ الاقترابَ من الشجرةِ يغري بالأكل منها، ولذلك كانَ الامتناعُ عن الاقترابِ من الشجرةِ امتناعاً عن الأكلِ منها!.

وهذا هو المسمَّى في الإسلام (سدَّ الذرائع). أي: إغلاقُ الطرقِ التي توصلُ للجريمة، فعندما كان الإسلامُ يحرمُ الحرام، كانَ يُغلقُ كلَّ الطرقِ التي توصِلُ إليه! فلما حَرَّمَ الزنا مثلاً واعتبرَه فاحشةً كبرى، حَرَّمَ كلَّ ما يؤدّي إليه، كالتبرّجِ والاختلاط، والنظرةِ والقُبلةِ والمصافحة!.

ولذلك عندما أرادَ اللهُ منعَ آدمَ وحواءَ من الأكلِ من الشجرة نهاهما عن الاقترابِ منها، من بابِ تربيتِهما وتقويةِ إرادتِهما، وتهيئتِهما للتكاليفِ بعد ذلك.

١٣ ـ لماذا أكلا من الشجرة رغم نهيهما عن ذلك؟:

نهى اللهُ آدمَ وحواءَ عن الاقتراب من الشجرة، وحذَّرهما من عداوةِ إبليس لهما، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٦ ـ ١١٧].

والمعنى: إنَّ إبليسَ عدوٌّ لك ولزوجك حواء، فاحْذَرا منه، وإياكما أنْ تستجيبا لوساوسه، فإنه لا يريدُ الخيرَ لكما، وإنما يريدُ إخراجَكما من الجنة.

والتزمَ آدمُ وحواءُ بالنهي، وأكلا من أشجارِ الجنةِ الكثيرة، وابتعدا عن الشجرةِ المحرمة.

وحَذِرا من إبليس، ونظرا إليه باعتبارِه عدواً يريدُ إخراجَهما من الجنة.. واستمرَّا على هذا فترةً من الزمن!!.

ولكنَّ إبليسَ لم يتركْهما، وحرصَ على فتنتِهما وإغوائِهما وإيقاعِهما في المحظور. وأرادَ أنْ يأكلا من الشجرةِ ليغضبَ اللهُ عليهما!.

وسوسَ إبليسُ لهما، ولكنهما كانا منتبهين له، متذكّرين لعداوتِه، ولكنَّ اللعينَ لم ييأس منهما، واستمرَّ بالوسوسةِ مراتٍ ومرات، وفي النهايةِ نسيا الأمر، ووقعا في المحظور، وأكلا من الشجرة.

لماذا استجابا له، رغمَ معرفتِهما بعداوته؟ ولماذا أكلا من الشجرةِ رغم علمهما بالنهيِ؟ أجابتْ على ذلكَ آياتُ سورةِ الأعراف.

قال تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ [الأعراف: ٢٠ ـ ٢٢].

كلمةُ (وسوس) تدلُّ على استمرارِ محاولاتِ إبليسَ لإغرائهما، وهذا معناهُ أنهما لم يستجيبا له منذُ أول محاولة.

رغَّبهما إبليس في الأكلِ من الشجرةِ المحرمة، وشكّكهما في صوابِ نهي الله لهما: ﴿ وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴾.

خاطبَ إبليسُ في آدمَ وحواءَ (غريزة)، جعلَها اللهُ أصليةً في النفسِ الإنسانية لتحقيقِ الخلافةِ في الأرض، هي غريزةُ التملك، والرغبةُ في الخلود: ﴿ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴾.

وقالَ لآدمَ ما أخبرَ اللهُ عنهُ في آية أخرى. قال تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ [طه: ١٢٠].

كلُّ إنسانٍ مفطورٌ على الرغبةِ في الخلد: ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ ﴾.

وكلُّ إنسانٍ مفطورٌ على الرغبةِ في التملك: ﴿ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾.

ولذلكَ طرقَ إبليسُ على هاتيْنِ الرغبتيْنِ في فطرةِ آدمَ وحواء، وأغراهما بإرشادِهما إلى الطريقةِ المضمونةِ للتملك والخلود.

وكانَ إبليسُ كاذباً في وسوسته وتزيينه، فالإنسانُ لا يمكنُ أنْ يملكَ ملكاً لا يبلى، ومهما مَلكَ فإنَّ ملكه إلى زوال، وكتبَ اللهُ على الإنسانِ الموت، ولا يمكنُ أن تُخلّدَ حياتُه في هذه الدنيا!.

وكانَ إبليسُ يتهمُ اللهَ في نهيه لهما: ﴿ وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴾.

أيْ: اللهُ لا يريدُ لكما الخيرَ عندما نهاكما عن الأكلِ من الشجرة، ومصلحتُكما في الأكل من الشجرة! واللهُ يخشى منكما إنْ أكلتما من الشجرة، فإنْ أكلتما منها تحقق لكما الملكُ الدائمُ والخلودُ الأبدي! وهذا ما لا يريدُه اللهُ لكما، ولذلك نهاكما عنه، وعليكما أنْ تأكلا منها لتنالا الخيرَ كلَّه!!.

وهذا كفرٌ منهُ بالله، واتهامٌ له بقدرِه وفعلِه، وخوفِه من آدم وحواء، مع أنه اللهُ القويُّ القادرُ الحكيمُ سبحانه!!.

ومع هذا الإغراءِ منه لهما، إلا أنهما بقيا حذرَيْن منه، متذكّرَيْن لعداوته، فلم يُصدِّقاه، ولم يَستجيبا له.

وهنا لجأ إبليسُ إلى حيلةٍ شيطانيةٍ خبيثةٍ ماكرة، وهي التي أخبرَنا اللهُ عنها في قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

ومعنى (قاسمهما): حلفَ لهما اليمين، وأقسمَ لهما باللهِ إنه لصادقٌ في قوله، ناصحٌ لهما في كلامه! قال لهما: أقسمُ لكما بالله إنني ناصحٌ لكما، أريدُ الخيرَ بكما، وأدلكما على طريقِ التملُّكِ والخلود!.

هذا هو السببُ الذي دفعهما إلى الأكلِ من الشجرة! إنه يمينُ إبليس!.

ولعلَّ هذا اليمينَ هو أولُ يمينٍ كاذبٍ في الوجود، لأنَّ الملائكةَ لا يُقسمون بالله، وإبليس هو أبو الجن، ولم يكن أولادُه من الجن موجودين، وآدمُ وحواء وحدَهما في الجنة!.

ولذلك لما سمعَ آدمُ وحواءُ يمينَ إبليسَ نسيا عهدَ الله، أو أحسنا الظنّ بكلام إبليسَ بعدَ يمينِه! ولعلهما لم يكونا يتوقّعان أنْ يصلَ المكرُ والخبثُ بإبليس إلى أنْ يحلفَ لهما كاذباً، أما وقد حلفَ بالله، فقد توقّعا أنْ يكونَ صادقاً هذه المرة، لأنه أقسم بالله!.

ولهذا علّقت الآيةُ على قَسَمِ إبليس بقولها: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾.

ومعنى هذه الجملة أنَّ إبليسَ دلّى آدمَ وحواء، وأنزلَهما عن المنزلةِ العالية التي جعلَها الله لهما في الجنة، إلى منزلةٍ أدنى، حيثُ أهبطهما اللهُ إلى الأرض! وهذه هي التدليةُ التي دلاّهما إبليسُ إليها!!.

والباءُ في قوله: (بغرور) هي باءُ السببية، أي أنَّ إبليسَ أغواهما ودلاَّهما وأزلَّهما بسببِ غرورِه وخداعِه، ومكرِه وخبثِه، وذلك عندما أقسمَ لهما اليمين، فصدَّقاه..

لقد أكلا من الشجرةِ ناسيَيْن عهدَ الله، بسببِ يمينِ إبليس لهما أنّه صادقٌ مخلص..

١٤ ـ كيف وسوس إبليس لهما رغم إخراجه من الجنة؟:

لما رفضَ إبليسُ السجودَ لآدمَ متكبراً، لعنَه الله، وأمرَه بالخروجِ من الجنة، وأباحَ لآدمَ وحواءَ الأكلَ من أشجار الجنة، إلا شجرةً واحدةً معينة، وحذَّرهما من عداوةِ إبليس، لكن إبليسَ وسوسَ لهما، وما زالَ بهما إلى أنْ أخرجَهما من الجنة.

والسؤالُ الذي يُثارُ هنا: كيف وسوسَ إبليسُ لآدمَ وحواء، مع أنَّ اللهَ أخرجَه من الجنة؟ وهل أعادَه اللهُ إليها بعدَ أنْ أخرجَه منها؟ أم أنَّ إبليس دخلَ الجنةَ (متسللاً) بعدَ أن غافلَ الملائكة! ولم يعلم الله به!!!.

الغريبُ أنَّ بعضَ المفسّرين والإخباريّين قالوا بالقولِ الأخير! وأخذوا هذه الخرافاتِ من الإسرائيليات، وزعموا أنَّ اللهَ أخرجَ إبليسَ من الجنة، لكنّه دخلَها بعدَ ذلك (متسلّلاً) مغافلاً حرّاسها من الملائكة، وأنَّ (الحية) هي التي أخفته في بطنِها وأدخلته، دونَ أن يتنبهَ لها الملائكة!!.

ويستغربُ الباحثُ من إيرادِ هذه الخرافاتِ الإسرائيليةِ إلى التفاسير، وتفسيرِ آياتِ القرآنِ بها، مع أنّها أكاذيب تتصادمُ مع عقيدتنا!.

ونعتقدُ أنَّ المسألةَ سهلة، وأنَّ توجيهَها سهلٌ ميسور، من خلالِ آياتِ القرآن.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ

﴿أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ١١ ـ ٢١].

لقد أوردْنا هذه الآياتِ من سورةِ الأعرافِ لنفهمَ منها متى تمَّت وسوسةُ إبليس لهما.

تكرَّرَ الأمرُ بإخراجِ إبليسَ من الجنةِ في آيتيْن من هذه الآيات: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾. و﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾.

والمذءومُ هو المذموم. والذأمُ هو الذمّ. أي: أُخرُجْ يا إبليسُ من الجنة، مذموماً ملعوناً مطروداً رجيماً. قال تعالى: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [سورة صَ: ٧٧ ـ ٧٨].

ولا يلزمُ من أمرِ الله بإخراجِ إبليسَ من الجنةِ أنْ يكونَ إخراجُه منها فوراً، بعدَ صدورِ الأمرِ من الله مباشرة، لأنَّ هذا يتعارضُ مع كونِ إبليسَ في الجنةِ بعد ذلك، ووسوستِه لآدمَ وحواءَ بعد ذلك، وكلامِه معهما، وحلفِه اليمينَ بالله لهما، هذا كلُّهُ يستلزمُ أنْ يكونَ إبليسُ معهما في الجنة! وإذا أُخرِجَ منها فإنّه لا يُعاد إليها، ولا يدخلُها بعد ذلك!.

الذي نقولُـه في حَلِّ هذا الإشكال، وتوجيـهِ هذا الأمر، هو أنَّ اللهَ أمَرَ بإخراجِ إبليسَ من الجنةِ مذءوماً مذموماً، رجيماً ملعوناً مطروداً، وهذا الأمرُ من الله صدرَ بعدَ تمرُّدِ إبليسَ وعدمِ سجودِه لآدم مباشرة!.

لكنَّ اللهَ شاءَ بحكمتِه أنْ يؤجِّلَ إخراجَه من الجنةِ فعلاً إلى فترةٍ من الزمن، ليتحقَّقَ قدرُه سبحانه!!.

حكمَ اللهُ على إبليسَ بالخروجِ من الجنة، وأخَّرَ إخراجَه، فبقيَ إبليسُ في الجنةِ إلى حينِ تنفيذِ الإخراجِ والطرد، وهو يعلمُ أنه سيخرجُ ملعوناً، وفي هذه الفترة كان آدمُ وحواء عدوّاه اللدودان يعيشان في الجنة، يأكلان من أشجارِها، فوسوسَ لهما وزيَّنَ لهما الأكلَ من الشجرة، وبعدما تمَّ المحظور، أهبطَ اللهُ

الثلاثةَ من الجنةِ إلى الأرض، وبهذا تمَّ تنفيذُ أمرِ الله بإخراجِ إبليسَ من الجنة.

وبهذا نرى أنه كانتْ هناكَ فترةٌ من الزمن - لا يعلمُ مدَّتَها إلا الله - بين الحكمِ على إبليسَ بالطردِ والإخراجِ من الجنة، وبين إخراجِه منها فعلاً، وفي هذه الفترةِ من الانتظارِ وسوسَ لآدمَ وحواءَ فأكلا من الشجرة! وشاءَ اللهُ بحكمتِه أنْ يؤخِّرَ الإخراجَ والطردَ فعلاً، لينفِّذَ قَدَرَه سبحانه بإهباطِ آدمَ وحواءَ وإبليس إلى الأرض!

ومن بـابِ تقريبِ هذا التوجيهِ للذهن، نقدِّمُ هذا المثـال: قد يكونُ أحدُ الأشـخاصِ موقوفاً في السجن، ثم يُقدَّم إلى المحاكمـة، وفي آخرِ سـاعةٍ من ساعاتِ دوامِ المحكمةِ يُصدرُ القاضي حكمَه ببراءته، ومن ثم يصدرُ أمرَه بالإفراجِ عنـه! ولكنْ لا يمكنُ تنفيذُ أمرِ القاضي بالإفراجِ عنه لانتهاءِ الدوامِ الرسـمي، فيبيتُ البريءُ في السجنِ ليلةً أخرى، إلى أنْ تتمَّ إجراءاتُ الإفراجِ عنه في صباحِ اليومِ التالي!.

على ضوءِ هذا المثالِ نُحسنُ فهمَ وتوجيهَ مسألةِ وسوسةِ إبليسَ لآدمَ وحواءَ بعدَ الأمرِ بإخراجِه من الجنة، ونجعلُ فترةً زمنيةً بينَ الحكمِ عليهِ بالإخراج، وبين تنفيذِ ذلكَ الإخراج فعلاً، واللهُ تعالى أعلم.

١٥ - توجيه ظهور سوءاتهما بعد الأكل من الشجرة:

بعدما أقسمَ إبليسُ لآدمَ وحواءَ بالله أنه لهما ناصح، نسيا عهدَ الله، وأكلا من الشـجرة، ولم يُفصِّل القرآن كيفيةَ أكلهما من الشجرة، ولا نـوعَ الثمرةِ التي أكلاها، إنما ذكرَ القرآنُ ما نتجَ عن الأكلِ مباشرة، وهو بُدُوُّ سوءاتهما لهما.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ [طه: ١٢١].

وسياقُ الآيتيْن على أنَّ ظهورَ سوءاتِهما لهما كانَ بعدَ الأكل مباشرة، حيثُ عبَّرتْ آيةُ سورةِ الأعرافِ عن ذلك بالجملةِ الشرطية: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ إذ رُتِّبَ جوابُ الشرط: ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ على فعل الشرط: ﴿ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾، فبمجرَّد أنْ ذاقا الشجرة، ودخلتْ ثمرتُها البطن، بدَتْ لهما السوءات فوراً.

وعبَّرتْ آيةُ سورة طه عن ذلك بفاءِ الترتيبِ مع التعقيب: ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا ﴾.

واللهُ حكيمٌ في قَدَرِه وإرادته، حيثُ شاءَ سبحانه أنْ يكونَ ظهورُ السوءاتِ لهما مبنياً على الأكل من الشجرة، ولا نعرفُ السببَ الذي جعلَ الثمرةَ التي أكلاها سبباً لظهورِ السوءات، ولا دورَ تلك الثمرة (البيولوجي) في ظهورِ السوءات، لأنَّ اللهَ لم يخبرْنا بذلك! كلُّ ما نقوله: إنَّ اللهَ الحكيمَ هو الذي أرادَ هذا وشاءَه، وجعلَ الأكلَ سبباً لبدوِّ السوءات، فتمَّ ذلك كما أرادَ الله!!.

ما هي تلك السوءات؟ وكيف بدَتْ لهما بمجردِ أكلهِما من الشجرة؟ وأين كانتْ تلك السوءات قبلَ أكلهما؟ هل كانتْ مغطاةً بالشعر فتساقط بسبب الأكل وبدت السوءات، أم كانت مغطاةً بشيءٍ آخر فزالَ الغطاءُ بسبب الأكل؟ أم كانتْ كامنةً في داخلِ الجسمِ فظهرتْ وبرزتْ بعدَ الأكلِ مباشرة؟!.

لم تقدِّم آياتُ القرآنِ إجاباتٍ على هذه التساؤلات، ولم يحاول الصحابةُ البحثَ فيها، أو سؤالَ رسولِ الله ﷺ عنها! وغيرُ مقبول - في منهج البحث الإسلاميِّ العلمي - ذهابُ بعضِ المفسرين والإخباريين إلى الإسرائيلياتِ والخرافاتِ لأخذِ تلكَ الإجابات!.

وبما أننا لا نملكُ نصوصاً معتمدةً في توجيهِ ذلك، فإننا نحاولُ توجيهَه بالاجتهادِ والنظر، وتقديم ذلك من بابِ الاستئناس.

إنَّ قولَه تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا ﴾ يشيرُ إلى أنَّ هذه السوءات كانت موجودةً عندهما قبل أكلهما من الشجرة، ولكنهما لم يلتفتا لها، ولم يُفكرا فيها. أي: لم يعرفا أنها سوءات. فلما ذاقا الشجرة، بدتْ لهما هذه السوءات. أي: ظهرتْ لهما باعتبارِها سوءات، فصارا يعرفان أنها سوءات، وأنَّ كشفَها عيب، ولهذا صارا يسترانها بورقِ الجنة!.

نرجحُ أنَّ السوءاتِ كانت موجودةً قبل أكلهما من الشجرة، لكنهما لم يعرفا أنها سوءات كشفها عيبٌ إلا بعدَ أكلهما من الشجرة، وهذا ما نلحظهُ من جملةِ ﴿ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا ﴾.

إن السوءاتِ بدتْ لهما، وهذا معناه أنها كانت موجودة، لكنها ظهرتْ لهما على أنها سوءات، يسوؤُهم كشفُها.

وحتى نُقربَ هذا الفهمَ لبدوِّ السوءات لهما نتذكرُ حالةَ الطفلِ الصغير!.

فالطفلُ في سنواتِ عمره الأولى، قد يمشي عارياً بدونِ خجل، وقد يكشفُ عن سوأته أمامَ غيره بدونِ تحرُّج! وهو لا يفعلُ ذلك وقاحةً أو قلةَ حياء، لكنّه لا يعرفُ أنها سوأة، وأنَّ لها وظيفةً جنسية، ترتبطُ باللذة والشهوة، وأنَّ كشفَها عيب!

إن أعضاءَ الطفل التناسليةِ موجودةٌ في جسمه، لكنها لم تبدُ له على أنها سوأة، ولم ينظرْ لها باعتبارِها عورة!.

وعندما يكبرُ هذا الطفل، ويصيرُ شاباً، يعرفُ أنَّ أعضاءَه التناسليةَ سوأةٌ وعورة، وأنَّ لها وظيفةً جنسية، عند ذلك يحرصُ على سترِها وتغطيتها، وعند ذلك يقال: بدتْ له سوأتُه! أي: صارَ يعرفُ أنها سوأة، مع أنها موجودةٌ في جسمِه منذُ ولادته، ولكنه لم ينتبه لها في طفولته!.

لعلَّ هذا ما جرى لآدمَ وحواء، بعد أكلهما من الشجرة، فسوءاتُهما موجودةٌ قبلَ الأكل، كوجودِ سوأةِ الطفلِ الصغير، لكنْ لم يكونا يعرفان أنها سوءات، كما لم يعرف الطفلُ الصغير!.

ويبدو أنَّ (استيقاظ) رغباتِهما ونوازعِهما وشهواتهما، ترتَّبَ على أكلهما من الشجرة، فبدتْ لهما سوءاتُهما بُدُوّاً نفسياً وجنسياً، فعرفا أنها سوءات، وأن كشفَها عيب. لذلك سارعا بتغطيتها مباشرة، بأنْ صارا يَقْطعان من أوراقِ أشجارِ الجنة، ويُلصقانه على سوءاتهما، حتى لا يرياها، ولا يراها أحدٌ آخر!.

هذا ما نفهمُه من الآية، وهو رأيٌ نسجلُه، وفهمٌ نقدمُه، وتوجيهٌ نقومُ به!. والله تعالى أعلم.

١٦ ـ آدم عصى ربه:

لما وقع آدمُ وحواءُ في المحظورِ لامهما الله على مخالفتِهما. قال تعالى: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢].

أيْ: لماذا أكلتُما من الشجرة؟ لقد نهيتكما عن ذلك نهياً صريحاً، وحذَّرتكما من عداوةِ الشيطان لكما! فلماذا استجبتُما لوسوسته؟.

وقد عرفَ آدمُ وحواءُ أنهما وقعا في المخالفة، وارتكبا المحظور، ولذلك

سارعا بإعلانِ التوبةِ والاستغفار، وطلبا من اللهِ المغفرة، قال تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وعندما اعترفا بالذنب، وأعلنا التوبة، تابَ اللهُ عليهما، قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

هل ما صدرَ من آدمَ وحواءَ معصية أم لا؟.

هو في الظاهرِ معصية، لأنه مخالفةٌ للنهي الصريح: نهاهما اللهُ عن الاقترابِ من الشجرةِ والأكلِ منها، ولكنهما خالَفا النهيَ الصريح، وأكلا من الشجرة! فماذا نُسمي هذا؟ ألا نُسميه معصية؟.

لقد سماهُ القرآنُ معصية. قال تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢١ـ١٢٢].

عصى آدمُ ربَّه بأكلِهِ من الشجرة، وبهذه المعصيةِ غوى وفسدتْ معيشتُه، لأنَّ اللهَ سينزلُه إلى الأرض، حيثُ التعبُ والنصبُ في الحياة.

وبعدَما عصى شعَرَ بالندمِ فتابَ إلى الله، فتابَ اللهُ عليه وغفرَ له، واجتباه وجعلَه نبياً.

ومع ذلكَ يبقى آدمُ عليه السلام خائفاً من فعلتِه، معترفاً بخطئِه، ويردُّ على الناسِ الذين يأتونَه يومَ القيامة، طالبين شفاعتَه، بخوفِه من الله.

روى البخاري [برقم: ٣٣٣٤] ومسلم [برقم: ١٦٤] عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في حديث الشفاعة الطويل: «.. يجمعُ اللهُ يومَ القيامةِ الأوّلينَ والآخرينَ في صعيدٍ واحد، فيَسمعُهم الدّاعي، ويَنفُذُهُم البصر، وتدنو الشمس، فيبلغُ الناسَ من الغمِّ والكربِ ما لا يُطيقون، وما لا يَحتملون.

فيقولُ بعضُ الناس لبعض: ألا ترونَ ما أنتم فيه؟ ألا ترونَ ما قد بلغكم؟ ألا ترونَ من يشفعُ لكم إلى ربكم؟.

فيقولُ بعضُ الناس لبعض: ائتوا آدم!.

فيأتون آدم، فيقولون: يا آدمُ: أنتَ أبو البشر، خلقكَ اللهُ بيده، ونفخَ فيك

من روحِه، وأمرَ الملائكةَ فسجدوا لك، اشفعْ لنا إلى ربِّك، ألا ترى ما نحنُ فيه؟ ألا ترى ما قد بلَغنا؟.

فيقولُ آدم: إنَّ ربِّي غضبَ اليومَ غضباً لم يغضبْ قبلَهُ مثله، ولن يغضبَ بعدَه مثله، وإنه نهاني عن الشجرة، فعصيتُه.. نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح..».

والشاهدُ في الحديثِ اعترافُ آدمَ عليه السلام بمعصيتِه، حيثُ أكلَ من الشجرةِ بعدَ أنْ نهاه الله!.

إذن ما فعلَهُ آدمُ وحواءُ في أكلهما من الشجرة كانَ معصية، بدليلِ قولِ الله عن آدم: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾، وقولِ آدمَ في الحديث: «.. فعصيتُه».

وهذه المعصيةُ استوجبتْ على آدم وحواء التوبة، لذلك سارعا بالتوبةِ والندمِ والاستغفارِ والاعترافِ بالمعصية وقالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

وأكرمهما اللهُ بأنْ غفرَ لهما وتابَ عليهما!.

١٧ ـ توجيه معصية آدم لربه:

عصى آدمُ ربَّه، بنصِّ القرآن، والوقفةُ الآنَ في توجيهِ معصيته!.

كيفَ عصى ربَّه وهو النبيّ؟.

لم تكنْ معصيةُ آدمَ في أكلِه من الشجرةِ عن عمد، بل كانتْ عن سهوٍ وغفلةٍ ونسيان، بدليلِ قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥].

وقد اختلفَ المفسرونَ في تفسيرِ هذه الآية، فذهبَ جمهورُهم إلى أن معناها هو: ولقد عهدنا إلى آدم، بأنْ نهيناهُ عن الأكلِ من الشجرة، وحذَّرناه من عداوةِ إبليس، لكنه نسيَ عهدَنا وتركه، واستجابَ لوسوسةِ الشيطان، وأكلَ من الشجرة، وبذلك لم نجدْ له عزماً وقصداً وإرادةً وصبراً، فلو كانَ يملكُ عزماً وعزيمةً وإرادةً لَحافظَ على العهدِ ولم يأكلْ من الشجرة!.

ولأنَّه فقدَ العزمَ والعزيمةَ فقد عصى ربه: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾.

ولسنا مع جمهورِ المفسرين في هذا التفسيرِ للآية.

الراجحُ أنَّ معناها عندنا هو: إخبارٌ من الله بأنه عَهِدَ إلى آدم، بأنْ نهاهُ عن الأكلِ من الشجرة، وحذَّرهُ من عداوةِ إبليسَ له، لكنَّ آدمَ نسيَ عهدَ الله له، ولم يتذكَّره، وكانَ هذا النسيانُ منه بعدَ أنْ أقسمَ له إبليسُ باللهِ أنه له ناصح، وأنه يريدُ مصلحتَه وإرشادَه إلى طريقِ الخلودِ والتملك، ولما نسيَ عهدَ الله ـ في هذا الجو ـ ولم يذكره أكلَ من الشجرة!.

ويخبرُنا اللهُ أنه أكلَ من الشجرة ناسياً، ولم يكن عازماً ولا عامداً ولا قاصداً. فمعنى ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾: لم نجدْ له قصداً ولا تصميماً على الأكلِ من الشجرة، ولم يعزم على الأكل، ولم يتعمَّد المخالفة، ولم يُصرَّ على ارتكابِ المحظور! لم نجد له عزماً على المخالفة، لأنه أكلَ من الشجرةِ ناسياً، والنسيانُ ينفي عنه القصد والتعمّد.

وفي الآيـةِ ـ على هذا الفهمِ والتفسير ـ توجيهٌ لمعصيةِ آدمَ في أكله من الشجرة، بأنه كانَ في حالةِ نسيان منه لعهدِ الله، وعدمِ تذكره، ولو كانَ ذاكراً لعهدِ اللهِ لما أكلَ من الشجرة! وهذا النسيانُ نفى عنه العزمَ والتعمّدَ والتصميم والإصرار.

وكـأنَّ جملةَ ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ توجيهٌ لأكلِ آدمَ من الشجرة، وتحليلٌ لذلك الفعل، سيقَ ليكونَ بمثابةِ اعتذارٍ له، وشهادةٍ له بأنه لم يتعمَّدْ ولم يقصدْ ولم يعزمْ على المخالفة.

والخلاصة: معصيةُ آدمَ في أكله من الشجرة معصيةُ ناسٍ وليستْ معصيةَ عازمٍ قاصدٍ عامد، وأكلُه منها كانَ في حالةِ نسيانٍ وعدمِ تذكُّر، وليسَ في حالةِ عمدٍ وعزمٍ وقصد!.

ولما تذكَّرَ آدمُ عهدَ اللهِ بعدَ الأكل ـ وكان ذلك بعدَ بُدُوِّ السوءات ـ عرفَ أنه خالفَ عهدَ الله، وأنه ارتكبَ المحظور، وأنه بذلك عصى، فسارعَ بالتوبةِ والإنابةِ والاستغفار، وطلبَ من اللهِ أنْ يغفرَ له، فتابَ اللهُ عليه وغفرَ له!.

وإذا كانَ اللهُ لا يؤاخذُ المسلمَ إذا عصاهُ وهو ناسٍ، ويعفو عنه لنسيانه، بشرطِ توبتِه واستغفارِه عندما يصحو ويتذكّر، فآدمُ أبو البشرِ أَوْلى أنْ لا يؤاخَذ، لأنَّ ما صدرَ عنه كان عن نسيان، وسارعَ بالتوبةِ والاستغفار!.

وعندما نجدُ للمسلمِ العذرَ عندما يخالفُ ويعصي ناسياً، فآدمُ أبو البشرِ أَوْلى بالإعذار.

انطبقَ على أبي البشرِ عليه السلام قولُه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

فبمجرَّدِ أن تذكَّرَ آدم، تابَ إلى الله، فتابَ اللهُ عليه: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

١٨ ـ ماهي الجنة التي جرت فيها أحداث قصة آدم؟:

قد يتساءلُ بعضُ الدارسين: ما هي الجنةُ التي جرتْ فيها أحداثُ قصةِ آدم عليه السلام؟ هل هي الجنةُ المعروفة، دارُ النعيم التي أعدَّها اللهُ للمتقين؟ أم هي جنةٌ أُخرى في مكانٍ آخر؟.

يذهبُ بعضُ العلماءِ إلى أنَّ الجنةَ التي جرتْ فيها تلك الأحداثُ المثيرةُ ليستْ هي دارَ النعيم، وإنما هي جنةٌ على الأرض، بستانٌ جميلٌ مليءٌ بالأشجارِ المثمرةِ على جبلٍ مرتفع، في مكانٍ ما على الأرض.

يقولون: خلقَ اللهُ آدم، ووضعَه في ذلك البستان (الجنة)، وأباحَ له الأكلَ من أشجارِ ذلك البستان، ونهاهُ عن شجرةٍ واحدةٍ فيه، وكانَ إبليسُ مقيماً في ذلك البستان، ووسوسَ لآدمَ وحواء، وأكلا من الشجرةِ المحرَّمة، وأهبطهما اللهُ من ذلكَ البستانِ في قمّة الجبل، وأنزلَهما إلى مكانٍ آخر منخفض!! فالأحداثُ كلُّها جرتْ على الأرض!!!.

ونفوا أنْ تكونَ الأحداثُ وقعتْ في الجنةِ دارِ النعيم، لأسبابٍ ذكروها، منها:

١ ـ كلَّف اللهُ آدمَ في الجنةِ تكليفاً، بأنْ منعَه من الأكلِ من الشجرة، والجنةُ دارُ النعيم ليستْ دار تكليف، وإنما هي دار جزاء وثواب، فكيفَ يكلِّفُ اللهُ آدمَ في دارِ النعيم؟ وكيفَ تكون أشياءٌ ممنوعةً في دار النعيم؟.

٢ ـ قامَ إبليسُ بالوسوسةِ والإغواء، وحلفَ اليمين الكاذبة، وهذه قبائح مرذولةٌ صدرتْ عن إبليس، ولا يجوزُ أن تقعَ في الجنةِ دارِ النعيم، ويجبُ أنْ تكونَ الجنةُ منزَّهةً عنها!.

٣ ـ عصى آدمُ وحواءُ في الجنةِ بأنْ أكلا من الشجرة، وعصى إبليسُ ربَّه قبلَهما بأنْ رفضَ أنْ يسجدَ لآدم، وكفرَ بذلك، ولا يجوزُ أن تقعَ هذه المعاصي في الجنةِ دارِ النعيم، فهي منزَّهةٌ عن المعاصي.

٤ ـ أخرجَ اللهُ آدمَ وحواءَ من الجنةِ بعدما أكلا من الشجرة، وأهبطهما إلى الأرض، ولو كانتْ هي دارَ النعيم لما أخرجَهما اللهُ منها، لأنَّ من دخلَها فإنه لا يخرجُ منها، وإنما يبقى فيها مخلداً.

لهذه الأسبابِ الأربعة ـ وغيرها ـ فإنَّ الأحداثَ المثيرةَ جَرَتْ على جنةٍ في الدنيا!.

ولسْنا مع هؤلاء الباحثين في ما ذهبوا إليه، ونرى أنَّ (الجنةَ) التي جرتْ فيها الأحداثُ هي الجنةُ المعهودةُ دارُ النعيم للمتقين.

ودليلُنا على ذلك ورودُ كلمة (الجنة) في عدةِ آياتٍ تحدَّثت عن قصةِ آدمَ في القرآن، و(الجنة) عند إطلاقها في القرآنِ تنصرفُ إلى الجنةِ المعهودةِ دارِ النعيم، ولا تُصرَفُ عنها إلى الجنةِ البستانِ في الدنيا إلا لقرينةٍ صارفة في الآيات، وهذه القرينةُ غيرُ موجودةٍ في آياتِ قصةِ آدم.

من ورودِ كلمةِ (الجنة) في القرآنِ بمعنى البستانِ المثمر، قولُه تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ [القلم: ١٧].

وقولُه تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

إنَّ السياقَ في هذه الآياتِ يُشيرُ إلى أنها (جنة) في الدنيا، فيها من الأشجارِ والثمار، والأغلبُ في ورودِ كلمةِ (الجنة) في القرآنِ أنَّ المرادَ بها الجنةُ دارُ النعيم للمتقين.

ولا محذورَ من وقوعِ أحداثِ قصةِ آدمَ في الجنةِ دارِ النعيم، والأسبابُ التي ذكرَها أصحابُ القولِ الآخرِ لا تقوى على ردِّ هذا القول!!.

إنَّ ما قالوه صحيح، لكن بالنسبةِ للجنةِ دار الجزاءِ يوم القيامة، فيومَ القيامة يُدخِلُ اللهُ المؤمنين الصالحين الجنةَ برحمته، لينعموا فيها جزاءً وثواباً لهم على صلاحِهم واستقامتِهم في الدنيا، ومن دخلَها فإنه لا يخرجُ منها، ولا يمكنُ أن تقعَ

فيها معصية، ولا تكليفَ فيها ولا ممنوعَ ولا محظور، فالمؤمنون منعَّمون فيها، يُباحُ لهم كلُّ ما فيها!.

يكونُ هذا في الجنةِ يومَ القيامة، مكافأةً وثواباً للمؤمنين، لكنْ هذا لا يمنعُ أنْ يكونَ في الجنةِ يومَ خلقَ اللهُ آدمَ ابتلاءٌ وامتحانٌ بالتكليف، وأنْ يكونَ فيها ممنوعات، وأنْ يكونَ فيها مخالفات، وأنْ تقعَ فيها معاصٍ، وأنْ يُخرجَ اللهُ مَنْ عصى منها.. وهو ما جرى من أحداثِ قصةِ آدم!.

لقد شاءَ اللهُ الحكيمُ أنْ يحدثَ هذا في الجنةِ دارِ النعيم، وقدَّر وقوعَه بحكمتِه سبحانه وتعالى، لينفُذَ قَدَرُه سبحانه، في إنزالِ الإنسانِ الخليفةِ إلى الأرض، أي أنَّ أحداثَ قصةِ آدمَ في الجنةِ دارِ النعيمِ حالةٌ خاصةٌ استثنائية، وقعَتْ بأمرِ اللهِ وحكمتِه وبقيتْ حالةً خاصةً لم تتكرَّر، ولم تحدثْ مرةً ثانية!.

فالراجحُ عندَنا أنَّ أحداثَ القصةِ وقعتْ في الجنةِ دارِ النعيمِ للمؤمنين الصالحين!!.

١٩ ـ احتجاج آدم وموسى عليهما السلام:

وجَّهنا أكلَ آدمَ عليه السلام من الشجرةِ ومعصيتِه، بأنَّهُ فعلَ ذلك ناسياً غير ذاكر، ولم يكنْ قاصداً ولا عازماً ولا متعمداً.

وحتى نُحسنَ فهمَ هذا الأمرِ المشكل، نستعرضُ حديثاً صحيحاً لرسولِ الله ﷺ، أخبرَ فيهِ عن حوارٍ وحجاجٍ جرى بين النبيَّيْن الكريميْن آدمَ وموسى عليهما السلام، بشأنِ أكلِ آدمَ من الشجرةِ وإنزالِه إلى الأرض.

روى أبو داود [برقم: ٤٧٠٤] ومالك [٢/٨٩٨] عن عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه، عن رسولِ الله ﷺ قال: «قالَ موسى: يا رب، أبونا آدم، أخرجَنا ونفْسَه من الجنة!.

فأراهُ اللهُ آدم. فقالَ: أنت آدم؟

فقالَ له: نعم!.

قال: أنتَ الذي نفخَ اللهُ فيكَ من روحه، وأسجدَ لكَ ملائكته، وعلَّمكَ الأسماء كلَّها؟

قال: نعم!.

قال: فما حمَلَكَ على أنْ أخرجْتَنا ونفسَك من الجنة؟.

فقال له آدم: مَنْ أنت؟

قال: أنا موسى.

قال: أنت موسى بني إسرائيل، الذي كلَّمَكَ اللهُ من وراءِ حجاب، فلم يجعلْ بينك وبينَهُ رسولاً من خَلْقِه؟

قال: نعم!.

قال: فتلومُني على أمرٍ قد سَبَقَ من اللهِ القضاءُ قَبْلي؟.

فقال رسول الله ﷺ عندَ ذلك: فحجَّ آدمُ موسى، فحجَّ آدمُ موسى».

وهناكَ روايةٌ أخرى لهذا الحديث، فقد روى البخاري [برقم: ٣٤٠٩] ومسلم [برقم: ٢٦٥٢] عن أبي هريرةَ رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ، قال: «حاجَّ موسى آدمَ عليهما السلام، فقالَ له: أنتَ الذي أخرجْتَ الناسَ بذنبِك من الجنةِ وأشقيتهم؟.

قال آدم: يا موسى: أنتَ الذي اصطفاكَ اللهُ برسالاتِه وبكلامه، أتلومني على أمرٍ قد كتبَه اللهُ عليَّ - أو قَدَّره عليَّ - قبلَ أنْ يخلقَني؟.

قال رسول الله ﷺ: فحجَّ آدمُ موسى».

أخبرَنا رسولُ الله ﷺ عن لومِ موسى لآدمَ عليهما السلام، لامَهُ على أكلِه من الشجرة، الذي ترتَّبَ عليه إخراجُه نفسَه وبَنيه من الجنة: «أنتَ الذي أخرجْتَ الناسَ بذنبِك من الجنةِ وأشقيتهم؟».

وقد ردَّ عليه آدمُ بقولِه: أتلومُني على أمر، قد كَتَبَهُ اللهُ عليَّ قبلَ أنْ يخلقَني؟

وكانتْ حُجَّةُ آدمَ أوضح، وردُّه على موسى أقوى، وشهدَ له رسولُ الله ﷺ بالغلبة، في قولِه: «فحجَّ آدمُ موسى».

اعتبرَ بعضُ العلماءِ أنَّ آدم حجَّ موسى، لأنَّ موسى لامَه على أكلِه من الشجرة، وهو الذنب الذي تابَ منه، فاحتجَّ عليهِ آدم، بأنَّ اللهَ قد كتبَ وقدَّر عليه الأكلَ من الشجرة، قبلَ أنْ يخلقه! فلماذا يلومُه موسى على ارتكابِ ذنبٍ قدَّره الله عليه! ثم تابَ منه، فتابَ اللهُ عليه؟ وبما أنه تابَ منه وتابَ اللهُ عليه فلا وجهَ للومه!

وللإمامِ الحافظِ ابن كثير فهمٌ وتعليلٌ طيبٌ لهذا، ذكرَه في كتابِ (قصص الأنبياء): [طبعة دار الخير بدمشق: ٣٦]. قال: «إنّه لامَه على إخراجِه نفسَه وذريّته من الجنة!.

فقالَ له آدم: أنا لم أُخرجكم، وإنّما أخرجكم اللهُ الذي رتَّب الإخراجَ على أكلي من الشجرة، وقد رتَّب اللهُ ذلك وكتبَه وقدَّره عليَّ، قبلَ أنْ أُخلَق، فأنتَ تلومني على أمر، ليسَ له نسبةٌ إليَّ أكثرَ من أني نُهيتُ عن الأكلِ من الشجرة، فأكلتُ منها، وكونُ الإخراجِ من الجنةِ مترتّباً على الأكل، ليسَ من فعلي، إنما هو من فعلِ الله! فأنا لم أُخرِجْكم ولا نفسي من الجنة، لأنّ هذا الإخراجَ كانَ من قَدَرِ اللهِ وصنعِه، وله الحكمةُ في ذلك..».

والخلاصةُ أنه إنْ كانَ لومُ موسى لآدم على أكلِه من الشجرةِ فلا معنى له، لأنَّ آدمَ أكلَ منها ناسياً، ولأنه تابَ منه، فتابَ اللهُ عليه، وإذا أذنبَ المسلمُ ذنباً ثم تابَ منه فلا وجهَ للومه، ولذلكَ حجَّ آدمُ موسى، وذكَّره بأنَّ اللهَ قدَّره عليه قبلَ خلقِه، وآدمُ لم يصرَّ على الذنبِ لأنَّ اللهَ قدَّره عليه، وإنما سارعَ بالتوبةِ منه!.

وإنْ كانَ لومُ موسى لآدم على إخراجه نفسَه وذريتَه من الجنة بسببِ الأكلِ من الشجرة، فلا معنى له أيضاً، لأن آدمَ ليسَ له إرادةٌ في الإخراجِ من الجنة، وإنما الإخراجُ كان بقَدَرٍ من الله وحكمتِه، فاللهُ رتَّب إخراجَ آدمَ من الجنةِ على أكلِه من الشجرة، ولذلكَ كانَ أكلُه من الشجرةِ سبباً لإخراجه، والمسببُ والمقدِّر هو الله، فلماذا يلومُ موسى آدمَ على شيءٍ لم يفعله؟ لأنه من فِعْلِ الله!!.

٢٠ ـ هل كان إنزال آدم إلى الأرض عقوبة له:

أمرَ اللهُ بإنزالِ آدمَ وحواءَ وإبليسَ من الجنةِ إلى الأرض، بعدما أكلَ من الشجرة، قال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٤ ـ ٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا

تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [طه: ١١٦ ـ ١٢٣].

كانَ آدمُ في الجنةِ في نعيم، لا يجوع ولا يعرى، ولا يظمأُ ولا يتأذّى بحرِّ الشمسِ وقتَ الضحى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾.

وهذا غيرُ متوفرٍ له على الأرض، فإنْ خرجَ من الجنةِ إلى الأرض فسوفَ يشقى ويكدُّ ويتعب: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾.

ولذلكَ أخبرَه اللهُ بأنَّ العداوةَ ستحكمُ العلاقةَ بينَه وبينَ إبليس، وبينَ معظم أفرادِ ذريته: ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾.

وهذا ما حصلَ بين اثنين من أبنائه، حيثُ عدا أحدُهما على أخيه الشقيق فقتلَه ظلماً وبغياً وعدواناً، مع أنَّ أباهما هو آدمُ عليه السلام.

وقد يتساءلُ بعضُهم: عصى آدمُ في أكلِه من الشجرةِ في الجنة، ثم أنزلَه الله بعدَ ذلك إلى الأرض، فهل كانَ إنزالُه إلى الأرض عقوبة له؟.

قد يجيبُ بعضُ العلماءِ على السؤالِ بالإيجاب، ويعلِّلون ذلك بأنَّ آدمَ عليه السلام عصى في أكلِه من الشجرة، وبذلك ظلمَ نفسَه باعترافه، ولامَه اللهُ على فعلِه ومعصيتِه، ثم عاقبَه بأنْ أنزلَه إلى الأرض، فلا مكانَ له في الجنةِ بعدَ معصيته، وحرمَ نفسَه من نعيمها بمخالفته، ومكانُه هو الأرض، حيثُ التَّعبُ والكدُّ والجوعُ والعطشُ والسعيُ والنَّصَب!!.

ولا نوافقُ هؤلاء على أنَّ إنزالَه من الجنةِ كانَ عقوبةً له، ونرى أنَّ اللهَ لم يعاقبْ آدمَ عليه السلام لأكلِه من الشجرة.

لم يعاقبْه لأنّه أكلَ من الشجرة ناسياً، ولم يكن عامداً أو عازماً أو قاصداً، والناسي لا يُعاقَب!!.

ولم يعاقبْه لأنَّه سارعَ بالتوبةِ والإنابةِ والاستغفار، فتابَ اللهُ عليه وغفرَ له، ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧] وكيفَ يعاقبُه

على فعلِه بعدَ أنْ رحمَه وغفرَ له وتابَ عليه؟ إنَّ معنى توبةِ الله عليه عدمُ مؤاخذتِه على ما صدرَ منه!.

وفرقٌ بين ما صدرَ من آدمَ وما صدرَ من إبليسَ قبلَه! إنَّ آدمَ سارعَ إلى التوبة والاستغفارِ بمجرَّدِ إحساسِه بمعصيتِه، ولم يبرِّر ذلك، كما أنه لم يستكبِرْ عن الندمِ والتوبة، ولذلكَ غفرَ اللهُ لهُ وتابَ عليه، ولم يعاقبْه على ما صدرَ منه!.

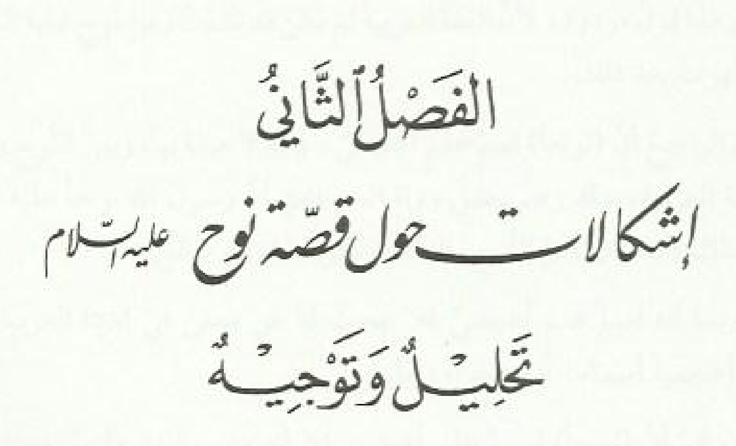
أما إبليسُ فإنه لم يعترفْ بذنبه، ولم يتراجعْ عن مخالفتِه، ولم يسارعْ إلى الندمِ والتوبةِ والاستغفار، وأصرَّ على مخالفتِه واستكبارِه، ولما سألَه عن سببِ عدمِ سجودِه تابعَ تكبُّرَه وافتخارَه، وقالَ له: أنا خيرٌ منه، خلقْتَني من نارٍ وخلقتَه من طين، وتابعَ إصرارَه على وسوستِه وإغوائِه لذريّةِ آدم، وإبعادِهم عن طريقِ الإيمان، وحدَّد رسالتَه في الحياةِ بإفسادِ الناس، وتعهَّدَ بذلكَ أمامَ الله!! ولذلكَ لعنَهُ اللهُ وغضبَ عليه، وطردَه من الجنةِ مذموماً مدحوراً، وأهبطَه إلى الأرضِ عقوبةً له!.

إذن كانَ إخراجُ إبليسَ من الجنةِ وإنزالِه إلى الأرضِ عقوبةً له، بينما لم يكن إخراجُ آدمَ من الجنةِ وإنزالِه إلى الأرضِ عقوبةً له، للتوجيهِ الذي قدَّمناه.

كانَ إخراجُ آدمَ من الجنةِ إلى الأرضِ تنفيذاً لإرادةِ اللهِ في جعلِه خليفةً في الأرض، فاللهُ شاءَ جعْلَ آدمَ خليفةً في الأرض، وأخبرَ الملائكةَ بذلك قبلَ خَلْقِ آدم، واللهُ شاءَ أنْ يمكثَ آدمُ فترةً في الجنة، يستمتعُ بنعيمِها، ثم تصدرُ منه المخالفةُ بأكلِه من الشجرة، واللهُ رتَّبَ إخراجَه من الجنةِ إلى الأرضِ على تلك المخالفة، لتنفيذِ إرادتِه، وتحقيقِ قَدَرِه..

إنَّ آدمَ مخلوقٌ ليكونَ خليفةً في الأرض، لا ليعيشَ في الجنةِ في تلك المرحلةِ من حياته، وحياتُه في الجنةِ مؤقتة، لا بدَّ أنْ ينزلَ بعدَها إلى الأرض، ليقومَ بواجبِه في الخلافة! وهذا بعيدٌ عن اعتبارِ إنزالِه من الجنةِ إلى الأرض عقوبةً له! والله أعلم.

* * *


الفَصْلُ الثَّانِي
إشكالات حول قصّة نوح عليه السلام
تَحلِيلٌ وتَوجِيهٌ

الفَصْلُ الثَّانِي

إشكالات حول قصّة نوح عليه السلام

تَحْلِيلٌ وَتَوْجِيهٌ

١ ـ نوح: اسم علم أعجمي:

(نوح): اسمُ علمٍ ثلاثي، أُطلِقَ على أوَّلِ رسولٍ أرسلَه اللهُ إلى الأرض.

وقد يذهبُ بعضُ الباحثين إلى أنَّ اسمَ (نوح) عربي، وأنه مشتقٌّ من (النَّوْح) وهو البكاء، يقالُ: ناحَ، ينوحُ، نوحاً، أي بكى بكاءً!.

وهذا قولٌ مردود، لأنَّ اللغةَ العربيةَ لم تكنْ قد نشأتْ زمنَ نوحٍ عليه السلام، وإنّما ظهرتْ بعد ذلك.

والراجحُ أنَّ (نوحاً) اسمُ علمٍ أعجميّ، وأنه لا صلةَ بينَه وبينَ النَّوح والبكاء في اللغةِ العربية، وقد زعمَ بعضُ رواةِ الخرافاتِ أنَّ رسولَ الله نوحاً عليه السلام سُمِّي بذلك لأنّه كانَ يُكثرُ النَّوح والبكاء، لكن هذا زعم باطل.

وبما أنه اسمُ علمٍ أعجميٌّ فلا نبحثُ لهُ عن معنى في لغتِنا العربية، كما رجَّحْنا أعجميةَ أسماء: آدم وحواء وإبليس.

ورغمَ أنَّ (نوحاً) اسمُ علمٍ أعجمي إلا أنه مصروف، وليسَ ممنوعاً من الصرف، مثل أسماء: آدم وحواء وإبليس وإبراهيم وإسماعيل، وغير ذلك.

والسببُ في عدم منعهِ من الصرفِ أنَّه ثلاثي ساكن الوسط، واسمُ العلمِ الأعجميّ إذا كان ثلاثياً ساكنَ الوسطِ يكونُ مصروفاً في الإعراب، مثل: نوح، ولوط.

٢ ـ كيف تحول قومه من التوحيد إلى الشرك؟:

نوحٌ عليه السلام هو أولُ رسولٍ أرسلَه اللهُ إلى الأرض، وقبلَه كانَ آدمُ أبو البشرِ عليه السلام أولَ نبيٍّ بعثَه اللهُ إلى أبنائه.

والراجحُ أنَّه لا يوجدُ أنبياءُ أو رسلٌ بين آدمَ ونوحٍ عليهما السلام، لعدمِ ورودِ ذلك صراحةً في القرآن والأحاديثِ الصحيحة. وما يذكرهُ بعضُهم عن نبوَّةِ (شيث) و(إدريس) بينهما ليسَ عليهِ دليلٌ من القرآن والسنّة.

ولا يوجدُ عندنا دليلٌ من القرآنِ والسنةِ على نبوّة (شيث) فنتوقّفُ في القولِ بذلك، لا ننفي ولا نثبت، أما (إدريس) عليه السلام فالراجحُ ـ من خلال القصص القرآني ـ أنه جاءَ نبياً رسولاً بعدَ إبراهيمَ عليه السلام، ولذلكَ نرجّح عدمَ وجودِ نبيٍّ أو رسولٍ بين آدمَ ونوحٍ عليهما السلام!.

وقد يوردُ بعضُ المؤرّخين والإخباريين أسماءَ آباء نوح، ويسجّلون سلسلةَ النسبِ بينَه وبينَ آدمَ عليهما السلام، والراجحُ أنَّ هذا ليس عليه دليلٌ عندنا، لعدم ورودِه في الآياتِ والأحاديثِ الصحيحة، وقد أخذَ الإخباريون سلسلةَ النسبِ من الإسرائيليات، ورواياتِ العهدِ القديم، وهذه لا تصلحُ أن تكونَ دليلاً مقبولاً في الإسلام!.

إننا لا نعرفُ أسماءَ آباء نوحٍ الذين بينَه وبين آدمَ عليهما السلام، كما أننا لا نعرفُ عددَهم، ولا يضرُّنا الجهلُ بذلك.

ولكننا نعرفُ أن الناسَ قبلَ قومِ نوحٍ كانوا مؤمنين بالله، موحدين له، ولم يكنْ بينهم مشركٌ أو كافر، وأولُ ما ظهرَ الكفرُ والشركُ في قوم نوح، ولذلكَ بعثَ اللهُ لهم نوحاً عليه السلام نبياً رسولاً!.

الإيمانُ والتوحيدُ أصيل، وهو أولُ ما وُجدَ على الأرض، وتحقّقَ في آدمَ عليه السلام وأولادِه وأحفاده، فكلُّهم كانوا موحّدين لله، والشركُ والكفرُ طارىءٌ شاذٌّ غريب، ظهرَ من بعضِ الناس بعد ذلك بفترة، وتحقّقَ وجودُه في قومِ نوح!.

هذه حقيقةٌ إسلامية، قرّرتها آياتُ القرآن، وأحاديثُ رسولِ الله ﷺ.

قالَ تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ٢١٣].

تقررُ الآياتُ أن الناسَ في بدايةِ تاريخ البشريةِ كانوا (أمةً واحدة)، مؤمنين

بالله، موحِّدين له، ثم جاءتْ أجيالٌ بعد ذلك، انقادوا للشيطان، وكفروا بالله، فبعثَ اللهُ لهم النبيّين مُبشّرين ومُنذرين، ليعيدوهم إلى الله، وأنزلَ معهم الكتاب بالحق، ليزيلَ الخلاف، ويحسمَ النزاع، وانقسمَ الناسُ إلى قسمين: قسمٌ آمنوا بالله، واهتدوا بكتابه، وقسمٌ أصرّوا على كفرِهم واتباعِهم للشيطان!.

روى مسلم [برقم: ٢٨٦٥] عن عياض بن حمار رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «ألا إنَّ ربي أمرني أن أُعلِّمكم ما جهلْتم مما علَّمني، يومي هذا: كل مالٍ نَحَلْتُه عبداً حلال.. وإني خلقتُ عبادي حنفاءَ كلَّهم، وإنَّهم أتتهم الشياطين، فاجتالَتْهم عن دينهم، وحرَّمتْ عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرَتْهم أن يُشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً..».

ينصُّ هذا الحديثُ على أن الناسَ بدؤوا على وجهِ الأرضِ حنفاءَ مؤمنين موحِّدين، وهذا ما كانَ عليه آدمُ عليه السلام وأبناؤه وذريتُه من بعده، واستمرّوا على التوحيدِ فترةً من الزمن!.

ثم طرأ الشركُ بعد ذلك، حيثُ جاءت الشياطينُ للأجيالِ الجديدة، واستحوذتْ عليهم، و(اجتالتهم) وصرفَتْهم عن الدينِ الحق، وأمرَتْهم أن يُشركوا بالله، وأنْ يعبدُوا معه الأصنامَ والأوثان.

عند ذلك بعثَ اللهُ لهم نوحاً عليه السلام نبياً رسولاً، فنهى قومَه عن عبادةِ الأصنامِ والشركِ بالله، ودعاهم إلى الإيمان باللهِ وتوحيدِه، ولكنَّ القومَ كذَّبوه ورفضوا دعوتَه!.

وقد ذكرَ القرآنُ أسماءَ خمسةِ آلهةٍ كانَ قومُ نوح يعبدونَها، وأصرّوا على عبادتِها. قال تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٢ ـ ٢٣].

الآلهةُ الخمسةُ هي: وَدّ، سُواع، يَغُوث، يَعُوق، نَسْر!.

وذكرَ ابنُ عباس رضي الله عنهما كيفيةَ انحرافِ قومِ نوح عن توحيدِ الله، وعبادتِهم للآلهة الخمسةِ المذكورة.

روى البخاري [برقم: ٤٩٢٠] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كانتْ هذه أسماءُ رجالٍ صالحين من قومِ نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطانُ إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسِهم التي كانوا يجلسون أنصاباً، وسمُّوها بأسمائهم،

ففعلوا، فلم تُعْبَد، حتى إذا هَلَكَ أولئك، ونُسِخَ العلم، عُبدتْ . . ».

يذكرُ ابنُ عباس رضي الله عنهما ـ في هذه الروايةِ الموقوفةِ عليه ـ أن الشركَ جاءَ قومَ نوحٍ بالتدريج، وليسَ دفعةً واحدة، وهذا من خبثِ الشياطين وكيدها.

كانَ في الأجيالِ القديمةِ من قومِ نوحٍ أناسٌ صالحون، هم: وَدٌّ وسُواعٌ ويَغوث ويَعوق ونَسْر، وكانَ قومُهم يحبّونهم لصلاحهم وتقواهم، ولما ماتوا استمرَّ قومُهم في محبتهم، فاستغلَّ الشيطان هذا، وجاءَ إلى القوم، ودخلَ إليهم من هذا الباب، وقالَ لهم: أنتم تحبون الصالحين الذين ماتوا، اصنعوا لهم تماثيل، وانصبوا لهم أنصاباً، ولتكنْ هذه التماثيلُ والأنصابُ تُشبِههم تماماً، وضعوا هذه التماثيلَ في مجالسِهم التي كانوا يجلسُون فيها، لتنظرُوا إليها عندما تمرُّون بها، وعندَ ذلكَ تتذكَّرونهم باستمرار، ولا تنسوهم، وتبقى محبتكم لهم!

واستجابَ ذلك الجيلُ لإيحاء الشيطان، ولم يدركوا أبعادَه الخطيرةَ في المستقبل، وصنعوا تماثيلَ لهم، وثبَّتوها في مجالسِهم، ولم يعبدوها، إنما بقوا متذكِّرين لهم!.

وماتَ ذلكَ الجيل، وجاءتْ أجيالٌ بعده، ورأوا تلكَ التماثيلَ منصوبةً مثبّتة في المجالسِ والميادين، ولم يعرفوا حقيقَتها، ولم يعلموا ما كانَ عليهِ أصحابُها من إيمانٍ بالله واستقامةٍ على طريقِه.

واستغلَّ الشيطانُ الخبيثُ جهلَهم بالحقيقة، وزيّن لهم عبادتها، على أنها آلهة في الأرض، تشاركُ اللهَ الخالق، فإذا عبدوها قرَّبتهم إلى الله زلفى، فأشركوا بالله، وعبدوا تلكَ الآلهةَ التماثيل!.

وهكذا حدثَ الشركُ بالله وعبادةُ الأصنامِ والأوثانِ في قومِ نوحٍ عليه السلام، فجاءَهم نوحٌ عليه السلام، وأنكرَ عليهم عبادةَ غيرِ الله، لكنهم أصرُّوا على كفرِهم!.

٣ ـ بقي نوح معهم حوالي ألف سنة!:

بعثَ اللهُ نوحاً عليه السلام نبياً رسولاً إلى قومِه، يدعوهم إلى عبادةِ الله وحدَه، وهو أولُ رسولٍ أرسلَه الله إلى الأرض، وآدمُ قبلَه كانَ نبياً ولم يكن رسولاً.

روى البخاري [برقم: ٣٣٤٠] ومسلم [برقم: ١٩٤] في حديثِ الشفاعةِ الطويل، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسولِ الله ﷺ قال: «. . . . فيأتونَ نوحاً فيقولون: يا نوح أنتَ أولُ الرسلِ إلى الأرض، وسمَّاك اللهُ عبداً شكوراً، اشفعْ لنا إلى ربِّك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلَغَنا؟».

وطلبَ نوحٌ عليه السلام من قومِه أنْ يعبدوا الله وحدَه، وأن لا يشركوا به أحداً.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩].

ولكنَّ الملأ من قومِه رفضوا دعوتَه وأصرُّوا على كفرهم: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ [نوح: ٢٢ ـ ٢٤].

وقد استخدمَ نوحٌ عليه السلام معهم مختلفَ الأساليبِ في الدعوة، فمن أسلوبِ الترغيب، إلى أسلوبِ الترهيب، إلى أسلوبِ التحبيب، إلى الدعوةِ السرية، إلى الدعوةِ العلنية، إلى الدعوةِ في الليل، إلى الدعوةِ في النهار.

وقد أخبرَنا عن بعضِ هذه الأساليبِ قولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: ٥ ـ ٩].

استمرَّ يدعوهم بهذه الأساليبِ المختلفةِ مدةً طويلة، لم تكن شهراً ولا سنة، ولم تكن عشرَ سنوات ولا مئة سنة، إنما كانت ألف سنةٍ إلا خمسين عاماً!

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤].

تسعمئة وخمسون سنة ونوحٌ عليه السلام وسطَ قومه، يدعوهم إلى الله في الليلِ والنهار، والسرِّ والعلانية، ينصحُ ويرشد، ويرغِّب ويرهِّب، ويناقشُ ويجادلُ ويبرهن، ويواجهُ ويتحدّى، وهم يردُّون عليه بالاستهزاءِ والسخرية، والاتهام والإعراض، والكفرِ والتكذيب! ومع ذلك بقيَ نوحٌ عليهِ السلامُ طولَ هذه المئات من السنين داعيةً صابراً ثابتاً نشيطاً!.

إنه في هذا الجانبِ (قدوة) للدعاةِ إلى الله، ليؤدُّوا واجبهم بصبرٍ وثباتٍ ونشاط، مع أن أعمارَهم قصيرةٌ لا تتعدَّى عشرات السنين، في مقابل عُمْرِ نوحٍ عليه السلام في الدعوة، الذي امتدَّ إلى مئات السنين!.

وإذا كانَ نوحٌ عليه السلام بقيَ يدعو قومَه إلى الإيمان بالله تسعمئة وخمسين سنة، فإنَّ معنى هذا أنه عاشَ أكثرَ من ألف سنة! فقد عاشَ مدةً من الزمن قبلَ النبوة، لا نعلمها، وعاشَ مدةً بعد الطوفان، لا نعلمها!.

وقد يستغربُ بعضُ قصار النظرِ وضيّقي العقولِ من المعاصرين هذا، ويرون أنه من غيرِ المعقولِ أن يعيشَ إنسانٌ أكثر من ألف سنة! لأنه يقيس أعمار الناسِ في ذلك الزمانِ على أعمارِ الناسِ في هذا العصر، فمتوسّطُ أعمارِ الناس في عصرِنا هو ستون أو سبعون سنة، ومن المعقولِ المقبولِ القول: فلان عاشَ مئة سنة، أو عاش مئة وخمسين سنة، أما إنْ قيل: فلان عاشَ في الماضي ألف سنة فهذا غير معقول!.

أصحابُ العقولِ المادية هم الذين يستبعدون هذا، لأنَّ عقولَهم صغيرة، أما أصحابُ العقول القرآنية ـ الذين شكَّلوا مقرَّرات عقولِهم وفقَ حقائق القرآن ـ فإنهم لا يستغربون هذا ولا يستبعدونه، وإنما يقولون به بمنطقٍ عقليٍّ مقبول.

لقد وردَ هذا في صريح القرآن: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾. والمؤمنُ يؤمنُ بما دلَّ عليه القرآن، ويعلمُ أنَّ من كذَّب صريحَ القرآن فقد كفر، فالآيةُ صريحةٌ في أن نوحاً عليه السلام بقيَ داعياً في قومه تسعمئة وخمسين عاماً!!.

وفي بدايةِ تاريخ البشريةِ كان عددُ الناس قليلاً، ولذلكَ عوّض الله قلةَ عدد الناس بطول العمر، حيثُ كانوا يعيشون حوالي ألف سنة، وفي عصرنا كثُرَ عدد الناس، ولذلك تناقصت أعمارهم، وصارتْ بين الستين والسبعين، وقلَّ مَنْ يتجاوزُ ذلك!.

وأخبرَنا ابنُ عباس رضي الله عنهما أن المدةَ الزمنيةَ بين آدم ونوح عليهما السلام كانت عشرة قرون.

روى الحاكم في المستدرك [٢/ ٥٤٦ ـ ٥٤٧] عن ابن عباس رضي الله

عنهما قال: «كانَ بين نوحٍ وآدم عشرةُ قرون، كلُّهم على شريعةِ الحق، فاختلفوا، فبعثَ اللهُ النبيين مُبشّرين ومُنذرين».

ومدةُ القرنِ في ذلك الزمانِ ليس كمدة القرن في زمننا، لأنَّ مدةَ القرن هي متوسطُ أعمارِ الناس في زمن ما. وبما أن متوسطَ الأعمارِ في زماننا حوالي سبعين سنة، لذلك مدة القرن في زمننا حوالي سبعين سنة ـ وليس مئة سنة بالضبط كما يظن بعضهم ـ.

وبما أن متوسّط أعمار الناس زمنَ نوح عليهِ السلامِ حوالي ألفَ سنة، لذلك كانتْ مدةُ القرن في ذلك الزمن حوالي ألف سنة.

فمدة القرونِ العشرةِ بين آدمَ ونوح حوالي عشرة آلاف سنة، وكانَ الناس مؤمنين موحِّدين طيلةَ العشرة آلاف سنة، ثم حدثَ الكفرُ بعد ذلك!.

وبما أنَّ أعمارَ الناسِ زمن نوحٍ عليه السلام طويلةٌ تقاربُ الألفَ سنة، فليسَ غريباً ولا مستبعداً أن يعيشَ نوحٌ عليه السلام أكثرَ من ألف سنة!!.

٤ ـ معنى خيانة امرأة نوح له:

أخبرَنا القرآنُ عن موقفِ بعضِ أفرادِ نوحٍ من دعوتِه:

ـ والداه مؤمنان: آمنا به، ودخلا في دينِه، ولذلك استغفرَ اللهَ لهما، قال تعالى: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [نوح: ٢٨]. ولو لم يكونا مؤمنَيْن به لما دعَا اللهَ لهما.

ـ أحدُ أبنائِه كانَ كافراً، وسنعودُ لهذه المسألة بعد قليل بإذن الله!.

ـ امرأته: كانتْ كافرة، لقد دعاها نوحٌ عليه السلام إلى الله، ولكنها رفضتْ دعوته، وأصرَّت على كفرها، ومن الصعوبةِ بمكانٍ على النبيِّ الرسولِ أن تكونَ امرأتُه على غير دينه، ومع ذلك يعاشرها ويعيشُ معها، وينجبُ منها الأولاد!.

امرأةُ نوح كامرأة لوط، ووصفهما الله بالخيانة، قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

وقد لا يُحسنُ بعضُهم فهمَ خيانةِ امرأةِ نوح له، فيحملها على الخيانةِ في العِرض، وينسب لها ارتكابَ فاحشة الزنا!.

ويستدلُّ على هذا الفهم للخيانة بقوله تعالى عن ابن نوح: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾ [هود: ٤٦].

فابنُه ليس من أهله، لأنَّ امرأتَه خانته في عِرضها!!.

وهذا كلامٌ مردود، ولم تزنِ امرأةُ نبيٍّ قَطّ، وفراشُ الأنبياءِ طاهر، لم تلوّثه امرأةُ أحدِهم بالزنا!!.

ومعنى خيانة امرأة نوحٍ له خيانتها له في دينه، أي أنها أصرتْ على الكفر، رغمَ دعوةِ نوح لها، وقد تكفرُ زوجةُ النبيّ، أمّا أن تزني فلا!.

واعتبرَ القرآنُ كفرَ امرأةِ نوحٍ خيانة له، لأنه نبيٌّ رسول، ودعاها إلى الله، والأصلُ في امرأتِه أن تكونَ موافقةً له في دينه، لأنها أقربُ الناس إليه، فإن خالفته في دينه، واختارتْ غير طريقِه، كانت خائنة له!.

٥ ـ متى دعا نوح على قومه؟:

بعدَ أن عاشَ نوحٌ عليه السلام مع قومِه ألفَ سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله، لم يـؤمنْ به إلا عـددٌ قليل، قـال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦]، وقـال تعالـى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ [هود: ٤٠].

وبعدَ هذه المدةِ الطويلةِ دعا نوح على قومه. قال تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا﴾ [نوح: ٢٦ ـ ٢٧].

دعا نوحٌ عليه السلام ربَّه أنْ يُهلكَ الكافرين من قومه، وأنْ لا يُبقي منهم (دياراً) على الأرض، وهو الإنسان الحي، وعلَّل دعوتَه بأنهم فاسدون ضالّون، لا خيرَ فيهم، ويفسدونَ غيرَهم ويضلُّونهم، وقد استشرى الفسادُ وتعمّق فيهم، فهم لا يلدون إلا فاجراً كفَّاراً مثلهم! وبما أنهم على هذه الدرجةِ من الفسادِ فلا داعي لبقائهم أحياء! ولذلك دعا الله أن يهلكَهم!.

وقد يسيءُ بعضُ الناسِ فهمَ دعوةِ نوح على قومِه وتوجيهها، فيعتبرُها نتيجةً لضيقِ صدرِه وضجرِه، وعدمِ صبرِه، ويعتبرُه مخطئاً في هذه الدعوة!.

ويستشهدُ على هذا باعتراف نوحٍ نفسِه عليه السلام يوم القيامة: فقد روى البخاري [برقم: ٣٣٤٠] ومسلم [برقم: ١٩٤] عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال ـ في حديثِ الشفاعةِ الطويل ـ: «فيقولُ لهم آدمُ عليه السلام: اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح!.

فيأتون نوحاً، فيقولون: يا نوح أنتَ أول الرسلِ على الأرض، وسمَّاك الله عبداً شكوراً. اشفعْ لنا إلى ربِّك! ألا ترى ما نحنُ فيه؟ ألا ترى ما قد بَلَغَنا؟.

فيقولُ لهم: إنَّ ربي قد غضبَ اليومَ غضباً، لم يغضبْ قبلَه مثلَه، ولن يغضبَ بعدَه مثله.. وإنه قد كانت لي دعوة، دعوتُ بها على قومي، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم عليه السلام!».

والشاهدُ في الحديثِ قولُ نوح عليه السلام: قد كانتْ لي دعوة، دعوتُ بها على قومي! أي أنه كان مخطئاً في دعوته على قومه، ولذلك يخشَى العذابَ يومَ القيامة.

أما خوفُه من الأهوالِ يومَ القيامةِ فهذا حقيقة، لأن الكلَّ يخافون يومَ القيامة، لما يمرُّ بهم من أهوالِه وأخطارِه، في مشاهدِه ولقطاته، وكلُّ الأنبياء يخافون في ذلك اليوم!!.

إنَّ نوحاً عليه السلام لم يكن مخطئاً في دعوتِه على قومِه بالهلاك، ولم يفقدْ صبرَه على دعوتهم، ولم يضقْ صدرُه بهم، والذي عاشَ مع قومِه حوالي ألف سنة، داعيةً ناصحاً موجِّهاً، لا يقالُ عنه إنه ضاقَ صدرُه أو فقدَ صبرَه فدعا عليهم.

متى دعا عليهم بالهلاك؟.

بعدَ أن أخبرَه اللهُ أنَّ قومَه أصرُّوا على كفرهم، وأنه لن يؤمنَ من قومه إلا مَنْ قد آمن! وأنه لن يؤمنَ أحدٌ من الكافرين بعد ذلك!!.

قال تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هود: ٣٦ ـ ٣٧].

لقد انتهت الفرصةُ الممنوحةُ لهم للإيمان، لأنهم لم ينتهزوها، ولم يستفيدوا منها! وماذا يريدون فرصةً أطولَ من ألف سنةٍ إلا خمسين عاماً.

علمَ اللهُ أنهم لن يؤمنوا، لأنهم عتاةٌ مستكبرون، طغاةٌ مجرمون، لم تؤثِّر فيهم دعوة، ولم يستجيبوا لنصيحة، ولذلك انتهى الأمر، وأُغلق الباب، فقد آمنَ مَنْ آمن، وبذلك استفادَ وفاز، وكفرَ مَنْ كفر، وبذلك خابَ وخسر!.

وأوحى اللهُ إلى نبيِّه نوح عليه السلام بانتهاءِ كلِّ شيء، فلن يُؤمنَ من قومِه إلا مَنْ قد آمن - وهم قلائل - والآخرون اختاروا الكفر، وأصرُّوا عليه، لذلك ختمَ اللهُ على قلوبهم، فأصمَّهم وأعمى أبصارَهم!!.

عند ذلك دعا نوحٌ عليه السلام على قومِه بالهلاك، وقال: ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾.

ولو لم يخبرْه اللهُ بالختمِ على قلوبِهم بالكفرِ لمَا دعا عليهم، فقد عاشَ معهم حوالي ألف سنة صابراً متحملاً، لم يدعُ عليهم، لأنه كانَ يطمعُ في إيمانهم!.

أما وقد أخبرَهُ الله بالختمِ على قلوبهم، وأنهم لن يؤمنوا، وأنَّ مهمتَه عندهم قد انتهت، وأنه لم يبقَ إلا وقوعُ العذاب بهم، فمن المناسبِ الآن أن يدعو عليهم بالهلاك، وقد جاءتْ دعوتُه في زمانها ومكانها المناسب، وكانَ على صوابٍ تامٍّ فيها!!.

٦ ـ لماذا عرض على ابنه ركوب السفينة؟:

أمرَ الله نوحاً عليه السلام أن يصنعَ السفينة، ولما انتهى من صنعها أخبرَه اللهُ أنه سيُهلكُ القومَ الكافرين، وسيغرقُهم بالماء: ﴿ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧].

وأمرَ اللهُ نوحاً عليه السلام أن يحملَ معه في السفينةِ المؤمنين من البشر، وباقي المخلوقات الحية. قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَ﴾ [هود: ٤٠].

لقد كانَ ركابُ السفينة ثلاثةَ أصناف كما أخبرتْنا هذه الآية:

الأول: المؤمنون من أهلِ نوح، وهم أهلُ بيتِه الذين آمنوا به واتَّبعوه، فمن

المعلومِ أنَّ أهلَ بيتِه انقسموا إلى قسمين: مؤمنين وكافرين، أمرَه الله بحملِ أهلِه المؤمنين، واستثنى الكافرين منهم: ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ ﴾.

ومعنى سبقَ عليه القول: اختارَ الكفرَ وأصرَّ عليه، وحقَّ عليه أمرُ الله، وسيقعُ به العذاب.

الثاني: المؤمنون من قومِه، من غيرِ أهلِ بيتِه، وكانَ عددُهم قليلاً، كما قالَ الله: ﴿ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾.

ولا نعرفُ عددَ هؤلاء، لأنَّ الله لم يخبِرْنا بعددِهم، ولا نذهبُ إلى الإسرائيليات لتحديدِ عددهم، ويكفي أنْ نعلمَ أنهم قليل!.

الثالث: زوجان اثنان ـ ذكرٌ وأنثى ـ من كلِّ المخلوقاتِ الحية، سواء كانت حيوانات أو طيوراً أو حشرات أو زواحف. قال تعالى: ﴿ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾.

والتنوينُ في (كلٍّ) تنوينُ عِوَض ـ كما يقولُ النحويون ـ وهو عِوَضٌ عن مضافٍ إليه محذوف، والتقديرُ: احمل فيها من كل صنفٍ زوجين اثنين، من أصنافِ المخلوقات الحية.

والحكمةُ من هذا الأمرِ أن الطوفان سيكونُ عاماً، يشملُ الأرضَ كلها، وستموتُ جميعُ المخلوقات الحيةِ به، وحتى لا تنقرض المخلوقات الحية، يحملُ في السفينةِ معه ذكراً وأنثى من كلِّ صنف، لتُستأنفَ حياةُ هذه الأصناف بعد الطوفان!.

وحملَ نوحٌ عليه السلام في السفينةِ الأصنافَ الثلاثة، وبدأ الطوفان، وفارَ الماءُ من (التنور) وهو الفرنُ الذي يُخبز فيه.

ودعا نوحٌ عليه السلام ومن معه ربَّهم لينجيهم، وشكروه على ما أنعم عليهم به قال تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [هود: ٤١].

وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٨ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٢٨ ـ ٢٩].

ركوبُهم السفينة باسم الله، وجريانُ السفينةِ وسطَ الأمواج باسم الله، وحفظُها

وسطَ الأمواج من الغرق باسم الله، ورسوُّ السفينةِ باسم الله، ونجاةُ المؤمنين من الغرق باسم الله . . . .

٧ ـ لماذا كان ابنه في معزل؟:

سارت السفينةُ وسطَ أمواج الطوفان، وارتفعَ الطوفان إلى قممِ الجبال، كما قال تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هود: ٤٢].

ونظرَ نوحٌ عليه السلام من بعيد، فرأى ابنَه الكافرَ وحيداً في معزل، فدعاه إلى ركوبِ السفينة، ولكنه أبى.

وقد سجَّل القرآنُ ما جرى بين نوحٍ وابنه، وصوَّر هذا المشهدَ المثير، قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَـٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٢ ـ ٤٣].

لما رأى نوحٌ عليه السلام ابنَه في معزل، دعاه إلى أن يركبَ معهم السفينة، وقالَ له: اركب معنا، ولا تكنْ مع الكافرين، ولكنَّ ابنَه رفضَ الدعوة، وقال لأبيه: سأذهبُ إلى جبل يعصمني من الماء، ويحميني من الغرق، فأخبرَه نوحٌ أنه لا نجاةَ ولا عصمةَ إلا لمن رحمهُ الله، واللهُ لا يرحمُ إلا المؤمن.

وبينما كان الحديثُ مستمراً بين الأب وابنه، جاءتْ موجةٌ عاتية، فقطعَتْه، وأخذت الابن معها، فكانَ من المغرَقين: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾.

وقد يستشكلُ بعضُهم دعوةَ نوحٍ ابنَه لركوبِ السفينة، ولا يحسنُ توجيهَ وتحليلَ هذه الدعوة، ويعتبرُ الباعث على الدعوةِ عاطفةَ (الأبوة) التي سيطرتْ عليه!.

يقولُ بعضُهم: إنَّ نوحاً عليه السلام أبٌ رحيم، وقد رأى ابنَه من بعيد، ورأى الأمواجَ تقترب منه، وأنه سيغرق، وأشفقَ عليه من الغرق، ولذلكَ دعاه إلى ركوبِ السفينةِ لينجو، مع أنه كافر، ولكنَّ عاطفةَ الأبوة تغلَّبت عليه، وقد أخطأ في توجيه هذه الدعوة لابنه!!.

وهذا توجيهٌ غيرُ سديد!!.

لم يوقنْ نوحٌ عليهِ السلامُ أنَّ ابنَه كافرٌ عندما رآه في معزل، ولو أيقنَ أنه كافرٌ لما وجَّه له الدعوةَ لركوب السفينة، ولو أنَّ عاطفةَ الأبوة كانتْ تحرِّكُه لحملَه في السفينةِ لمَّا صعدَ الركاب المؤمنون فيها، إنه ابنه، فلماذا لم يركبْه معه في السفينة؟ ولماذا لم يُركب معه امرأتَه السفينة؟.

لقد كانَ نهيُ الله له صريحاً، نهاهُ عن حملِ أي إنسانٍ كافرٍ من أهله: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ﴾.

إنه يعلمُ أنَّ امرأتَه كافرة، ولذلك لم يدعُها لركوبِ السفينةِ عند انطلاقها، ويعلمُ أن ابنَه كافر، ولذلكَ لم يوجِّه له الدعوةَ لركوبِ السفينةِ عند انطلاقها، فلماذا يوجِّه له الآن الدعوةَ لركوبِ السفينة؟ لو كانتْ عاطفةُ الأبوة تحرِّكه لأركبه معه من قبل.

إن حلَّ إشكال دعوتِه لابنه هو في الجملةِ المعترضة ـ وكان في معزل ـ في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾.

ما معنى قوله: ﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾.

تخبرُ الجملةُ أن ابنَ نوح كانَ معتزلاً القوم الكافرين. أي أنه لما بدأ الطوفان غادرَ القومَ الكافرين، وابتعدَ عنهم، وتوجَّه إلى مكان آخر، ووقفَ هناكَ في ذلك المكانِ المنعزل.

وبينما كانَ واقفاً هناك في ذلك المكانِ المنعزِلِ وقعَ نظرُ أبيه عليه، وفوجئ به واقفاً في ذلك (المعزل). فقد كانَ ابنُـه مع القوم الكافرين، كافراً مثلهم، ولذلك لم يُركبهُ معه في السفينة..

وهنا لعلَّ نوحاً عليه السلام تساءل: ما الذي جعلَه يأتي إلى هذا المعزل؟ ولماذا غادرَ جماعتَه الكافرين؟ لعلَّه بدا له أنْ يؤمن، ولذلك غادرهم وانفصلَ عنهم، لأنه يريدُ أن يؤمن، بعدما شاهدَ الطوفان!.

ولذلكَ أرادَ نوحٌ عليه السلام أن يساعدَ ابنَه على الانحيازِ إلى المؤمنين، للنجاةِ من الغرق، فوجَّهَ له الدعوةَ لركوب السفينةِ معهم: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

ومما يرجحُ هذا التوجيهَ والتحليلَ تركيزُ نوحٍ عليه السلام على المعية،

حيثُ دعاهُ إلى أن يركبَ السفينةَ معهم: ﴿ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾، ونهاه عن أن يكون مع الكافرين: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، ولعل تكرار (مع) مرتين في الآيةِ يؤكدُ ترجيحَ هذا التوجيه.

فمعنى قوله: ﴿ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾: أدعوكَ يا بُنيّ إلى الإيمان، فآمِن وادخلْ في دينِنا، واركب السفينةَ معنا، ولا تكنْ كافراً مع الكافرين.

فدعوتُه ابنَه لركوبِ السفينة، دعوتُه إلى الإيمانِ ليتأهَّلَ لركوبِ السفينة، والذي حملَه على توجيهِ هذه الدعوة له أنه شاهدَه واقفاً وحدَه في معزل، تاركاً القومَ الكافرين!.

وردَّ الابنُ على دعوةِ أبيه بأنه يبحثُ عن مكانٍ آمن، يأوي إليه، وهو ذاهب (صُعُداً) إلى قمةِ الجبل، ليعصمَه من الماء، فالماءُ لن يبلغَ قمةَ الجبلِ حسبَ تصوُّره!.

فقال له أبوه: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ﴾. أي: سيكونُ الطوفانُ عاماً شاملاً، وسيغمرُ قممَ الجبال، فلا نجاةَ لك في الجبل، ولا يعصمكَ اللهُ من الطوفانِ إلا بالإيمان، فمَنْ آمنَ بالله رحمَه اللهُ، وهؤلاء ركابُ السفينةِ معي مؤمنون، ولذلكَ رحمهم اللهُ بالنجاةِ من الطوفان، فأمرَني بحملِهم في السفينة، فتعالَ آمِن، واركب السفينةَ معنا، فهي وسيلةُ النجاةِ الواحدة!.

وعندَ ذلك فاجأ الموجُ الغامرُ الابنَ الواقفَ في المعزل، فأخذه معه، وبذلك انقطعَ الحديثُ بين الأبِ وابنه، وصار الابنُ من المغرَقين!.

هذا هو الجوُّ الذي حملَ الأبَ نوحاً عليه السلام على توجيهِ الدعوةِ لابنِه لركوب السفينةِ معهم، وبهذا نعرفُ أنّ (عاطفةَ الأبوة) لم تكن هي وراءَ هذه الدعوة، إنما وقوفُ ابنِه (في معزل) تاركاً قومَه معتزلاً لهم، مما دفعَ الأبَ إلى الظنِّ أن الابنَ ربما بدا له أن يؤمن، ولذلكَ جاءَ إلى هذا المعزل!!.

٨ ـ عتاب الله لنوح لسؤاله عن ابنه:

بعدما شاهدَ نوحٌ عليه السلام غَرَقَ ابنِه أمامَ عينيه، سألَ اللهَ عن ذلك، فعاتَبه الله، وبيَّن له حقيقةَ الأمر.

قال تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [هود: ٤٥ ـ ٤٧].

يقصدُ نوحٌ عليه السلام بقوله: ﴿ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾ أنَّ ابنه الذي غرقَ من صلبه، ولهذا هو من أهله.

ومعنى قولـه: ﴿ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾: أنتَ يا رب وعدتَني بـإنجاءِ أهلي المؤمنين، ووعدُك حقٌّ واقع، لأنك لا تُخلف الميعاد، وأنتَ الحكيم في فعلك، فهو صوابٌ محض، وأنتَ أحكمُ الحاكمين!.

يشيرُ نوحٌ عليه السلام إلى قولِ الله له: ﴿ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾.

ويريدُ نوحٌ عليه السلام من كلامِه أن يعرفَ حقيقةَ مصيرِ ابنه، أن يعرفَ على ماذا مات ابنه، هل ماتَ مؤمناً أو مات كافراً.

ولا يقصدُ نوحٌ عليه السلام من سؤالِه الاعتراضَ على إغراقِ الله لابنه! إنه نبيٌّ رسولٌ عليه الصلاة والسلام، وهو لا يعترضُ على فعلِ الله وقَدَرِه، لأنه يؤمن أن اللهَ عليمٌ حكيم، وأنَّ فعلَه صواب، ولهذا لا يعترضُ عليه.

إنما يريدُ من سؤاله أن يُعلمهُ اللهُ عن نهايةِ ابنه، وهل ماتَ مؤمناً أو كافراً!.

والذي أوقعَ نوحاً عليه السلام في اللبسِ هو أنه شاهدَ ابنَه في معزل، فدعَاه إلى ركوبِ السفينةِ مع المؤمنين، لأنه ظنَّ أنه باعتزالِه لقومِه قد بدا له أن يُسلم، ولم يصارحْه ابنُه بكفره، وبينما كان يكلِّمه جاءَ الموجُ الغامرُ فأخذَ الابن، وقطعَ حديثَه مع الأب!.

لم يعلم نوحٌ على ماذا ماتَ ابنه، هل ماتَ مؤمناً أو مات كافراً، ولا يَعلمُ ذلك إلا الله، ولذلكَ سألَ اللهَ عن ذلك مستعلماً وليسَ معترضاً!.

وكأنَّه بسؤاله يقولُ لربِّه: ربِّ إنه ابني، وأنا ظننتُ أنه سيؤمن، لأنه كانَ في معزل بعيداً عن الكافرين، فهل اعتزالُه لهم لأنه آمن؟ أو لأنه على وشكِ الإيمان؟ أو على نيةِ الإيمان؟ فإن كانَ كذلك فهو من أهلي المؤمنين، وأنتَ وعدتَ بإنجاء

أهلي المؤمنين! وإنْ لم يكن كذلكَ ومات كافراً، فأريدُ أن أعرف!!.

وقد جاءَه التوضيحُ من الله، حيثُ ذكرَ له حقيقةَ ما ماتَ عليه ابنه، وأن ظنَّه في ابنه ليسَ صحيحاً، فهو كافر، ولما كان في معزلٍ كان كافراً، وأغرقَه اللهُ لكفرِه، وهو بهذا الاعتبار ليسَ من أهله!!.

ولكنَّ هذا التوضيحَ جاءَ في صيغةِ عتابٍ شديد، قال تعالى: ﴿قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦].

وقد فهمَ نوحٌ عليه السلام الأمر، وشعرَ بأنَّ الأَوْلى به أن لا يسألَ سؤالَه، ولذلك سارعَ بالاعتذار، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧].

ولا تعارضَ بينَ قولِ نوحٍ عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ وبينَ قولِ الله له: ﴿يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ﴾.

معنى قولِ نوح: إن ابنَه من أهلِه، من حيثُ النسب، لأنه ابنُه من صلبِه، أنجبته زوجته، وكانت عفيفةً في عِرضها، لم ترتكب فاحشةَ الزنا، لذلك هو من أهلِه من جهةِ النسب، باعتبارِه أحدَ أفرادِ أسرته.

ومعنى قولِ الله له: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾: إنه ليسَ من أهلك في الحقيقة، لأنه لم يكن مؤمناً، وأهلُه في الحقيقةِ هم المؤمنون فقط، فإن كانَ أحدُ أفرادِ أسرتِه كافراً، لم يكن من أهلِه في الحقيقة.

وعلَّل نفي كونِه من أهله الحقيقيّين لكفرِه بقولِه بعدَ ذلك: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ﴾.

والمعنى: ابنُك يعملُ أعمالاً غيرَ صالحة، لأنه كافر، وكفرُه أبطلَ عملَه وأفسدَه، فتحوَّل إلى عملٍ غيرِ صالح.

والعجيبُ في الجملة: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ﴾ أنه حوَّل الشخصَ نفسَه إلى (رُكام) من العملِ غيرِ الصالح. لم تقل الجملة: إنه عملَ عملاً غيرَ صالح، ولكنها قالت: إنه عملٌ غيرُ صالح، وفرقٌ بعيدٌ بينَ الجملتين!.

ما أثبتَه نوحٌ عليه السلام عن ابنه أنه من أهله، أرادَ به الصلةَ النسلية النسبية

بينهما، وما نفاهُ الله عن ابنه، أنه ليسَ من أهله، أرادَ به الصلةَ الإيمانيةَ الاعتقادية، فبما أنه ليسَ على دينِه فقد انقطعتْ الصلةُ بينهما، رغمَ أنه ابنُه من صلبِه نسباً.

ويخطىءُ الذين يذهبون بعيداً في نفي كونِ ابنِه من أهله، فينفون ذلك نسباً ونسلاً، ويقولون: لم يكنْ ابناً له من صلبِه، وإنما حملتْ به امرأتُه عن طريقِ الزنا، وقامتْ بخيانةِ زوجِها في عِرضها! وهذا كلامٌ باطل، سبقَ أن ردَدْناه قبل قليل، عندَ كلامِنا عن خيانةِ امرأةِ نوح له.

إنَّ قولَ الله: ﴿ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ ﴾ ينفي عن الابنِ الكافرِ كونَه من أهلِ النبيّ، بسببِ كفرِه وعملِه غير الصالح، مع أنه ابنُه من صلبه نسباً.

وهذا يقررُ مبدءاً إيمانياً عظيماً هو مبدأُ (الولاء والبراء).

إنَّ ولاءَ المؤمنِ لله، ولأولياءِ الله من المؤمنين، وإنْ كانوا بعيدينَ عنه من جهةِ النسب والقرابة! وهو يتبرأُ من أعداءِ الله، ويُفاصلُهم، ويبتعدُ عنهم، وإنْ كانوا أقربَ الناسِ إليه من حيثُ النسب والقرابة!.

فها هو ابنُ نوحٍ عليه السلام، من أقربِ الناسِ له نسباً، ولكنّه بعيدٌ عنه، وليسَ من أهلِه في الحقيقةِ لكفره.

وبهذا عرفَ نوحٌ عليه السلام حقيقةَ نهايةِ ابنه، وأنه ماتَ كافراً، فاطمأنَّ وهدأتْ مشاعره.

وقد عاتبَ اللهُ نوحاً عليه السلام عتاباً شديداً على سؤاله، ولذلك قال له: ﴿ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾.

أي: لا تكن يا نوح جاهلاً، واعلمْ هذه الحقيقةَ الاعتقادية، وهي انقطاعُ الصلةِ الإيمانيةِ بين الأب المؤمنِ وابنِه الكافر، وبانقطاع هذه الصلةِ الحقيقيةِ لم يعدْ من أهلِه، رغمَ أنه ابنُه نسباً، وإذا علمتَ هذه الحقيقةَ فلا تسألنِ ما ليسَ لك به علم.

وسارعَ نوحٌ عليه السلام إلى الاعتذارِ والاستغفار واللجوءِ إلى الله، وقال: ﴿ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾.

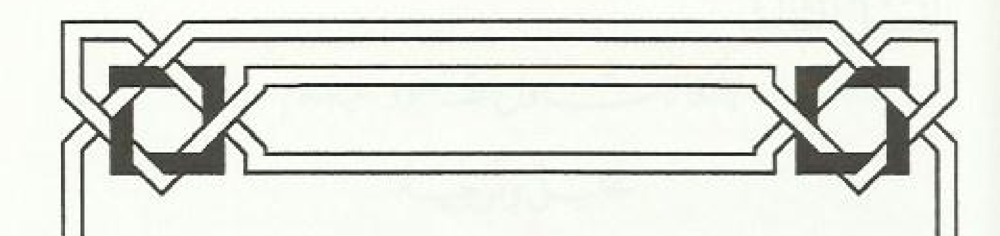
بقي هنا أنْ نتساءل: هل أخطأ نوحٌ عليه السلام في سؤالِه عن مصيرِ ابنه؟.

بعدَ تفسيرِنا للآياتِ التي تتحدَّثُ عن ذلك، وتوجيهِ هذا الموضوع، نرى أنه لم يكنْ مخطئاً، وإنما كانَ على صواب، لأنَّه لم يعرفْ حقيقةَ نهايةِ ابنه، لوجودِ أحداثٍ أوقعتْه في اللبس، وسَبَّبتْ له الإشكال، وكانَ سؤالُه بهدف معرفةِ الحقيقةِ من الله، ولم يكن اعتراضاً على فعلِ الله، ولا شفاعةً لابنه، ولما عرفَ الحقيقةَ التزمَ بها واستغفرَ ربَّه وأناب!.

وإذا لم يكن مخطئاً فلماذا عاتبَه اللهُ هذا العتاب الشديد؟.

عاتبَه اللهُ لأنَّه فعلَ خلاف الأَوْلى، فرغمَ أنَّه لم يخطئ في سؤالِه، إلا أنه كان الأَوْلى والأجدرَ به أن لا يسأل، وأن يعرفَ الأمرَ بدونِ سؤال! واللهُ يريدُ من رسولِه عليه الصلاة والسلام أن يكونَ فعلُه دائماً وفق الأولى والأفضلِ والأكملِ والأحسن، واللهُ بعتابِه له يرشدُه إلى ما هو أَوْلى وأفضل، رغمَ أنَّ فعلَه صواب!.

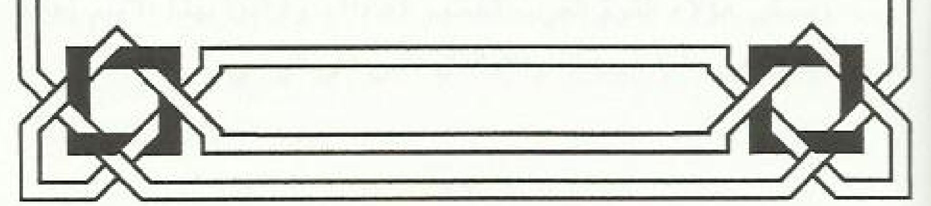
* * *



الفَصْلُ ٱلثَّالِثُ

إشكالات حول قصّة هود عليه السلام

تَحْلِيلٌ وَتَوْجِيهٌ



الفَصْلُ الثَّالِثُ

إشكالات حول قصة هود عليه السلام

تَحْلِيلٌ وَتَوْجِيهٌ

١ ـ (عاد) من العَوْد و (هود) من الهَوْد:

ذُكرتْ قصةُ عادٍ في القرآن بعدَ قصةِ قومِ نوحٍ عليه السلام، وبعثَ اللهُ إلى عادٍ أخاهم (هوداً) عليه السلام نبياً رسولاً، وكانوا يسكنون في (الأحقاف)، وهي المنطقةُ الواقعةُ في جنوبِ شرقِ الجزيرةِ العربية، بين حضرموت وعمان.

وقبيلةُ (عاد) قبيلةٌ عربيـة، من العرب العاربـة، الذين كانوا يُحسنون الإعراب والنطقَ، ولعلَّهم أولُ قبيلةٍ عربيةٍ تكلَّمت اللغةَ العربية، وهم من العرب (البائدة)، الذين بادوا وانتهوا قبلَ عشراتِ القرون!.

و(عاد) ـ اسمُ القبيلة ـ كلمةٌ عربية، مشتقةٌ من (العود)، والعودُ هو إعادةُ الشيء، تقول: عادَ الشيء، يعود، عَوْداً: إذا رجع.

فكلمةُ (عـاد) على وزنِ الفعلِ الماضي، ثم أصبحَ اسـماً لهذه القبيلـةِ العربية.

ولعلَّ سببَ تسميةِ القبيلـةِ بهذا الاسـم، هو أنهم أولُ قبيلةٍ ظهرتْ بعد الطوفان، فنحنُ نعلم أنَّ الطوفان كان عامّاً على الأرض، أهلكَ الأحياءَ جميعاً، ولم ينجُ إلا نوحٌ عليه السلام والمؤمنون الذين معه في السفينة.. فلما انتهى الطوفانُ استقرَّت السفينةُ على جبل (الجودي) في العراق ـ شمال غرب الموصل ـ وعاشَ نوحٌ عليه السلام مع المؤمنين الناجين، ثم جاءَتهم آجالهم فماتوا، ثم انتشرَ أولادُهم في الأرض!!.

وتوجَّهَ قومٌ منهم إلى الجنوب، واستقرّوا في (الأحقاف)، وأنشؤوا حضارةً وقوةً هناك، تحدَّثت آياتُ القرآنِ عن بعضِ مظاهرِها.

وسمَّى هؤلاء القومُ العربُ أنفسَهم (عاداً)، وأرادوا بهذا الاسم إعادةَ الحياةِ البشريةَ من جديد، بعدَ الطوفان الذي قضى على كلِّ شيء.

وبعثَ اللهُ إلى (عاد) أخاهم (هوداً) نبياً رسولاً عليه السلام، وبما أن (عاداً) اسمٌ عربيٌ صريح، مشتقٌ من العَوْدِ والرجوع والبدء، فإنَّ (هوداً) اسمٌ عربيٌ صريحٌ أيضاً، مشتقٌ من (الهَوْد).

قالَ ابن فارس عن الهَوْد: «يدلُّ على إروادٍ وسكون. يقولون: التهويد: المشي الرويد البطيء. وهَوَّدَ: إذا نام»[1].

أي أن الهَوْدَ عند ابن فارس مشتقٌ من السكون الرويدِ والبطءِ والتأني.

أما الراغبُ الأصفهاني فإنَّ الهَوْدَ عندَه هو: «الرجوعُ برفق، ومنه التهويد. وهو مشي كالدبيب. وصار الهَوْدُ في التعارف: التوبة.

وهودٌ: جمعُ هائد. أي: تائب. وهو اسمُ النبيِّ عليه الصلاة والسلام»[2].

وإذا كان (هود) مشتقاً من الهَوْد، فإنَّ معناهُ هو: التوبةُ إلى الله، والرفقُ والطمأنينةُ والتأني، وهذه الصفاتُ تحقَّقتْ في شخصيتِه عليه السلام.

والخلاصةُ أنَّ اسمَ (عاد) مشتقٌ من العود بمعنى الرجوع، واسم (هودٍ) مشتقٌ من الهَوْد بمعنى التوبة والطمأنينة والتأني.

٢ ـ ما هي (عاد إرم ذات العماد)؟:

أخبرتْ آياتُ القرآن عن (عاد) بأنها «عاد إرم ذات العماد»، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ [الفجر: ٦ ـ ٨].

فما هي ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾؟.

هناكَ كلامٌ كثيرٌ في الإسرائيلياتِ والخرافاتِ والأساطيرِ عن مدينةٍ أسطوريةٍ خياليـة، سمّوها مدينةَ (إرم ذات العماد)، واعتبروها مدينةً عجيبة، مبنيـةً من الذهب والفضـة، وأنها متنقلةٌ بين البلدان.

وقد أوردَ كثيرٌ من المفسّرين والإخباريين هذه الإسرائيليات والخرافات، مع أنه لا توجدُ مدينةٌ أسطوريةٌ بهذا الاسم.

---

(١) مقاييس اللغة، ص١٠٥٧.

(٢) المفردات، ص٨٤٦ ـ ٨٤٧.

قالَ الإمامُ ابن كثير: «ومَنْ زعمَ أن (إرم) مدينة، تدورُ في الأرض، فتارةً في الشام، وتارةً في اليمن، وتارةً في الحجاز، وتارةً في غيرها، فقد أبعدَ النجْعَة، وقالَ ما لا دليلَ عليه، ولا برهانَ يُعوّل عليه، ولا مسْنَدَ يُرْكَن إليه»[1].

إذن كلمةُ (إرم) في الآيةِ ليست اسمَ مدينةٍ كانتْ تسكنها (عاد)، وإنما هي بدل من كلمة (عاد) قبلها، أو عطف بيان لها: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾.

أي: ألم ترَ كيف فعلَ ربُّك بإرم، فعاد هي عادُ إرم.

ولعلَّ (إرم) كانَ أحدَ أجداد عاد، فسُميتْ القبيلةُ باسمه، فقيلَ لها: عاد إرم.

و(إرم) في اللغةِ هي الحجارةُ المرفوعة. قالَ ابن فارس: «والإِرَم: العَلَم، وهي حجارةٌ مجتمعة، كأنّها رجلٌ قائم»[2].

و(إرم) في الآيةِ بدلٌ من (عاد) المجرورة قبلَها: ﴿بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾، وهي مجرورةٌ بالفتحةِ بدلَ الكسرة، لأنها ممنوعةٌ من الصرف، للعلميةِ والتأنيث.

و(ذاتِ) بعدها صفةٌ لعاد مجرورة، و(العماد) مضافُ إليه.

و(التي) بعدها: اسمُ موصول مبني، في محلِّ جرّ صفة لعاد، والتقدير: غيرُ المخلوقِ مثلها في البلاد.

ومعنى الآيات: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾: ألم تعلمْ يامحمد ﷺ كيفَ دمّر ربُّك قبيلةَ عاد، لكفرها وظلمِها، وهي عادُ إرم، ذاتُ الأعمدةِ التي كانتْ تبنيها، ولم يخلق الله قبيلةً أخرى بقوةِ قبيلةِ عاد في ذلكَ الزمان!.

وتتحدّثُ الآياتُ عن قوة عاد، التي هي (عاد إرم) وتصفُ (عاداً) بأنها ذات العماد.

والمرادُ بالعماد هنا إما أعمدةُ بيوتِ الشعر، المرتفعةِ وسطها، حيثُ كان بعضُ أفراد القبيلةِ يسكنونَ بيوت الشعر، بأعمدتها المرتفعةِ وسطها، وإما أعمدة

---

(١) قصص الأنبياء، ص٨٨.

(٢) مقاييس اللغة، ص٧٠.

البيوت والقصور التي كانوا يبنونَها على قممِ الجبال، وإما النوعان من الأعمدة.

فكلمـةُ (ذات العماد) في الآيـةِ صفة لعاد، وليسـتْ صفةً لمدينـةِ (إرم) الخرافيةِ الأسطورية.

(عاد إرم) بلغتْ درجةً عاليةً من بناءِ البيوت والقصور، مما استحقَّتْ أنْ توصَفَ بأنها ذاتُ العماد.

ولقد أنكرَ عليهم هودٌ عليه السلام الإكثارَ من البنايات العالية، والقصورِ مرتفعةِ الأعمدة، فقالَ لهم: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٨ ـ ١٣٠].

والريعُ هو المكانُ المرتفع، والآيةُ هي القصرُ العالي المرتفع.

بسببِ القصورِ العالية التي بنوها على الجبال، والمصانعِ التي أشادوها، كانوا أصحاب أعمدة، ولذلكَ وُصفتْ عادُ إرم بأنَّها ذاتُ العماد.

وأخبرَ اللهُ عن عادٍ أنه لم يَخلقْ مثلَها في البلاد: ﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ اي أنَّ اللهَ أعطى عاداً قوةً خاصةً لم يعطِها لأي قبيلةٍ أو أمةٍ أخرى في ذلك الزمان، وبذلكَ كانت (عاد) أقوى أمة في عصرها.

فالكلامُ عن قبيلةِ عاد، التي هي (عاد إرم)، وليسَ عن المدينةِ الأسطوريةِ الخرافية، مدينة (إرم ذت العماد)، التي لم يخلق اللهُ مدينةً مثلَها في البلاد! . وكلُّ ما يُقال عن هذه المدينةِ الأسطوريةِ ما هو إلا أساطيرُ مأخوذةٌ عن الإسرائيليات، وهذه لا قيمةَ لها عندنا! .

٣ ـ هل هي عاد واحدة أم عادان اثنتان؟:

هل (عادٌ) المذكـورة في القرآن عـادٌ واحدة، أم هناك (عادان) اثنتـان، حملتْ كلُّ واحدةٍ اسم (عاد)؟ .

بعضُ المؤرِّخين والمفسِّرين ذهبوا إلى أنهما (عادان) اثنتان، كلُّ قبيلـةٍ منهما حملت اسمَ (عاد). فهناكَ عادٌ الأولى، وهناكَ عادٌ الثانية! .

وقالوا: عادٌ الأولى، هي التي وُجدتْ بعد قومِ نوحٍ مباشرة، وبعثَ اللهُ لها هوداً عليه السلام نبياً ورسولاً، وقصَّ اللهُ علينا قصتَه مع عادِ الأولى في القرآن،

وأهلكَ اللهُ عاداً الأولى في القرآن.

وعادُ الثانية: هي قبيلةٌ ثانية، ناشئةٌ عن عادِ الأولى، وبينهما عشراتُ السنين، وكانتْ عادُ الثانية بعد إبراهيمَ الخليل عليه السلام، ونبيّهم رجلٌ آخر غير هودٍ عليه السلام، لم يذكر القرآنُ اسمَه، ولما كذبوا نبيّهم أهلكَهم اللهُ بالريحِ الصرصرِ العاتية، التي سخَّرها عليهم سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيام حسوماً..

وممن قالَ بهذا القول الإمام ابن كثير في كتابِهِ (قصص الأنبياء).

واستدلَّ هذا الفريقُ على وجودِ (عادَيْن) اثنتيْن بدليلين:

الأول: قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ [النجم: ٥٠ ـ ٥١]، عادُ الأولى هي عادٌ التي كانت تسكنُ في الأحقاف، ونبيُّها هود عليه السلام، وإخبارُه هنا عن (عاد الأولى) يستلزمُ وجود (عاد الثانية) بعدها.

الثاني: إخبارُ اللهِ عن عذابيْن وقعا لعاد: عذابٍ بالصيحة، وهي التي أهلك بها عاداً الأولى، وعذابٍ بالريحِ الصرصرِ العاتية، التي أهلكَ بها عاداً الثانية!.

ولسنا مع هؤلاءِ العلماء في وجودِ (عادَيْن) اثنتين، وسنناقشُ عذابَ عاد بعدَ قليل، إن شاء الله.

إنَّ ظاهرَ حديثِ القرآنِ عن عادٍ يدلُّ على أنّها عادٌ واحدة، هي (عاد إرم) التي كانت تسكنُ في (الأحقاف)، والتي بعثَ اللهُ لها هوداً نبياً عليه السلام.

وإنَّ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾، لا يلزمُ منه وجودُ عادِ الثانية، ولا يُرادُ بكلمة (الأُولى) في الآيةِ الأولية العددية التاريخية الزمانية، بحيثُ تأتي بعدها عادُ الثانية والثالثة!.

إنَّ (الأُولى) في الآيـةِ تعني: الأوليـةَ في الدرجةِ والمنزلـةِ والمستوى والمرتبة.

كانت عـادُ (الأُولى) في القوة، حيثُ كانتْ أقوى أمةٍ في ذلكَ الزمـان، منحَها اللهُ من مظاهرِ السلطانِ والتمكينِ ما لم يمنحْ غيرَها، فكانتْ هي الأقوى!.

وقد أخبرتْ آياتُ القرآن أنَّ (عاداً) كانتْ هي الأولى في القوة:

قالَ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى

ٱلْبِلَٰدِ﴾ [الفجر: ٦ ـ ٨]، بما أنَّ اللهَ لم يخلقْ مثل عادٍ في القوةِ في البلاد، في ذلكَ الزمان، لذلكَ كانت (عاداً الأولى) في القوة.

وقالَ تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

يخبرُ اللهُ أنَّ عاداً استكبَروا في الأرض، فطغَوا وبغَوا وظلَمُوا، واعتدوا على الآخرين، واعتزُّوا بقوَّتِهم التي وهبَهم الله إيَّاها، وقالوا: من أشدُّ منَّا قوة؟.

وسؤالُهم سؤالُ الطغاةِ المستكبرين الظالمين، الذين يجعلونَ قوَّتَهم أداةَ لظلمِ واستعبادِ الآخرين! ولما سألوا هذا السؤال كانوا يعلمونَ أنهم الأقوى، وأنه لا تقاربهم قوةُ أية قبيلةٍ أو أمةٍ من حولهم.

ونسوا ـ في غمرةِ استكبارِهم وطغيانهم ـ أنَّ اللهَ الذي خلقَهم ومنحَهم القوةَ هو أشدُّ منهم قوة، وأنه قادرٌ على نزعها منهم!.

هذا التساؤلُ الاستكباريُّ من عادٍ دليلٌ على أنها (عاد الأولى) في القوة.

وقد أنكرَ عليهم نبيُّهم هودٌ عليه السلام استخدامَ قوتهم الأولى في البطش. ولذلكَ قال لهم: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾﴾ [الشعراء: ١٢٨ ـ ١٣١].

من هذه الآياتِ نفهمُ أنَّ عاداً كانتْ أقوى أمةٍ في ذلك الزمان، ولذلكَ قال الله عنها: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: هي الأولى في القوة.

٤ ـ تعذيب عاد على مرحلتين:

لما رفضَ قومُ عادٍ دعوةَ أخيهم هود عليه السلام، وأصرُّوا على تكذيبه والكفرِ به، أوقعَ اللهُ بهم عذابَه، وأنجى هوداً عليه السلام ومَنْ آمنوا معه.

عذَّبهم اللهُ بالصيحةِ وبالريحِ الصرصرِ العاتية.

واستدلَّ القائلونَ بأنها ليستْ عاداً واحدة، وإنما (عادان) اثنتان بوقوعِ نوعين من العذاب: الصيحة والريح.

وقالوا: عذَّبَ اللهُ عاداً الأولى بالصيحة، وهي التي قال الله عنها: ﴿قَالَ

﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ۝٤٠ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً﴾ [المؤمنون: ٤٠ ـ ٤١].

وعذَّبَ اللهُ عاداً الثانية بالريح، وهي التي قال اللهُ عنها: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٦ ـ ٧]

ولا فرقَ بين الصيحةِ والريح، حتى يُقال: هما نوعانِ من العذاب، وقعا على أمتين مختلفتين، والراجحُ أنهما مرحلتان لعذابٍ واحد.

الراجحُ أنها عادٌ واحدة، وأنَّ اللهَ عذَّبها بالريح، وكانَ عذابها على مرحلتين:

المرحلةُ الأولى: الصيحةُ: حيثُ أخذَتْهم فجأة، وكانتْ ممهدةَ للريحِ العاتية.

قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤١].

المرحلةُ الثانية: الريحُ الصرصر العاتية، التي سخَّرَها عليهم ثمانيةَ أيامٍ متتابعاتٍ، وهذه الريحُ جاءت بعد الصيحة.

قالَ الإمامُ ابن كثير: «ولا يمنعُ من اجتماع الصيحةِ والريح عليهم، كما حصلَ مع أهلِ مدين، حيثُ جمعَ الله عليهم أنواعاً من العقوبات»[1].

وقد فصَّلتْ آياتُ القرآنِ في حديثِها عن الريح التي أرسلها اللهُ عليهم، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٤ ـ ٢٥].

لقد حبسَ اللهُ عنهم المطر، فأصابَهم المحلُ والجَدْبُ والقَحط، وكانوا متلهّفين للغيث، متشوّقين للسحابِ الحامل للماء!.

فمكرَ اللهُ بهم لكفرهم وعُتوِّهم واستكبارهم، وذلك بأنْ أراهم السحابَ قادماً إليهم، مستقبلاً لأوديتهم: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾.

---

(١) قصص الأنبياء، ص٩٢.

والعارضُ المذكورُ هنا هو السَّحاب، وسُمِّيَ السحابُ عارضاً لأنّه يعترضُ الأفق، ويغطّي السماء.

ولما رأى قومُ عادٍ السحابَ معترضاً الأفق، مستقبلاً الأودية، وكانَ أسودَ داكناً، فرحوا واستبشروا، وظنّوه سحاباً ماطراً، وغيثاً مغيثاً، وقالوا مسرورين: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾.

وما درى المغفلون أنَّ هذا السحابَ الأسودَ القادمَ إليهم هو الدخانُ الأسودُ المتصاعدُ من الأرض، بسببِ الصيحةِ التي حدثَت، حيثُ زُلـزلت الأرضُ ورُجَّت، ونتجَ عن ذلكَ صيحةٌ عالية، وصوتٌ شديدٌ قاصف، تبعها دخانٌ كثيفٌ أسود..

تغشّاهم السحابُ الأسود ـ الدخانُ الكثيف ـ وهبَّتْ عليهم الريحُ الشديدة، واستمرَّت عليهم سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيام، فقضتْ على كل شيء!.

ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾.

لقد استعجلَ قومُ عادٍ العذاب، وطلبوا من هود عليه السلام إيقاعَ العذاب بهم، إن كان صادقاً في دعوى النبوة، قال تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٢ ـ ٢٣].

وسمّى اللهُ الريحَ التي ساقت العارضَ إليهم الريحَ العقيم، قال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤١ ـ ٤٢].

و(العُقْم) وصفٌ للمرأةِ العاقرِ التي لا تُنجب، يُقال: هذه امرأةٌ عقيم!.

وإطلاقُ صفةِ (العُقْم) على الريح، للمبالغةِ في بيانِ ما تحمِلُه من دمارٍ وهلاكٍ لقومِ عاد.. وهي ريحٌ عقيمٌ لا تحملُ ماءً ولا غيثاً ولا خيراً لهم.

وهذه الريحُ العقيمُ التي أهلكَهم اللهُ بها هي (الدَّبور)، الريحُ الشرقيةُ النحسة.

روى البخاري [برقم: ١٠٣٥] ومسلم [برقم: ٩٠٠] عن ابن عباس رضي

الله عنهما عن رسولِ الله ﷺ قال: «إني نُصرتُ بالصَّبا، وإنَّ عاداً أُهلكتْ بالدَّبور».

الدَّبورُ هي الريحُ الشرقيةُ الجافةُ النحسة، و(الصَّبا) هي الريحُ الغربيةُ المغيثة، التي تحملُ الماءَ والغيثَ بأمرِ الله.

٥ ـ الريح عليهم سبع ليال وثمانية أيام:

أرسلَ اللهُ على عادٍ الريحَ المدمِّرة في أيام نحسات، قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ [فصلت: ١٦]

الأيامُ التي استمرت الريحُ فيها مسخَّرة عليهم مبهمةٌ في سورةِ فصلت من حيثُ العدد، واكتفت الآية بوصفِها بأنها ﴿في أيام نحسات﴾.

والنحسُ هو الشؤم، وهو ضدُّ السعد، فالأيامُ النحساتُ هي الأيامُ المشؤومات.

والأيامُ المبهمةُ في سورةِ فصلت مبينةٌ في سورةِ الحاقة، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦ ـ ٧].

والريحُ الصرصر هي الريحُ الباردةُ شديدةُ البرودة.. وأساسُ (صرصر) هو (صَرّ)، والصَّرُّ هو البردُ الشديد، بدليل قوله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَـٰذِهِ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ [آل عمران: ١١٧].

وكُرِّر لفظُ (صَرّ) فصارَ (صرصر) للدلالةِ على تكرارِ المعنى، وأساسُ معنى الصرّ هو الشدّ، فالريحُ الصرصر هي الريحُ الباردةُ شديدةُ البرودة.

وكانَ هبوبُ تلكَ الريح في كلِّ يومٍ من الأيام الثمانية، استمرَّ طيلةَ كلِّ يوم منها، واستغرقَ ليلَ اليومِ ونهاره، وكلَّ ساعةٍ ودقيقةٍ فيه، لم تتوقَّف ولم تضعف ولم تَخِفّ لحظةً واحدة!.

ودليلُ هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ١٩ ـ ٢٠].

فمعنى قوله: ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾: استغرقَت الريحُ كلَّ ساعةٍ ودقيقةٍ

ولحظةٍ من ذلك اليومِ النحسِ المشؤوم!

وهذه الريحُ الصرصرُ (عاتيـة): أي أنها كانتْ شديدةً في هبوبِها وسرعتِها واستمرارِها، فهي قد تجاوزَتْ حدَّها وسرعتَها المعتادة، وزادتْ من شـدَّتِها وبرودتِها وسرعتِها واستمرارِها، حتى وصلتْ إلى كلِّ بيتٍ فيهم، وكلِّ شخصٍ منهم!.

وهذه الريحُ استمرَّت عليهم سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيامٍ حسوماً، كما أخبرتْ آياتُ سورةِ الحاقة.

و(الحسومُ) هي المتتابعة، التي أدّى استمرارُها وتتابُعها طيلةَ الأيامِ الثمانية إلى قطعِ الخيرِ عن قومِ عاد، وقطعِ أعمارِهم وأخبارِهم وآثارِهم.

وأساسُ معنى (الحسم) هو القطعُ وإزالةُ الأثر.

قالَ الراغبُ الأصفهاني: «الحَسْم: إزالةُ أثرِ الشيء، يُقالُ: قَطَعَه فحسَمه، أي: أزالَ مادتَه، وبه سُمِّيَ السيفُ حساماً، لأنّه يقطعُ الرأس، وحَسْم الداء: إزالة أثرِه بالكي.

و(ثمانية أيام حسوما): حاسمةٌ لآثارهم، وقيل: حاسمةٌ لخبرِهم، وقيل: قـاطعةٌ لأعمارِهم! وهذه الأقـوالُ كلُّها داخلةٌ في عموم المعنى»[1].

وقد أخبرَنا اللهُ أنَّ هذه الريحَ العقيمَ استمرَّت مسخَّرةً عليهم: ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾.

وهذا يعني أنَّ هبوبَها عليهم كانَ من صباحِ أحدِ الأيام، منذ شُروقِ شمسِ ذلك اليوم وطلوعِ نهارِه، واستمرَّت ثمانيةَ أيامٍ متتابعة!.

والأيامُ الثمانيةُ تضمُّ سبعَ ليال، فلو أردْنا أن نعدَّ ثمانيةَ أيامٍ من صباحِ يوم السبت، إلى نهايةِ نهار السبتِ من الأسبوعِ الثاني، فإننا نعدُّ سبعَ ليال.

واليومُ قد يعبَّر به عن النهارِ من شروقِ الشمسِ إلى غروبِها، كما هو هنا: (وثمانية أيام حسوما).

وقد يعبَّر به عن الليلِ والنهارِ معاً، باعتبارِهما جزءان من اليوم: الليلُ يُمثِّل

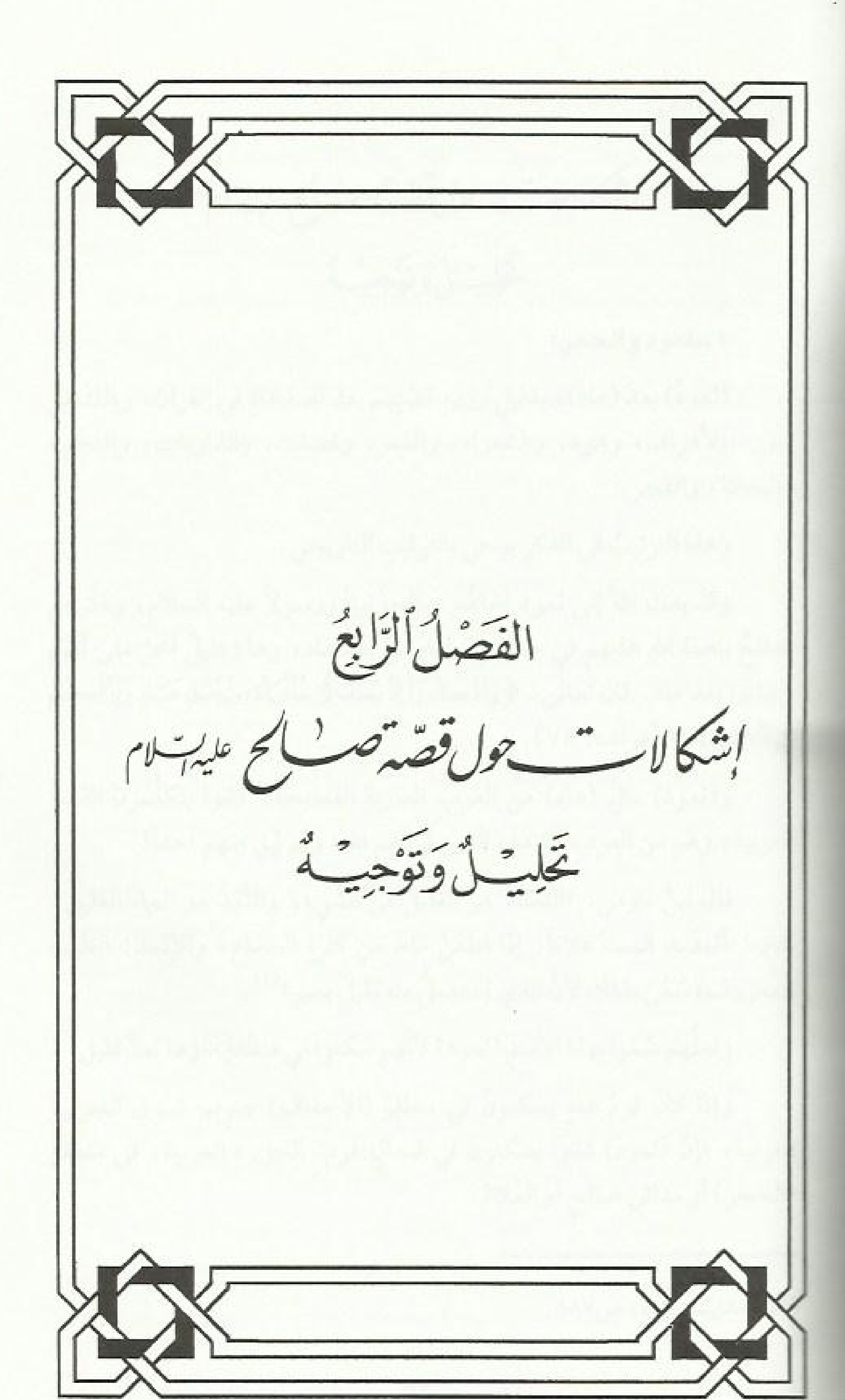
---

(١) المفردات، ص٢٣٥.

الجزءَ المظلمَ حيثُ ينامُ ويسكنُ الناس، والنهارُ يمثّل الجانبَ المشرقَ حيثُ يتحرّكُ ويعملُ الناس. كما في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [البقرة: ١٨٣ ـ ١٨٤].

كلُّ يوم من الأيامِ الثمانيةِ يومُ نحس: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: ١٩]. وهي أيامٌ نحسات: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾! [فصلت: ١٦].

* * *



الفَصْلُ الرَّابِعُ

إشكالات حول قصّة صالح عليه السلام

تحليلٌ وتوجيهٌ

الفَصْلُ الرَّابِعُ

إشكالات حول قصة صالح عليه السلام

تَحْلِيلٌ وَتَوْجِيهٌ

١ ـ ثمود والحجر:

(ثمودُ) بعدَ (عاد)، بدليلِ ورودِ قصّتِهم بعدَ قصةِ عادٍ في القرآن، وذلكَ في سور: الأعراف، وهود، والشعراء، والقمر، وفصلت، والذاريات، والنجم، والحاقة، والفجر.

وهذا الترتيبُ في الذكرِ يوحي بالترتيبِ التاريخي.

وقد بعثَ اللهُ إلى ثمودَ أخاهُم صالحاً نبياً ورسولاً عليه السلام، وذكَّرهم صالحٌ بنعمةِ اللهِ عليهم في جعلِهم خلفاءَ من بعدِ عاد، وهذا دليلٌ آخرُ على أنهم وُجدوا بعد عاد. قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٧٤].

و(ثمود) مثلُ (عاد) من العربِ العاربةِ الفصيحة، كانوا يتكلّمون اللغةَ العربية، وهم من العربِ البائدة، الذين أبادَهم الله، ولم يُبقِ منهم أحداً!.

قالَ ابنُ فارس: «الثَّمَدُ: هو القليلُ من الشيء، والثَّمَدُ هو الماءُ القليل، يُقال: أثمدَت النساءُ فلاناً: إذا قطعْنَ ماءَه من كثرةِ الجماع، والإثمد: الطيب المعروف، سُمّيَ بذلك لأنَّ الذي يُستعملُ منه قليلٌ يسير»[1].

ولعلَّهم سُمّوا بهذا الاسمِ (ثمود) لأنّهم سكنوا في منطقةٍ ماؤها ثمدٌ قليل!.

وإذا كانَ قومُ عادٍ يسكنونَ في منطقةِ (الأحقاف) جنوبِ شرقِ الجزيرةِ العربية، فإنَّ (ثمودَ) كانوا يسكنونَ في شمالِ غربِ الجزيرةِ العربية، في منطقةِ (الحجر) أو مدائن صالح أو العُلا!.

---

(١) مقاييس اللغة، ص١٨٧.

وقومُ ثمود هم أصحابُ الحِجْر، المذكورون في القرآن، وهناك سورةٌ في القرآن تسمَّى (سورة الحجر) لأنَّه أُشيرَ فيها إلى أصحاب الحِجْر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٠ ـ ٨٢].

وكانوا ينحتُون بيوتَهم في الجبال، كما قالَ اللهُ عنهم: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾ [الفجر: ٩].

ومعنى (جابُوا) في الآية: قطعوا. ومعنى الآيـة أنَّ ثمودَ قطعوا الصخرَ بالوادي في منطقةِ الحِجْر، ونحتُوا بيوتَهم في الجبال، وقد كانوا ماهرين في نحتِ البيوتِ في الصخر، وذَكَّرهم نبيُّهم صالحٌ عليه السلام بمهارتِهم في نحتِ الجبال. قالَ تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩].

ومعنى (فارهين): حاذقين ماهرين. وهذه شهادةٌ لهم بأنهم كانوا ماهرين في نحتِ البيوتِ في الجبال، يفعلونَ ذلكَ في غايةِ الإتقان!.

ومنطقةُ (الحِجْر) التي أقامَ فيها قومُ ثمود تقعُ في شمالِ غربِ الحجاز، على الطريقِ القديمِ الذي يربطُ المدينةَ بتبوك!.

وتُسمَّى المنطقةُ الآن (العُلا)، وفيها أوديةٌ صخريةٌ جميلة، بيوتها منحوتةٌ في الصخر، وهي تُشبه (البتراء) المدينةَ الأثريةَ في جنوب الأردن، إنْ لم تكن أجملَ منها!.

٢ ـ الناقة تشرب ماء العين في يوم!!:

جعلَ اللهُ لصالحٍ عليه السلام آيةً بيّنة، دالةً على نبوته، وهي الناقة، وكانت ناقةً خاصةً في خَلْقِها وصفاتها، وليستْ كباقي (النياق) التي عندَ ثمود.

لم يخبرْنا اللهُ في القرآن عن كيفيةِ خَلْقِ الناقة، ولا توجدُ أحاديثُ صحيحةٌ تفصِّلُ ذلك، فلا نخوضُ فيه، علماً أنَّ الإسرائيلياتِ قد فصَّلت الحديثَ عن خلْقِها من الصخرة!! ولكنَّ هذا الكلامَ لا دليلَ عليهِ عندنا!.

وقد أخبرَنا اللهُ عن كلامِ صالح عليه السلام مع قومِه عن الناقة، ونهيِهم عن مسِّها بسوء، لئلا يوقعَ اللهُ بهم العذاب! قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً

﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣]

وإضافةُ الناقة إلى اللهِ إضافةُ تشريفٍ وتكريمٍ لها، لأنها ناقةٌ خاصة، مثل إضافةِ البيتِ إلى الله ـ الكعبة ـ حيثُ يُقال: هذه الكعبة بيتُ الله!.

وليست الإضافةُ للتمليك، بمعنى أن اللهَ يملكُ الناقة، كما يملكُ أحدُهم ناقته، فهذا معنى مرفوضٌ هنا، لأن الكونَ وما فيه كلّه ملكٌ لله وحده.

والخارقةُ في الناقةِ هي في شُربها للماء، فلم يكنْ شُربها للماءِ شرباً عادياً، إنّما كانَ شُرباً خاصاً خارقاً.

قال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝١٥٥ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥ ـ ١٥٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ۝٢٧ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ [القمر: ٢٧ ـ ٢٨].

لقد كانَ ماءُ العين عندَ ثمودَ قسمةً بينهم وبين الناقة! بحيثُ يشربون هم ماء العين يوماً، يكونُ ماءُ العينِ في هذا اليومِ لهم ولدوابهم، بينما تشربُ الناقةُ وحدَها ماءَ العينِ كلّه في اليوم التالي! وهكذا يكونُ شربُ ماءِ العينِ بالتناوب بينهم وبين الناقة، كما صرّحت الآيات.. وفي يومِ شربِ الناقةِ يجبُ على قومِ ثمود أن يُخلّوا بينها وبين شُرب العين، فلا يمنعوها منه، ولا يمسُّوها بسوء!.

الخارقةُ في الناقةِ أنها تشربُ ماءَ العين كلّه في يومها! وهذا غيرُ معهود للبشر! أما كيفَ كانت الناقةُ تشربُ ماءَ العين وحدَها؟ وأين كانتْ تضعُه؟ فهذا لا نعرفُ الجوابَ عليه، لكنّنا لا نستغربه، لأنَّ هذه الناقةَ معجزة، وشربُها لماءِ العينِ كلّه في يومٍ معجزةٌ أيضاً، وهذا من فعلِ الله، الفعّال لما يريد، وبما أنه أخبرَنا عن ذلك في القرآنِ فنحنُ نؤمنُ به.

٣ ـ توجيه كون صالح عليه السلام من (المسحَّرين):

من جملةِ الاتهاماتِ التي اتّهمها قومُ ثمودَ لنبيّهم عليه السلام أنه (من المسحرين)، وأخبرَنا اللهُ عن هذا الاتّهام في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ۝١٥٣ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣ ـ ١٥٤].

و(المسحَّرين) جمع، مفردُه (مُسَحَّر) وهو اسمُ مفعولٍ من الفعلِ الماضي الرّباعي: (سحّر)، تقول: سَحَّر، يُسَحِّر، فهو مُسَحِّر ومُسَحَّر!.

ونفسُ الاتّهام وجهَه قومُ مدين لنبيِّهم شُعيب عليه السلام. قال تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ۝١٨٥ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [الشعراء: ١٨٥ ـ ١٨٦].

ما معنى (المسحَّرين)؟.

إنها مرتبطةٌ مع الجذرِ الثلاثي لها: (سَحر).

قالَ ابنُ فارس: «السَّحر يُطلقُ على أصولٍ ثلاثة متباينة:

الأول ـ السَّحْر: وهو ما لصقَ بالحلقومِ والمريءِ من أعلى البطن.

الثاني ـ السِّحْر: وهو إخراجُ الباطلِ في صورةِ الحقّ، للخداع.

الثالث ـ السَّحَر: وهو الزّمانُ الذي يكونُ قُبيلَ الصبح»[1].

ولما اتّهم قومُ ثمودَ أخاهم صالحاً عليه السلام بأنه من المسَحَّرين، لعلّهم أرادوا المعنى الأول والثاني من معاني السحر.

قالَ الإمامُ الراغب: «قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾.

قيل: أنتَ ممن جُعِل له (سَحر) تنبيهاً إلى أنه محتاجٌ إلى الغذاء، وهذا كقولِه تعالى: ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان: ٧]، ونبّهوا إلى أنه بشرٌ في قولهم له: ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ [الشعراء: ١٥٤].

وقيل: معناهُ أنتَ ممن جعلَ له (سِحر) يتوصلَ بلطفِه ودقتِه إلى ما يأتي به ويدَّعيه»[2].

أيُّ المعنيَيْن أرجح؟ هل كونُه من المسحَّرين لأنّه يملكُ السَّحْرَ ويحتاجُ إلى الغذاء، أم كونُه من المسحَّرين الذين أوتوا السِّحر خداعاً للناس؟.

الأرجحُ هو المعنى الأول. لأنَّ الاتهام (إنما أنت من المسحرين) وردَ في

---

(١) مقاييس اللغة، ص٥٠٧.

(٢) المفردات، ص٤٠٠.

سياقِ إنكارهم نبوةَ صالح عليه السلام، لأنه بشرٌ مثلهم: ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ۝١٥٣ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا. . . ﴾.

أي: أنت بشر، لك سَحْر ونَحْر، وحلقومٌ ومريء، وتحتاجُ إلى الطعام والشراب، أنت مثلُنا تماماً فكيفَ تكونُ نبياً؟!.

٤ ـ إهلاك ثمود بالرجفة والصيحة والصاعقة:

أصرَّ قومُ ثمودَ على كفرِهم، وكذَّبوا صالحاً عليه السلام، ولما نهاهُم عن إيذاءِ الناقةِ خالفوهُ وأقدموا على عقرِ الناقة! عند ذلكَ استحقُّوا عذابَ الله، فأمهلهم صالحُ عليه السلام ثلاثةَ أيام، يقعُ بهم العذابُ المدمِّر بعدها!.

وأمرَ اللهُ صالحاً بأنْ يُغادرَ قومَه الكافرين هو والذين آمنوا معه، وفي صباحِ اليومِ الرابعِ أوقعَ اللهُ بهم العذاب.

قال تعالى: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ۝٦٥ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ۝٦٦ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [هود: ٦٥ ـ ٦٧].

وقد أرسلَ اللهُ عليهم الصيحةَ في الصباح. قال تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ۝٨٣ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [الحجر: ٨٣ ـ ٨٤].

وأبادَهم اللهُ بتلكَ الصيحة. قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴾ [القمر: ٣١].

و(المحتَظِر) هو صاحبُ الحظيرة، الذي يبني حظيرةً لِما عندَه من المواشي، ويقدِّمُ لمواشيه العلفَ والطعامَ داخلَ الحظيرة.

و(الهشيم) هو النباتُ اليابس، الذي يُقدَّم للماشيةِ لتأكله.

ومعنى قوله: ﴿ فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴾: أرسلَ اللهُ على قومِ ثمودَ الصيحة، فأبادتهم وقضتْ عليهم، وصاروا هلكى، كالزرعِ اليابسِ الذي يجمعُه صاحبُ الحظيرة، فيطحنُه ويجعلُه (تبناً) مطحوناً لحيواناته.

وقد أطلقَ القرآنُ على العذابِ الذي وقع على قومِ ثمودَ ثلاثةَ أسماء: الصيحة، والرجفة، والصاعقة.

وقد يظنُّ بعضهم أنَّ هذه الأسماءَ الثلاثةَ متعارضة، ويتَّهم القرآنَ بالتناقضِ في حديثِه عن ذلك العذاب، ويقولُ: بماذا عذبهم الله؟ أبالصيحة أم بالرجفة أم بالصاعقة؟.

وعند إمعانِ النظرِ نجدُ أنه لا تَعارضَ بين الأسماءِ الثلاثة، وأنها كلَّها مرادة، وأنَّ الجمعَ بينها سهل.

كلُّ اسمٍ من هذه الأسماء تُلحظُ فيه مرحلةٌ من مراحلِ ذلك العذاب، ودرجةٌ من درجاته:

انشقَّت بهم الأرض وزُلزلت، فسمعوا لانشقاقها صوتاً عالياً وصيحة مدمرة، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٨٣].

ثم نتجَ عن تلكَ الصيحة رجفةٌ قوية، والرجفةُ هي الحركةُ والاضطرابُ الشديد، وهذه الرجفةُ وقعتْ بعدَ الصيحة، لأنه لما انشقت الأرض وسمعوا لها صوتاً عالياً، تحرّكت بهم الأرض حركةً شديدة، وزُلزلتْ زلزالاً كبيراً. قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨].

وبعدَ الصيحةِ والرجفةِ صُعِقَ قومُ ثمودَ بالصاعقة، والصاعقةُ هي الصوتُ الشديدُ في الجو، يكونُ منها نارٌ أو عذاب أو موت! كانوا ينظرون وهم مصعوقون، عاجزون عن الحركةِ أو الهرب، غير قادرين على دفع العذابِ عنهم. وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ﴾ [الذاريات: ٤٣ ـ ٤٥].

وبهذا نعرفُ أنهم عُذِّبوا بعذابٍ واحد، هو صيحة، أعقبتْها رجفة، نتجَ عنها صاعقة.

وبذلكَ دمَّرهم اللهُ ودمدمَ عليهم وأبادهم. قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ [الشمس: ١١ ـ ١٥].

وبذلكَ دُمِّر قومُ ثمود، وذهبوا من الوجود، قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦٧ ـ ٦٨].

٥ ـ ديار ثمود والمرور بآثار المعذبين:

كانَ قومُ ثمود يُقيمونَ في (الحِجْر) بين المدينةِ وتبوك. ولما دمَّرهم الله أبقى آثارهم عبرةً وعظةً لمن بعدهم.

وقد مرَّ رسولُ الله ﷺ مع أصحابِه على ديارِهم، وذلك أثناءَ توجُّهه إلى غزوةِ تبوك، وسنَّ لنا سنَّةً دائمة، نلتزمُ بها عند مرورنا بديارِ الأقوام المعذَّبين.

روى البخاري [برقم: ٣٣٧٨] ومسلم [برقم: ٢٩٨١] عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: لما نزلَ رسول الله ﷺ بالناسِ على تبوك، نزلَ بهم الحِجْر، عندَ بيوتِ ثمود، فعجبوا منها، ونصبوا القدور، فأمرهم رسولُ الله ﷺ فأهرقوا القدور، وعلَفوا العجينَ الإبل، ثم ارتحلَ بهم، حتى نزلَ على البئرِ التي كانتْ تشربُ منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القومِ الذين عُذبوا، وقال: «إني أخشى أنْ يصيبكم مثلُ ما أصابهم: فلا تدخلُوا عليهم..»!.

لقد نهى رسولُ الله ﷺ المسلمينَ عن استعمالِ الماءِ الذي في ديار ثمود، لأنه ماءُ قوم معذبين، وأمرَهم بإراقةِ القدورِ التي طبخوا فيها بذلك الماء، وإطعام العجينِ الذي عجنوه بذلك الماء لدوابهم!.

وهذا النهيُ من رسول الله ﷺ للتنزيهِ وليسَ للتحريم، فهو يرشدُهم بذلك إلى ما هو أولى!.

إن الرسولَ ﷺ يريدُ من المسلمينَ أن تبقى قلوبُهم نافرةً من المعاصي، وأن لا يرضوا نفسياً بالقوم المعذَّبين، ولذلكَ نهاهم عن الإقامةِ في ديارِ قومِ ثمود، وعن الدخولِ عليهم، حتى لا تتغيَّر أو تتأثَّر نظرتهم للعصاةِ والمعاصي.

على المسلمين إذا مرُّوا بديار القوم المعذَّبين ـ في أي مكان ـ أن يمرُّوا مسرعين، وأن لا يُعجبوا بآثارِهم، ولا يفخرُوا بهم، ولا يقتدوا بهم في معاصيهم وفجورِهم، ولا يجوزُ أنْ يجعلوا آثارَهم مواسمَ للفسق، وأنْ يمارسوا عليها المنكرات، ويقيموا عليها المهرجانات!.

لا يجوزُ الإعجابُ بآثارِ القومِ المعذَّبين، لأنَّ هذا الإعجابَ قد يُضعفُ النفورَ من المعاصي، وقد يغيِّر النظرةَ الإسلاميةَ عندَهم إلى الكفار، والإسلامُ حريصٌ على أن يبقى الحاجزُ النفسيُّ عالياً بين المسلمين وبين الكفار، وأن تبقى براءةُ المسلمين من الكافرين قوية.

وإذا رأوا أثراً من آثارِهم يثيرُ الإعجابَ فعليهم تذكُّر ما هو الأفضلُ والأعجب، وهو إنعامُ الله عليهم بنعمةِ الإيمان والإسلام! هذا ما علَّمه رسول الله ﷺ للمسلمينَ عند مرورِهم بديارِ ثمود!.

روى الإمام أحمد في المسند [٤ : ٢٣١] عن عامر بن سعدٍ رضي الله عنه قالَ: «لمَّا كانَ رسولُ الله ﷺ في غزوةِ تبوك، تسارعَ الناسُ إلى أهلِ الحِجْر، يدخلون عليهم! فبلغَ ذلكَ رسولَ الله ﷺ، فنادى مناديه في الناس: الصلاةُ جامعةٌ!

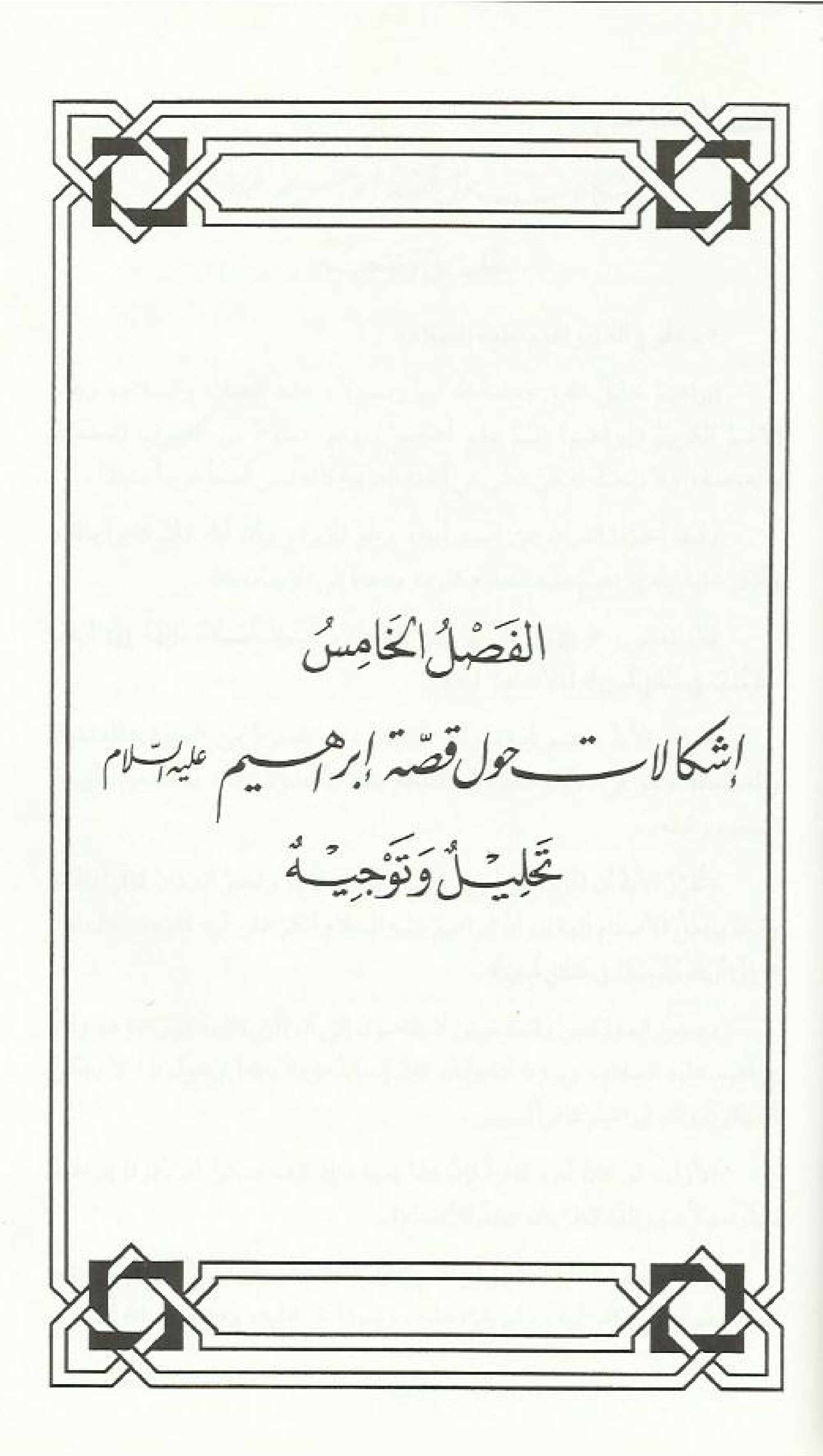
قال عامر بن سعد: فأتيتُ رسولَ الله ﷺ وهو ممسكٌ بعيره، وهو يقول: ما تدخلون على قومٍ قد غضبَ اللهُ عليهم؟.

فقال له رجل: نعجبُ منهم يا رسولَ الله!.

فقال ﷺ: أفلا أنبئكم بأعجبَ من ذلك؟ رجلٌ من أنفسكم، ينبئكم بما كان قبلَكم، وما هو كائنٌ بعدَكم، فاستقيموا وسدِّدوا، فإنَّ اللهَ لا يعبأُ بعذابكم شيئاً، وسيأتي قومٌ لا يدفعون عن أنفسِهم شيئاً!».

وإذا كانَ المرورُ بديارِ القومِ المعذَّبين للعبرةِ والعظةِ فإنَّ هذا مباح، بل هو مطلوب، حثَّ عليه القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١].

* * *



الفَصْلُ الخَامِسُ

إشكالات حول قصّة إبراهيم عليه السلام

تَحليلٌ وتوْجيهٌ

الفَصْلُ الخَامِسُ

إشكالات حول قصّة إبراهيم عليه السلام

تحليلٌ وتوجيهٌ

١ ـ كفر والد إبراهيم عليه السلام:

إبراهيمُ خليلُ الله، جعلهُ اللهُ نبياً رسولاً، عليه الصلاة والسلام، وهذا الاسمُ الكريمُ (إبراهيم) اسمُ علمٍ أعجميّ، وهو ممنوعٌ من الصرفِ للعلميةِ والعجمة، ولا نبحثُ له عن معنى في اللغةِ العربيةِ لأنه ليسَ اسماً عربياً مشتقاً.

وقد أخبرَنا القرآن عن اسم أبيه، وهو (آزر)، وأن أباه كانَ كافراً بالله، وأنكرَ عليه ابنُه إبراهيمُ عليه السلام كفرَه، ودعاهُ إلى الإيمان بالله.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤].

تصرّح الآيةُ باسمِ أبيه، وأنه (آزر). وهو ممنوعٌ من الصرفِ للعلميةِ والعجمة، وهو في الآيةِ مجرورٌ بالفتحةِ بدلَ الكسرة، لأنه بدلٌ من (أبيه) المجرورِ قبله.

وتُقرِّرُ الآيةُ أن (آزر) هو أبو إبراهيم عليه السلام، وتخبرُ أنه كانَ كافراً بالله، وكانَ يجعلُ الأصنامَ آلهة، وأنَّ إبراهيمَ عليه السلام أنكرَ على أبيه كفرَه، وقال له: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

وبعضُ المؤرّخين والمفسّرين لا يذهبون إلى أن (آزر) المذكورَ هنا هو والدُ إبراهيم عليه السلام، ويرون أن والدَه كانَ إنساناً مؤمناً بالله! ويقولون: لا يمكنُ أن يكونَ والد إبراهيم كافراً لسببين:

الأول: لو كانَ أبوه كافراً فإنَّ هذا يعيبه، إذ كيفَ يمكنُ أن يكونَ إبراهيمُ نبياً رسولاً، ووالدُه كافرٌ بالله عابدٌ للأصنام!.

ولا نرى في هذا ما يضيرُ إبراهيمَ عليه السلام أو يُعيبه، لأنَّ إبراهيمَ عليه السلام لم يرضَ بكفرِ أبيه، ولم يقرّه عليه، وإنما أنكرَ عليه، ودعاهُ إلى الله!.

الثاني: والدُ إبراهيمَ هو أحدُ أجدادِ رسولِنا محمد ﷺ، ولو كانَ كافراً فإنَّ هذا يتناقضُ مع ما يعرفُه الناسُ من أنَّ كلَّ أجدادِ رسولِ الله ﷺ كانوا مؤمنين بالله، موحِّدين له، وأنه كان يتقلَّب في أصلاب هؤلاء الرجالِ المؤمنين الساجدين!.

وهذا كلامٌ غيرُ صحيح، ولا دليلَ عليه، بل إنَّ دعوى إيمانِ كلِّ أجدادِ رسولِ الله ﷺ دعوى مردودة، فقد ثبتَ أنَّ بعضَ أجدادِه لم يكن موحِّداً لله، بل كانَ عابداً للأصنام، وفي مقدمةِ هؤلاء جدُّه المباشرُ (عبد المطلب)، فلم يكنْ موحِّداً لله، وإنما كان على دينِ قومِه من عبادةِ الأصنام.

وهاهو (آزر) أحدُ أجدادِ رسولِ الله ﷺ، كانَ يتَّخذُ الأصنامَ آلهة!.

والذين ذهبوا إلى أنَّ والدَ إبراهيمَ عليه السلام كانَ مؤمناً بالله، قالوا: لم يكنْ اسمُ والدِه آزر!! والآيةُ تقول: ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾!.

وقالوا: كانَ (آزر) عمَّ إبراهيم عليه السلام، وأطلقَ عليهِ أنه (أبوه) من بابِ المجازِ وليسَ الحقيقة، فقد يُطلَقُ على العمِّ والجدِّ أباً من بابِ الاستعمالِ المجازي! كما فعلَ أبو طالب عمُّ رسول الله ﷺ، فلما سألَه الراهبُ (بُحَيْرى) عن (أبِ) الفتى (محمد)؟ قالَ له: أنا أبوه!! فقالَ له (بحيرى): لا يمكنُ أن يكون أبوه حياً!! فقال: نعم، ماتَ أبوه وهو في بطنِ أمه، فكفلتُه أنا، وأنا عمُّه!!.

وهذا كلامٌ عليه مآخذُ كثيرة، ثم إنَّ قصةَ (الراهب بُحَيْرى) لم تثبت ولم تصحَّ!.

والأصلُ هو إطلاقُ كلمةِ (الأب) على الوالدِ حقيقة، وعلى العمِّ أو الجدِّ مجازاً، ولا نذهبُ إلى المعنى المجازي إلا عندَ تعذُّر حملهِ على الحقيقة!.

وحَمْلُ (الأب) على الوالدِ في الآيةِ ليسَ متعذراً ولا ممنوعاً، والأصلُ حملُه هنا على الحقيقة. فنقول: (آزر) هو أبو إبراهيم على الحقيقة، ووالده على الحقيقة، وكانَ أبوه عابداً للأصنام، كافراً بالله!!.

وهذا لا يعيبُ إبراهيمَ عليه السلام، لأنه لم يرضَ بكفره، بل أنكرَ عليه، ودعاه إلى الإيمان بالله، والواجبُ على إبراهيمَ عليه السلام دعوةُ أبيه إلى الإيمان، وليسَ واجباً عليه قذفُ الإيمان في قلبه، فإنْ أصرَّ على كفرهِ فلا يُلامُ إبراهيمُ عليه السلام على ذلك!.

ومما يدلُّ على أنَّ والدَ إبراهيمَ كان كافراً آياتٌ أُخرى من القرآن:

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤١ ـ ٤٦].

والخلاصةُ في هذه المسألة: آزرُ هو أبو إبراهيم، ووالدُه الذي أنجبه، وكانَ أبوهُ كافراً بالله، يعبدُ الأصنام ويتخذها آلهة، وقد أنكرَ عليه إبراهيمُ عليه السلام ذلك، ودعاهُ إلى الإيمانِ بالله، والتخلّي عن عبادةِ الأصنام، لكنَّ أباه رفضَ دعوتَه، وأصرَّ على كفرِه. وكفرُه لا يعيبُ إبراهيمَ عليه السلام ولا يُنقصه، ولا يسببُ له اللوم، لأنه لم يرضَه منه، ودعاهُ إلى التخلّي عنه.

٢ ـ توجيه استغفار إبراهيم لأبيه:

لمَّا أصرَّ والدُ إبراهيم عليه السلام على كفرِه، وردَّ عليهِ دعوتَه بغلظةٍ وفظاظة، ردَّ عليه إبراهيمُ بحلمٍ وهدوء، ووعدَه أن يستغفرَ اللهَ له.

قال تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٦ ـ ٤٧].

ونفَّذ إبراهيمُ وعدَه لأبيه بالاستغفار، واستغفرَ الله له، وطلبَ من الله أن يغفرَ له.

واستغفارُه لأبيه مبنيٌّ على إيمانِه بالله، أي: إنْ آمن أبوه طلبَ منَ اللهِ أن يغفرَ له، أما إن لم يؤمن، وأصرَّ على كفره، فلن يغفرَ اللهُ له، لأنَّ إبراهيمَ عليه السلام يعلمُ أن اللهَ لا يغفرُ لإنسانٍ كافر بالله، ماتَ على كفرِه وشركه، فهذه (مسألة اعتقادية) جاءَ بها جميعُ الرسل، ويعلمُها جميع الرسل.

إذن: لا يُلام إبراهيمُ على استغفارِه لأبيه، لأنَّ استغفارَه له مشروطٌ بالإيمان، كأنه باستغفارِه يقول: اللهمَّ إنْ آمنَ أبي فاغفرْ له!.

وقد أخبرَنا اللهُ عن استغفارِه لأبيه، في قوله تعالى: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦].

ولكنَّ أباهُ لم يؤمن، وأصرَّ على كفره، عند ذلكَ لم يستمرّ إبراهيمُ عليه السلام في استغفارِه له، وإنما تبرّأ منه، وقطعَ صلتَه به.

وآياتُ القرآنِ في هذا صريحة، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٣ ـ ١١٤].

تنهى الآيةُ المؤمنين عن الاستغفارِ للكافرين المشركين، ولو كانَ الكافرُ أباً أو ابناً للمسلم، وذلكَ بعد أن يدعو المسلمُ قريبَه الكافرَ إلى الله، فيرفضُ الكافرُ الدعوة، ويختارُ الكفر، عند ذلكَ يتبيّنُ للمؤمن أن قريبَه الكافرَ من أصحابِ الجحيم!.

وحتى لا يستشهدَ أحدُهم بفعلِ إبراهيم عليه السلام، وحتى لا يستغفرَ لقريبِه الكافرِ مقتدياً بإبراهيم في استغفاره لأبيه، فقد وضّحت الآيةُ ملابساتِ ذلك: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾.

والمعنى: استغفرَ إبراهيمُ عليه السلام لأبيه بسببِ الوعدِ الذي وعدَه إياه، حيثُ وعدَ أباه أن يستغفرَ له، وذلك في قوله: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧].

وعدَ إبراهيمُ عليه السلام أباه أن يستغفرَ له لأنهُ طمع في إيمانه، وجعلَ استغفارَه له مشروطاً بالإيمان، أي طلبَ من اللهِ أن يغفرَ له إن آمن، وبما أنه وعدَه بذلك، وما زالَ طامعاً في إيمانه، فلا يملكُ إلا أن يُنفذ وعده!.

لكنْ ماذا حصل بعد استغفارِه لأبيه؟ أصرَّ الأبُ على كفرِه، وتبيَّن لإبراهيم عليه السلام عنادَ أبيه، واتّباعِه للشيطان، وعداوتَه لله!!.

هذا هو المهمّ! فماذا كانَ موقفُ إبراهيم عليه السلام من أبيه، بعدما تبيَّن له كفرُه وعداوتُه لله؟ هل استغفرَ له بعد ذلك؟ وهل استمرَّ في موالاته له؟ إنه لو فعلَ ذلك ـ وحاشاه ـ لكانَ مخطئاً مؤاخذاً!.

عندما تبيَّن له حقيقةُ موقفِ أبيه تبرّأ منه: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾.

لقد تبرّأ إبراهيمُ من أبيه في النهاية، وأظهرَ عداوتَه له ولقومه، وقد عاشَ أبوه (آزر) في الدنيا كافراً، وماتَ كافراً!.

بقيتْ في مسألةِ الصلةِ بين إبراهيم عليه السلام وأبيه الكافر آزر نقطة، وهي ما سيجري بينهما يومَ القيامة، ومصيرُ أبيه في ذلك اليوم.

روى البخاري [برقم: ٣٣٥٠] عن أبي هريرة رضي الله عنه: عن رسولِ الله ﷺ قال: «يلقى إبراهيمُ أباه آزرَ يوم القيامة، وعلى وجهِ آزرَ قترة وغبرة.

فيقولُ له إبراهيم: ألم أقلْ لكَ لا تعصني؟.

فيقولُ له أبوه: اليومَ لا أعصيك!.

فيقولُ إبراهيم: يا ربِّ إنك وعدتَني أن لا تُخزني يومَ يُبعثون، وأيّ خزي أخزى من أبي الأبعد؟.

فيقولُ الله: إنّي حرمتُ الجنةَ على الكافرين.

فيقال: يا إبراهيم: انظر ما بين رجليك، فينظر فإذا هو بذيخٍ متلطِّخ، فيؤخذ بقوائمه، فيُلقى في النار!».

ينصُّ الحديثُ على أنَّ إبراهيمَ عليه السلام يلقى أباه يومَ القيامة، وتعلو وجهَ آزرَ غبرة وقَتَرَة لأنه كافر، وعندما يُذكِّر إبراهيم أباه بتحذيرِه له من هذا الموقفِ لما كان في الدنيا، يُظهر أبوه استعدادَه لطاعته والدخولِ في دينِه! لكن متى؟ بعد فواتِ الأوان.

ويسألُ إبراهيمُ عليه السلام ربَّه عن نهايةِ أبيه: يا رب لقد وعدتَني أن لا تُخزني يومَ القيامة، وأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟.

أي: كيفَ ستكونُ نهايةُ أبي؟ وكيف ستتفقُ هذه النهايةُ مع عدمِ خزيي، لأنه أبي؟.

وليسَ هذا القولُ من إبراهيمَ عليه السلام شفاعةً لأبيه، ولم يطلبْ بهذا الكلامِ من اللهِ أن يدخلَه الجنة، لأنه يعلمُ أن أباه ماتَ كافراً، وقد تبرأ منه في الدنيا، فلن يشفعَ له بدخولِ الجنةِ في الآخرة، لأنه يعلمُ أن اللهَ حرَّم الجنةَ على الكفار!.

ويُطمئِنُ اللهُ إبراهيمَ عليه السلام بأنه لن يُصابَ بالخزيِ بسببِ كفرِ أبيه، لأنه لن يدخلَ النار على صورته الآدمية البشرية، حتى لا يُقال: انظروا، ها هو آزر والدُ إبراهيم، يؤخَذُ ليُلقى به في النار!!.

سيمسـخُ اللهُ (آزرَ) ويحوّلـه إلى (ذيخ)! والذيخُ هو ذكرُ الضبع، كثيفُ الشعر، هذا الذيخ يكوم متلطِّخاً برجيعه وقاذوراته، وهي صورةٌ منفرةٌ مقززة.

يؤخَذُ بقوائمِ هذا الضبع، ويُلقى في النارِ على هذه الصورة، ويبدو أنه عندما يستقرُّ في النارِ يعيدُه الله إلى صورتِه الآدمية، على أنه (آزر) الكافر!.

ويكونُ مسخُه (ذيخاً) حيواناً إكراماً لإبراهيم، حتى لا يؤذى يومَ القيامة، ولا تتأثَّر مشاعرُه، عندما يرى الناسُ أباه مأخوذاً به إلى جهنم!.

هذه هي صلةُ إبراهيمَ عليه السلام بأبيه في الدنيا، انتهتْ ببراءتِه منه لكفره، وهذه هي نهايةُ أبيه يومَ القيامة، مخلَّداً في نارِ جهنم!.

٣ ـ توجيه قول إبراهيم عن الكوكب (هذا ربي):

دعا إبراهيمُ عليه السلام قومَه إلى الإيمان بالله، وأبطلَ كون الكواكبِ التي عبدوها آلهة.

وقد أخبرَنا اللهُ عما قالَه لقومِه، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ۝٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ۝٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ۝٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥ ـ ٧٩].

إنَّ إبراهيمَ عليه السلام قالَ عن كلٍّ من الكوكبِ والقمرِ والشمس: (هذا ربي)، وفي هذا القولِ إشكال!! إذ كيفَ يقولُ عن الكوكب: هذا ربّي وهو النبيّ؟ هل قالَ هذا ظاناً أنه يمكن أن يكون إلـهاً؟ وهل يتفقُ هذا مع نبوته؟ وهل كانَ في قوله يبحث عن إلـه؟ وهل كانَ هذا القولُ قبل النبوةِ أم بعدها؟.

ذهبَ بعضُ المفسِّرين والمؤرِّخين إلى أنَّ إبراهيمَ عليه السلام قال هذا قبل

النبوة، وأنّه كانَ يبحثُ عن إلـه! لأنه شاهدَ قومَه يعبدونَ الأصنام، وفطرتُه رفضتْ اعتبارَ الأصنامِ آلهة، لأنها جمادات محسوسة!.

وإذا لم تكنِ الأصنامُ التي يعبدُها قومُه آلهةً فمن هو الإلـهُ إذن؟ فكَّرَ إبراهيمُ مليّاً، ولما دخلَ الليلُ وانتشرَ الظلامُ رأى كوكباً مضيئاً في السماء، فظنَّ أنه من الممكنِ أن يكون إلـهاً، ولكنَّ هذا الكوكبَ غاب، فرفضتْ فطرتُه أنْ يكونَ إلـهاً لأنه غاب! والإلـه لا يجوزُ أنْ يغيب!! وفي الليلةِ التاليةِ رأى القمرَ طالعاً بازغاً كبيراً مضيئاً، فظنَّ أن من الممكنِ أن يكونَ إلـهاً، ولكنهُ غابَ فهو ليسَ إلـهاً!! وفي النهارِ رأى الشمسَ مشرقة، فظنَّ أنه يمكنُ أن تكونَ إلـهاً، وقالَ عنها: ﴿هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ﴾! ولكنها غابت، فلم تصلح أن تكون إلـهاً.

عند ذلكَ أسعفهُ الله، ودلَّه عليه، فعرفَ أنَّ الإلـه هو اللهُ ربُّ العالمين! وقال: ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

وهذا كلامٌ مردودٌ عندنا، وفهمٌ للآيات غيرُ سديد، لأنه يتعارضُ مع عصمةِ الأنبياء، فمنَ المعروفِ أن الأنبياءَ معصومون عن الشركِ بالله قبلَ النبوةِ وبعدَها، فكيف يكونُ إبراهيمُ عليه السلام يبحثُ عن إلـهه قبلَ النبوة، ويتوقعُ أن يكونَ هذا الكوكبَ أو القمرَ أو الشمس، ثم يهتدي إلى خالقهِ في النهاية؟.

لم يكنْ إبراهيمُ عليه السلام في مقامِ نظرٍ وبحثٍ عن اللهِ عندما قالَ ما قال، إنما كان في مقامِ مناظرةٍ وجدالٍ مع قومه، الذين كانوا يعبدونَ الكواكبَ ويتخذونها آلهة، وأرادَ إبراهيمُ عليه السلام إبطالَ كونها آلهة، وإقامةَ الحجّةِ على قومِه، فقال ما قال، وكانَ هذا المشهدُ بعدَ نبوَّته وليسَ قبلها!.

ذهبَ إبراهيمُ النبيُّ عليه الصلاة والسلام إلى قومِه الذين كانوا يعتبرون الكواكبَ آلهة، بهدفِ إقامةِ الدليلِ على إبطالِ ألوهيتها، وإثباتِ ألوهيةِ اللهِ وحدَه، عن طريقِ (المنطق الجدلي البرهاني).

قعدَ مع قومِه في الليل، فرأى كوكباً منيراً، وكانَ قومُه يعتبرونَه رباً، فقال لهم: (هذا ربي)!.

أي: هذا ربي كما تقولون أنتم! فأنتم تعتقدونَ أنه ربٌّ وتعبدونه، تعالوا ننظر: هل يصلحُ أن يكونَ رباً معبوداً؟.

بعدَ فترةٍ غابَ الكوكب، فقالَ لهم: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾: أي لا أؤمنُ بربٍّ يغيب، لأنَّ الربَّ لا يغيبُ عن الكون، وبما أن الكوكبَ غابَ فقد بطلَ كونُه رباً!.

وفي ليلةٍ أخرى قعدَ مع قومه، فرأى القمرَ طالعاً منيراً، بدراً كبيراً، فقال لهم: (هذا ربي)!. أي: هذا ربي كما تعتقدون، تعالوا ننظر: هل يصلحُ أن يكونَ هذا القمرُ رباً معبوداً!.

ولما غابَ القمرُ بطلَ احتمالُ كونِه رباً، لأن الربَّ لا يغيب، ولذلكَ قالَ لهم: ﴿لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: أنتم ضالون في اعتباركم القمرَ الغائب إلهاً، وعليكم أن تتخلَّوا عن هذا الضلال، أما أنا فلستُ ضالاً مثلكم، لأنني أؤمنُ باللهِ ربِّ العالمين!.

وفي يومٍ آخرَ قعدَ مع قومِه في النهار، فرأى الشمسَ بازغةً مشرقة، فقال: ﴿هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُ﴾!.

أي: أنتم تعتقدونَ الشمسَ رباً، لأنها أكبرُ من القمرِ ومن الكوكب! تعالوا ننظر: هل تصلحُ الشمسُ أن تكونَ رباً معبوداً.

ولما غابت الشمس، بطلَ احتمالُ كونِها رباً، وبذلكَ أقامَ عليهم الحجةَ العقلية، باستخدامِ (المنطق الجدلي البرهاني المقنع)!.

لقد تنازلَ إلى مستوى تفكيرِهم الساذج ليُقنعهم: سلَّمتُ لكم ـ جدلاً ـ أن الكوكب ربّي! لكنَّه غاب، والرب لا يغيب! ثم سلَّمتُ لكم جدلاً أنّ القمرَ ربّي! لكنَّهُ غاب، والربُّ لا يغيب! ثم سلَّمتُ لكم جدلاً أن الشمسَ ربّي! لكنها غابت، والربُّ لا يغيب!! كلامٌ مقنع يلمسُ القلبَ والعقلَ والفطرة.

وبعدما أبطلَ كونَ هذه الثلاثة أرباباً آلهة صارحَهم بشركِهم، وببراءتِه من شركِهم، وإيمانِه باللهِ ربِّ العالمين وحدَه لا شريكَ له، فقال لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

إذن قولُ إبراهيمَ عليه السلام عن الكوكبِ (هذا ربي) في مقامِ مناظرتِه لقومه، الذين كانوا يعتبرونَه رباً، بهدفِ إبطال كونه رباً، وإثباتِ ربوبيةِ اللهِ وحدَه،

وقد نجحَ إبراهيمُ عليه السلام في مناظرتِه وجدالِه ونقاشِه. . وأثنى اللهُ عليه في منطقِه وكلامه، فقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣].

أي أنَّ اللهَ هو الذي علَّمه أن يقولَ هذا القول، وأنْ يقدِّم لقومِه هذه الحجة.

وكانَ إبراهيمُ عليه السلام مؤمناً بالله، ونبياً رسولاً داعية، عندما قالَ ما قال. قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥].

٤ ـ نجاح إبراهيم عليه السلام في حواره مع الملك:

دعا إبراهيمُ عليه السلام مَلِكَ قومِه إلى الله، وكان ذلك الملكُ كافراً ظالماً طاغية، يَدَّعي الألوهية، وقد أفحمَه وأقامَ عليه الحجة، وسجَّل القرآنُ بعضَ ما جرى بينهما. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

بعضُ المفسِّرين والمؤرِّخين ذهبوا إلى الإسرائيليات لأخذِ تفصيلات منها عن الملكِ ومظاهرِ قوتِه وعاصمتِه ودولته وطغيانِه، ثم كيف كان ادّعاؤه الألوهية، وكيفَ كانتْ نهايته! فذكروا أنَّ اسمه (نمرود)، وأنّه كانَ ملكاً على (بابل)، وأنَّ اللهَ أذلَّه في النهايةِ بالبعوضة، التي دخلتْ دماغَه ـ عن طريقِ أنفه ـ وأنّها كانتْ (تطنُّ) في رأسه، فيطلبُ ضربَه بالنعال، ليخفَّ الألم!!.

ولا نقولُ بهذا، ونتوقَّفُ في بيانِ (مبهمات) قصةِ هذا الملك، ولا توجدُ أحاديثُ صحيحةٌ عن رسولِ الله ﷺ، تضيفُ شيئاً إلى ما ذكرَه القرآن، ونبقى نحن مع القرآن، فنقول: كانَ الملكُ كافراً، وكانَ يدَّعي الألوهية، ويطلبُ من الناس أنْ يؤلِّهوه ويعبدوه، فتوجَّهَ إليه إبراهيمُ عليه السلام، وحاجَّه وجادلَه وناقشَه، وأقامَ عليه الحجة، ونجحَ في إفحامِه ونقضِ دعواه، وإثباتِ وحدانيةِ الله، في ألوهيَّته وربوبيَّته، وتفرُّده في الأمر والتدبير!.

اغترَّ الملكُ بالمُلْكِ الذي آتاه اللهُ إياه، ونسيَ أنه منحةٌ وابتلاءٌ من الله،

ورأى نفسه بهذا المُلْكِ الكبيرِ إلـهاً: ﴿ ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ ﴾ .

ولما أرادَ إبراهيمُ عليه السلام إبطالَ كونه إلـهاً، ذكَرَ الموتَ والحياة، وأنهما بيدِ الله وحدَه، فقال للملك: ﴿ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ .

أي: اللهُ الخالق، الذي يخلقُ الناس، فيجعلُهم يولَدون ويحيون ويعيشون، ويمنحُهم الحياةَ والصحةَ والعافية.. وبعد ذلكَ هو الذي يميتهم عند دنوِّ آجالهم، فيقبضُ أرواحَهم.. لا يشاركُه أحدٌ سبحانه في إحياءِ الناس، ولا في إماتتهم! فهو المحيي والمميت!.

ومقصودُ إبراهيم عليه السلام من هذا إثباتُ وحدانيةِ الله، ونفيُ الشركِ عنه، فبما أنه لا يشاركُ اللهَ سبحانَه أحدٌ في الإحياءِ والإماتة، فكذلك لا يشاركُه أحدٌ في الألوهيةِ والربوبيةِ والعبادة!.

لكنَّ الملكَ المغرورَ لم يسلِّمْ بأنَّ اللهَ وحدَه هو الذي يُحيي ويميت، فادّعى أنه أيضاً يحيي ويميت! أي ادّعى أنه إلـه شريكٌ مع اللهِ في الإحياءِ والإماتة، فقال: ﴿ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ﴾ !.

إنَّ المغرورَ لم يُفرِّق بين الأسبابِ والمسبَّبات في عالمِ الإحياءِ والإماتة! هو قد يكون سبباً في الإحياءِ والإماتة، لأنه يأمرُ وينهى، فقد يأمرُ بإعدامِ شخص وبذلك يكون سبباً مباشراً في موتِه، وقبلَ تنفيذِ أمرِه بالإعدامِ قد يعفو عنه، فيكونُ سبباً في حياته!.

هذا صحيح، لكنْ مَنْ هو المسبِّبُ والمقدِّرُ والمريد؟ إنّه الله وليس هو! اللهُ هو الذي يُميتُ الشخصَ الذي أمرَ الملكُ بقتله، والله الذي يريدُ حياتَه فيُلهمَ الملكَ بالعفوِ عنه!.

فاللهُ هو الذي يحيي ويميت! والملكُ سببٌ مباشرٌ ماديٌّ بشريٌّ في الموت والحياة، وليس شريكاً لله في ذلك!.

هذه الصلةُ بين السببِ والمسبَّبِ في الموتِ والحياةِ لم يعرفْها الملكُ المغرور، فظنَّ نفسَه شريكاً مع اللهِ في الموتِ والحياة.

وأمامَ جهلِ الملكِ وغرورِه لم يشأ إبراهيمُ عليه السلام الاسترسالَ في

مناقشتِه وجداله، وتعليمِه الفرقَ بين السببِ والمسبَّبِ في الإحياءِ والإماتة، وإنما أرادَ الانتقالَ إلى مثالٍ آخرَ واضحٍ مكشوف، يدلُّ دلالةً بيّنةً على وحدانيةِ الله، وعلى عجزِ الملكِ عن الحكمِ فيه! إنه حركةُ الشمس! ولذلك قال له: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ ﴾!!.

إذن لم يكنْ انتقالُ إبراهيمَ من الإحياءِ والإماتةِ إلى التحكُّمِ في حركةِ الشمسِ هزيمةً منه أمامَ الملك، وعجزاً عن الردِّ عليه، كما قدْ يفهمُ بعضهم، ويعتبرونَ عدمَ جدالِه ونقاشِه مع الملكِ حولَ السببِ والمسبَّبِ بشأنِ الحياةِ والموتِ عجزاً منه عن حوارِ الملكِ ونقاشِه وإقناعه. إنه لم يعجزْ ولم ينهزمْ أمامَه، ولكنَّه أرادَ حسمَ الأمرِ بتقديمِ مثالٍ واضحٍ، لا يَحتملُ الأخذَ والرد، والنقاشَ والنزاع، بهدفِ إفحامِ الملكِ وهزيمتِه (بالضربة القاضية) ـ كما يُقال! ـ لذلكَ قالَ له: اللهُ وحدَه يأتي بالشمسِ من المشرقِ إلى المغرب، فإنْ كنتَ إلـٰهاً قادراً على التحكُّم في الكون، فتفضَّل وغيِّرْ حركةَ الشمس، وأْتِ أنتَ بها من المغربِ إلى المشرق!!.

ولا يمكنُ لعاقلٍ أن يدَّعي القدرةَ على ذلك، ولذلكَ ما كانَ من الملكِ المغرورِ إلا الاستسلامُ والاعترافُ بالهزيمة، والإقرارُ بعجزِه عن فعلِ ذلك: ﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

وهذا معناهُ الاعترافُ العمليُّ منه بعدمِ ألوهيته وربوبيته، لكنهُ بقيَ يدعي ذلك عناداً واستكباراً، رغم هزيمتِه أمامَ منطقِ إبراهيمَ عليه السلام!.

٥ ـ لماذا طلب إبراهيم رؤية كيفية إحياء الموتى؟:

أخبرَنا اللهُ في القرآنِ أنَّ إبراهيمَ عليه السلام طلبَ من ربه أن يريَه كيفَ يحيي الموتى! قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

يريدُ إبراهيمُ من ربِّه أن يريَه كيف يحيي الموتى: ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ أي: يريدُ إبراهيمُ أن يرى مثالاً عملياً، ونموذجاً واقعياً لإحياءِ الموتى!.

لم يكنْ إبراهيمُ عليه السلامُ شاكاً في قدرةِ اللهِ على إحياءِ الموتى، فأرادَ

رؤيةَ ذلك ليزيلَ شكَّه، وحاشاهُ أن يشكَّ في قدرةِ الله على ذلك، وهو النبيُّ الرَّسول عليه الصلاة والسلام.

ولو كانَ شاكاً في قدرةِ اللهِ على ذلك لقال: ربِّ هل تقدرُ على إحياءِ الموتى؟ أو: هل تستطيعُ إحياءَ الموتى؟.

إنَّ قولَه: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾ ليسَ سؤالاً عن إمكانيةِ إحياءِ الموتى، ولكنَّه كلامٌ عن كيفيةِ إحياءِ الموتى، وعن رؤيتِه لهذه الكيفية. إنَّ قدرةَ اللهِ على إحياءِ الموتى أمرٌ مسلَّمٌ به عندَ إبراهيمَ عليه السلام، يؤمنُ به إيماناً جازماً قاطعاً، وكلُّ ما يريدُه هو أنْ يرى بعينيهِ كيفيةَ إحياءِ اللهِ للموتى!.

وأرادَ اللهُ الحكيمُ أن ينزِّه إبراهيمَ عن الشكِّ في قدرَته على ذلك، وأنْ يزيلَ ما قد يعلقُ في أذهاننا من لبسٍ حولَ طلبِ إبراهيمَ الغريبِ عليه السلام، لذلك أخبرَنا عن سؤاله، وعن جوابِ إبراهيم: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾.

يسألُه اللهُ: لماذا طلبتَ يا إبراهيمُ ذلك؟ هل أنت شاكٌّ في قُدرتي على إحياءِ الموتى حتى تطلبَ ذلك؟ أولم تُؤمنْ أنّي قادرٌ على إحياءِ الموتى؟.

سألهُ اللهُ ذلكَ وهو يعلمُ أنه يعلم أن اللهَ قادر، لأنَّ اللهَ بكلِّ شيءٍ عليم، والسؤالُ لنفهمَ نحنُ حقيقةَ طلبِ إبراهيمَ عليه السلام، وننزِّههُ عن الشكِّ في قدرةِ الله!.

ولذلكَ جاءَ الجوابُ واضحاً صريحاً من إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾!.

أي: بلى، أنا مؤمنٌ يا ربِّ بقدرتِك على إحياءِ الموتى، ولا أشكُّ في ذلك، ولكنّني أريدُ أن يطمئنَّ قلبي ويزدادَ إيماني بقدرتِك يا ربِّ على ذلك!.

إنَّ مشاهدةَ إبراهيم عليه السلام لتجربةٍ عمليةٍ حولَ إحياءِ الموتى لا توجِد ولا تنشئ الإيمانَ بذلك في قلبِه، ولكنَّها تزيدُ ذلكَ الإيمانَ وتقوّيه، وزيادةُ الإيمانِ تؤدّي إلى زيادةِ الطمأنينةِ في قلبه!.

ومن المعلوم بداهةً أنَّ مشاهدةَ حادثة بالعين، أو القيامَ بتجربةٍ عمليةٍ بالفعل، يؤدّي إلى زيادةِ الإيمانِ والتصديقِ واليقين، وترسيخ وتثبيتِ الحقيقةِ النظرية.

ولهذا يحرصُ أصحابُ المناهجِ التربويةِ على قيامِ الدارسين بتجاربَ ميدانيةٍ عملية، يطبّقون فيها عملياً ما أخذوه نظرياً!.

إن الطبيبَ ـ مثلاً ـ لن يكونَ طبيباً، مهما درسَ في الكتبِ عن الطب، ولن يتعرَّف حقاً على جسمِ الإنسانِ مهما قرأ عن علمِ التشريح، لن يكونَ طبيباً إلا إذا ذهبَ إلى (المختبر)، وقامَ هناكَ بالتشريحِ بنفسِه! فالتدريبُ العمليُّ الميدانيُّ في المعاملِ والمختبراتِ هو الذي رسَّخ المعلوماتِ الطبيةِ النظريةِ في نفسِ الطبيب!.

وعندما نتذكَّرُ هذا النموذجَ الطبيَّ نحاولُ أن نفهمَ الباعثَ الذي حملَ إبراهيمَ عليهِ السلام أن يطلبَ من ربِّه أن يريَه كيفيةَ إحيائِه للموتى، وتعليلُه ذلك بأنه ليطمئنَ قلبُه!.

إنَّ إبراهيمَ عليه السلام يريدُ أن يضمَّ التجربةَ العمليةَ إلى الإيمانِ النظري، يريدُ أن يرى بعينيه كيفيةَ إحياءِ الله للموتى، ليزدادَ يقيناً بذلك!.

ومن مزايا شخصيةِ إبراهيم عليه السلام أنه كان يُكثِرُ من استخدامِ (وسائل الإيضاح) لتأكيدِ الحقائقِ النظرية، ويقومُ بالتجاربِ العمليةِ لترسيخِ القناعةِ النظرية، هذا ما فَعَلَهُ عندما أبطلَ كونَ الكوكبِ والقمرِ والشمسِ آلهة، وعندما طلبَ من الملكِ الكافرِ تغييرَ حركةِ الشمس، وعندما حطَّم أصنامَ قومِه وتركَ الصنمَ الكبيرَ ليُفحمهم!.

وقد كانَ رسولُ الله ﷺ حريصاً على تبرئةِ إبراهيمَ عليه السلام من شبهةِ الشكِّ بقدرةِ الله، عندما طلبَ ما طلب!.

روى البخاري [برقم: ٣٣٧٢] ومسلم [برقم: ١٥١] عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «نحنُ أحقُّ بالشكِّ من إبراهيم، ويرحمُ اللهُ لوطاً، لقد كانَ يأوي إلى ركنٍ شديد، ولو لبثتُ في السجنِ ما لبثَ يوسفُ لأجبتُ الداعي»!.

إنَّ الرسولَ ﷺ يوضِّحُ حقيقةَ ثلاثةِ مواقف لثلاثةٍ من الأنبياء:

حقيقةُ موقفِ إبراهيمَ عليه السلام، عندما قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ وحقيقةُ موقفِ لوطٍ عليهِ السلامُ عندما قال لقومِه الكافرين الشاذين: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]. وحقيقةُ موقفِ يوسفَ عليه

السلامُ عندما قال لمندوبِ الملك: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ﴾ [يوسف: ٥٠].

وستتحدثُ عن موقفِ لوطٍ ويوسفَ عليهما السلام عندما نوجِّه بعضَ الإشكالاتِ حولَ قصتيهما، وكلامنا الآنَ عن كلامِه عن إبراهيمَ عليه السلام!.

إنَّ الرسولَ ﷺ يقول: «نحنُ أولى بالشكِّ من إبراهيم» وهو بهذا يقدِّمُ شهادةً لإبراهيمَ عليه السلام، ويُثني عليه، ويخبرُ أنه لم يشكَّ بقدرةِ اللهِ على إحياءِ الموتى!.

ومعنى كلامِ رسولِ اللهِ ﷺ: لو جازَ الشكُّ على إبراهيمَ عليه السلام لكنتُ أنا أولى بالشكِّ منه!.

وهنا نتساءل: هل شكَّ رسولُنا محمدٌ ﷺ في قُدرةِ الله؟ الجوابُ بالنفي، فهو لم يشكَّ في قدرةِ اللهِ لحظةً واحدةً!.

وكأنَّ رسولَنا ﷺ يقول: وبما أنّني لم أشك، فإبراهيم عليه السلام لم يشكَّ من باب أولى!.

لماذا إبراهيمُ عليه السلام لم يشكَّ من باب أولى؟.

لأنه شاهدَ بعينيهِ أمثلةً ونماذجَ عمليةً لقدرةِ الله، نماذجَ لأحداثٍ وقعتْ له هو، مثل إنجاءِ اللهِ له من النار عندما ألقاه الكفار فيها!.

ولا يعني هذا أنَّ إبراهيمَ أعظمُ إيماناً من رسولنا محمد، عليهما الصلاة والسلام، فمعلومٌ أنَّ رسولَنا ﷺ هو أفضلُ الرسلِ وأعظمهم إيماناً!.

وقد أكرمَ اللهُ إبراهيمَ عليه السلام، فاستجابَ لطلبِه، وأرشدَه إلى طريقةٍ عملية، يرى منها كيفيةَ إحياءِ الموتى، قال تعالى: ﴿قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

معنى (صُرْهُن): أَمِلْهُنّ.

أمرَ اللهُ إبراهيمَ عليه السلام أنْ يأخذَ أربعةَ طيور، ثم يذبحهن، ويخلطهن، بحيثُ يتداخلنَ بعضهنَّ في بعض، ويختارَ بعد ذلكَ مجموعةً من الجبال، ويضع

على كل جبلٍ منهن جزءاً، بحيثُ يكونُ على كلِّ جبلٍ جزءٌ من لحمِ كلِّ طيرٍ من الطيورِ الأربعة! ثم يقفُ بينَ الجبال، ويدعو أجزاءَ الطيورِ المتفرقةِ عليها. عند ذلك سيرى أنَّ اللهَ قد جمعَ لحمَ كلِّ طيرٍ من الطيورِ الأربعة، ونفخَ فيه الروح، فدبَّت فيه الحياة، وصارَ طيراً حياً، وسيأتي كلُّ طيرٍ من الطيورِ الأربعةِ سعياً، وستلتقي الطيورُ الأربعةُ عنده، وكأنها لم تُذبح، ولم تُخلط لحومها، ولم تُوزَّع على الجبال!!.

وقامَ إبراهيمُ عليه السلام بالتجربة، كما أمرَه الله، وأحيا اللهُ له الطيورَ الأربعة، وبذلك رأى كيفَ يحيي اللهُ الموتى، فازدادَ إيمانه، واطمأنَّ قلبُه، وأيقنَ أنَّ اللهَ عزيزٌ حكيم، وعلى كلِّ شيءٍ قدير.

٦ ـ قول إبراهيم: (إني سقيم):

بعدما دعا إبراهيمُ عليه السلام قومَه إلى الإيمان، ورفضوا دعوته، علمَ أن الأصنامَ والتماثيلَ التي يعبدونَها هي المانعُ الذي يمنعُهم من الإيمان، ولذلكَ عزمَ على إزالةِ هذا المانع بتحطيمِ الأصنام، وأخبرَهم أنه سيكيدُ أصنامهم، ورسمَ في نفسِه خطةً لتحطيمها، على حين غفلةٍ منهم، عندما يكونون غائبين عن المدينة!.

وقبلَ تنفيذِه للخطةِ دعَوْهُ ليكونَ معهم، ولكنه اعتذرَ عن ذلك بأنه (سقيم). قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ مُدۡبِرِينَ﴾ [الصافات: ٨٣ ـ ٩٠].

وذهبَ بعضُهم إلى أنَّ إبراهيمَ عليه السلام كانَ ينظرُ في النجوم، ويعرفُ منها الحظَّ والنصيب، وما سيحدثُ له في المستقبل، وقد نظرَ في النجومِ في ذلك اليوم، فأخبرتْه النجومُ أنه سيمرض، فأيقنَ بذلك، وقالَ: إني سقيم!.

وذهبَ آخرون إلى أنَّ إبراهيمَ كانَ صحيحاً، ولم يكنْ سقيماً مريضاً، ولذلكَ لم يكنْ صادقاً في قوله: (إني سقيم)!.

واعتمدوا في ذلكَ على حديثٍ صحيحٍ لرسولِ الله ﷺ، ينسبُ فيه الكذبَ إلى إبراهيمَ عليه السلام.

روى البخاري [برقم: ٢٢١٧] ومسلم [برقم: ٢٣٧١] عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسولِ الله ﷺ قال: «لم يكذبْ إبراهيمُ إلا ثلاثَ كذبات:

ثنتان منهنَّ في ذاتِ الله قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقولُه: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾.

وبينما هو ذاتَ يومٍ وسارة، إذ أتى على جبّارٍ من الجبابرة، فقيلَ له: إن ها هنا رجلاً، معهُ امرأةٌ من أحسنِ الناس! فأرسلَ إليه، فسألَه عنها، فقال: مَنْ هذه؟ قال: أختي.

فأتى سارة، فقال: يا سارة، ليسَ على وجهِ الأرضِ مؤمنٌ غيري وغيرك، وإنَّ هذا سألَني فأخبرتُه أنَّك أختي، فلا تُكذِّبيني..

فأرسلَ إليها، فلما دخلتْ عليه ذهبَ يتناولها بيده، فأُخذ! فقال: ادعي اللهَ لي، ولا أضرُّك، فدعتْ الله، فأُطلق! ثم تناولَها ثانية، فأُخذ مثلها أو أشدّ! فقال: ادعي الله لي، ولا أضرُّك، فدعتْ، فأُطلق!.

فدعا بعضَ حجبته، فقال: إنَّكَ لم تأتِني بإنسان، إنما أتيتني بشيطان!.

فأخدَمها هاجر، فأتته وهو قائمٌ يصلّي، فأومأ بيدِه: مهيم؟.

قالت: ردَّ اللهُ كيدَ الفاجرِ في نحرِه، وأخدم هاجر!».

هذا الحديثُ الصحيحُ ينسبُ إلى إبراهيمَ عليه السلام ثلاثَ كذبات! فكيف جازَ أن تصدرَ عنه وهو نبي؟ والأنبياءُ معصومون من الكذب!!.

نوجِّه هنا قولَه الأول ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، والقولان الآخران نوجِّههما بعد قليل إن شاء الله.

ما معنى قوله تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾؟.

ليسَ المرادُ أن إبراهيمَ عليه السلامُ كانَ يستقرئ المستقبلَ عندما ينظرُ في النجوم، ويعرفُ ما سيحدثُ له، ويجعلُ للنجومِ قدرةً وتأثيراً في الأحداث! فإن هذا لا يجـوزُ أن يصدرَ عن مسلمٍ عادي ـ لأنه محرَّم في الدين، ويتعارضُ مع العقيدة ـ فكيفَ يمكنُ أن يصدرَ عن نبيٍّ كريمٍ كإبراهيم عليه السلام؟.

الراجحُ أنَّ إبراهيمَ عليه السلام نظرَ نظرةً في النجومِ ليعرفَ التوقيتَ والتاريخ

والحساب، فعرفَ من خلالِ نظرِه في النجومِ قربَ حلولِ عيدٍ لقومه الكافرين، يحتفلونَ فيه على طريقتِهم الخاصة، ويمارسونَ فيه المنكرَ والفجور، ويقدّمون فيه الطعامَ والقرابين لأصنامهم.

هذا معنى نظره في النجوم، وهذا سببُ نظرِه في النجوم!.

ننتقلُ الآنَ إلى توجيهِ قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾!.

لقد كانَ صادقاً في قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾! لكنْ أيَّ سقمٍ أراد؟ ولماذا وكيف كانَ سقيماً؟.

لما عرفَ إبراهيمُ عليه السلام ـ من خلالِ نظرِه في النجوم ـ قربَ حلولِ عيدِ قومه، تذكَّر ما سيفعلونَه فيهِ من المنكراتِ والكفر، فأُصيبَ بالهمِّ والغمِّ وشعرَ بالضيقِ والحزن، وهذا هو السقمُ الذي شعرَ به، وأخبرَ عنه!.

فسَقَمُه لم يكنْ سقماً عضوياً جسمياً مادياً، في يديه أو رجليه، أو بعض أجزاءِ جسمه، إنما كان سقمُه سقماً نفسياً معنوياً، لما سيفعلُه قومُه من الحرامِ في عيدِهم.

ومعلومٌ أن المؤمنَ الصادقَ يتألمُ من ارتكابِ قومِه للمعاصي، ويحزنُ وييتئسُ من ذلك، ويصابُ بالهمِّ والغمِّ والضيق، وهذه أمراضٌ وأسقامٌ نفسية، ولذلكَ يكونُ هذا المؤمنُ سقيماً بسببها!.

وإذا كانَ المؤمنُ (سقيماً) سقماً نفسياً من المنكراتِ والمعاصي، فكونُ إبراهيمَ عليه السلامُ سقيماً سقماً نفسياً من مخالفاتِ قومِه من بابِ أَوْلى!.

إذن كانَ إبراهيمُ عليه السلام صادقاً في قولِه لهم: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾. أي: إني سقيمٌ منكم، حزينٌ متألمٌ مغمومٌ مما ستفعلون!.

ويبدو أن قولَه لهم: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ جاءَ رداً على دعوتِهم له للخروجِ معهم للاحتفالِ بالعيد، ولذلكَ تركوه، وخرجُوا للاحتفالِ بالعيد، بدليلِ قولِه تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾. أي: لما عرفوا أنه سقيم، حَملوا ذلكَ على السقمِ الماديِّ والمرضيِّ الجسمي، وقالوا: لعلَّ سقمَه يمنعُه من الخروجِ معنا ومشاركتنا، لذلكَ تولَّوا عنه، وتركوه في المدينة، وأعرضوا عنه، وخرجوا للاحتفالِ بعيدهم!.

وبما أنه كانَ صادقاً في قوله: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ فلماذا اعتبرَ الحديثُ الصحيحُ السابق هذا القول كذباً من إبراهيم عليه السلام؟.

لأنه يشبهُ الكذبَ في الظاهر، بينما يختلفُ عنه في الحقيقة، فعندما سمعَ القومُ من إبراهيمَ عليه السلام أنه سقيم، فهموا منه السقمَ والمرضَ المادي، بينما أرادَ هو السقمَ النفسي، المتمثل في الهمِّ والحزن.

أي أنَّ إبراهيمَ عليه السلام استخدمَ طريقةَ (المعاريض)، وهي مأخوذةٌ من التعريض، وهو أن تتكلَّمَ أنتَ بكلام، تريدُ به شيئاً، بينما يفهمُ المخاطَبُ منه شيئاً آخر!.

والمعاريضُ تشبهُ الكذبَ في الظاهر، لكنها ليستْ منه، وإنما هي صدقٌ في الحقيقة، و«إنَّ في المعاريض لمندوحةً من الكذب»، فهي تُغني عن الكذب، فمن اضطرَّ إليها يستخدمها وهو صادق!.

لهذا السببِ اعتبرَ الحديثُ قولَ إبراهيمَ عليه السلام: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ كذباً، فقولُه من بابِ المعاريض وليسَ كذباً حقيقة!.

٧ ـ إبراهيم يحطم الأصنام باليمين:

لما قالَ إبراهيمُ عليه السلام لقومه: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ تركوه، وذهبوا ليحتفلوا بعيدهم، وتركوا طعامَهم عندَ أصنامهم لتباركَه لهم!.

وكانَ إبراهيمُ عليه السلامُ قد عزمَ على تحطيمِ أصنامِهم، وسبقَ أنْ هدَّدَهم بذلك، حيث قال لهم: ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥٧].

أي: انتظروا مني عملاً ما، أعملُه بأصنامِكم أثناءَ غيابِكم وإدباركم عنها.

ولما تركوه وذهبوا، حانَ وقتُ تنفيذِ خطتِه لتحطيمِ الأصنام!.

وندعو إلى الجمع بين قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥٧]، وقوله تعالى في سورةِ الصافات: ﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾ [الصافات: ٩٠].

فإبراهيمُ عليه السلام سبقَ أن أخبرَهم أنه سيكيدُ أصنامهم عندما يتولَّون

مُدبرين، وهم تَركوه مع أصنامِهم وتولَّوا عنه مدبرين!!.

وهنا قد يتساءلُ بعضُهم: لماذا حطَّم إبراهيمُ الأصنام؟ ألم يخطئ في هذا التصرف؟ إنه بتحطيمِه لأصنامِهم سيجعلُهم يردُّونَ عليه بعنف، لأنهم لن يسكتوا على ذلك، وهذا ما حصل بعد ذلك!.

وقد يعتبرُ بعضُهم هذا الفعلَ من إبراهيمَ عليه السلام متعارضاً مع أسلوبِه السابقِ في الدعوة، حيثُ كان يستخدمُ أسلوبَ الحوارِ والجدالِ والنقاش، وإقامةِ الحجةِ عن طريق (المنطق الجدلي البرهاني) المقنع، كما حصلَ في جدالِه مع أبيه ومع قومِه ومع الملكِ بعد ذلك! فلماذا عدلَ عن هذا الأسلوبِ المقنِع وذهبَ إلى الأسلوبِ العنيفِ في تحطيمِ الأصنام؟.

إنَّ إبراهيمَ عليه السلام لم يتخلَّ عن أسلوبِه المقنعِ في الدعوة، وإنَّ تحطيمَه للأصنامِ يتناسقُ ويتكاملُ مع هذا الأسلوب!! فقد دعاهم إلى الإيمان، وجادَ لهم وناقشَهم وأقامَ عليهم الحجة، ولكنّهم أصرُّوا على الكفرِ والتكذيب! ولعله فكَّر في الأمر: ما الذي يمنعُهم من الإيمان؟ فأجاب: إنها الأصنامُ التي يعتبرونَها آلهة تضرُّ وتنفع!.

لذلكَ عزمَ على تحطيمِ الأصنام، لإزالةِ الحاجزِ الماديِّ الذي يمنعُهم من الإيمان، ولبيانِ عجزِ آلهتهم عن الدفاعِ عن نفسِها، فكيفَ تقدرُ على جلبِ نفعٍ لهم، أو دفعِ ضرٍّ عنهم!.

تحطيمُه الأصنامَ إذن من أساليبِ دعوته، وخطوةٌ مرحليةٌ متدرجةٌ لابدَّ أن يخطوها، بعد أن سارَ معهم الخطواتِ السابقة!.

وبهذا نعرفُ أنه لم يخطئ في هذا الفعل، لأنَّه أرادَ منه تحقيقَ أهدافٍ دعوية، ونجحَ في ذلك!.

وهو فعلٌ عنيفٌ فعلاً، لكنهُ عنيفٌ مقصودٌ مدروس، وهو وسيلةٌ إلى غايةٍ دعويةٍ سامية، وإبراهيمُ عليه السلام حكيمٌ في خطواتِه وأساليبِه وأفعالِه في الدعوة، لا يقومُ بأي فعلٍ إلا بعد علمٍ وتخطيطٍ ودراسة، ومنه تحطيمُه للأصنام!.

ذهبَ إبراهيمُ إلى الأصنام، ووجدَ طعامَ القوم عندها، فكلَّمها ساخراً منها، ثم حطَّمها، قال تعالى: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴾ [الصافات: ٩١-٩٣].

لماذا عبَّر القرآنُ عن ذهابِه لتحطيمِ الأصنامِ بفعلِ (راغ)؟ وما معنى هذا الفعل؟.

(راغَ): فعلٌ ماضٍ مشتقٌ من (الرَّوْغ).

قال ابنُ فارس في معناه: «الرَّوْغ: يدلُّ على ميلٍ وقلةِ استقرار. يُقال: راغَ الثعلب، يروغ، وطريقٌ رائغ: مائل، وراغَ فلانٌ إلى كذا: إذا مالَ سرّاً إليه»[1]

فلما قالت الآية: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾: أرادتْ تقريرَ ذهابِه إليهم بسرية، دونَ أن يراهُ أحد.

ولما دخلَ إبراهيمُ عليه السلام بيتَ الأصنام وجدَ طعامَ القومِ عندها، وأرادَ أن يسخرَ منها ومن عابديها، وبدا لهُ أن يسخرَ منها!.

إنه يعلمُ أنها جمادات، لا تسمعُ ولا تعي، ولا تتكلمُ ولا ترى، ولا تدري ما الذي يجري أمامها، ومع ذلكَ قالَ لها: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ؟﴾. وهو ما أرادَ حقيقةَ دعوتَها إلى الأكل، لأنه يعلمُ أنها جمادات! وإنما أرادَ السخريةَ منها، ولذلكَ لما لم تُلبِّ دعوتَه قالَ لها: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ؟﴾ أي: لماذا لم تردُّوا عليَّ؟.

والحوارُ الطريفُ بينَ إبراهيمَ عليه السلام وبين الأصنامِ حوارٌ من طرفٍ واحد، فهو يتكلَّمُ ويسأل، وهي جماداتٌ لا تسمعُ ولا تفهمُ ولا تُجيب! وهو يعلمُ ذلك منها، ولكنَّه يريدُ أن يهزأَ بها قبل أنْ يحطمها!! وهذا التصرفُ منه يدلُّ على هدوءِ نفسِه وإشراقِ روحِه، يريدُ تحطيمَ الأصنام بدونِ تسرعٍ أو قلقٍ أو تشنُّجٍ أو خوف!.

أخبرَ اللهُ عن تحطيمِ الأصنامِ بقوله: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾.

فما المرادُ باليمينِ المذكورةِ في الآية؟.

ذهبَ بعضُ المفسرين إلى أنها تعني (اليمين) الذي حلفَه إبراهيمُ عليه السلام لقومِه، وهو قوله: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾. أي أنَّ إبراهيمَ عليه السلام أمضى يمينه، ونفَّذ قسَمَه، وهذا ثناءٌ عليه، فقد حلفَ يميناً لقومِه بتحطيمِه الأصنام، ويمينُه ليس مجرَّد قَسَم كلامي، لكنَّه رجلٌ عندَه قدرةٌ على البرِّ بيمينه.

---

(١) مقاييس اللغة، ص٤٣١.

وذهبَ آخرون إلى أنها تعني (يمينه) أي: يدَه اليمنى، فإبراهيمُ عليه السلام كانَ يحملُ أداةً في يده اليمنى، انهالَ بها على الأصنامِ محطماً لها، وفي هذا إشارة إلى قوّته في تحطيمِه الأصنام.

ومن المعلومِ أنَّ معظمَ الناسِ يستخدمُ واحدُهم يدَه اليمنى في أفعالِه، لأنها أقوى من يده اليسرى، ومن الأولى للمسلمِ أن يستخدمَ يدَه اليمنى في أفعاله.

ومع أنَّ كلا القولين محتملان في تفسيرِ اليمين في الآية، فإنَّ القولَ الثاني أرجحُ وأولى بالقبول، فيكونُ المرادُ أنه حطَّم الأصنامَ بيدِه اليمنى، إشارةً إلى قوّته وعزيمتِه في فعله، وتكونُ الباءُ في الجملة ﴿ضَرْبًا بِٱلْيَمِينِ﴾ باءَ السببية وباءَ الاستعانة!.

٨ ـ توجيه قول إبراهيم (فعله كبيرهم هذا):

حطَّمَ إبراهيمُ عليه السلامُ الأصنامَ بيده اليمنى، وتركَ الصنمَ الكبيرَ دون تحطيم. قال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾.

والجُذاذُ: هي المكسّرة المحطَّمة.

إن إبراهيمَ عليه السلام يعرفُ ماذا يفعل، ويخطِّطُ لما بعدَ فعلِه، وكلُّ تصرُّف منه مدروسٌ هادف، يريدُ منه تحقيقَ أهدافٍ محددة!.

فلما حطَّم الأصنامَ أبقى كبيرَ الأصنامِ دونَ تحطيم! لماذا؟ ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾.

أي أنه أبقى الصنمَ الكبير لعلَّ القومَ يرجعونَ إلى ذلكَ الصنم، عندما يجدونَ الأصنام مكسَّرة محطمة! لأنهم لا يعرفون من حطَّمها، وبما أنَّ الصنمَ الكبيرَ سليم، فلا بدَّ أن يَرجعوا إليه، ولا بدَّ أنْ يسألوه: مَنْ حطَّمها؟ لأنَّ الصنمَ الكبيرَ موجود، ثم أليسَ هو إلـه معبود؟ إذن لابدَّ أنْ يشاهدَ تحطيمَ الأصنام! وأن يعرفَ مَنْ الذي فعل ذلك!!.

ألم نقلْ إنَّ خطواتِ إبراهيمَ عليه السلام مدروسةٌ بعناية؟ وإنه كانَ يعرفُ ماذا يفعل؟ لذلكَ تركَ الصنمَ الكبيرَ بدونِ تحطيم!.

وعادَ القومُ من احتفالِهم بعيدهم، وتوجَّهوا إلى أصنامِهم فوراً، فوجدوها محطَّمة، ففوجئوا واستغربوا ودُهشوا!.

عندَ ذلكَ تذكَّروا التهديدَ السابقَ من إبراهيمَ عليه السلام ضدَّها، فلابدَّ أن يكونَ هو الذي حطَّمها، ولابدَّ أن يُحاكَمَ على فعلتِه أمامَ الناس، ولا بدَّ أن يُعاقَب على ذلك.

وقد أشارتْ آياتُ القرآن إلى محاكمةِ إبراهيم، قال تعالى: ﴿ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥٩ ـ ٦٧].

تساءلوا: من حطَّم آلهتنا؟ ومن ارتكبَ ضدَّها هذه الجريمة؟ إنه إنسانٌ ظالم!.

عندَ ذلكَ تذكَّروا تهديدَ إبراهيمَ السابقَ عليه السلام لآلهتهم، فقالوا: سمعْنا فتى يذكرُهم يُقالُ له إبراهيم!.

وهم في كلامِهم هذا أرادوا تنقيصَ إبراهيمَ عليه السلام، والحطَّ من شأنه، حيثُ وصفوه بأنّه (فتى)، أي طائشٌ متهور، ففعلتُه في تحطيمِ الآلهةِ لا يُقدِم عليها إنسانٌ عاقل، وهذا الفتى الطائشُ سمعناهُ يذكرُهم ويهدِّدهم، يُقالُ لهذا الفتى: إبراهيم!!.

وأصدرَ الملأُ من القوم الحكمَ بإدانةِ إبراهيم، وأمروا بإحضارِه ليحاكَم أمامَ الناس! ﴿ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾.

وتجمّعَ الناسُ لحضورِ محاكمةِ إبراهيمَ عليه السلام، الذي وصفوه بأنه فتى متهوّر، وأنه ظالمٌ معتد، وبدأتْ محاكمةُ إبراهيمَ عليه السلام.

سألوه قائلين: ﴿ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾؟ أي: هل أنت حطمت آلهتنا يا إبراهيم؟.

وهم ما أرادوا بسؤالِهم الاستعلامَ والاستخبارَ، ومن ثم لم يكونوا جادّين في طرحِ السؤال! لقد كانوا يعلمونَ ويوقنونَ أنه هو الذي فعلَ ذلك، فقد سبقَ أن

أعلمَهم بذلك قائلاً: ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴾ . وصرّحوا هم بأنّه هو الذي حطّمها: ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ .

ورغمَ علمِهم الجازم بأنَّ إبراهيمَ هو الذي حطّمها، إلا أنهم سألوه، إنْ كانَ هو الذي فعلَ ذلك، وهدفُهم من السؤالِ هو أخذُ اعترافٍ صريح من إبراهيمَ عليه السلام بأنّه هو الذي فعلها، وإسماعُ الناسِ المحتشدين المشاهدين اعترافه بلسانه، ليجعلوا هذا مادةَ إدانةٍ ضدّه!.

وإبراهيمُ عليه السلام ذكي، وقد فطنَ إلى مقصدِهم الخبيثِ من سؤالهم، ولذلكَ فوّت عليهم الفرصة، وكانَ أكثرَ فطنةً منهم، فردَّ على سؤالهم قائلاً: ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴾ .

إنه في جوابِه على سؤالهم لم يتهرّب ممّا فعل، ولم ينكرْ ذلك، ولم يكذب في جوابه! ولكنّه لم يُجبْهم على سؤالهم، لأنّه يعرفُ أنهم ليسوا جادّين فيه، وأنّهم يعرفون أنّه هو الذي حطّمَ الأصنام، فلماذا يسألونَه هذا السؤال؟.

لقد أضربَ إبراهيمُ عليه السلام عن الجوابِ بحرف (بل) وقال: ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾!.

ومعروفٌ أنَّ (بل) في اللغةِ حرفٌ للإضرابِ والانتقال. أي: إضرابٌ عن كلامٍ سابق، وانتقالٌ إلى معنى جديد.

لقد أهملَهم إبراهيمُ عليه السلام، وأهملَ سؤالهم، ولم يحقّق لهم هدفَهم من السؤال، ولم يسجّل على نفسه إدانة، وإنما جرّهم إليه، وأوقعَهم في خطته!.

قالَ لهم: ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾!! أي: حطّم الأصنامَ الصغيرةَ هذا الصنمُ الكبير!! السليم!! وما عليكم إلا أنْ تسألوه إنْ كانَ ينطق! وقولوا له: هل أنتَ حطّمتَ الأصنامَ الصغيرة؟ واسألوا الأصنامَ المحطمةَ إنْ كانتْ تنطق: من الذي حطّمكنّ؟.

فليرجعوا إلى الصنمِ الكبيرِ وليسألوه، وها هو إبراهيم عليه السلام يتحدّاهم أنْ يسألوه! لماذا لا يسألونَه؟ أليسَ هو إلهاً يعبدونَه؟ والإلهُ ألا يعلمُ كلَّ شيء؟.

إنَّ إبراهيمَ عليه السلام لم ينكرْ تحطيمَه للأصنام، ولم ينفِ قيامَه بذلك،

ولو أرادَ الإنكارَ لنفى ذلك صراحة، ولقال: إنّني لم أفعلْ ذلك!.

وهو بجوابِه الهادفِ الحكيمِ لم يكذب، إنما أرادَ الإضرابَ عن السؤال، والانتقالَ إلى موضوعٍ آخر، بقصدِ إفحامهم وإدانتِهم وإقامةِ الحجّةِ عليهم! وليس هذا تهرُّباً ولا كذباً، إنّما هو ذكاءٌ وفطنة!.

والحديثُ الصحيحُ الذي أوردناه سابقاً اعتبرَ قولَ إبراهيمَ عليه السلام: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ كذباً، لم يردْ أنه كذبٌ في الحقيقة، إنما أرادَ أنه وافقَ الكذبَ في الظاهر، مع أنه خالفَه في الحقيقة!.

استخدمَ إبراهيمُ عليه السلام في جوابِه أسلوبَ المعاريض، وكانَ صادقاً فيما قال، لأنّه نجحَ في إقامةِ الحجّةِ عليهم!.

أرادوا إدانةَ إبراهيمَ عليه السلام أمامَ الناسِ عندما سألوهُ عن تحطيمِ الأصنام، وتوقّعوا أنْ يجيبَهم بالإيجاب، قائلاً: نعم أنا حطّمتها! لأنهم يعلمونَ أنه لا يكذب! وبذلكَ يصدرونَ حكمَهم عليه بناءً على اعترافه! لكنَّ إبراهيمَ خيّبَ ظنَّهم، وأجابَ بجوابٍ لم يكونوا يتوقّعونه، وكانَ في جوابِه ذكياً فطناً، هزمَهم وأفحمَهم، وأضعفَهم أمامَ الجماهيرِ التي جمعوها لإدانته!.

وهو لم ينفِ أنّه حطّمَ الأصنام، لأنَّ الكُلَّ يعرفُ أنه هو الذي حطّمَها، ولا بدَّ أن نلتفتَ إلى هدفِ إبراهيمَ عليهِ السلام من قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، ونجاحِه في تحقيقِ ذلك الهدف، بدلَ أن نقول: كذبَ في جوابه!!.

نجحَ إبراهيمُ عليه السلام في جوابِه الحكيم، فلمسَ قلوبهم، واستيقظتْ فطرتُهم لحظة، ثم عادوا إلى عنادِهم، وتحوّلَ إبراهيمُ عليه السلام في المحكمةِ - التي أعدُّوها لمحاكمتهِ وإدانتِه - إلى عملاق، وكانَ هو القاضي، وهم المتهمين أمامه، هو يؤنّبُهم ويصدرُ حكمَه عليهم.

هذا ما أوحى به قولُ اللهِ تعالى عن ما جرى بعد جواب إبراهيمَ عليه السلام: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٤ - ٦٧].

أرادوا محاكمةَ إبراهيمَ عليه السلام فحاكمَهم، وأرادُوا إدانتَه فأدانَهم،

وغلبَهم بمنطقِهِ الإيمانيّ، وحجّته القوية، وانتصرَ بالحقِّ الذي يمثّله، والهدى الذي يحملُه.

في هذا الجوِّ والهدفِ نفهمُ جوابَه على سؤالِهم بقولِه: ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾.

٩ ـ نجاة إبراهيم وهم الأخسرون الأسفلون:

بعدما هُزِمَ الملأُ من قومِهِ أمامَ منطقه وحجّتِه، لجؤوا إلى العنفِ والإيذاء، فأصدرُوا عليهِ حكمَهم بالحرقِ بالنّار، ونفَّذوا حكمَهم، وألقوْه فيها، لكنَّ اللهَ أمرَ النارَ أن تكونَ برداً وسلاماً عليه، فأنجاهُ من النار، وخسرَ الكافرون جولةً أُخرى من جولاتِ معركتِهم مع إبراهيم عليه السلام!.

قال تعالى: ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ [الأنبياء ٦٨ ـ ٧٠]

وقال تعالى: ﴿ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ [الصافات: ٩٧ ـ ٩٨].

نصرَ اللهُ نبيَّه وخليلَه إبراهيمَ عليه السلام لما أُلقيَ في النار، وأجرى له معجزةً باهرة، حيثُ أمرَ اللهُ أنْ تكونَ النارُ برداً وسلاماً عليه: ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾.

أمرَ اللهُ النارَ بأمريْن طيبيْن متلازميْن: البردُ والسلامة، ولو لم يقلِ اللهُ لها «كوني سلاماً عليه» لكانت برداً عليهِ فقط، وعندها يُخشى أن يُؤذيه بردُها، واللهُ لا يريدُ أنْ يُؤذيه حرُّها، ولا أنْ يُؤذيه بردُها، ولذلكَ أمرَها اللهُ أنْ تجمعَ بينَ البردِ والسَّلامةِ عليه، وأنْ يكونَ جوُّها (لطيفاً منعشاً)، وأنْ يستمتعَ إبراهيمُ عليهِ السلامُ بهذا الجوِّ اللطيف، وسطَ النارِ الحارقةِ الملتهبة!.

وهكذا انتصرَ إبراهيمُ عليهِ السلامُ انتصاراً آخر، وأيَّدهُ اللهُ بهذِه المعجزةِ الباهرة، بينما هُزِمَ القومُ الكافرون هزيمةً أخرى في معركتِهم ضدَّه!!.

ووقعَ تفاوتٌ في إخبارِ القرآنِ عن فشلِ الكفَّارِ وهزيمتِهم وخسارتِهم:

قال تعالى في سورةِ الأنبياء: ﴿ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾،

وقالَ تعالى في سورةِ الصافات: ﴿فَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾.

بما أنَّ الموضوعَ في الآيتيْن واحد، وهو هزيمةُ الكفارِ أمام إبراهيمَ عليه السلام، فلماذا اختلفَ التعبيرُ في الآيتيْن؟.

قدْ يظنُّ بعضُ الناسِ أنَّ القرآنَ متعارضٌ متناقضٌ في حديثِه عن خسارةِ الكفار، فلماذا لم يُخبرْ عن ذلك بعبارةٍ واحدةٍ في السورتيْن: الأنبياء والصافات؟

الجوابُ أنَّ اختلافَ التعبيرِ عن الموضوعِ الواحدِ في السورتين مظهرٌ من مظاهرِ إعجازِ القرآن، ودقَّته المعجزةِ في اختيار كلماتِه، فهو يختارُ الكلمةَ المناسبةَ للسياق، بحيثُ تكونُ مترابطةً معه لفظاً ومعنى، ولا يُؤدّي دورَها أيةُ كلمةٍ أخرى مهما كانت فصيحةً رائعة!.

(الأسفلين) تناسبُ سياقَ القصةِ في سورةِ الصافات، ولو وضعَ مكانَها كلمةَ (الأخسرين) لكانتْ نشازاً! و(الأخسرين) تناسبُ سياقَ سورةِ الأنبياء، ولو وضعَ مكانَها كلمةَ (الأسفلين) لكانتْ نشازاً!.

كيف توجيه ذلك؟.

كلمةُ (الأخسرين) في سورةِ الأنبياء تناسبُ ما قبلَها، وهو قولُه تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾.

أرادَ القومُ نصرَ آلهتِهم بإحراقِ إبراهيمَ عليه السلام، ولكنَّ الله نصرَ نبيَّه، وخذلَ أعداءَه.

ما الذي يقابلُ النصر؟ إنَّه الهزيمةُ والخسارة! أرادوا نصرَ آلهتِهم فهزمهم الله، وأرادوا الفوزَ والربحَ فأوقعَ الله بهم الخسارة.

جملةُ (انصروا آلهتكم) تناسبُها جملةُ (فجعلناهم الأخسرين).

وكلمةُ (الأسفلين) في سورة الصافات، تناسبُ ما قبلَها، وهو قولُه تعالى: ﴿قَالُوا ٱبْنُوا لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾.

تحدَّثتْ آياتُ سورةِ الصافات عن البناءِ الذي بَنوه، والذي أشعلوا النارَ الملتهبةَ فيه، ثمَّ ألقوه فيهِ إلقاءً، وقذفوه قذفاً، منْ أعلى إلى أسفل، وكانُوا هم

على شَفا البُنيان، يتفرَّجون على إبراهيمَ عليهِ السلام، بينما كانَ هو أسفلَ منهُم ـ مِنْ حيثُ المكان ـ فمِنَ الناحيةِ الماديّةِ كانُوا هم (أعلى) يتفرَّجون، بينما كانَ إبراهيمُ عليهِ السلامُ (أسفل) منهم في البُنْيان!.

جملةُ ﴿ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴾، تُناسبها جملةُ ﴿ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾.

هم الأسـفلونَ في المنزِلَة، وإنْ كانُوا الأعلى في المكان! وإبراهيمُ عليهِ السـلامُ هو الأعلى مكانةً، وإنْ كانَ أسفلَ منهم في المكان!.

١٠ ـ توجيه قوله عن سارة (أختي):

أوردْنا فيما مضى الحديثَ الصحيح ـ الذي رواهُ البخاريُّ ومسـلم ـ عن ثلاثِ كذبات نُسبتْ لإبراهيمَ عليهِ السلام.

وقد وجَّهْنا اثنتيْن منها: قولُه (إني سقيم) وقولُه (بل فعله كبيرهم هذا)، وبيَّنَّا أنَّ العبارتيْن ليستا كذباً في الحقيقة، وأنَّه كانَ صادقاً عندَما نطقَ بهما.

والوقفةُ الآن في توجيهِ قولِه عنْ امرأتِه: هذه أختي.

فعندما توجَّه إبراهيمُ وامرأتُه سارة إلى مصر، علمَ بهما رجالُ الملك، وكان ظالماً كافراً، كما كانَ فاسقاً زانياً، كلَّما رأى امرأةً جميلةً فَجَرَ بها! وكانَتْ سارة ـ رضي الله عنها ـ امرأةً جميلة، فرآها رجالُ الملك، فأخبرُوه بجمالِها، فأمرَ بإحضارِ إبراهيمَ عليهِ السلام، وسألَه عنْها، فقالَ له: هذه أختي.

أخذَ رجالُ الملكِ سارة، وأدخلُوها عليه، ولمَّا مدَّ يدَه إليها ليفجُرَ بها أمسكَ اللهُ يده، فتوقَّفتْ ويبسَت، فتعجَّب الملكُ من ذلك، وقالَ لها: ادع اللهَ لي أن يُطلقَ يدي ولا أضرُّك! فدعَت اللهَ وأطلقَ اللهُ يدَه، وحاولَ مدَّ يده إليها مرَّةً ثانيةً فتوقَّفتْ يدُه ويبست، وعلمَ أنَّه لا سبيلَ لهُ إلى سارة، وأنَّ اللهَ يحميها، وطلبَ منْها أن تدعوَ اللهَ له، فأطلقَ يدَه! فأكرَمها وأعطاها (هاجر)، وخرجَتْ من عندِه إلى إبراهيمَ عليهِ السلامُ معزَّزة مكرَّمة، لم يمسَّها أذى!.

الإشكالُ هنا في قوله عن امرأته: هذهِ أختي! فكيفَ وصفَ الزوجةَ بالأخت؟

إنَّه لم يكذبْ في وصفِها بأنَّها أختُه، لأنَّه ما أرادَ الأخوةَ في النَّسب، فأينَ

الأختُ المحرَّمة منَ الزَّوجةِ المُباحة؟ إنَّما أرادَ الأخوَّةَ في الدِّين!.

هما في مصر، وليسَ فيها مؤمنٌ ومؤمنةٌ غيرُهما، ولهذا قالَ لها: «يا سارة ليسَ على وجهِ الأرضِ مؤمنٌ غيري وغيرك..».

إنَّه في قولِه: (هذه أختي) استخدمَ أسلوبَ (المعاريض)، أرادَ هو أنَّها أختُه في الدِّين، وفهمُوا هم أنَّها أختُهُ في النَّسب[1].

وبذلكَ نعرِفُ أنَّه كانَ صادقاً في إخبارِه أنَّها أختُه.

وهناكَ إشكالٌ آخر: كيفَ رضي أنْ يُسلِّم امرأتَه إلى رجالِ الملكِ ليأخذُوها إليه؟ معَ علمِه بما سَيفعلُه الملكُ منْ فجور! ولماذا لمْ يقاتِلْ دونَها ولو قُتِلَ لكانَ شهيداً، لأنَّه قُتِلَ دونَ عِرضه!.

الرَّاجحُ أنَّه سلَّمها لرجالِ الملكِ بإلهامٍ ووحي من الله، لأنَّه نبيٌّ كريمٌ عليه الصلاةُ والسلام، واللهُ هو الذي يأمرُه ويوجِّهه، فاللهُ عزَّ وجلَّ طمأنَه، بأنَّه سيحمي امرأتَه عندَ إدخالِها على الملك، ولذلك سلَّمها إبراهيمُ وهوَ مطمئن، وبينما كانتْ هي عندَ الملك، كانَ هو يصلِّي لله، وقد حَمَاها اللهُ عندَ الملك، ولمْ يمسَّها بسوء، وخَرجَتْ منْ عندِه معزَّزة مكرَّمة.

فالأمرُ أمرُ الله، أوحى بِهِ لإبراهيم عليهِ السلام.

١١ ـ مَنْ هو الذَّبيح؟:

أخبرَ اللهُ عن رُؤيا رآها إبراهيمُ عليهِ السلام في المَنام أنَّه يذبحُ ابنه، ولمَّا أرادَ إنفاذَ رؤياه فعلاً فَدى اللهُ ابنَه بذبحٍ عظيم.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾

---

(١) جاء في كتاب (أساطير مصرية) للدكتور عبد المنعم أبو بكر (المختص بالحضارة المصرية القديمة) أن الفراعنة كانوا يسمّون الزوجة أختاً. (الناشر)

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ٩٩ ـ ١١٣].

تتحدَّثُ الآياتُ عن ابنيْن لإبراهيم عليهِ السلام، الابنُ الأولُ لم تذكر اسمَه، وتصفُه بأنَّه غلامٌ حليم، وهو الذي رَأى إبراهيمُ في المنام أنَّه يذبحُه، والابنُ الثاني وُلد لإبراهيم فيما بعد، وهو إسحاق عليهِ السلام، وهذا يدلُّ على أن الأولَ الذبيحَ هو إسماعيلُ عليهِ السلام!.

طلبَ إبراهيمُ منَ اللهِ أنْ يرزقَه غلاماً صالحاً، فاستجابَ الله له، ووهبَه غلاماً صالحاً وحليماً، وكَبُرَ الغلام، وصارَ شاباً نشيطاً، وبلغَ مع أبيهِ السَّعي، يسعى في مصالحِه، ويتحرَّك في قضاءِ حاجاتِه، ويؤمِّن لهُ طلباتِه، يُرجى نفعُه، ويؤمِّل أبوه عليهِ كثيراً، في مساعدتِه وإعانتِه!.

عندَ ذلكَ رأى إبراهيمُ عليهِ السلامُ في المنامِ أنَّه يذبحُ هذا الغلام الذي صارَ شاباً وبلغَ معَ أبيهِ السعي!.

وفهمَ إبراهيمُ عليهِ السلامُ حقيقةَ الرؤيا، إنَّ اللهَ هو الذي يأمرُه بذبحِ ابنه، لأنَّ رؤيا الأنبياءِ حق، والشَّيطان لا يتمثَّل لهم في المنام! وسارعَ إبراهيمُ عليهِ السَّلام بتنفيذِ أمرِ الله، وهو مستسلمٌ له، راضٍ به!.

وأرادَ أنْ يُشرِكَ ابنَه معَه لذَّةَ الاستسلام لأمرِ الله، ولذلك لم يفاجِئْه بذبْحِه، ولم يهجمْ عليه، وإنَّما أخبرَه بالأمر، وقالَ له: يا بنيَّ إنِّي أرى في المنامِ أنِّي أذبحُك، فانظرْ ماذا ترى؟.

وهو يعلمُ جوابَ ابنِه، لأنَّه أنشأهُ على البِرِّ والحِلم والاستسلام للهِ والرِّضا بقضائِه، والمسارعةِ بتنفيذِ أمرِه! لذلك جاءَ جوابُ الابنِ صريحاً، قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

واستسلمَ النبيَّان الصالحان ـ الأبُ الشيخ والابنُ الشاب ـ لأمرِ الله، وبدأ التنفيذ، وتلَّ الأبُ ابنَه، وألقاهُ على الأرض، ووقفَ يحملُ السكينَ ليذبَحه، ولمْ يبقَ إلاَّ جزُّ عنقِ الابنِ بالسكين!!.

عندَ ذلكَ نادى اللهُ إبراهيمَ عليهِ السلام، وأمرَه بالتوقُّفِ عن ذبْحِه، لأنَّ

المقصودَ قدْ تحقَّق، وصدَّق الرُّؤيا في الواقع، ونجحَ الأبُ والابنُ في الامتحان!

وفدى اللهُ الابنَ الشابَّ بذِبحٍ عظيم، قدَّمه لإبراهيم عليهِ السلام، وأمرَهُ بذبحِه!.

وبعدَما أنهت الآياتُ حديثَها عنْ مشهدِ الذَّبحِ والاستسلامِ والفداء، والثَّناءِ على إبراهيمَ وابنِه الشَّاب، انتقلتْ للحديثِ عنْ إسحاقَ الابنِ الثاني لإبراهيم عليهما السلام!.

وذكرُ البشارةِ بإسحاق بعدَ الكلامِ على الذبيح، دليلٌ على أنَّ الذبيحَ هو إسماعيل وليسَ إسحاق، وأنَّ البشارةَ بإسحاق وولادتَه كانتْ بعدَ مشهدِ الذَّبحِ والفداءِ لإسماعيل، عليهما السلام!! فهذا الترتيبُ في الآياتِ في سورةِ الصافات مقصود، للانتباهِ إلى هذه الدلالة!.

وذهبَ بعضُ المفسِّرين والمؤرِّخين إلى أنَّ الذبيحَ هو إسحاق، واعتمدُوا في رأيهم هذا على الإسرائيليّات، فقدْ نصَّ اليهودُ في العهدِ القديم ـ التوراة المحرَّفة ـ على أنَّ الذبيحَ هو إسحاق!! وقالوا هذا كذباً وافتراءً، وحسداً للمسلمين، إذْ كيفَ يكونُ جدُّ المسلمين (إسماعيل) عليهِ السلامُ هو الذبيح؟ لابدَّ أنْ يكذبَ اليهودُ ويحرِّفوا الحقائق، ويقولوا: إن جدَّهم (إسحاق) عليهِ السلام هو الذبيح!.

ولن نتوقف طويلاً في نقاشِ الآخرين في هذه المسألة، ونكتفي بالتقاطِ الدلالةِ القرآنيةِ من سورةِ الصافات، واعتمادِ أنَّ الذبيحَ هو إسماعيلُ عليه السلام.

فقط نقدِّمُ هذه القطعةَ من كلامِ الإمامِ الحافظِ ابن كثير، من كتابِه (قصص الأنبياء)[1] يبيِّن أنَّ الذبيحَ هو إسماعيل، ويردُّ على مَنْ قالوا: هو إسحاق، عليهما السلام!.

قال: «وهذا هو الظاهرُ من القرآن، بل كأنَّه نصٌّ على أنَّ الذبيحَ هو إسماعيل، لأنَّه ذكرَ قصَّةَ الذبيح، ثم قال بعده: ﴿وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾.

---

(١) هو جزء من كتابه الكبير (البداية والنهاية).

ومَنْ جعلهُ حالاً فقد تكلّفَ، ومستندُه أنّه إسحاق، إنّما هو إسرائيليات، وكتابُهم فيه تحريف، ولاسيَّما هاهنا، قطعاً لا محيدَ عنه، فإنَّ عندَهم أنَّ اللهَ أمرَ إبراهيمَ أنْ يذبحَ ابنَه ووحيده، وفي نسخةٍ من التوراة المعرَّبة: بِكْرَهُ إسحاق! ولفظةُ إسحاق هاهنا مكذوبةٌ مفتراة، لأنّه ليسَ هو الوحيدَ ولا البكرَ، وإنَّما ذاك إسماعيل!.

وإنّما حملَهم على هذا حسدُ العرب، فإنَّ إسماعيلَ هو أبو العرب.

وقد قالَ بأنّه إسحاقُ طائفةٌ كثيرةٌ من السلفِ وغيرهم، وإنّما أخذوه ـ والله أعلم ـ من كعبِ الأحبار، أو من صحُفِ أهلِ الكتاب!.

وليسَ في ذلكَ حديثٌ صحيحٌ عن المعصوم، حتى نتركَ لأجلِه ظاهرَ الكتابِ العزيز، ولا يُفهم هذا من القرآن، بل المفهوم، بلْ المنطوق، بل النَّص ـ عندَ التأمُّل ـ على أنّه إسماعيل.

وما أحسنَ ما استدلَّ بهِ محمدُ بن كعب القرظي على أنَّه إسماعيل وليسَ إسحاق، منْ قولِه تعالى: ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود: ٧١]، فكيفَ تقعُ البشارةُ بإسحاق، وأنَّه سيولدُ له يعقوب، ثم يؤمرُ بذبحِ إسحاق وهو صغير، قبلَ أنْ يولَد له؟ هذا لا يكون، لأنَّه يناقضُ البشارةَ المتقدمة! والله أعلم!.

ولمَّا ذكرَ ابنُ كعبِ القرظي هذا الدليلَ للخليفةِ عمرَ بنِ عبد العزيز، قالَ لهُ عمر: إنَّ هذا الشيء ما كنتُ أنظرُ فيه، وإنّي لأراهُ كما قلت!.

ثم أرسلَ عمرُ إلى رجلٍ كان عندَه بالشام، كانَ يهودياً فأسلم وحسُنَ إسلامه، وكانَ يُرى أنّه منْ علمائهم، فسألَهُ عمرُ بنُ عبد العزيز: أيُّ ابني إبراهيم أمرَ بذبحِه؟.

فقالَ: والله يا أميرَ المؤمنين إنّه إسماعيل، وإنَّ اليهودَ لَتَعلمُ بذلك، ولكنّهم يحسدونكم معشرَ العرب على أنْ يكونَ أبوكم إسماعيل، فهم يجحدونَ ذلك، ويزعمونَ أنّه إسحاق، لأنَّه أبوهم!»[1].

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير، ص١٤٤ ـ ١٤٧، طبعة دار الخير.

١٢ ـ معنى رفع إبراهيم قواعد البيت الحرام:

تحدَّثَتْ آيات القرآنِ عن بناءِ إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السلام للكعبة، منها قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ [البقرة: ١٢٧].

لكنْ هل كانت الكعبةُ مبنيةً قبلَ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام؟ أم هما اللذان بنيَاها أولَ مرّة؟.

ذهبَ بعضُ العلماءِ إلى أنَّ الكعبةَ بُنيتْ قبلَ إبراهيمَ عليهِ السلام بفترةٍ طويلة، وقامَ هو وابنُه إسماعيلُ بتجديدِ بنائها، لأنها هُدمَتْ وبقيَتْ أساساتُها، فرفَعا قواعِدَها على تلكَ الأساسات[1].

وذهبَ علماءُ آخرون إلى أنَّ الكعبةَ لم تُبنَ قبلَهما، وما كانَ أحدٌ قبلَهما يعلمُ أنَّ في هذا المكانِ كعبة، فهما أوَّلُ مَنْ بنيا الكعبة!.

ولا توجَدُ أحاديثُ صحيحةٌ صريحةٌ عن رسولِ الله ﷺ تنصُّ على بناءِ الكعبةِ قبلَ إبراهيم عليه السلام، وكلُّ ما اعتمدَ عليهِ أنصارُ القول السابق هو رواياتٌ وأقوالٌ عن بعضِ المؤرِّخين والمفسِّرين، لكنَّها لم تصحّ حديثياً، ولعلَّ بعضَهم أخذَها عن الكتبِ القديمة.

المهمُّ أنَّنا نحتاجُ إلى حديثٍ صحيحٍ مرفوعٍ للنبيِّ ﷺ، صريحٍ في دلالتِه على ذلك، وهذا غيرُ موجود!.

وقد اعتمدَ أنصارُ القولِ الأولِ على ظاهرِ آيتيْن منَ القرآن:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾ [الحج: ٢٦].

معنى الآية ـ عندهم ـ: إنَّ مكانَ البيتِ كانَ موجوداً، وإنَّ أساساتِ البناءِ كانتْ مخفيةً مطمورةً تحتَ التراب، لأنَّ البيتَ قد هُدم، فبوَّأ اللهُ لإبراهيمَ مكانَ

---

(١) ودليل هؤلاء العلماء ظاهر قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧]. وهذا كان قبل أن يؤمر إبراهيم وإسماعيل برفع القواعد من البيت. (الناشر)

البيت، ودلَّه عليه، وأرشدَه إليه، وهيَّأه له، فقامَ بتجديد بنائه!.

الثانية: قولُه تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٧].

معنى الآية ـ عندهم ـ: إنَّ أساساتِ البيتِ الحرام كانتْ موجودةً تحتَ الأرض، فلمَّا دلَّ اللهُ إبراهيمَ عليها، وبوّأَهُ مكانَها، قامَ هو وإسماعيلُ برفعِ القواعدِ على تلكَ الأساسات، حيثُ بنياه، فهما جدَّدا البناء تجديداً!!.

ونحنُ مع الفريقِ الثاني من العلماء، ونرى أنَّ الكعبةَ لم تُبْنَ قبلَ إبراهيمَ عليه السلام ولم تكنْ معروفةً للناس!.

والآيتانِ المذكورتانِ لا تدلأن على ما قاله الفريقُ الأول.

إنَّ قولَه تعالى: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ ﴾ يدلُّ على أنَّ اللهَ دلَّ إبراهيمَ على هذه البقعة، التي سيُبنى عليها البيت، وهيَّأها له، وأمَرَهُ ببناءِ البيتِ في ذلكَ المكان، الذي حدَّده وبوَّأه له، والذي يعلمُ سبحانَهُ منذُ الأزلِ أنّه سيكونُ فيه بيتُه المحرَّم.

ولمَّا بوَّأ اللهُ لإبراهيمَ مكانَ البيت، ودلَّه عليه، وأمَرَهُ ببناءِ البيتِ فيه، نفَّذ أمرَ الله، وبنى البيتَ هو وابنُه إسماعيلُ عليهما السلام!.

أما قولُه تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ ﴾ فإنَّه يتحدَّث عن المرحلةِ الثانيةِ من مراحلِ بناءِ الكعبة، وهي مرحلةُ بناءِ القواعد، ولا يتحدَّث عن المرحلةِ الأولى، وهي مرحلةُ إرساءِ الأساسات.

ولا تدلُّ الآيةُ على أنَّ إرساءَ الأساساتِ كانَ قبلَ إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السلام، والظاهرُ أنّهما هما اللذان قاما بالمرحلتيْن معاً، مرحلةِ حفرِ الأساسات وبنائها، ومرحلةِ رفع القواعدِ والجدرانِ عليها، لأنَّ هذا ما تدلُّ عليه الآيةُ السابقة: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ ﴾!.

الراجحُ أنَّ إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السلام هما اللذان بنيَا البيتَ الحرام بمرحلتيْه: مرحلةِ إرساءِ الأساساتِ، ومرحلةِ رفعِ القواعد، لعدم وجودِ أحاديثَ صحيحةٍ صريحةٍ تجعلُ البيتَ مبنياً قبلَهما!.

حولَ هذا المعنى يقولُ الإمامُ الحافظ ابن كثير: «أمرَ اللهُ إبراهيمَ عليه

السلام أنْ يبنيَ له بيتاً، يكونُ لأهلِ الأرض، كتلكَ المعابدِ لملائكة السماء..
وأرشدَه اللهُ إلى مكانِ البيتِ المهيّأ له، المعيّنِ لذلك، منذُ خلقَ السموات والأرض، كما ثبتَ في (الصحيحين): «إنَّ هذا البلدَ حرّمه اللهُ، يومَ خَلَقَ السمواتِ والأرض، فهو حرَامٌ بحرمةِ اللهِ إلى يومِ القيامة».

ولم يجئ في خبرٍ صحيحٍ عن المعصومِ أنَّ البيتَ كانَ مبنياً قبلَ الخليلِ عليه السلام.. ومَنْ تمسَّك في هذا بقوله: (مكان البيت) فليسَ بناهضٍ ولا ظاهر، لأنَّ المرادَ مكانَه المقدَّرَ في علمِ الله، المقرّر في قَدَره، المعظَّم عند الأنبياء موضعُه، منْ لدُن آدم إلى زمانِ إبراهيم، عليهما السلام..»[1].

إذنْ إبراهيمُ وإسماعيلُ هما اللذان بنيَا الكعبة، بأنْ وضَعَا أساساتِها، ورفَعا قواعدَها، ولَم تكنْ مبنيةً قبلَ ذلك!.

وبعدَ ذلكَ بفترةٍ قصيرةٍ قامَ إبراهيمُ عليه السلام ببناءِ المسجدِ الثاني المبارك المقدَّس، وهو المسجدُ الأقصى في القدس، فإبراهيمُ هو أوَّلُ مَنْ بنى الكعبة، وهو أولُ مَنْ بنى الأقصى!!.

روى البخاري [برقم: ٣٣٦٦] ومسلم [برقم: ٥٢٠] عن أبي ذَرٍّ الغِفاريّ رضي الله عنه قال: قلتُ: يا رسولَ الله: أيُّ مسجدٍ وُضِعَ في الأرضِ أولاً؟.

قال: «المسجدُ الحرام!».

قلتُ: ثم أيّ؟.

قال: «المسجدُ الأقصى».

قلت: كَم كانَ بينهما؟.

قال: «أربعونَ سنةً!».

وإذا كان إبراهيم عليه السلام هو باني المسجدِ الحرام بنصِّ آياتِ القرآن، وإذا كان المسجدُ الأقصى بُنيَ بعدَ ذلك بأربعين سنة، فإنَّ هذا يدلُّ على أنَّ إبراهيمَ عليه السلام هو الذي بنى المسجدَ الأقصى بعدَ بنائِهِ الكعبةَ بأربعين سنة!.

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير، ص١٥٢ ـ ١٥٣.

١٣ ـ توجيه ما جرى بين إبراهيم والملائكة:

بينما كانَ إبراهيمُ عليه السلام مقيماً في الأرضِ المقدسةِ أرسلَ اللهُ له الملائكةَ في صورةِ بشر، أثناء توجُّههم لإهلاكِ وتدميرِ قومِ لوط الشاذّين الكافرين، وقد جرى بينَه وبينهم مواقفُ مثيرة.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ [هود: ٦٩ ـ ٧٦].

من المواقفِ التي تحتاجُ إلى توجيه:

١ ـ عدمُ معرفةِ إبراهيم أنَّ الرجالَ الغرباءَ الذين أمامه ليسوا ضيوفاً منَ البشر، إنّما هم ملائكة في صورة بشر.

وعندما ظنَّهم ضيوفاً غُرباءَ سارعَ إلى إكرامِهم، وهيّأ لهم الطعامَ بدون أنْ يسألهم، مبالغةً في كرمِه، وقدَّم لهم عجلاً كاملاً حنيذاً مشوياً، مع أنَّه يكفيهم القليل منه، لكنَّه قدَّمه كاملاً لأنه كريم!.

لم يعرفْ أنَّهم ملائكةٌ في صورةِ بشر، لأنَّ اللهَ لم يخبرْهُ بذلك، والأنبياءُ لا يعلمونَ من أنباءِ الغيبِ إلاَّ ما أعلمَهُم اللهُ إيّاه، فلا يُعيبُ إبراهيمَ عليه السلام عدمُ معرفتِه بحقيقةِ الرجال الذين أمامه!.

٢ ـ لما قَدَّمَ لهم الطعامَ والعجلَ المشويَّ لم يمدُّوا أيديهم إليه: ﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾.

هم لم يأكلوا من الطعام لأنَّهم ملائكة، والملائكةُ لا يأكلونَ ولا يشربون، ولا يبولون ولا يمرضُون ولا يَجوعون ولا يعطشون!.

ولمّا لم يأكلُوا من طعامِ إبراهيمَ عليه السلام نكرَهم وأوجسَ منهم خيفة،

فطمأنوه وقالوا له: لا تخَفْ.

ولا يؤاخَذُ على خوفِه منهم، لأنَّ هذا خوفٌ فطري، فهو قد أكرمَ ضيوفه، وقَدَّمَ لهم عجلاً مشوياً، وهم مسافرون قادمون من مكانٍ بعيد، وهذا معناه أنهم جائعون، فعدمُ أكلهم من طعامِه معناه أنهم يريدونَ به سوءاً، أو يتآمرون عليه.

إنَّ الخوفَ الفطريَّ من الخطرِ أمرٌ جعلَه اللهُ في الفطرةِ الإنسانية، ليقومَ الإنسانُ بالحذرِ والأخذِ بالأسباب، وتجنُّبِ الخطر، وهذا عامٌّ يشملُ الأنبياءَ وغيرهم! وهذا ما حصلَ منْ إبراهيمَ عليه السلام، وهو من لوازمِ طبيعتِه البشرية!

٣ ـ طمأنَ الملائكةُ إبراهيمَ عليه السلام، وأخبروه أنهم ذاهبون لتدميرِ قومِ لوط، كما بشَّروه بأنَّ اللهَ سيرزقه بغلام!.

فوجئ بهذهِ البُشرى، فكيف يأتيهِ الغلامُ وقد بلغَ من الكبرِ عتياً، قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۝٥٣ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝٥٤ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ۝٥٥ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٣ ـ ٥٦].

ومفاجأتُه من هذه البشرى، واستغرابُه ودهشتُه منها، لا تتعارضُ مع نبوَّته، وليسَ فيه مأخذٌ عليه، لأنَّ هذا مستحيلٌ في المقياسِ البشري، فهو شيخٌ كبيرٌ طاعنٌ في السن، وامرأتُه عجوزٌ عقيم، فكيف سيُنجبان ولداً بعدَ هذا العمر؟.

لكنَّ دهشتَه زالتْ بعدَما طمأنَه الملائكة، فعرفَ أنَّ الأمرَ أمرُ الله، وهو رسولٌ كريمٌ عليه السلام، يُصَدِّقُ بخبرِ الله، ويرضى بقدَره.

٤ ـ حتى امرأةُ إبراهيمَ عليه السلام ـ المرأةُ الصالحةُ سارةُ رضي الله عنها ـ استغرَبَتْ منْ هذه البشرى الغريبة، بعدما ضحكتْ من البشرى بإهلاكِ قومِ لوط!.

قال تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ۝٧١ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٧٢ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾.

تخبرُ الآيةُ أنَّ امرأةَ إبراهيم كانتْ واقفةً أمام الملائكة، فسمعت الخبرَ عن توجُّههم لتدميرِ قوم لوطِ الشاذين الكافرين، ففرحتْ بذلك، وضحكتْ سروراً، لأنَّها كانت تكرَهُ أولئك القوم، وسُرَّت بوقوعِ العذاب بهم.

ولمّا ضحكتْ وفرحتْ بشّرتها الملائكةُ أنّها ستنجبُ إسحاق، وسترى حفيدَها يعقوبَ أيضاً.

وذهبَ بعضُ ناقلي الإسرائيلياتِ والرواياتِ الغريبةِ غيرِ الصحيحةِ إلى أنَّ معنى (ضحكت): حاضت. فقدْ كانتْ عقيماً لا تُنجب، ثم هي بلغتْ سنَّ اليأس، حيثُ تنقطع دورتُها الشهرية ولا تحيض، ويستحيلُ في المقياسِ البشري أن تلدَ المرأةُ بعدَ بلوغها سنَّ اليأس! لأنَّ هذا معناه أنّها لا تفرزُ (البويضة) التي يلقحُها الحيوانُ المنوي فيتمُّ الحملُ بعد ذلك!.

قالَ دعاةُ الإسرائيليات: إنَّ سارةَ العجوزَ العقيم كانت قائمةً واقفة، وبينما كانت واقفةً ضحكتْ وحاضتْ، وجاءتْها الدورةُ الشهرية. ولما فوجئَتْ بذلك، بشّرتها الملائكةُ بأنَّ عودةَ دورتِها الشهريةِ تمهيدٌ لحملِها وولادتها، حيثُ ستلدُ إسحاق!.

هذا كلامٌ باطلٌ ومردود، ولا يجوزُ أن يُفسَّرَ بهِ كلامُ اللهِ الصادق!.

إنَّ معنى ضحكها هو ما قلناه، وهو الضحكُ المعروفُ عندَ الناس، وضحكُها كانَ فرحاً وسروراً بقربِ هلاكِ القوم الكافرين!.

ولمّا سمعت البشارةَ بأنّها ستلد، تحرّكت حركةً لا إرادية، حيث صكّت وجهها بالصرة - وهي لطم خدِها بكفها - قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٢٩ - ٣٠].

ردّت الملائكةُ على استغرابِ ودهشةِ سارة رضي الله عنها بتذكيرِها بأنَّ هذا أمرُ الله، وأمرُ اللهِ نافذ: ﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ فزال استغرابها، وأيقنت بأمر الله.

٥ - لمّا علمَ إبراهيمُ عليه السلام بتوجُّهِ الملائكةِ لتدميرِ قومِ لوطٍ صارَ يجادلُهم.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾.

جداله في قوم لوط ليؤخر العذاب عنهم، رحمة منه بهم، والذي دفعه إلى هذا فرط حلمه ورحمته، وكأنه كان يطلب إعطاءهم فرصة أخرى، لعلهم يؤمنون ويصلحون.

ولا يؤاخَذ على دفاعه عن قوم لوط ـ الشاذّين الكافرين ـ ولا يُلامُ على جداله الملائكة بشأنهم! لأن الذي حمله على ذلك حلمه ورحمته، فهو يريد منهم أن يؤمنوا، ويريد لهم الخير: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾.

وقد أفهمته الملائكة أن الله أمر بتعذيب القوم، وأن جداله ورجاءه لا يمنع ذلك ولا يؤجله، وعليه أن يتوقف عنه: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾.

عند ذلك توقف عن الجدال بشأن القوم، واستسلم لأمر الله!!.

وبهذا التحليل والتوجيه نعرف أن إبراهيم لم يخطئ في ما حصل بينه وبين ضيوفه من الملائكة من مفاجآت وأفعال وجدال، وأنه كان على صواب في ذلك!

١٤ ـ كيف كان إبراهيم خليل الله؟:

أخبرَنا اللهُ أنّه اتَّخذ إبراهيمَ عليه السلام خليلاً. ولهذا يقال: إبراهيمُ الخليل، عليه الصلاة والسلام. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

تقررُ الآيةُ أنّه ليس هناك أحدٌ أحسنَ ديناً عندَ الله من المؤمنِ الصالح، الذي أسلمَ وجْهَه لله، وأحسنَ العملَ لله، واتَّبعَ ملةَ إبراهيمَ عليه السلام، وقد كانَ إبراهيمُ حنيفاً، واتَّخذَهُ اللهُ خليلاً.

ما معنى الخليل؟.

الخليلُ مشتقٌ من (الخُلَّة).

للإمامِ الراغبِ الأصفهاني كلامٌ رائعٌ عن الخُلَّة. قال: «الخَلَل: فُرْجَةٌ بين الشيئين.

والخُلَّة: المَوَدَّة. إمّا لأنّها تتخلَّلُ النَّفس، أي: تتوسَّطُها، وإمّا لأنها تَخُلُّ النفس، فتؤثِّرُ فيها تأثيرَ السهمِ في الرمية، وإمّا لفرطِ الحاجةِ إليها.

يُقال منه: خالَلْتُه مُخالَّة وخلالاً، فهو خَليل.

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾.

قيل: سماهُ بذلك لافتقاره إليه سبحانَه في كلّ حال، وهو الافتقارُ المعنيُّ بقوله تعالى: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]. وعلى هذا الوجهِ قيل: اللهمَّ أغْنِني بالافتقارِ إليك، ولا تُفقِرني بالاستغناءِ عنك!.

وقيل: خليل من الخُلّة. واستعمالُها فيه كاستعمالِ المحبةِ فيه.

قال أبو القاسم البَلْخي: هو من الخَلّة، لا من الخُلّة! ومَنْ قاسَه بالحبيبِ فقد أخطأ! لأنَّ الله يجوزُ أنْ يحبَّ عبدَه، فإنَّ المحبـةَ منهُ الثناء، ولا يجوزُ أنْ يُخالّه!!.

وهذا منه اشتباه. فإن الخُلّة من تَخلُّل الودِّ نفسَه ومخالطتِه. قال الشاعر:

قَـدْ تَخَلَّلْـتَ مَسْلَـكَ الـروحِ منّـي ... وبِـه سُمِّـيَ الخَليـلُ خَليـلا

ولهذا يُقال: تمازجَ روحانا.

والمحبةُ: البلوغُ بالوُدِّ إلى حبةِ القلب. من قولهم: حَبَبْتُه: إذا أصبتُ حبةَ قلبِه.

لكن إذا استُعملت المحبةُ في الله، فالمرادُ بها مجرَّدُ الإحسان. وكذا الخُلّة فإنْ جازَ في أحدِ اللفظيْن جازَ في الآخر.

فأمّا أنْ يُرادَ بالحُبّ حبةَ القلب، والخُلّة التَّخلُّل، فحاشا له سبحانه أنْ يُرادَ فيه ذلك..»[1].

أبو القاسم البلخيُّ الذي أوردَ الراغبُ كلامَه هو: عبدُ الله بن أحمد البلخيُّ الكعبي، أحـدُ رؤوس المعتزلة، وقد فـرّقَ بين الخَلّـة ـ بالفتح ـ وهي بمعنى الحاجة، والخُلّة ـ بالضم ـ وهي بمعنى المحبة.

واعتبرَ البلخيُّ أنّ إبراهيمَ خليلُ اللهِ لحاجتِه إليه.

---

(١) المفردات، ص٢٩٠ـ٢٩١.

وردَّ عليهِ الراغبُ بأنّه لا مانعَ أنْ يكونَ من (الخُلّة) ـ بالضم ـ بمعنى المحبة، ومحبةُ اللهِ للإنسانِ تقودُ إلى إحسانِه إليه، وإنعامِه عليه!.

الخليلُ إذن من الخُلَّة، وهي بمعنى المودّة والمحبّة، وخُلّةُ الله للعبد ومحبتُه له ينتج عنها إحسانُه إليه!.

وعلى ضوءِ هذا البيان لمعنى الخليل والخُلّة في اللغة، يكونُ معنى قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾: أحبَّ اللهُ إبراهيمَ لإيمانِه وصدقِه، ولجوئه إليه، وافتقارِه وحاجتِه له، وبعدما أحبَّه أنعمَ عليهِ إنعاماً جزيلاً، وأحسنَ إليهِ إحساناً غامراً، واصطفاهُ إليه، وجعلَه إماماً وقدوة، وجعلَ في ذريّته النبوّة والكتاب!.

ولأنَّ اللهَ اتّخذَ إبراهيمَ خليلاً، فقد أُطلقَ عليهِ لقبُ (خليلُ الله)، ولهذا سُمّيَت مدينةُ (الخليل) في فلسطين بهذا الاسم، لأنّه عاشَ فيها، وماتَ فيها، وقيلَ: إنّه مدفونٌ فيها، ولهذا نُسبتْ إليه!!.

وإذا كانَ اللهُ قد أكرمَ إبراهيمَ عليهِ السلام باتّخاذه خليلاً، فإنَّ هذا ليسَ خاصاً به، فقد شاركَه في هذا الفضلِ نبيُّنا محمدٌ ﷺ، حيثُ اتخذَه اللهُ أيضاً خليلاً.

روى البخاري [برقم: ١٩٠٤] ومسلم [برقم: ٥٣٢] عن جندب رضي الله عنه قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ قبلَ أنْ يموتَ بخمس، وهو يقول: «إنّي أبرأُ إلى اللهِ أنْ يكونَ لي منكم خليل، فإنَّ اللهَ اتّخذني خليلاً كما اتّخذَ إبراهيمَ خليلاً، ولو كنتُ متّخذاً من أمتي خليلاً، لاتّخذتُ أبا بكر خليلاً..».

إبراهيمُ خليلُ الله، ونبيُّنا محمدٌ أيضاً خليلُ الله، عليهما الصلاة والسلام!.

١٥ ـ توجيه سؤال إبراهيم عن الإمامة في ذريته:

قال تعالى: ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

يخبرُنا اللهُ في هذه الآية أنه ابتلى إبراهيمَ عليه السلام وامتحنَه، بأنْ عهدَ إليه بكلماتٍ يقومُ بهن، فنجحَ في الابتلاء والامتحان، وأدّى الكلماتِ المطلوبة، وأتمَّ هذا الأداء، فأكرمَهُ اللهُ بأنْ جعلَه إماماً!.

(إبراهيمَ) في الجملة: ﴿ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ﴾ مفعولٌ به منصوب مقدَّم و(ربُّه) فاعلٌ مرفوعٌ مؤخر.

والكلماتُ التي ابتلى اللهُ إبراهيمَ بها مبهمةٌ في الآية، لم تبيَّنْ ولم تُحدَّد، كما لم يبيِّنْ رسولُ الله ﷺ تلكَ الكلمات، ونحنُ نُبقيها على إبهامها. كلُّ ما نقولُه عنها: لعلَّها هي التكاليفُ الشرعيةُ التي كلَّفه اللهُ بها، بما تتضمنُه من أوامرَ ونواهٍ وتوجيهات!.

وقد أثنى اللهُ على إبراهيمَ عليه السلام، حيثُ أخبرَ أنه نجحَ في الابتلاء، وأتمَّ أداءَ تلك الكلمات، وأحسنَ القيامَ بكلِّ ما أمره اللهُ به، وطلبَه منه!.

وحُسْنُ الأداء، والنجاحُ في الابتلاء نتجَ عنه إكرامُ اللهِ لإبراهيمَ بأنْ جعلَه إماماً. ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗا﴾.

والإمامُ هو الذي يأتَمُّ به الناس، ويقتدون به في الخير، ويَهتدون بهديه.

واللهُ جعلَ إبراهيمَ عليه السلام إمامَ هدى للناس، على اختلافِ الزمان والمكان، فهو إمامٌ لمؤمني بني إسرائيل، وإمامٌ لمؤمني النصارى، وهو إمامٌ للمسلمين أتباعِ محمدٍ ﷺ. هو إمامُ دعوة، ومنارُ هدى، ومعلِّمُ عقيدة!.

ولما أخبرَ اللهُ إبراهيمَ عليه السلام أنه جعلَه إماماً للناس، سألَ عن الإمامةِ في ذريته: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وقد لا يُحسِنُ بعضُهم توجيهَ سؤالِه عن الأئمةِ في ذريته، فيعتبر ذلك شفاعةً منه لذريته، وطَمَعاً منه في امتدادِ الإمامةِ في ذريته، واهتماماً خاصاً منه بذريته!.

والأمرُ ليس على هذه الصورة، فسؤالُه عن الأئمةِ في ذريته مظهرٌ من مظاهرِ شخصيتِه الحليمةِ المنيبة: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ﴾.

وكأنَّه بسؤالِه يريدُ أنْ يعرفَ القاعدةَ العامةَ المطردةَ في الإمامة، فهو يعلمُ أنَّ ذريتَه ليسوا جميعاً على مستوى واحد، وسيكونُ منهم أناسٌ صالحون، وسيكونُ منهم أناسٌ غير صالحين، ففي أي صنفٍ منهم تكون الإمامة؟.

وقد أجابهُ اللهُ على سؤالِه، بتقريرِ سنةٍ ربانيةٍ مطردة، فقال: ﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: عهدُ اللهِ لإبراهيم عليه السلام بجعلِه إماماً خليفة، يَنالُ ويصيبُ ويصلُ

إلى المؤمنين الصالحين من ذريته، لأنهم يقتدون بإبراهيم عليه السلام، لكنَّ الظالمين من ذريته محرومون من العهدِ والإمامةِ والاستخلاف، بسببِ ظلمهم وكفرهم وعدوانهم، محرومون من الإمامة، رغمَ أنهم من ذرية إبراهيم عليه السلام، سواء كانوا من اليهود أو النصارى أو العربِ المشركين!.

وصياغةُ الجملةِ لطيفةٌ مقصودة: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إن (عهدي) في الآية هو الفاعل. و(الظالمين) هو المفعولُ به. والمعنى: لا يصلُ عهدي الظالمين الكافرين.

ليس معنى (ينال) هنا: يأخذ. فليس معنى الجملة: لا يأخذُ الظالمون عهدي.

إن معنى (ينال) يصِل. فالمعنى: لا يصِلُ عهدي الظالمين، لأنهم محرومون منه.

وكأنَّ العهدَ هو الذي يتحركُ ويتنقل، ويسيرُ من مجموعةٍ إلى مجموعة، ومن جيلٍ إلى جيل، وكأنَّه هو الذي يختارُ الناسَ الذين يذهبُ إليهم، وينتقي منهم المناسبَ له، إنّه يختارُ المؤمنين الصالحين، ويذهبُ إليهم، أمّا الظالمون فإنهُ لا يصلُهم ولا ينالُهم: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

مِنَ الظالمين الذين لم يصلهمْ عهدُ الله، من ذريةِ إبراهيم عليه السلام: اليهودُ والنصارى والعربُ المشركون.

وهذا إلغاءٌ للنظرةِ اليهودية للوراثة، التي يجعلونَها قائمةً على الوراثةِ النَّسَبيّة، فالذريةُ وارثةٌ لإبراهيم عليه السلام لأنهم ذريتُه، سواء كانوا يهوداً أم نصارى أم مسلمين أم مشركين!.

إنَّ هذه الجملةَ تقررُ النظرةَ الإسلاميةَ للوراثة، التي تقومُ على الوراثةِ الإيمانية، وليس النَّسَبيّة.

الظالمون الكافرون من ذريةِ إبراهيم عليه السلام ـ مثلُ اليهود والنصارى والمشركين ـ لا يصلحون للإمامة، ولا ينالُهم عهدُ الله، ولا يكرمُهم الله.. وإنَّ شرط الإمامةِ هو الإيمانُ والصلاحُ والتقوى! هذه هي السنةُ الربانيةُ في الاستخلافِ والإمامةِ والكرامة!.

١٦ ـ اليهود والنصارى والمشركون ليسوا على ملة إبراهيم:

تَنازعت الطوائفُ الدينيةُ في إبراهيمَ عليه السلام، فكلُّ طائفةٍ تدَّعي أنها على ملـةِ إبراهيم ودينه، وأنها منتسبـةٌ له، وأشهرُ هذه الطوائف ثلاثة: اليهودُ والنصارى والعربُ المشركون.

يدَّعي اليهودُ الانتسـابَ لإبراهيم عليه السـلام لأنهم أبناءُ إسـحاقَ عليه السلام، ويدَّعي النصارى الانتسابَ له لأنَّهم امتدادٌ لأبنائِه ودينه، ويدَّعي العربُ الانتسابَ له لأنهم أبناءُ إسماعيلَ عليه السلام، ويحجّونَ إلى بيتِه الحرام!.

وقد ذكرتْ آياتُ القرآن هذه الدعاوى للطوائف الثلاثة، وكَذَّبتهم، وبيَّنت انقطاعَ الصلةِ الإيمانيةِ بينهم وبينه، لأنَّه نبيٌّ كريم، وحنيفٌ مسلم، وهم كفارٌ ظالمون، أمَّا الذين ينتسبونَ له انتساباً إيمانياً حقيقياً فهم الأمةُ المسلمة، الوارثةُ لرسالةِ إبراهيمَ عليه السلام!.

من الآياتِ التي تحدثَتْ عن ذلك هذه (المجموعة) من سورةِ البقرة. قال تعالى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٠ ـ ١٤١].

ومنها هذه المجموعةُ من آياتِ سورة آل عمران. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٦٥ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٦٦ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦٧ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٥ـ٦٨].

نَدعو إلى إمعانِ النظر في هاتيْن المجموعتيْن، وفقهِ معناهما، واستخراجِ دلالاتِهما العديدة، في جدالِ اليهودِ والنصارى والمشركين، وتجريدِهم من الانتسابِ لإبراهيمَ عليه السلام، لافتراقِ طريقهم عن طريقه، إذ لا يتسعُ المجالُ للحديثِ عنها في هذا الموطن!!.

إنَّ آياتِ سورة آل عمران تُنْكِرُ على أهلِ الكتاب من اليهودِ والنصارى جدالَهم في إبراهيم عليه السلام، وتُبطِلُ انتسابَهم إليه، وتكذِّبُهم في هذا الزعم!.

التوراةُ أُنزلتْ على موسى عليه السلام، وموسى عليه السلام جاءَ بعد إبراهيم بمئاتِ السنين! فكيفَ يزعمُ اليهودُ أنَّ إبراهيمَ كان يهودياً؟ والتوراةُ لم تنزلْ إلاَّ من بعده!!.

والإنجيلُ أُنزلَ على عيسى عليه السلام، وعيسى جاءَ بعد إبراهيم وبعدَ موسى بمئاتِ السنين، فكيفَ يزعمُ النصارى أنَّ إبراهيمَ كان نصرانياً؟ والإنجيلُ لم ينزلْ إلاَّ من بعده!.

وتنفي الآياتُ انتسابَ الطوائفِ الثلاثةِ لإبراهيم عليه السلام: اليهود والنصارى والعرب المشركين: ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

وإذا كان هؤلاء جميعاً ليسوا من إبراهيم عليه السلام، لافتراقِ طريقِهم عن طريقِه، فهم يهودٌ أو نصارى أو مشركون، وهو حنيفٌ مسلمٌ لله، فمن هم أَوْلى الناسِ بإبراهيم؟ ومَنْ هم أتباعهُ الحقيقيون؟.

حددت الآيةُ هؤلاء تحديداً صريحاً لا لبسَ فيه: ﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

إنّهم أصنافٌ ثلاثة:

الأول: (للذين اتبعوه): أي الذين آمنوا به ودَخلوا في دينه واتَّبعوا دعوتَه، من المعاصرين له، الذين عاشوا معه حياتَهم، وكانوا مؤمنين صالحين.

الثاني: (وهذا النبيّ): هو النبيُّ محمدٌ ﷺ، لأنه خاتمُ الأنبياءِ والمرسلين، والوارثُ لدعوةِ إبراهيمَ عليه السلام ورسالتِه.

الثالث: (والذين آمنوا): هم المؤمنون أتباعُ محمدٍ ﷺ، والداخلون في دينه، وهم أمةُ الشهادةِ والرسالةِ والخلافةِ والدعوةِ إلى يومِ القيامة، وهم المنتسبون انتساباً إيمانياً لإبراهيم عليه السلام، والورثةُ الحقيقيّون له!.

وهؤلاء المسلمون ـ أتباعُ محمدٍ ﷺ ـ هم وحدهم على ملةِ إبراهيمَ عليه السلام، أما اليهودُ والنصارى فليسوا على ملَّته، وليسوا على دينه، وليسوا ورثتَه، لأنهم يهودٌ أو نصارى، وإبراهيمُ عليه السلام ما كانَ يهودياً ولا نصرانياً، وإنَّما كانَ حنيفاً مسلماً.

وتجريدُ اليهودِ والنصارى من الانتسابِ لإبراهيم عليه السلام، يُرادُ منه نفيُ الانتسابِ الإيمانيِّ العقيدي، القائمِ على الاتِّباعِ في الدين والرسالة، وهذا هو الانتسابُ الجديرُ بالقَبول، وهو الذي يعتمده الإسلام! وهذا لا يمنعُ وجودَ صلةٍ نَسَبيّةٍ بينَ بعضِ اليهودِ والنصارى وبينَ إبراهيم عليه السلام، أيْ أنَّ بعضَ هؤلاء قد يكونون من نسلِه ومن ذريتِه ومن أبنائه وأحفاده، وبعضُهم قد ينتهي نسبُه بإبراهيمَ عليه السلام، رغمَ وجودِ فترةٍ زمنيةٍ تُقَدَّرُ بعشراتِ أو مئاتِ السنين!.

إنَّ كونَ بعضِ اليهودِ والنصارى من ذريةِ إبراهيمَ عليه السلام نسباً، لا يَعني أنَّهم ورثةٌ حقيقيون له، لأنهم كفروا وظلموا، وكفرُهم قَطَعَ صلتَهم الحقيقية الإيمانية بإبراهيم، وإذا انقطعتْ هذه الصلةُ الإيمانية لم تنفعْ بعد ذلك صلتُهم النَّسبيةُ النسلية!!.

١٧ ـ كيف إبراهيم أب لهذه الأمة؟:

وإذا كانَ اليهودُ والنصارى ليسوا على صلةٍ إيمانيةٍ بإبراهيم عليه السلام ـ بالمفهومِ الذي وضَّحناه ـ فإنَّ أُمَّتنا المسلمةَ هي المتصلةُ إيمانياً بإبراهيم عليه السلام!.

اليهودُ ليسوا أبناء إبراهيم، لأنَّهم كفار، وإبراهيمُ لا يعترفُ بهم، ويلعنُهم لكفرهم، وهو بريءٌ منهم، ويُكذِّبُهم في زعم (بُنُوَّتِهم) له!.

والنصارى ليسوا أبناءَ إبراهيم عليه السلام، لأنهم كفار، وإبراهيمُ لا يعترفُ بهذه (البُنُوَّة) التي يَزعمونَها!.

أمّا نحن المسلمون فنحنُ الأبناءُ الحقيقيّون لإبراهيمَ عليه السلام، نعتزُّ بهذه (البُنُوَّة) ونشكرُ اللهَ عليها، وهو (أبونا) عليه السلام، اختارَ لنا هذا الاسمَ المباركَ (المسلمون).

ونحنُ مأمورون بنصِّ آياتِ القرآن باتّباعِ ملةِ إبراهيم الحنيفِ المسلمِ عليه السلام:

قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥].

وقال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٩٥].

ونبيُّنا محمد ﷺ مأمورٌ باتّباع ملةِ إبراهيمَ أيضاً. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[الأنعام: ١٦١]

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

إبراهيمُ عيه السلام أبونا، سمّانا المسلمين، قبلَ أن يُوجِدَنا اللهُ في عالمِ الواقع، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٧-٧٨].

تُصرِّحُ الآيةُ بأنَّ المسلمين أتباعَ محمدٍ ﷺ هم وحدَهم على ملةِ إبراهيمَ عليه السلام كما تصرح بأنَّ إبراهيمَ هو أبوهم، وهم أبناؤُه!!.

وليس المرادُ بالأبوةِ هنا الأبوةُ النَّسَبيةُ النَّسلية! مع أنَّ بعضَ المسلمين ينتهي نسبُه إلى إبراهيمَ عليه السلام.

المرادُ بالأبوةِ هنا الأبوةُ المعنويةُ الإيمانية! فكلُّ المسلمينَ يقتدونَ بإبراهيم عليه السلام ويتَّبعونه، ويَسيرونَ على طريقه: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾.

ومن محبةِ إبراهيمَ عليه السلام لهذه الأمةِ واهتمامِه بها أنَّه اختارَ لها اسمَها قبلَ مئاتِ السنين من وجودها: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾.

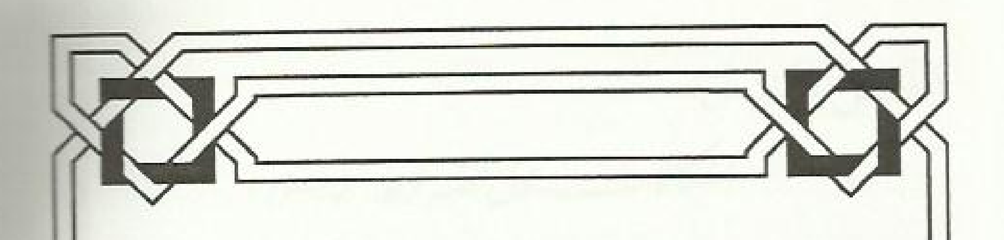
وهذا الاسمُ (المسلمون) أصيلٌ عريق، ممتدٌّ في التاريخ، وهو ليس اسماً عارضاً حادثاً، هم مسلمون، والأنبياءُ قبلَهم كلُّهم مسلمون، وأتْبَاعُ الأنبياء قبلَهم كلُّهم مسلمون.

ورضيَ اللهُ لهم هذا الاسم الذي سَمَّاهم به أبوهم إبراهيمُ من قبله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

ومن مظاهرِ الصلةِ والمحبةِ بينَ إبراهيم عليه السلام وبينَ هذه الأمةِ أنَّ المسلمَ يصلِّي على محمدٍ وعلى إبراهيم عليهما الصلاة والسلام في الجلوسِ الأخيرِ من كلِّ صلاة، وهي المسماةُ بالصلاةِ الإبراهيمية!.

يقولُ المسلمُ في صلاتِه: «اللهمَّ صلِّ على محمد، وعلى آلِ محمد، كما صلَّيتَ على إبراهيم، وعلى آلِ إبراهيم، وبارك على محمد، وعلى آلِ محمد، كما باركتَ على إبراهيم، وعلى آلِ إبراهيم، في العالمين إنك حميد مجيد».

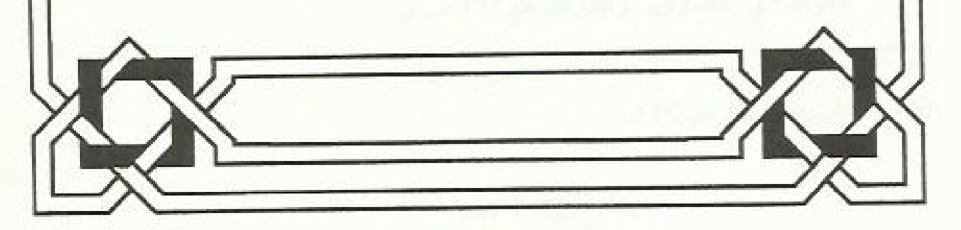
* * *



الفَصْلُ ٱلسَّادِسُ

إشكالات حول قصّة لوط عليه السلام

تَحلِيلٌ وَتَوْجِيهٌ



الفَصْلُ السَّادِسُ

إشكالات حول قصة لوط عليه السلام

تحليل وتوجيه

١ ـ الفرق بين اسم لوط واللواط:

(لوط) اسمُ النبيِّ الكريم عليه الصلاة والسلام، الذي اتَّبعَ إبراهيمَ عليه السلام، وقَدِمَ معه من بلادِ العراق، إلى الأرض المقدسة.

وبعثَهُ اللهُ نبياً رسولاً إلى قومٍ كانوا يسكنون شرقَ الأرضِ المقدسة، كانوا كفاراً، وانتشرتْ فيهم فاحشةُ (اللواط)!.

وقد يَقرنُ بعضُ الناسِ بينَ (لوطٍ) واللواط، ويجعلُ هذا الاسمَ لفاحشةِ إتيانِ الذكرانِ من العالمين مشتقاً من اسم النبيِّ الكريم لوطٍ عليه السلام!.

وهذا ربطٌ مرفوضٌ بين الكلمتيْن، لأنَّ بينَهما فرق كبير.

(لوط): اسمُ علمٍ أعجمي غيرُ عربي، سُمِّيَ بهِ هذا النبيُّ الكريمُ عليه الصلاة والسلام، وهو ليسَ اسماً عربياً مشتقاً، فلا نبحثُ عن مادةِ اشتقاقِه، ولا عن معناهُ في العربية.

ورغمَ أنَّه اسمُ علمٍ أعجمي إلا أنه مصروف، لأنه ثلاثيٌّ ساكنُ الوسط، مثل (نوح).

أما اللواط فإنَّه كلمةٌ عربية مشتقة، تقول: لاطَ، يَلوطُ، لَوْطاً، ولِواطاً.

قال ابنُ فارس في معنى الكلمة: «اللَّوْطُ: كلمةٌ تدلُّ على اللصوق، تقولُ: لاطَ الشيءُ بقَلْبي. إذا لصقَ به، وفي الحديث: «الولَدُ أَلْوَطُ بالقلب». أيْ: ألصقُ بالقلب. وتقولُ: لطتُ الحوضَ لَوْطاً: إذا طيَّنْتُه بالطين»[1].

اللَّوْط هو اللُّصوق. واللِّواط هو الالتصاق.

---

(١) مقاييس اللغة، ص٩٤٣.

وسُميَ إتيانُ الذَّكَرِ للذَّكَرِ لواطاً لأنهما يلتصقان معاً عند ارتكابهما تلك الفاحشة الشاذة.

إذنْ لا صلةَ بين (اللواط) وبين اسم النبيِّ الكريم (لوط) عليه السلام، رغمَ أنَّ اللهَ بعثَه رسولاً إلى قومٍ فشَتْ فيهم فاحشةُ اللواط.

والدليلُ على أنَّ اللواطَ بدأ فيهم قولُه تعالى إخباراً عن ما قالَه لوطٌ عليه السلام لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨٠ ـ ٨١]

٢ ـ لماذا ضاق لوط بضيوفه؟:

لما أرادَ اللهُ تدميرَ قومِ لوطٍ أرسلَ مجموعةً من الملائكة، متحوِّلين في صورةِ رجال، إلى لوطٍ عليه السلام، ولما رآهم لوطٌ قادمين إليه لم يَعرفْ أنَّهم ملائكة، وظنَّهم رجالاً حقيقيين يريدون النزولَ ضيوفاً عنده!.

ولا يُؤاخَذُ على عدمِ معرفتِه بأنَّهم ملائكة، مع أنه نبيٌّ رسول، لأنَّ ظاهرهم أنهم بشر، ولم يُخبرهُ اللهُ أنهم ملائكةٌ في صورةِ بشر، وعلْمُ النبيِّ محدود غيرُ مطلَق، ولا يَعلمُ من الغيبِ إلاَّ ما أعلمَه اللهُ إياه. وقد سبقَ أنْ مرَّ هؤلاء الملائكة بنبيِّ اللهِ إبراهيمَ عليه السلام، ولم يعلمْ أنهم ملائكة إلاَّ بعدَ أنْ أخبروه هم، وهذا يدلُّ على بشريةِ الرسل، ومحدوديةِ علمِهم!.

ولما وصلَ الضيوفُ لوطاً عليه السلام سيءَ بهم وضاقَ بهم ذرعاً، وتمنّى لو لم يأتوه. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: ٧٧].

والمعنى أنه أصابهُ الهمُّ والحزنُ والسوءُ عندما حلُّوا في بيته، وضاقَ بهم ذرعاً، ولم يعرفْ ماذا يفعل، ولا كيفَ يتصرف! واعتبرَ هذا اليومَ الذي قَدِموا فيه يوماً عصيباً شاقاً قاسياً، له نتائجُ خطيرة، قد تُؤذيه هو كثيراً!.

لماذا ضاقَ لوطٌ عليه السلام ذرعاً بضيوفه؟ أليسَ إكرامُ الضيفِ مطلوباً؟ وهو النبيُّ الكريمُ عليه السلام! ولماذا لم يُحسن استقبالَهم ولم يفرحْ بهم، كما فعلَ إبراهيمُ عليه السلام عندما قدَّمَ لهم عجلاً حنيذاً مشوياً؟.

إنَّ ضيقَه بضيوفِه ليسَ مأخذاً يُؤخَذُ عليه، ولا أمراً يستحقُّ اللومَ عليه، فهو

يحبُ الضيوف، ويحبُ إكرامَهم! لكنَّ الوضعَ الآنَ مختلف.

لقد ضاقَ بهم بسببِ شذوذِ وفسقِ قومه!.

إنهم يرتكبونَ فاحشةَ اللواط، ويأتونَ الرجالَ شهوةً من دونِ النساء، وقد انتشرَ وفشا هذا الشذوذُ فيهم، وأُصيبوا بالسُّعار الذي لا شفاءَ منه، ولا يتركون أحداً يَقدرونَ على الفجورِ به سالماً! وضيوفُ لوطٍ عليه السلام رجالٌ غرباء، ذوو هيأةٍ وملاحةٍ وجمال، وعندما يراهم القومُ الشاذّون سيهجُمونَ عليهم ليفجرُوا بهم! ولوطٌ لا يقدرُ على الدفاعِ عنهم، ولذلك تمنّى لو لم يأتوا إليه!.

وهذا ما حصل، وما توقَّعَه لوطٌ من قومِه الفاجرين تحقق، فما أنْ عَلِموا أنَّ عندَ لوطٍ رجالاً ذوي جمال، حتى جاؤوه يُهرَعون إليه، ليأخذوا ضيوفَه منه!.

ويبدو أنَّ القومَ كانوا مَنَعوا لوطاً عليه السلام عن استقبالِ الضيوفِ الغرباء. فلمّا اشتدَّ الحوارُ بينه وبينهم قالوا له: ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحجر: ٧٠]

ولما عرَّفه الضيوفُ على أنفسهم فيما بعد، وأنهم ملائكة قَدِموا لتعذيبِ القومِ المجرمين اطمأنَّ وزالَ ضيقُه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الحجر: ٦١ ـ ٦٤].

٣ ـ معنى قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾:

دافعَ لوطٌ عليه السلام عن ضيوفه، ووقفَ أمامَ قومِه الشاذّين. قال تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ٧٨].

وفعل (يُهرَعون) مضارعٌ مسنَدٌ لغيرِ الفاعل ـ مبنيٌّ للمجهول ـ وهو يصوِّر الرغبةَ الشاذةَ المحمومة، التي حرَّكَتْهم ودعَتْهم للهجومِ على الرجالِ الحسان!.

لقد كان يحركُهم الانحرافُ والشذوذ، الذي يُعميهم عن رؤيةِ الحقائق، فما أنْ شاهدوا الرجالَ الحِسان حتى أُصيبوا بحمّى وهستيريا الشذوذ، وتوجَّهوا إليهم ليفجُروا بهم!.

لما رأوهم استبشَروا وفَرِحوا وسُرُّوا للفتكِ بهم: ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الحجر: ٦٧].

وراودوهُ ليأخذوا ضيوفَه منه. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ [القمر: ٣٧].

وحتى يُبعدَ الرجالَ الشاذّين عن ضيوفه، أرشدهم إلى (بناته)! قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ۝٧٨ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٨ـ٧٩].

وقال تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٠ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [الحجر: ٧٠ـ٧١].

استجاشَ لوطٌ عليهِ السلام في قومِه تقوى الله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

وطلبَ منهم أنْ لا يُخزوهُ في ضيفِه: ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ﴾. وهو بهذا يلتفتُ التفاتةً نفسيةً اجتماعية، حيثُ ذكَّرهم أنَّ هؤلاء الرجالَ هم ضيوفُه، وعلى المُضيفِ أنْ يُكرِمَ ضيوفَه، وعلى جيرانِه وأقاربِه ومعارفِه وأهلِه أنْ يساعدُوه في ذلك، وأنْ يكونوا عوناً له!.

إنه يخاطبُهم بمنطقِ المروءة، إنْ بقيتْ عندهم بقيةٌ من مروءة، ويُثيرُ فيهم معاني الحياء، إنْ بقيَ عندهم حياء! لكنَّ هذا المنطقَ لم ينفعْ معهم!.

ثم عنَّفَهم بقوله: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾: إنَّه يبحثُ من بين قومِه كثيري العدد عن رجلٍ واحدٍ رشيد، يَستخدمُ عقلَه ورُشدَه، ويساعدُه في الوقوفِ أمامَ الجنونِ الشهوانيِّ المسعورِ الذي يحركُ قومَه! يبحثُ من بينهم عن رجلٍ واحدٍ رشيد، يخاطبُهم معه بمنطقِ المروءةِ والحياءِ والتجملِ والأدب!.

ولكنـه لم يجدْ من بينهم رجلاً واحداً رشيداً، لقد قضى شذوذُهم على عقولِهم ورشدِهم، وطمسَ فطرتَهم وحياءَهم!.

ماذا يفعلُ بهم لوطٌ بعدَ ذلك؟ بقي معه آخرُ سلاح، عَرَضَ عليهم بناته: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾.

مَنْ هنَّ البناتُ اللواتي دعاهم إليهن؟ وما معنى إضافتِهن له: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى﴾.

لم يُحسـنْ بعضُهم فهمَ هذه الدعوة، وحملـوا الإضافةَ في (بناتي) على

الإضافةِ الحقيقية، وقالوا: هنَّ بناتُه من صلبه!.

وذهبَ بعضُهم إلى أنه عرضَ عليهم الزواجَ من (بناته) ليصرفَهم عن ضيوفه، وقد كانوا طلبوا ذلك في الماضي فأبى أنْ يزوِّجَهم لشذوذِهم! والآن تنازلَ ورضيَ أن يزوِّجهم!.

وهذا كلامٌ ليس عليه دليل، ولا نفسِّرُ به كلامَ الله! فمن أدرى هؤلاء أنّهم كانوا يريدونَ الزواجِ من بناتِه؟ وَهَبْ أنَّ هذا الكلامَ صحيح، فكمْ بنتاً عنده في بيته؟ وهل تكفي بناتُه رجالَ القرية؟.

ولا نلتفتُ هنا لما ذهبَ إليه بعضُهم لسخافتِه، حيث فَهموا قوله: ﴿هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ أنّه دعوةٌ من لوطٍ للفجورِ في بناته، والزنا بهن، وتركِ ضيوفِه سالمين!!.

وهل يفعلُ هذا إنسانٌ عاقل، فضلاً عن أنْ يكونَ نبياً؟ وهل الزنا بالبناتِ طهارةٌ تتناسبُ مع قوله: ﴿هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾؟!.

الراجحُ أنَّ لوطاً عليه السلام أرادَ بقولِه السابقِ لقومه بناتَ القرية، باعتبارهنَّ الجنسَ الآخر فيها.

أي: دعاهم إلى التفكيرِ في الطريق الفطريِّ السليمِ في تصريفِ الشهوة، بأنْ يتّجهَ كلٌّ منهم إلى الجنسِ الآخر، إلى البنتِ الأنثى، التي فطرَ اللهُ الرجلَ المستقيمَ على الرغبةِ فيها والتوجُّهِ إليها، دعاهُم إلى الإقلاعِ عن التفكيرِ الشاذِّ، والتوقُّفِ عن قضاءِ الشهوةِ عندَ الرجال، لأنّهم من نفسِ الجنس، وليسوا مكانَ قضاءِ الشهوة!!.

واعتبرَ لوطٌ عليه السلام بناتِ القريةِ ونساءَها بناتٍ له: ﴿هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ لأنّه نبيُّ القرية ورسولُها، وهو شيخُ أهلها وكبيرُهم وصالحُهم، فهو بهذا الاعتبارِ أبوهم أبوةً معنوية! وكأن ذكورَها أولادٌ له بالمعنى المعنوي، وكأن بناتِ القريةِ ونساءَها بناتٌ له بهذا الاعتبارِ أيضاً!!.

ومعلومٌ أنه قد يخاطبُ الشيخُ الطاعنُ في السنِّ طلابَه، فيقول: يا أبنائي، ويا بناتي!.

والدليلُ على أنه أرادَ بناتَ القرية، وإرشادَهم إلى قضاءِ الشهوةِ عندهن، قولُه بعدها: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾، إنَّ تفكيرَ الرجلِ في امرأته، وقضاءِ شهوته عندها، أطهرُ له من ذلك السلوكِ الشاذ بالبحثِ عن رجلٍ للفجورِ به! فما هذا

الشذوذُ إلا رجسٌ ودنس، وقذارةٌ ودناءة، تتقززُ منه نفسيةُ الإنسان السوي!.

وكأنَّ لوطاً عليه السلام يقول لهم: دَعُوا ضيوفي، واتْرُكوا الرجال، واذهبوا إلى نسائِكم، وليقضِ كلٌّ منكم شهوتَه عندَ امرأتِه، فهذا أطهرُ له!.

وقد كانَ جوابُ القومِ في غايةِ الغرابة: ﴿قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩].

أي: أنتَ تعلمُ أننا فقدْنا الرغبةَ في النساء، ولم تَعُدْ نفوسُنا تطلبُ النساء، وأنت تعلمُ أننا نريدُ الرجال، وأنَّ رغبتَنا هي في الرجالِ فقط!.

وهذه إشارةٌ إلى تمكُّنِ الانحرافِ والشذوذِ فيهم، بحيثُ صار هو الوضعَ الصحيح، وصارَ التوجُّهُ إلى النساءِ ومعاشرتُهن هو الوضعَ الشاذ. لقد كانَ انحرافُ القومِ كبيراً، بحيثُ غطّى على كلِّ شيء، واستحقوا بذلك عذاب الله!.

٤ ـ الركن الشديد الذي تمنى لوط أن يأوي إليه:

بعدَ أنْ رفضَ القومُ الشاذون دعوةَ لوطٍ عليه السلام، في التوجُّه إلى نسائِهم لإطفاءِ نارِ الشهوة، وأصرُّوا على أخذِ ضيوفه، تمنّى لو كانَ يأوي إلى ركنٍ شديد، وقد أخبرَنا اللهُ عما قالَه لقومِه. قال تعالى: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠].

ما معنى هذا التمنّي؟ وما هو الركنُ الشديدُ الذي أرادَ الركونَ إليه؟.

إنَّ لوطاً عليه السلام وحيدٌ بين هؤلاء القوم الكافرين الشاذين، وهو ليس واحداً منهم، فليسَ له في القريةِ أقارب أو أهلٌ أو عشيرة! ولعلَّ أتباعَه المؤمنين كانوا قلائلَ جداً، لا يقدِرون على دفعِ أذى الكافرين!.

وأمامَ محاولةِ الشاذين اقتحامَ بيتِه لخطفِ ضيوفه، تمنّى أنْ يكونَ له قوةٌ من البشر، على شكْلِ جيشٍ أو مجموعة، تقومُ هذه القوةُ البشريةُ بمواجهتِهم ومحاربتِهم، والوقوفِ أمامَهم لدفعِهم! لأنّه واقفٌ أمامَهم وحدَه، وهو لا يقدرُ على محاربتهم، مهما كان قوياً!!.

وتمنّى لو كانَ يأوي إلى ركنٍ شديد: ﴿أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾. وقصْدُه بالركنِ الشديدِ القوةَ الماديةَ البشرية، التي يركنُ إليها، ويستنصِرُ بها، ويستعينُ بها على مواجهةِ هؤلاء.

الذي تمنّاه لوطٌ عليه السلام قوةٌ إيمانيةٌ ماديةٌ بشرية، تقفُ أمامَ قوةِ الكفارِ المادية الجاهلية، وركنٌ بشريٌّ ماديٌّ يأوي إليه، في مقابلِ ركنِهم البشري الجاهلي، ومجموعةٌ من الناسِ المؤمنين يقفونَ معهُ وينصرونَه ويدافعونَ عن ضيوفه، ويصدّونَ الهجومَ الجاهليَّ الكافرَ عليه!.

هذا هو الركنُ البشريُّ الشديدُ القوي، الذي كان يتمنّاه ويريدُه عليه السلام!

ولم ينسَ لوطٌ عليه السلام قوةَ الله، ولم ينسَ أنّه كانَ يأوي إلى ركنِ اللهِ الشديدِ القويِّ المتين، وأنَّ الله يحميه وينصرُه، لم ينسَ هذا لأنه نبيٌّ رسولٌ عليه الصلاة والسلام!.

على هذا الأساسِ نفهمُ ما قالَه رسولُ الله ﷺ عن لوطٍ عليه السلام. فقد روى البخاري [برقم: ٣٣٧٢] ومسلم [برقم: ١٥١] عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «نحنُ أحَقُّ بالشكِّ من إبراهيم، ويَرحمُ اللهُ لوطاً، لقد كانَ يأوي إلى ركنٍ شديد، ولو لبثْتُ في السجنِ ما لبثَ يوسفُ لأجبتُ الداعي!».

الرسولُ ﷺ في هذا الحديثِ لا يُدينُ لوطاً عليه السلام، وكلامُه لا يدلُّ على أنَّ لوطاً عليه السلام نسيَ أنّه كان يأوي إلى ركنِ اللهِ الشديد!.

إنَّ يقينَ لوطٍ عليه السلام أنّه يأوي إلى ركنِ اللهِ الشديدِ أمرٌ مفروغٌ منه، ولعلَّ الرسولَ ﷺ أرادَ أنْ يخبرَنا عن عدمِ وجودِ قوةٍ ماديةٍ بشريةٍ تحمي لوطاً عليه السلام، وأنّه في ما تمنّاه كان يتمنّى تلكَ القوةَ الماديةَ البشرية!.

وبعدَ أزمةِ لوطٍ عليه السلام مع قومه، وغُربتِه الغريبة بينهم، كان اللهُ يبعثُ كلَّ نبيٍّ أو رسولٍ من بعدِه ومعهُ ركنٌ ماديٌّ بشري، بحيثُ يكونُ هذا النبيُّ واحداً من قومِه، لهُ في قومِه أهلٌ وأقارب، وعشيرةٌ ورهط!!.

ومعلومٌ أنَّ (رهطَ) الرجل وعشيرتَه قوةٌ بشرية، يدفعُ اللهُ بها الأذى عنه.

فها هو (شعيبٌ) عليه السلام ـ وكانَ بعدَ لوطٍ عليه السلام ـ جعلَ اللهُ لهُ ركناً، وقد أخبرَه الكفارُ بأنّه لولا رهطه لرجموه. قال تعالى: ﴿قَالُوا يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ [هود: ٩١ـ٩٢].

وروى الترمذي [برقم: ٣١١٦] عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «رَحِمَ الله لوطاً، كان يأوي إلى ركنٍ شديد، وما بعثَ اللهُ بعدَه نبياً إلا وهو في ثروةٍ من قومه..».

والمرادُ بالثروةِ من قومه: الرهطُ والعشيرة، والركنُ البشريُّ القويُّ الذي يدافعُ عنه!.

٥ ـ كفر امرأة لوط وخيانتها له:

أشارتْ آياتُ القرآنِ إلى أنَّ كلَّ أهلِ لوط عليه السلام كانوا مؤمنين، إلا امرأتَه فقط، التي كانت كافرةً خائنة.

قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥ ـ ٣٦]. أي أنه عندما أرادَ اللهُ تدميرَ قرى قوم لوطٍ أنجى المؤمنين المسلمين أتباعَ لوطٍ عليه السلام، ولم يوجدْ في القرى كلِّها إلا بيتٌ واحد، أفرادُه مؤمنون مسلمون، هو بيتُ نبيِّ اللهِ لوطٍ عليه السلام، وهذا يدلُّ على قلَّةِ المؤمنين، الذين كانوا في بيتِه!.

وذكرَ القرآنُ أنَّ أفرادَ هذا البيت مسلمون إلا امرأتَه فقط. قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٣٣ ـ ١٣٥].

وقد أكَّدت الآيةُ على نجاةِ أهلِ لوطٍ جميعاً، بكلمة (أجمعين)، ثم استثنت امرأتَه من النجاة.

والاستثناءُ في قوله: ﴿نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ استثناءٌ منقطع، استُثنيتْ فيه امرأتُه من النجاة، حيثُ بقيت مع القومِ الكافرين، وعُذِّبَتْ وهلكتْ معهم!.

ولم يذكر القرآنُ عددَ أفرادِ أهلِه الذين نجوا، وبقيَ عددُهم مبهماً، ونحنُ لا نخوضُ فيه، ولا نحاولُ بيانَه من الإسرائيليات!!.

امرأةُ لوطٍ عليه السلام امرأة كافرة، ووصفَها اللهُ بأنَّها عجوزٌ هالكة، كما أخبرَ أنها خانَتْ زوجها لوطاً عليه السلام. قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ

كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

وما قُلناهُ عن خيانةِ امرأةِ نوح له يُصلحُ أنْ يقالَ عن خيانةِ امرأةِ لوطٍ له، فهي ليستْ خيانةً في العِرض، ولم ترتكبْ فاحشةَ الزنا، لأنَّ اللهَ نزَّه النبيَّ وأهلَه عن هذه الفاحشة، ولم تزنِ امرأةُ نبيٍّ قط!.

المرادُ بالخيانة هنا الخيانةُ في الدين، أي أنها كافرة، مع أنَّ زوجها لوطاً عليه السلام نبيّ، وقد دعاها إلى الإيمانِ عدّةَ مرات، ولكنَّها أصرّت على الكفر، واعتبرَ هذا الكفرَ منها خيانة، لأنها امرأةُ نبيّ، والأَوْلى أنْ تكونَ أقربَ الناسِ إليه، وأولَ الناسِ اتّباعاً له، ودخولاً في دينِه، وبما أنها لم تفعلْ ذلكَ اعتُبرَت خائنة، واعتُبِرَ كفرُها خيانةً لزوجها!.

وكانَ توجيهُ الملائكةِ للوط عليه السلام صريحاً بأنْ يأخُذَ أهله، ويغادرَ المدينةَ ليلاً، قبلَ وقوع العذابِ بقومه، ونهيه عن اصطحاب امرأته معه، لأنها ستكون مع الغابرين الهالكين. قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١].

أي: خُذ يا لوطُ أهلَك عندما يدخلُ الليلُ ويحلُّ الظلام، واخرجْ بهم مسرعاً، ولا يلتفتْ منكم أحد، ولا يتأخّرْ منكم أحد، حتى لا يُصيبه العذاب، أمّا امرأتك فلا تأخذها معك، لأنها كافرة، سيصيبُها ما أصابَ قومَها الكافرين من عذابٍ وهلاك!.

٦ ـ المؤتفكة والمؤتفكات:

عذَّبَ اللهُ قومَ لوطٍ عذاباً خاصاً، لم يُعذّبه لأيِّ قومٍ آخرين، حيثُ أمطرَ عليهم حجارةً من سجيلٍ منضود، وقلبَ بيوتَهم وجعلَ عاليها سافلَها.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٢ ـ ٨٣]

وقال تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٢ ـ ٧٤].

أخبرت الملائكةُ لوطاً عليه السلام في الليل أن العذابَ سيقعُ بالقوم عند الصباح، لذلك عليه أنْ يخرجَ بأهله المؤمنين ليلاً لينجوا. قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦].

ولما طلعَ الصبحُ وأشرقت الشمسُ أخذتْهم الصيحة: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ [الحجر: ٧٣].

عند شروقِ الشمسِ انشقَّت الأرض، وأحدثَتْ صيحةً عالية، وصوتاً مفزعاً، وهذه الصيحةُ مبهمةٌ في القرآن، لم نعرفْ عنها شيئاً.

وبعدَ الصيحةِ قلبَ اللهُ القريةَ قلباً، فجعلَ عاليها سافلَها: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤].

وعالي بيوتِ القريةِ هو سقوفُها، وسافلُها هو أساساتُها وأرضيتُها، أيْ: قلبَ الله القرية قلباً، فصارتْ أساساتُ وأرضيةُ البيوتِ أعلى، وصارتْ سقوفُها إلى أسفل!.

وبعدَ ذلك أمطرَ اللهُ عليها مَطَراً خاصاً، إنّه حجارةٌ من سجّيلٍ منضود، مسوَّمةٌ عندَ الله، مخصَّصة لهؤلاءِ الكافرين، فقضَتْ عليهم قضاءً تامّاً!!.

و(السّجّيل): هو الحجرُ المكوَّنُ من طينٍ بعد أنْ ييبس، فيكونَ صلباً قاسياً كالصخر.

و(منضود): اسمُ مفعولٍ من التنضيد، وهو بمعنى الترتيبِ والتنسيق، تقول: نَضدتُ المتاع: إذا رتَّبْتُه بعضَه على بعض، فالحجارةُ منضودةٌ مرتبةٌ منسّقة.

والحجارة ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾: أي أنها مُعَدَّةٌ إعداداً خاصّاً عند الله لهؤلاء القوم، ومُعَلَّمَةٌ بعلاماتٍ خاصةٍ لهم، وكأنَّ اللهَ أعدَّ لكلِّ واحدٍ من القومِ حجراً خاصاً به، وعَلَّمَهُ له بعلاماتٍ خاصة، لا يُخطئُه، ولا يتعدّاه إلى غيره!.

وهكذا انشقَّت الأرضُ من تحتهم، ونتجَ عن ذلك صيحةٌ شديدةٌ عظيمة، ثم قُلبَتْ بيوتُ القرية، فجُعلَ عاليها سافلُها، ثم أُمطرَ على القوم مطرُ عذاب، متمثلٌ في الحجارةِ الخاصةِ من سجيل منضود، لكلِّ فردٍ منهم حجرُه الخاصُّ به، لا يُخطئُهُ إلى غيره!.

والأمْرُ اللافتُ للنظرِ أنَّ اللهَ سمَّى القريةَ (المؤتفكة). قال تعالى: ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴾ [النجم: ٥٣ ـ ٥٤].

وسمَّى اللهُ قرى المنطقة (المؤتفكات) قال تعالى: ﴿ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴾ [الحاقة: ٩].

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَـٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتِ ﴾ [التوبة: ٧٠].

(المؤتفكات) جمع، مفردُه (المؤتفكة).

و(المؤتفكة) اسمُ فاعل، فعلُها الماضي (ائتفك). وهو مشتقٌّ من الإفك.

قالَ الإمامُ الراغب عن الإفك: «الإفك: كلُّ مصروفٍ عن وجهه، الذي يحقُّ أنْ يكونَ عليه.. ورجلٌ مأفـوك: مصروفٌ عن الحقِّ إلى البـاطل»[1].

وبما أنَّ الإفكَ هو صرفُ الشيء عن وجهه الذي يَحِقُّ أن يكونَ عليه، فقد سمَّى اللهُ قرى قومِ لوط (المؤتفكات)، لأنَّها مصروفاتٌ مقلوبات!.

إنَّ الإفكَ هو قلبُ الحقائق، وتحويلُ الحقِّ إلى باطل، وتحويلُ الباطلِ إلى حق!.

لماذا عذَّب اللهُ قرى قومِ لوطٍ بهذا العذابِ الخاص؟ بأنْ قَلَبَها قلْباً، وجعلَ عاليَها سافلَها، وسمَّاها (المؤتفكات)؟.

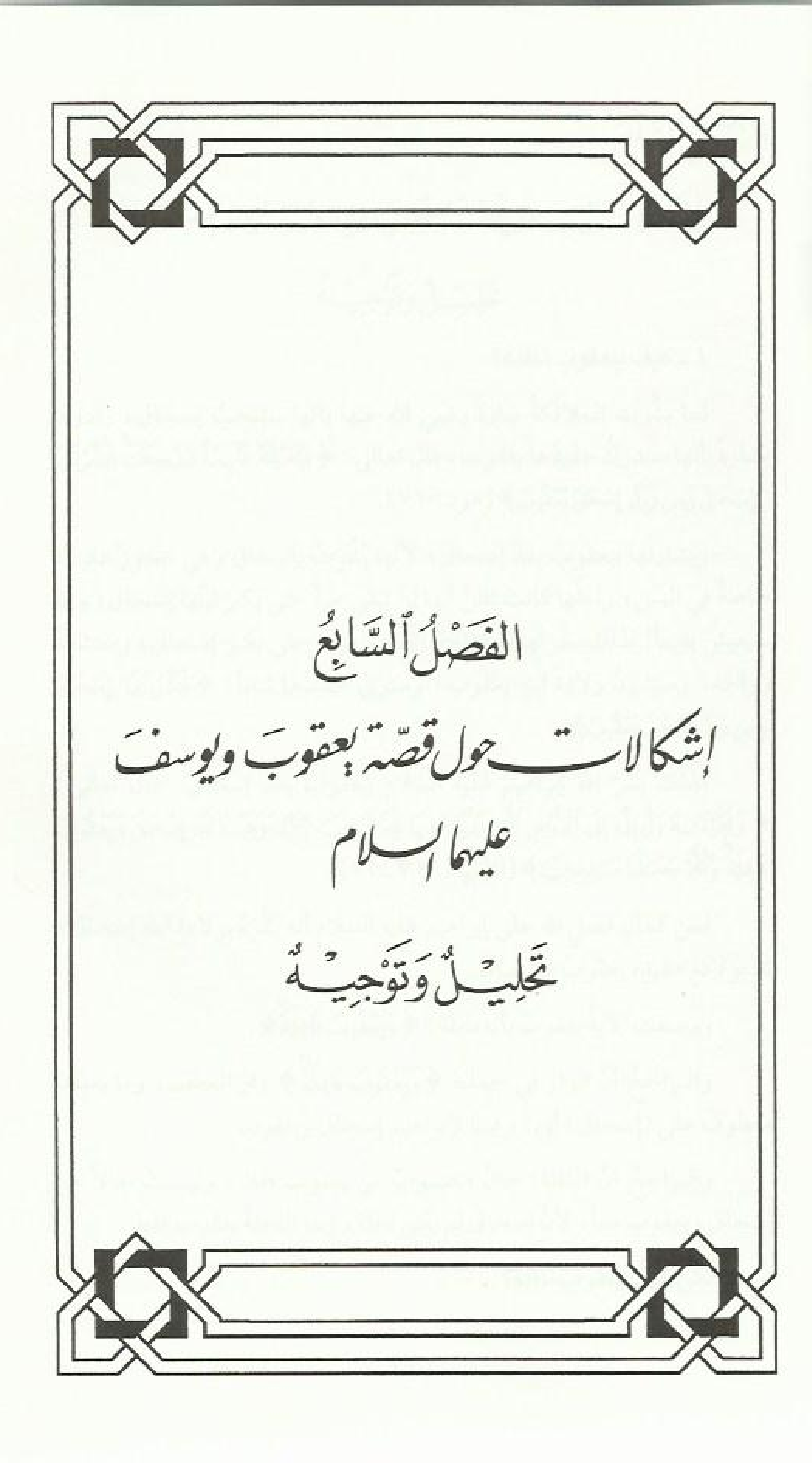
إنَّ هذا العذابَ الخاصَّ يتناسبُ مع جرائمهم وشذوذهم، ومعروفٌ أنَّ الجزاءَ من جنسِ العمل!.

تركَ أولئك القومُ الشاذّون النساءَ إلى الرجال، وقضوا شهواتِهم عند أمثالِهم من نفسِ الجنس، وبذلك قَلَبُوا الحقائق، وقلبُوا الفطرة، وحوَّلوا الذكرَ الذي خلقهُ اللهُ ليطلبَ المرأة، ليكونَ مطلوباً مركوباً كالمرأة!! وهذا هو قلبُ الحقائق! فبما أنَّهم قَلَبوا فطرتَهم ورجولتَهم، لذلك قلبَ اللهُ بيوتَهم وجعلَ عاليها سافلَها!.

* * *

---

(١) المفردات، ص٧٩ ـ ٨٠.



الفَصْلُ ٱلسَّابِعُ

إشكالات حول قصّة يعقوب ويوسف عليهما السلام

تَحليلٌ وَتوْجِيهٌ

الفَصْلُ السَّابِعُ

إشكالات حول قصة يعقوب ويوسف عليهما السلام

تحليل وتوجيه

١ - كيف يعقوب نافلة؟:

لما بشَّرت الملائكةُ سارةَ رضي الله عنها بأنها ستنجبُ إسحاق، زادوها بشارةً بأنها ستدركُ حفيدَها يعقوب، قال تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ [هود: ٧١].

وبشارتُها بيعقوبَ بعدَ إسحاق، لأنها بُشِّرَتْ بإسحاقَ وهي عجوزٌ عقيم، طاعنةٌ في السن، ولعلَّها كانت تظنُّ أنها لنْ تبقى حيةً حتى يكبرَ ابنُها إسحاق، وأنه سيعيشُ يتيماً! لذلك بشَّرتْها الملائكةُ بأنَّها ستبقى، حتى يكبرَ إسحاق، وستشهدُ زواجَه، وستشهدُ ولادةَ ابنِه يعقوب، وسترى حفيدَها شاباً: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾.

كذلك بشَّرَ اللهُ إبراهيمَ عليه السلام بيعقوبَ بعد إسحاق. قال تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١ ـ ٧٢].

فمن كمالِ فضلِ الله على إبراهيم عليه السلام أنه بَشَّرَهُ بولادةِ ابنه إسحاق، ثم بولادةِ حفيدِه يعقوبَ في حياته.

ووصفت الآيةُ يعقوبَ بأنه نافلة: ﴿وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ﴾.

والراجحُ أنَّ الواوَ في جملة ﴿وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ﴾ واوُ العطف، وما بعدَها معطوفٌ على (إسحاق) أي: وهبنا لإبراهيم إسحاق ويعقوب.

والراجحُ أنَّ (نافلة) حالٌ منصوبٌ من يعقوب فقط، وليستْ حالاً من إسحاق ويعقوب معاً، لأنَّ إسحاقَ لم يكن نافلة، إنما النافلةُ يعقوب فقط.

لكن كيفَ يعقوبُ نافلة؟.

لقد أرادَ إبراهيمُ الولد، فبشّره اللهُ بابنِه إسحاق، وزادَ اللهُ له في الإنعامِ والبشارة، فوهبَ لهُ حفيدَه يعقوب، وجعلَه نافلة!.

والنافلةُ مشتقةٌ من (النَّفل) والنفلُ هو الزيادة، وكلُّ تصريفاتِ الكلمة تدلُّ على هذا المعنى، مثل: الأنفال والنوافل.

ومعنى كونِ يعقوبَ نافلة أنَّ البشارةَ به زائدةٌ على البشارةِ بأبيه إسحاق، فالبشارةُ بإسحاقَ هي المقصودةُ في المقامِ الأول، ولكنَّ اللهَ زادَ البشارةَ لإبراهيم، فبشَّره بحفيدِه يعقوب!.

ووصْفُ يعقوب بأنه نافلةٌ دليلٌ على جوازِ إطلاقِ النافلة على ولدِ الولد.

وقد شكرَ إبراهيمُ ربَّه على إنعامِه عليه بإسماعيل وإسحاق على كِبَرِه وشيخوخته، قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

ووهبَه اللهُ ابنيْه، وحفيدَه النافلةَ تكريماً ومكافأةً له، وجزاءً له على نصرته للدين، ومواجهتِه للظالمين. قال تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٨ ـ ٤٩].

٢ ـ يعقوب وإسرائيل والذي حرمه على نفسه:

ذكَرَ القرآنُ ليعقوبَ اسمَيْن: يعقوب وإسرائيل.

والاسمان أعجميان، وليسا عربيَّيْن مشتقَّيْن، وهما ممنوعانِ من الصرفِ للعلمية والعُجمة، ولا نبحثُ لهما عن معنى في العربية.

وردَ اسمُ يعقوب ستَّ عشرةَ مرةً في القرآن، ووردَ اسمُه الثاني (إسرائيل) مرتيْن في القرآن.

ونبيِّن هنا معنى الآيتيْن اللتيْن وردَ فيهما اسمُ (إسرائيل).

الأولى: قولُه تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ﴾ [مريم: ٥٨].

تتحدثُ الآيةُ عن (شجرةِ النبوّة) المباركة، وتذكُرُ أسماءَ أربعةِ أنبياء: آدم،

ونوح، وإبراهيم، وإسرائيل.

ذُكِرَ آدمُ عليه السلام باعتباره أباً للبشرية.

وذُكِرَ نوحٌ عليه السلام باعتباره أباً للبشرية الثاني.

وذُكِرَ إبراهيمُ عليه السلام لأنه أبو الأنبياء، والأنبياءُ المذكورون بعده هم من ذريته، عليهم الصلاة والسلام!.

وقد تفرّعَ عن شجرةِ النبوّةِ بعدَ إبراهيم فرعان:

الفرعُ الإسماعيلي: المتمثّلُ في إسماعيلَ بن إبراهيمَ عليهما السلام، وهذا الفرعُ خُتِمَ بخاتمِ الأنبياءِ والمرسلين، وأفضلِهم عند ربِّ العالمين، محمدٍ ﷺ.

الفرعُ الإسرائيلي: المتمثّلُ بإسرائيلَ حفيدِ إبراهيم عليهما السلام، وهو أبو بني إسرائيل، وكلُّ أنبياءِ بني إسرائيل المذكورين في القرآنِ من ذريته.

لهذا الاعتبارِ ذكرت الآيةُ اسمَ (إسرائيل)، وعطفَتْهُ على جدِّه (إبراهيم) عليهما السلام، وقالت: ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

الثانية: قوله تعالى: ﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣].

يُخبرُ اللهُ في هذه الآية أنّه أباحَ كلَّ الطعامِ لبني إسرائيل قبلَ إنزالِه التوارةَ على موسى عليه السلام، ولم يُحَرِّمْ عليهم من الطعامِ إلاّ ما حرّمَهُ أبوهم إسرائيلُ على نفسه.

والشاهدُ في الآية قوله: ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ وإسرائيلُ هو يعقوب عليه السلام.

وسببُ نزولِ الآية هو ما جرى من حوار بينَ رسولِ الله ﷺ وبين اليهود في المدينة، حيثُ سألوهُ أربعةَ أسئلة، وأجابَهم عليها، وأقامَ عليهم الحجة.

روى الترمذي [برقم: ٥١٢١] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حضرتْ عصابةٌ من اليهودِ نبيَّ اللهِ يوماً، فقالوا: يا أبا القاسم: حدِّثْنا عن خِلالٍ نسألُك عنهن، لا يعلمهنَّ إلا نبي!.

قال: سَلوني عمّا شئتُم، ولكن اجْعَلوا لي ذمةَ الله، وما أَخَذَ يعقوبُ على بنيه، لئن حدَّثْتكم شيئاً فعرفتموه، لتتابِعُنّي على الإسلام!.

قالوا: فذلك لك! قال: فسَلوني عما شئتُم!.

قالوا: أخبِرْنا عن أربع خِلالٍ نسألُك عنهن: أخْبِرْنا أيّ الطعام حرَّمَ إسرائيلُ على نفسه مِنْ قبلِ أن تُنَزَّلَ التوراة؟ وأخبِرْنا كيفَ ماءُ الرجلِ وماءُ المرأة، وكيف يكونُ الذكرُ منه؟ وأخبِرْنا كيفَ هذا النبيُّ الأميُّ في النوم؟ ومن وليُّه من الملائكة؟

قال: فعليكم عهدُ اللهِ وميثاقُه لئن أنَا أخبرتُكم لتتابِعُنّي؟.

فأعطَوْه ما شاءَ من عهدٍ وميثاق.

قال: فأنشدكُم بالذي أنزلَ التوراةَ على موسى عليه الصلاة والسلام أنَّ إسرائيلَ يعقوبَ عليه السلام، مرضَ مرضاً شديداً، وطالَ سَقَمُه، فنذرَ للهِ نذراً، لئن شفاهُ اللهُ من سَقَمِه، ليُحَرِّمَنَّ أحبَّ الشرابِ إليه، وأحبَّ الطعامِ إليه، وكانَ أحبُّ الطعامِ إليه لَحْمانُ الإبل، وأحبُّ الشرابِ إليه ألبانُها!.

قالوا: اللهمَّ نعم.

قال: اللهمَّ اشهدْ عليهم...».

ثم أجابَهم على باقي أسئلتهم، ولكنَّهم أصرّوا على كفرِهم عناداً واستكباراً.

فأنزلَ اللهُ الآيةَ للردِّ عليهم، وبيانِ كذبِهم على أبيهم يعقوب عليه السلام!.

والشاهدُ أنَّ الآيةَ تُخبِرُ عن إسرائيل ـ يعقوب ـ عليه السلام، وعن صنفٍ من الطعامِ حرَّمَهُ على نفسِه، وبيَّنَ رسولُ الله ﷺ ذلك الطعامَ وملابساتِ تحريمِه.

مَرِضَ إسرائيلُ عليه السلام يوماً مرضاً شديداً، وأرادَ أن يتقرَّبَ إلى اللهِ بنذرٍ ينذرُه، فنذرَ إنْ شفاهُ اللهُ منْ مرضِه أنْ يمتنعَ عن أحبِّ الطعامِ والشرابِ إليه، وقد شَفاهُ الله، ووفَّى بنذرِه، فامتنعَ عن أكلِ لحومِ الإبل، وعن شربِ ألبانِها، لأنَّ ذلك كانَ أحبَّ الطعامِ والشرابِ إليه!.

وبقيَ على امتناعِه عن لحومِ وألبانِ الإبلِ وفاءً بنذرِه حتى لقيَ الله، فالتزمَ بنوه وذريّته من بني إسرائيلَ بما كانَ نَذَرَه، وامتنعُوا عن لحومِ وألبانِ الإبل، وبذلك صارتْ لحومُ وألبانُ الإبلِ محرَّمةً عليهم تحريماً شرعياً: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ

﴿كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ .

وقد يتساءلُ بعضُهم: كيفَ حرَّمَ إسرائيلُ على نفسِهِ لحومَ وألبانَ الإبل؟ مع أنَّ التحريمَ والتحليلَ حقٌّ للهِ وحدَه، ولا يجوزُ لغيرِهِ أنْ يفعلَ ذلك؟ .

وتوجيهُ هذا التصرفِ من إسرائيلَ عليهِ السلام سهلٌ ميسورٌ بإذن الله! .

التحريمُ نوعان: تحريمٌ لغويٌّ عادي، وتحريمٌ تشريعيٌّ تكليفيّ! .

التحريمُ اللغويُّ العاديُّ معناهُ الامتناعُ عن الشيء. والتحريمُ التشريعيُّ معناهُ أنَّ اللهَ يأمُرُ الشخصَ بالامتناعِ عن الشيء، فإنْ فعلَه وقعَ في المحظور، وعرَّضَ نفسَه للعذاب! .

التحريمُ الذي هو حقٌّ للهِ هو النوعُ الثاني، فاللهُ هو الذي يشرِّعُ ويكلِّف، ويأمرُ وينهى، ولا يجوزُ لأحدٍ من البشرِ فعْلُ ذلك .

وإسرائيلُ عليه السلام لم يحرِّمْ هذا النوعَ الثاني من أنواع التحريم، إنما تحريمُه كان على أساس النوع الأول، الذي هو مجردُ الامتناع عن لحومِ وألبانِ الإبل، وكانَ امتناعاً ذاتياً عادياً، ولم يقل: هذا امتناعٌ تكليفيٌّ، وهو حرامٌ عَليَّ تحريماً تشريعياً! .

ومن المعلومِ أنه قد يمتنعُ بعضُ الناسِ عن بعضِ الأشياءِ المباحة، لأنَّ نفسَه لا تميلُ إليها، ولا ترغبُ فيها، فإذا سُئل: هل ترى هذا الشيءَ حراماً عليكَ شرعاً؟ أجابَ بالنفي وقال: هو مباحٌ لي، لكن أنا أمتنعُ عنه لأنَّ نفسي لا ترغبُ فيه! .

مِنْ هذا البابِ كانَ امتناعُ إسرائيلَ عليه السلام عن لحومِ وألبان الإبل، ولم يُحرِّمْ ذلكَ على نفسِه ـ ولا على غيره ـ تحريماً شرعياً تكليفياً! ! .

٣ ـ إسرائيل مسلم وليس يهودياً:

إسرائيلُ عليه السلام مسلم، ودينُه الإسلام، رغمَ أنه أبو بني إسرائيل، وهو لم يكنْ يهودياً، ولم يأتِ باليهودية .

إنَّه مسلم، لأنَّ كلَّ نبيٍّ جاءَ بالإسلام، والإسلامُ هو دين الأنبياء والمرسَلين جميعاً .

ولقد حرصَ القرآنُ على تقريرِ وتأكيدِ هذه الحقيقة، عندَ حديثِه عن إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ ويوسفَ عليهم الصلاة والسلام، وذلك لإبطالِ مزاعمِ اليهودِ والنصارى، الذين يزعمونَ أنّهم على دينِ هؤلاء الأنبياء، ومع ذلك أصرّوا على يهوديّتهم أو نصرانيّتهم، وكذّبوا محمداً ﷺ.

قالَ تعالى عن إسلام هؤلاء الأنبياء ـ وبالذاتِ إسلام يعقوب ـ عليهم السلام: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٠ـ١٣٣].

إبراهيمُ عليهِ السلام مسلم: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ والذي يرغبُ عن ملّتِه سفيه، فكلُّ مَنْ أصرَّ على يهوديّته أو نصرانيّته ولم يدخلْ في الإسلامِ فهو سفيه: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾.

إبراهيمُ عليه السلام يوصي أولاده بالبقاءِ على الإسلام، وكذلك يعقوبُ عليه السلام يوصي أولاده بالإسلام، حيثُ قالَ كلٌّ منهما لأولادِه: ﴿يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

ومن التزامِ يعقوبَ عليه السلام بالإسلام، وحرصِه عليه، أنه أوصى أبناءَه به وهو على فراشِ الموت، في آخرِ لحظات حياته الدنيا، قالَ لهم: ما تعبدون من بعدي! وما الدينُ الذي تلتزمونَ به من بعدي؟ فأجابوه بأنَّ دينَهم الإسلام، وهم ملتزمون به، الذي هو دينُ آبائِهم الأنبياءِ السابقين: ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾.

إذن: يعقوبُ مسلم، ودينُه هو الإسلام، وهو ليس يهودياً، لأنَّ (اليهودية) ظهرتْ بعدَه بفترةٍ طويلة، كما أنَّ آباءَه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق عليهم السلام لم يكونوا يهوداً، لأنَّ اليهوديةَ ظهرتْ بعدَهم بفترة: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٤٠].

والخلاصةُ أنّ يعقوبَ عليه السلام كانَ مسلماً، ولم يكنْ يهودياً ولا نصرانياً، ونحن أَوْلى بهِ من اليهود، لأنّنا مسلمون وعلى دينِه الحق، أما اليهودُ فليسوا على دينِه، لأنّهم كفرُوا بدينِه (الإسلام) وحارَبُوه، ولذلك فإنّه بريءٌ منهم، وإنْ كانَ أباً لبعضهم، ولو كانَ موجوداً حياً للعنَهم وذمّهم وتبرّأ منهم!.

٤ ـ لماذا اهتم يعقوب بابنه يوسف أكثر؟:

وهبَ اللهُ ليعقوبَ عليه السلام اثنيْ عشرَ ولداً، هم أُصولُ وأجدادُ بني إسرائيل، منهم ابنُه يوسف عليه السلام، الذي جعلَه اللهُ بعدَ ذلك نبياً!.

وكانَ يوسف أنبهَهم وأذكاهُم وأجملَهم، وكانَ يعقوبُ عليه السلام يلاحظُ هذه الأماراتِ على ابنِه الصغير، فيخصُّه بمزيدٍ من العنايةِ والرعايةِ والاهتمام، ولكنْ ليسَ على حسابِ أبنائِه الآخرين!.

ولكنَّ الأبناءَ لم يُحسنوا فهمَ وتفسيرَ وتوجيهَ اهتمامِ أبيهم بأخيهم الصغير، ونظروا إلى الموضوع بأنانية، ووجّهوا إلى أخيهم سُمومَ حقدِهم، واتّهموا أباهم النبيّ بالانحيازِ والخطأ والضلال، وتآمرُوا على أخيهم الصغير، وأرادوا قتلَه أو التخلُّصَ منه. قال تعالى: ﴿ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ٧ ـ ٩].

صحيحٌ أنَّ يعقوبَ عليه السلام كان يُبدي اهتماماً أكثرَ بيوسفَ وأخيه، لصغرِهما وحاجتِهما إلى ذلك، والأبناءُ الكبارُ قد كبروا وشبّوا، ولا يحتاجون إلى مزيدٍ من العنايةِ والرعايةِ كأخويْهم الصغيريْن، فهو ليسَ منحازاً ولا ظالماً ولا ضالاً ولا مخطئاً، كما اتّهمه أبناؤه الحاقدون: ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

إنّها مسألةٌ إنسانية معروفة، فأيُّ أب ـ ولو لم يكن نبياً ـ يهتمُّ بأولادِه الصغارِ أكثر، ويُظهرُ لهم مزيداً من الحبِّ والرعاية!.

ولقد قيلَ لامرأة: أيُّ أولادِك أحبُّ إليك؟.

قالت: الصغيرُ حتى يكبر، والمريضُ حتى يشفى، والمسافرُ حتى يعود!.

ولو نظرَ الإخوةُ الحاقدون إلى المسألةِ بهذا المنظار، وتعامَلوا معها على

هذا الأساس لأحسنوا فهمَها وتفسيرَها، ولحافظوا على صفاءِ ونقاءِ قلوبِهم!!.

ولكنَّه الشيطانُ الذي وسوسَ لهم، وسيطرَ على قلوبهم، وحرَّضَهم على أبيهم وأخيهم: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾.

إذن: يعقوبُ عليه السلام لم يبالغْ في اهتمامِه بابنِه الصغيرِ يوسف، ولم يظلمْ إخوانَه من أجلِ ذلك، واهتمَّ به لحاجتِه بسببِ صِغَرِه، ولِما يراهُ من نباهتِه وذكائِه.

ولذلكَ لمَّا رأى الصغيرُ الرؤيا، وقصَّها على أبيه، طلبَ أبوه منهُ أنْ لا يخبرَ إخوتَه بها، لئلا يكيدوا له ويتآمروا عليه.

قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَـٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَـٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يوسف: ٤ ـ ٥].

٥ ـ من الذين باعوا يوسف؟:

تآمَرَ الإخوةُ الحاقدونَ على أخيهم الصغيرِ يوسف، وألقوهُ في غيابةِ الجُبِّ ـ بئرٍ مطويةٍ على طريقِ القوافل ـ وتركوهُ فيها، وعادوا إلى أبيهم ليكذِبوا عليه، وزعموا أن الذئبَ أكله!.

وجاءتْ قافلةٌ مسافرة، ووجدَ رائدُها يوسفَ في البئر. قال تعالى: ﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾ [يوسف: ١٩ ـ ٢٠].

تخبرُ الآيتانِ أنَّه مرَّتْ بالطريقِ (سيارة)، وهي قافلةٌ من التجارِ المسافرين، الذين يسيرون معاً، المتوجِّهين من الشامِ إلى مصر، ليبيعوا بضائعَهم فيها.. وقُبيلَ وصولِهم البئرَ المعروفَ على الطريقِ أرسلوا (واردهم) وهم الطليعةُ (الاستكشافيةُ) الذين يَسبقونَ القافلةَ إلى الماء، ليهيِّئوه ويُجهزوه لهم!.

ذهبَ بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ إخوةَ يوسفَ لمَّا وضعوه في البئرِ جلسوا قريبين منه، ليَعرفوا ماذا سيجري له، ولما وصلَ (واردُ) القافلةِ إلى البئرِ ـ وهم الطليعةُ الاستكشافية ـ ووجدُوا يوسفَ في البئر، جاءَهم إخوانُه، وقالوا: هذا

عبدٌ من عبيدنا، وهو عاقٌّ متمرِّد، ونريدُ أن نبيعَه، فباعوه لهم، وأخذوا ثمنَه البخسَ القليلَ وعادوا إلى أبيهم، ولما أخذَ المشترونَ المسافرون يوسفَ عبداً رقيقاً باعوه في مصر!.

وعندَ هؤلاء المفسرين بيعَ يوسفُ مرتيْن: المرةُ الأولى: باعَه إخوانُه إلى المسافرين، والمرة الثانية: باعَه المسافرون في مصر إلى (العزيز).

ونرى أنَّ هذا فهمٌ ضعيف، وتفسيرٌ للآية مردود.

الراجحُ من السياق أنَّ الإخوةَ الحاقدين تركوا يوسفَ في البئر، وذهبوا إلى أبيهم.. ولمّا جاءَ الواردُ إلى البئر، ليهيِّئوا الماء، أدلى أحدُهم دلوَه ليغرفَ الماءَ من البئر، فخرجَ به يوسفُ عليه السلام، وفوجئَ به، ونادى أصحابَه فرحاً مسروراً مستبشراً، واتَّفقوا فيما بينهم على أنْ يأخذوه ليبيعُوه عبداً في مصر، وأخفَوه عن زملائهم في القافلة، وتوجّهوا بهِ نحوَ مصر!.

هذا هو الراجحُ في معنى قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾.

(وجاءت سيارة): مرَّتْ قافلةٌ تجاريةٌ تسيرُ مسافرة. ﴿ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ ﴾: طلبُوا من مجموعةٍ منهم أن يسبقوا القافلة، ويَرِدوا الماء ليجهِّزوه. ﴿ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ﴾: أنزلَ أحدُ أفرادِ المجموعةِ دلوَه في البئر، ليغرِفَ الماء. ﴿ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ﴾: رأى يوسفَ متعلقاً بالدلو، ففرحَ واستبشر، وأخبرَ زملاءه. ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ﴾: اتفقت المجموعةُ على أنْ يأخذوا الغلامَ بضاعة، ويذهبوا به إلى مصر ليبيعُوه فيها، ويربحوا ثمنَه، كما اتّفقوا على أن يُسِرُّوه ويُخْفوه عن باقي أفرادِ السيارة، لئلا يشاركوهم في ثمنه!.

ولما وصلت القافلةُ مصر سارعَ أفرادُ المجموعةِ إلى بيع يوسفَ لأوّل مشترٍ، وكانوا متعجّلين مسرعين في بيعِه، ولذلكَ لم يطلبوا ثمناً مرتفعاً، ولم يجادلُوا في الثمن، ويبدو أنَّ أوّل ثمنٍ دُفعَ لهم قبلوه!.

قال تعالى: ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾.

معنى (شَرَوْه): باعوه.

(شرى) في القرآنِ بمعنى: باع. قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧]. أيْ: منَ الناسِ مَنْ يبيعُ نفسَه ابتغاءَ مرضاةِ الله.

و(اشترى) في القرآنِ بمعنى: أخذ. قال تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

ومعنى ﴿بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ﴾: باعوهُ بثمنٍ ناقصٍ تافه، لأنّهم كانوا متعجِّلين.

ومعنى ﴿دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾: أنهم قبضوا ثمنَه، وكانَ الثمنُ دراهمَ قليلةً معدودةً لا تكاد تذكر!.

﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾: زهدوا في يوسُف، ورغبوا في التخلُّص منه بسرعة، فلا قيمةَ ولا كرامةَ لهُ عندهم، مع أنّه الكريمُ ابنُ الكريمِ ابنِ الكريمِ ابنِ الكريم!.

وهكذا بيعَ يوسفُ مرةً واحدة، وليسَ مرتين، وتمَّ بيعُه في مصر، والذين باعوه هم القافلةُ الذين أخرجوه من البئر، والذي اشتراهُ هو عزيزُ مصر، والرجلُ الثاني فيها بعدَ الملك، كما تذكُر آيات سورة يوسف!.

٦ ـ مراودة المرأة ليوسف وقوله (إنه ربي):

اشترى عزيزُ مصرَ يوسف، واستبشرَ به خيراً، وأخذه إلى امرأته، وطلبَ منها أنْ تكرمَه وتحسنَ إليه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [يوسف: ٢١].

والمثوى مِنَ الثَّوْي، وهو مكانُ المبيتِ والإقامة. وكأنَّ عزيزَ مصرَ يريدُ من امرأتِه إكرامَ يوسفَ إكراماً خاصاً، بحيثُ ينتقلُ هذا الإكرامُ من شخصِه إلى مكانِ إقامتِه ومثواه!.

وطلبَ إكرامَه رجاء استفادتِه منه وانتفاعِه به، وقد يتّخذانه ولداً: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾.

وقد فهمَ بعضُهم من طلبِ العزيزِ أنه كان لا يأتي النساء، ولا أولادَ له، فاستبشرَ بالفتى، رجاءَ أنْ يتّخذه ولداً! لكنَّ الجملة (أو نتخذه ولداً) لا تدلُّ على

ذلك دلالةً صريحة، فنتوقفُ في ذلك، لا نُثبتُه ولا نَنْفيه!.

وكانتْ فراسةُ العزيزِ في يوسف صائبة، قالَ عبدُ الله بنُ مسعود رضي الله عنه: أفرسُ الناس ثلاثة: العزيزُ حينَ قالَ لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾، والتي قالت لأبيها عن موسى عليهِ السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]. وأبو بكر حين تفرّس في عمر، فولاّه الخلافة، رضي الله عنهما.

وعقَّبت الآيةُ على استقرارِ يوسفَ في بيت العزيز معزَّزاً مكرَّماً، فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ومضت السنواتُ ويوسفُ في بيت العزيز، حتى صارَ شاباً جَلْداً قوياً، وبلغَ أشُدَّه، ونضجتْ شخصيتُه، واستقامَ كيانه، وهو في حِفْظ الله ورعايتِه. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢].

آتاهُ اللهُ الحكمةَ والعلمَ عندما بلغَ أشُدَّه، فكانَ حكيماً في تصرُّفاته، صائباً في أفعالِه، عالماً في أقوالِه، مُحسناً في حياتِه، شاكراً لربِّه!.

في هذا الجوّ، وعندَما اتَّصفَ يوسفُ بهذه الصفات، تمَّت مراودةُ امرأةِ العزيزِ له.

قال تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

تتحدَّثُ الآيةُ عن مراودةِ امرأةِ العزيز ليوسف، وقبلَ الحديثِ عن الحادثةِ نتعرَّفُ على معنى المراودة. قال الإمام الراغب في المفردات: «الرَّوْدُ: التَّردُّدُ في طلبِ الشيءِ برفق.. والإرادةُ منقولةٌ من: راد، يرود: إذا سعى في طلبِ شيء.. والمراودةُ: أن تنازعَ غيرَكَ في الإرادة، فتريدُ غيرَ ما يُريد، أو تَرودُ غير ما يَرود. تقول: راودتُ فلاناً»(1).

هذا المعنى الدقيقُ للمراودةِ يعني أنَّ امرأةَ العزيزِ لمّا راودتْ يوسفَ أرادتْ منازعتَه في إرادتِه، فإرادتُه غيرُ إرادتِها، لأنَّها أرادتْ منه الفاحشة، وهو أرادَ

---

(1) المفردات، ص٣٧٠ـ٣٧١.

العفة، فنازعَتْه لتغييرِ إرادتِه وثنيهِ عنها!.

وفعلُ ﴿راودَتْه﴾: يدلُّ على استمرارِ مراودتِها له، ولعلَّها راودَتْه فترةً طويلة، بالإشارةِ والحركةِ والتصرف، تدعوهُ فيها إلى نفسِها، وهو لا يلتفتُ إليها.

وما تعرضُه الآيةُ هو آخرُ لقطاتِ المشهدِ وخطواتِ المراودة، وهي الدعوةُ الصريحةُ الجريئةُ منها، حيثُ غلَّقت الأبواب، وقامَتْ بأقصى ما تستطيعُ من تزيُّن وفتنة، وإغراءٍ وإغواء، ودعتْه دعوةً صريحةً فاحشةً قائلة: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ وهجمتْ عليهِ بعدما تمنَّع، لتجبرَه على معاشرتِها!.

هذه هي خاتمةُ المراودة، وليستْ بدايتَها، وقد سبقتْها مراوداتٌ ومراودات، لعلَّها استمرَّت سنوات!.

إننا نعلمُ أنَّ يوسفَ أمضى صباه في البيت، وهاهو الآن شابٌّ قد بلغَ أشُدَّه، فلعلَّه أمضى في البيتِ عشرَ سنوات أو أكثر! وتعرَّضَ خلالَ هذه السنواتِ إلى مراودةِ وإغراءِ امرأةِ العزيزِ له، لعلَّها بدأتْها بالإشارة غيرِ الصريحة، والتصرُّفات اللافتةِ للنظر، الكفيلةِ بلفْتِ نظرِ الراغب فيها، وإيقاظِ الشهوةِ عنده، وتنتهي باستجابتِه الفعليةِ وممارسةِ الفاحشة!.

لكنَّ يوسفَ ليسَ من ذلك النوع المستجيب! صحيحٌ أنه كان يفهمُ من تصرفاتِ امرأةِ العزيزِ مُرادَها وقَصْدَها، ولو كان غيرُه من الشباب مكانَه لاستجابَ لها منذُ البداية، ولمَا أحوجَها إلى كلِّ تلكَ المراودة، وإلى الحركةِ الصريحةِ الجريئةِ في النهاية، لكنَّه يوسف، المحسنُ المخلص، المتَّصفُ بالعلمِ والحكمة، الشاكرُ لله!.

وإزاءَ ترفُّع يوسفَ واستعصامِه بالله، زادت المرأةُ رغبةً فيه واشتهاءً له، وتهالكاً عليه، واضطرتْ في آخرِ الأمرِ إلى دعوةٍ صريحةٍ جريئةٍ مغرية، حيثُ غلَّقت الأبوابَ وقالتْ له: (هيت لك)!.

ومعنى (هيت لك): هلمَّ وأقبِلْ وتعال، فقدْ تهيَّأتُ لك، وتجهَّزْتُ لك، فعاشِرْني!.

حتى هذه الدعوة الصريحة الفاحشة لم تُزحزحْ يوسفَ عن موقفه العفيف، ولم تزدْهُ إلا إصراراً على العفَّة، وردَّ عليها بقوله: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ .

﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ : لجأ يوسفُ إلى الله، واستعاذَ به، لأنه لا يعصمُه ولا ينجيه منَ الفتنةِ إلا الله! وقد كانَ اللهُ عندَ حُسْنِ ظنِّه، فأعانَه وأعاذَه، وحفظَه وعصمَه.

وذهبَ بعضُ المفسّرين إلى أنَّ معنى قوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ : إنَّ زوجَكِ العزيزَ ربّي وسيدي، كفلني وأكرمني، وأحسنَ مثوايَ في البيت، واستأمنني عليه، ولا يجوزُ أنْ أخونَه في عِرْضِه، وأدنِّسَ شرفَه.

ومعَ أنَّ هذا المعنى ممكن، إلا أنَّه مرجوح، لا يليقُ أنْ يصدرَ عن يوسف الذي سيكونُ نبياً عليه السلام!

لا يقولُ يوسفُ عن (العزيز): ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ﴾ رغمَ أنَّ يوسفَ عبدٌ رقيقٌ عنده، يخدِمُ في بيتِه، وهو سيّدُه ومالكُ أمرِه، لأنَّ هذه هي نظرةُ السيدِ إلى عبدِه، ونظرةُ العبدِ إلى سيّده، ولو قالَ غيرُ يوسفَ عن سيّده (إنه ربي) فإنَّ قولَه يكون مقبولاً.

يوسفُ لم يعتبر العزيزَ (رباً) له، وكونُه رقيقاً عندَه لا يمنحُ العزيزَ هذه المنزلةَ في نظره.

لما قالَ يوسف: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ أرادَ اللهَ ربَّ العالمين، أي: اللهُ ربّي أحسنَ مثواي، وأكرمني بهذا الفضل، ويجبُ عليَّ أنْ أقابلَ هذا بالشكر، ولا يجوزُ أنْ أقابلَ إنعامَه وفضلَه بالمعصية، إنْ فعلتُ ذلكَ أكونُ ظالماً، واللهُ لا يحبُّ الظالمين! وإذا كانَ اللهُ لا يحبُّهم فإنَّهم لا يفلحون أبداً!.

وتركيبُ الآيةِ يدلُّ على أنَّ يوسفَ أخبرَ عنِ الله في قوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ﴾ فصياغة الآية هكذا: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾. الهاءُ في (إنه) تعودُ على كلمةِ (الله) المذكورةِ قبلَها. والتقدير: معاذَ الله، إنَّ اللهَ ربّي أحسنَ مثواي!.

٧ ـ همَّت به وهو ما هَمَّ بها:

ردَّت امرأةُ العزيزِ على ترَفُّعِ يوسفَ وعفَّته بالقيامِ بحركةٍ شهوانيةٍ عنيفة، لأنَّ الشهوةَ قد سيطرتْ عليها، وتحكَّمت في تصرُّفاتها، وأصبحتْ سُعاراً محموماً في جسمِها، وناراً ملتهبةً فيها، فهي تريدُ منه أنْ يعاشرَها.

أخبرَ اللهُ عن حركتِها الجريئة بقوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾. أيْ: هَمَّتْ به هَمَّ الفاحشة، وأرادتْ إكراهَه على معاشرتها، فهجمتْ عليه هجوماً شهوانياً، تركتْ

فيه إنسانيتَها وأنوثتَها، وتحرُّجَها وتجمُّلَها وحياءَها، وأصبحتْ (شهوة) متحرّكة، تريدُ فتاها (الشابَّ) الواقفَ أمامَها، المتأبّي عليها بأيةِ وسيلة، ولو كانت الوسيلةُ أن تهجمَ هي عليه لتمارسَ الشهوة معه. أو قل: همّت بهِ وهجمتْ عليه، لتعتديَ عليه وتغتصبَه!!.

إذن همُّها به هَمٌّ شهوانيٌّ عارمٌ مسعورٌ ملتهبٌ مجنون!.

وقبلَ أنْ تكملَ الآياتُ الحديثَ عن المشهدِ المثير، وقبلَ أنْ تُخبرَنا عما جرى بعد ذلك، توقفت الآياتُ لتبيِّن المانعَ الإيمانيَّ الذي منعَ يوسفَ من الاستجابةِ لها وتلبيةِ رغبتها، ومقابلةِ هَمِّها بهمٍّ مماثل! ما هو المانع؟.

قال تعالى: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾.

كلُّ ما حولَه يدعوهُ إلى الهَمِّ بها، ومعاشرتِها، فهو شابٌّ في عنفوانِ شبابه، وغيرُ متزوج، ونداءُ الشهوةِ موجودٌ فيه، والمرأةُ المغريةُ الفاتنةُ موجودةٌ أمامَه!! ثمّ هي التي تـراوِدُ وتطلبُ وتريـد، وهو لا يبذلُ جهداً في هذا الجانب!! وهي سيّدته وربّة البيت، فلا يُعرَفُ الأمر، ولو عُرِفَ لا يلامُ الفتى على ذلك!! ثم هي قد رتّبت الأمرَ وأحكمت الخُطة واختارت الوقتَ المناسب، الذي تأمَنُ فيهِ قدومَ زوجِها أو انكشافَ أمرها!! وقد زادت الأمرَ إحكاماً بإغلاقِ الأبواب كلِّها، وها هما في الداخلِ وحدهما!! ثمَّ ها هي التي تدعوهُ إليها، وهي بكاملِ زينتِها وفتنتِها وتبرُّجِها وإغرائِها، تقولُ له: هيتَ لك!! ثم ها هي تهمُّ به، وتهجمُ عليه!!.

بعدَ هذا كلِّه لماذا لم يستجبْ لها؟ ولماذا لم يهمَّ بها؟.

تقدِّمُ الآيةُ التعليلَ الإيمانيَّ العظيم، الذي منعَه من الهَمِّ بها، إنه برهانُ ربِّه وقوةُ الإيمان به! ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾!.

وقد أخطأ كثيرٌ من المفسرين في تفسيرِ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾. وقدّموا كلاماً عجيباً في همِّها به وهمِّه بها وبرهانِ ربِّه الذي رآه!! وقدَّموا كلاماً أخذوهُ عن الإسرائيليات.

قال بعضُهم: كان هَمُّها به همَّ الفاحشة، وقابلَ هو هذا بهمٍّ مماثل، فاستجابَ لها، ورغبَ في معاشرتِها، وقعدَ منها مقعدَ الرجلِ من امرأته! والذي حالَ دونَ ارتكابِه الفاحشةَ هو صرفُ الله له، بأنْ صَوَّرَ له أباهُ على الجدارِ عاضاً

على أصبعه، ينهاهُ عن ذلك!! أو صَوَّرَ له آياتٍ قرآنيةً في تحريم الزنا!! أو أرسلَ له جبريلَ ليُخرجَ الشهوةَ منه حتى لا يرتكبَ الفاحشةَ معها!!.

وفي هذا إدانةٌ ليوسف، واتهامٌ له، وادّعاءٌ بحرصِه على الزنا، والذي منعَهُ منه هو الله، وهذا مردودٌ وباطل، ويتعارضُ مع عصمةِ الأنبياء، وهو من أكاذيبِ اليهودِ ضدَّ أنبيائهم!!.

وذهبَ آخرون إلى أنَّ هَمَّها هي همُّ تنفيذٍ ودعوةٍ جريئةٍ للفاحشة، لكنَّ همَّه هو همُّ ميلٍ نفسي، ورغبةٍ شعورية، حيث رغبتْ نفسُه فيها! وكان هذا الهمُّ لحظةً عابرة، سرعان ما زالَتْ، وأسعفهُ اللهُ بالبرهانِ والاطمئنان، فلما زالَ هذا الهمُّ سارعَ بالهربِ نحو الباب!!.

وذهبَ فريقٌ ثالثٌ إلى أنَّ الهمَّ منهما لم يكنْ همَّ ارتكابِ الفاحشة، لأن المرأةَ سبقَ أن راودَتْه وغلّقت الأبوابَ وقالت: هيتَ لك! ولكنَّه ترفَّعَ واستعصم، وأمامَ إبائِه وامتناعِه أرادَتْ أنْ تنتقمَ لنفسها، إذ كيفَ لا يستجيبُ لها وهي سيدتُه لذلك أرادتْ أنْ تضربَه، وأرادَ هو أنْ يُدافعَ عن نفسِه! إذن: هَمَّتْ هي به أنْ تضربَه، وهَمَّ هو بها بأنْ هَمَّ أنْ يضربَها مدافعاً عن نفسه!!.

وهذه التفسيراتُ للهَمِّ منها ومنه مرجوحة، وبعيدةٌ عن السياق.

الراجحُ أنَّها هَمَّتْ به هَمَّ الفاحشة، وعزمَتْ على ذلك، ودَعَتْهُ لمعاشرتِها دعوةً صريحةً جريئة، وأحكمتْ خطتَها، كما ذكرت الآيةُ السابقة: ﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ ﴾. وهذا همٌّ وعزمٌ وقصدٌ وتصميمٌ واضح.

أما هو فإنّه ما همَّ بها، ولا رغبَ في ذلك، ولا مالَتْ نفسُه إليها، ولا توجَّه إليها، والسببُ في ذلك هو برهانُ ربّه، المتمثلُ في قوةِ الإيمانِ في نفسِه، ومتانةِ صلتِه بالله، ومراقبتِه له!.

الراجحُ أنَّ الآية: ﴿ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ ﴾ مكوّنةٌ من جملتيْن منفصلتيْن:

الأولى: ﴿ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ ﴾: وهي خبرٌ عن همِّ امرأةِ العزيزِ بيوسفَ همَّ الفاحشة.

الثانية: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾: الواوُ فيها حرفُ استئناف، وليسَ حرفَ عطف، وهي ليسَتْ معطوفةً على الجملةِ السابقة، فإذا كانت الجملةُ السابقةُ تثبتُ الهمَّ من امرأةِ العزيز، فإنَّ هذه الجملةَ الاستئنافيةَ تنفي عن يوسفَ الهمَّ بها!.

هذه الجملةُ شرطية: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ جوابُ شرطٍ مقدَّم، و﴿لَوْلَآ﴾ حرفُ شرط وهو حرفُ امتناعٍ لوجود. و﴿أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ فعل الشرط.

وتقديرُ الجملةِ هكذا: لولا أنْ رأى برهانَ ربِّه لهمَّ بها.

فالذي منعَه من الهَمِّ بها والميلِ إليها والرغبةِ فيها هو برهانُ ربِّه، وهذا معنى قولِنا (لولا) حرف امتناعٍ لوجود، تدلُّ على امتناعِ جوابِ الشرط، لوجودِ فعْلِ الشرط، فوجودُ برهانِ ربِّه في قلبِه عصمَه، وحالَ بينَه وبينَ الهمِّ بها.

وبرهانُ ربِّه هو قوةُ الإيمانِ في نفسِه، وعظمةُ مراقبتِه لله. إنه مؤمنٌ بالله يعيشُ حالةَ مراقبتِه لله، ويوقنُ أنَّ اللهَ يراهُ ويراقبُه، وهذا البرهانُ عصمَه من الهَمِّ بها همَّ الفاحشة! إنَّ هذا البرهانَ القويَّ الحيَّ كفيلٌ بالقضاءِ على كلِّ نداءاتِ الشهوةِ ودواعي الفتنة، ولم تَصمد امرأةُ العزيزِ بكلِّ ما أوتيتْ من جمالٍ وفتنةٍ وإغراءٍ أمامَ قوةِ وحيويةِ برهانِ ربِّه، الذي سيطرَ عليه، وملأَ حياتَه.

وأشارت الآيةُ السابقةُ إلى برهانِ ربِّه: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾.

برهانُ ربِّه هو لجوؤُه إلى الله، واستعاذتُه به، وطلبُه منه أنْ يَحميه ويعصمَه، وشعورُه بوجوبِ شكرِه على ما أنعمَ به عليه، وليسَ مقابلة هذه النعمِ بالمعاصي!

ومما يؤكِّدُ أنه ما همَّ بامرأةِ العزيزِ مطلقاً تكملةُ الآية: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: اسمُ إشارة، يربطُ ما بعدَها بجملةٍ مقدَّرة، مفهومةٍ من السياق، والمعنى: كما قوَّيْنا الإيمانَ في قلبِه لينجوَ من فتنةِ الإغراء، كذلك حفظناهُ بحفظِنا، لنصرِفَ عنه السوءَ والفحشاء، مكافأةً له على إخلاصِه، لأنَّه من عبادِنا المخلَصين!.

فالجملةُ شهادةٌ من اللهِ بأنّه صَرَفَ عنه السوءَ والفحشاء، وشهادةٌ أخرى من الله له بأنه من عبادِ الله المخلَصين.

ولـو كانَ همَّ بها لحظةً لَمَا أعطاهُ اللهُ هذه الشهادة، ولو مالتْ نفسُـه إليها واشتهتْها ورغبتْ فيها لحظة، لما صَرَفَ اللهُ عنهُ السوءَ والفحشاء، ولَمَا كانَ من عبادِ اللهِ المخلَصين!.

لقد صرفَ اللهُ عنهُ السوءَ والفحشاء، ووجَّهه إلى الإخلاص، وجعلَهُ من عبادِه المخلَصين، وهذا معناهُ أنّه ما همَّ بها مطلقاً، وأنّه قابلَ همَّها بتقويةِ برهانِ ربِّه، فاستعصمَ وأبى، وقال: معاذَ الله!.

٨ ـ يوسف ينتصر على إغراء نسوة المدينة:

بعدما انتشرَ حديثُ مراودةِ امرأةِ العزيزِ ليوسفَ بين نساءِ المدينة، وكثرَ لومُ النساءِ لها، أرادتْ أنْ تبيِّنَ لهنَّ أنّها على صوابٍ في موقفِها، ومكرتْ بهنَّ مكراً خبيثاً، أدَّى إلى أنْ يشاهدنَ يوسف، فأُعجبنَ به، وراودنَه عن نفسِه، وانتصرَ على إغراءِ النسوة، كما انتصرَ على إغراءِ امرأةِ العزيزِ من قَبل.

قال تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [يوسف: ٣٠ ـ ٣٤].

وعنـدَ النظرِ في هذه الآيات، يمكنُ ملاحظةُ الأمورِ التالية، في موضوعِ مراودةِ امرأةِ العزيزِ وعفَّةِ يوسف:

ـ نسوةُ المدينةِ عَذَلْنَ امرأةَ العزيزِ ولُمْنَها، ليسَ لأنّها عشقَتْ رجلاً وراودتْه، لكنْ لأنّه ليسَ في مستواها! لأنّها امرأةُ الرجلِ الثاني في مصر، ويوسفُ فتاها وعبدٌ عندها، فكيفَ تعشقُ وتراودُ هذا العبد؟ عليها أنْ تعشقَ رجلاً من (عِليةِ القوم) ليكونَ مناسباً لها! ولهذا حكمنَ أنّها ﴿ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾!.

وهذا هو منطقُ المترَفين والمترَفات، من الهابطين والهابطات!!.

ـ جهَّزت امرأةُ العزيزِ لهنَّ (حفلـة) ليلتقيْنَ بفتاها يوسـف، ويطَّلعْنَ على جماله، وهيَّأتْ لهنَّ (جلسـةً) ممتعة، فيها المتكأ والطعامُ والشراب، وفيها الأطبـاقُ والسكاكين، وهذا يدلُّ على تطوّرِ الطبقةِ الحاكمةِ في مصرَ في ذلـك الزمان، واستخدامِها وسائلَ العيشِ المترفة.

ـ كـانـتْ نسـوةُ المـدينـة مستمتعـاتٍ بـالطعـامِ والشـراب، ويستخـدمْنَ السكاكين، وأثناءَ ذلك فاجأتْهنَّ بإخراج يوسف عليهن، فلمّا شاهدْنَهُ دُهشْنَ وفوجِئْن، لما يتمتَّع به من جَمال، وأكبرْنَه وعظَّمْنَه، ونسينَ السكاكين بأيديهن، فقطّعنَ أيديهن بالسكاكين، وهنَّ مشدوهاتٌ بالنظرِ إليه، مسحوراتٌ بجماله: ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾.

ـ أطلقنَ عبارةَ إعجابٍ وإكبار، وقلن: ﴿ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾.

ومعنى قولِهن ﴿ حَٰشَ لِلَّهِ ﴾: اللهُ هو الذي خلقَ هذا الفتى الجميل، وهو قادرٌ على خلْقِه بهذا الجمال، ولهذا نزّهْنَ اللهَ وسبّحْنَه على خلْقِه يوسفَ بهذا الجمال!.

ومن جمالِه قلْنَ عنه: ﴿ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ أي: ليسَ جمالُه جمالَ بشرٍ عادي، لأنه فاقَ في جمالِه كلَّ البشر، إنّما هو مَلَكٌ من الملائكة، وكانوا إذا أرادوا وصفَ إنسانٍ بالجمالِ شبَّهوه بالملائكة، وقالوا: هو مَلَكٌ من الملائكة.

وليسَ مقصودُهن أنْ ينفينَ عنه بشريَّتَه، لأنّه بشرٌ واقفٌ أمامَهُن، وهو عبدٌ لامرأةِ العزيز، لكنَّهنَّ أردْنَ المبالغةَ بوصفِه بالجمال.

وهذا الكلامُ منْ نسـوةِ المدينـةِ يدلُّ على أنّهن كنَّ يعرفنَ الله، رغمَ أنّهن كافراتٌ مشـركات، فقدْ كُنَّ يعرفْنَ أنَّ اللهَ هو الخالق، الذي خلقَ يوسفَ بهذا الجمال، كما أنّهنَّ كُنَّ يعرفْنَ أنَّ اللهَ خلقَ الملائكة، وأنّهم على قسـطٍ كبيرٍ من الجمال!.

ـ منَ المعلومِ أنَّ يوسفَ عليه السلام كانَ باهرَ الجمال، وأنَّ اللهَ وهبَه من

الجمالِ ما لم يهبْه لأيِّ إنسانٍ آخر، وهو أجملُ إنسان!.

روى البخاري [برقم: ٧٥١٧] ومسلم [برقم: ١٦٢] عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «أُعطيَ يوسف شطر الحُسْن».

أعطى اللهُ يوسفَ عليه السلام وحدَه نصفَ الحُسْن والجمال، وأعطى الناسَ جميعاً ـ على اختلاف الزمان والمكان ـ النصفَ الثاني، وقسَّمه بينهم!.

ـ شعرت امرأةُ العزيزِ بالانتصارِ عليهن، فها هنَّ يعترفْنَ بجمالِ يوسف، إذنْ لها الحقُّ في عشقِهِ ومراودتِه، ولذلكَ اعترفَتْ أمامهنَّ بأنَّها هي التي راودتْه، ولكنَّه واجهَ هذه المراودةَ بالعفَّة: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾، وهذا اعترافٌ منها، يؤكِّدُ ما قلناهُ من أنَّه ما همَّ بها لحظة!.

ـ التعبيرُ عن إبائِه وامتناعِه بكلمةِ (استعصم) مقصودٌ ومراد، ويقدِّمُ شهادةً جديدةً لعفَّةِ يوسفَ وعدم هَمِّه بها.

(استعصم) فعلٌ ماض، مزيدٌ بثلاثةِ أحرف، الهمزةُ والسينُ والتاء. والثلاثي منه: (عصم)، فالحروفُ الثلاثةُ تدلُّ على التأكيد، حيثُ أكَّدت امرأةُ العزيزِ باعترافِها على عفَّةِ يوسفَ وعصمتِه وطهارتِه، أمامَ مراودتِها وتهالُكِها.

ويدلُّ الفعلُ (فاستعصم) على مقدارِ الجهدِ والمعاناةِ والمجاهدة، التي قامَ بها يوسفُ واستمرَّ عليها، حتى نجحَ وفاز، وحافظَ على عفَّتِه وطهارتِه!.

ـ إصرارُ امرأةِ العزيزِ علانيةً على استمرارِ عشقِها له، واستمرارِ مراودتِها له، واستمرارِ أمرِها له بمعاشرتِها، فإنْ لم ينفِّذْ أمرَها ولم يستجبْ لشهواتِها، فسوفَ يُسجنُ ويعاقَبُ ويُعذَّب! وهذا دليلٌ آخر على أنَّها هي الهاجمةُ عليه، الراغبةُ فيه.

ـ كانَ يوسفُ أمامَ خيارَيْن:

إمَّا التنازلُ عن عفَّتِه وطهارتِه، والاستجابةُ لشهواتِ امرأةِ العزيزِ ونسوةِ المدينة، والانغماسُ في أوحالِ الشهوات، وفتحُ الدنيا أمامَه، بما فيها من مالٍ ومتاعٍ ومراكزَ ومناصب!!

وإمَّا المحافظةُ على العفَّةِ والطَّهارة، واستمرارُ إبائِه وامتناعِه واستعصامِه، وبعد ذلك السجنُ والاضطهاد، والتعذيبُ والاتهام!!.

اختارَ يوسفُ الخيارَ الثاني، وآثرَ السجنَ مع العفة، وهو الفائزُ المفلح، وطلبَ من ربّه أنْ يصرفَ عنه كيدَهُنَّ ومراودتَهن، وأنْ يُخرجهُ من هذه البيئةِ الشاذّة المنحرفة، المنغمسةِ في الشهواتِ والملذات: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣٣].

وهكذا أُدخلَ يوسفُ السجنَ جزاءَ عفّتهِ وطهارته، في ذلك المجتمع الظالم: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ [يوسف: ٣٥].

٩ ـ توجيه قول يوسف للسجين ﴿ ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾:

لما أُدخلَ يوسفُ السجنَ ظلماً، أُدخلَ معه سجينان آخران، والتقى الثلاثةُ في السجن، وأنسَ الرجلانِ به، ورأى كلٌّ منهما رؤيا، فطلبَا منه أنْ يُؤوِّلَها لهما، وقبلَ أنْ يؤوِّلَها عرّفَهما على نفسه ودينِه وإيمانِه بالله، ونقضِ الكفرِ والشركِ بالله، ثم أوّلَ لهما الرؤيا، والتي تدلُّ على أنَّ أحدهما سيُصلبُ ويُقتلُ ويموت، أما الثاني فسوفَ يُفرَجُ عنه، ويخرجُ من السجن، ويعودُ إلى خدمةِ القصرِ والملكِ من جديد.

وطلبَ يوسفُ من السجينِ الذي سيُفرَجُ عنه أنْ يذكرَه عندَ الملك، ولكنّه نسيَ ذلك، ولم يكلّمِ الملكَ بشأنه، فبقيَ يوسفُ في السجنِ بضعَ سنين!.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ [يوسف: ٤٢].

وقد يقعُ بعضُهم في إشكالٍ في فهمِ هذه الآية، وتوجيهِ موقفِ يوسفَ عليه السلام: فكيفَ يطلبُ يوسفُ من الرجلِ أنْ يذكرَه عندَ الملك؟ أليسَ في هذا استعانةٌ بغيرِ الله؟ ومَنْ الذي أنساهُ الشيطانُ ذكرَ ربّه؟ هل هو يوسفُ أم الرجلُ المفرَجُ عنه؟ وهل بقاءُ يوسفَ في السجنِ بضعَ سنين عقوبةٌ من اللهِ له لأنّه استعانَ بغيرِ الله؟.

قالَ يوسفُ للسجينِ الذي سيُفرج عنه: ﴿ ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾. أي: كلّمِ الملكَ بشأني، وأخبرْهُ أنّي مسجونٌ ظلماً، وأنّي بريءٌ ممّا اتّهموني به!.

أضافَ الربَّ للرجل: ﴿ عِندَ رَبِّكَ ﴾، لأنَّ الرجلَ كان يعتبرُ الملكَ ربّاً، يعبدُه من دونِ الله! وهذا يؤكّدُ ما قلْناهُ من أنَّ يوسفَ لمّا قال: ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ

﴿أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ كانَ يقصدُ اللهَ ربَّ العالمين، وليس عزيزَ مصرَ سيده.

﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾ من يوسفَ عليه السلام أراد به اللهَ ربَّ العالمين، وقولُه للرجلِ الكافر: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ أرادَ بهِ ملكَك، الذي تخضعُ له، وتجعلُه رباً من دون الله!.

وطلبُ يوسفَ من الرجلِ الذي سيُفرَجُ عنه أنْ يذكرَه عندَ الملكِ لا شيء فيه، وهو تصرُّفٌ منطقيٌّ من يوسفَ عليهِ السلام! فهو مسجونٌ ظلماً، وقد لفَّقَ له الملأُ المتآمرون تهمةً باطلةً كاذبة، وأُدخلَ السجنَ بدونِ محاكمةٍ أو حكم، ولا يدري كم سيمرُّ عليهِ من السنوات وهو موقوفٌ ظلماً، ويخشى أنْ ينساهُ المتآمرونَ في السجن!.

ولعلَّ الملكَ لم يكنْ يعلمُ تفاصيلَ قصةِ يوسف، أو لعلَّها لم تصلْه على الحقيقة، ولعلَّ المتآمرين كذبوا على الملكِ بشأنه، فصوَّروا له يوسفَ عليه السلام على أنَّه المعتدي على امرأةِ العزيز، وصوَّروها له على أنَّها شريفةٌ عفيفةٌ مُعتدَى عليها!!.

لذلكَ أرادَ يوسفُ أنْ يُوصِلَ الحقيقةَ إلى الملك، وأنْ يبيِّنَ له أنَّه مظلوم، وأنَّ امرأةَ العزيزِ هي المعتديةُ عليه.

ومَن الذي سيوصلُ هذه الحقيقةَ إلى الملك؟ إنَّه صاحبُه السجين الذي سيُفرَجُ عنه، ومعلومٌ أنَّ (ساقي الملك) هو من أقربِ الناسِ إليه، لأنَّه صاحبُ خمرِهِ وشرابِه، وبهذا يكونُ صاحبُ يوسف قادراً على الكلامِ مع الملك، وعلى محادثتِه وإخبارِه بما يريد!.

إذنْ هذا الطلبُ من يوسفَ لا شيءَ فيه، ولا غبارَ عليه، كما أنَّه لا ينافي إيمانَه بالله، واعتمادَه وتوكُّله عليه، واستعانتَه به، كلُّ ما هناكَ أنَّه أرادَ أن يأخذَ بالأسبابِ المادية، مع يقينِه أنَّ اللهَ وحدَه هو المسبِّب والمقدِّر والمريد.

أفرجَ الملكُ عن الساقي، وعادَ إلى القصر، وانغمسَ في حياةِ القصرِ المترفةِ من جديد، وأقبلَ على مُتَعِها ولذائذِها. ونسيَ صاحبَه يوسفَ في السجن.

قال تعالى: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾.

لم يحسنْ بعضُ المفسِّرين فهمَ هذه الجملة، واعتبرَها إخباراً عن يوسفَ

عليه السلام، أيْ: أنسى الشيطانُ يوسفَ ذكرَ ربِّه، والتوكُّلَ على اللهِ وحده، وذلك عندما طلبَ من الساقي أنْ يذكرَ قضيتَه عند الملك، واعتبرَ هؤلاء هذا الطلبَ من يوسفَ تحتَ تأثيرِ الشيطانِ عليه، وأنَّه نسيانٌ منه لله، واعتمادٌ على المَلك!!.

وهذا كلامٌ مردود، لا يليقُ بيوسف، فيوسفُ نبيٌّ عليه السلام، واللهُ يحفظُه ويحميه ويعصمُه، ولا سلطانَ للشيطانِ عليه، فكيف يسيطرُ عليهِ الشيطانُ ويُنسيه ذِكْرَ الله؟.

إنَّ الكلامَ في الآية عن السجينِ المفرَج عنه، الذي عادَ إلى حياةِ القصر، فأنساهُ الشيطانُ قضيةَ صاحبِه يوسف، المسجون ظلماً، ولم يذكرْ للملكِ هذه القضية.

ومعنى (ذِكْرَ) هنا: تَذكير، والمرادُ بكلمةِ (ربه): الملك الذي يتخذُه رباً معبوداً، والذي سبقَ ليوسفَ أنْ قالَ له في السجن: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾.

أيْ: أنسى الشيطانُ الساقي المفرَج عنه أن يذكرَ لربِّه (الملك) قضيةَ يوسف.

ماذا نتجَ عن نسيانِ الساقي قضيةَ يوسف؟.

نسيَ الجميعُ هذه القضية، نسيَها عزيزُ مصر، ونسيَها الساقي، ونسيَها رجالُ الدولة، ولم يفطنْ أحدٌ ليوسف، ولم ينتبه له، وبقيَ يوسفُ (موقوفاً) في السجن.

وأخبرَ اللهُ عن هذه النتيجةِ بقوله: ﴿فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

فاعلُ (لبث) يعودُ على يوسف، و(بضع سنين) سنينُ عديدة، والبِضْعُ يُطلَقُ على الأعدادِ من ثلاثةٍ إلى تسعة.

ولا نملكُ تحديدَ السنين التي قضاها يوسفُ في السجن، ونبقى مع الآيةِ على إبهامِها: ﴿فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾! وهيَ لا تزيدُ على تسعِ سنين!.

بقيَ في هذه المسألةِ أن نُفنِّدَ زعْمَ بعضِهم أنَّ اللهَ جعلَ الساقي ينسى قضيةَ يوسفَ ولا يُذكِّر الملكَ بها، وأبقى يوسف في السجنِ بضعَ سنين عقوبةً له! أرادَ اللهُ أنْ يعاقبَه على خطئه! لأنَّه أخطأ في قولِه للساقي: اذكرْني عند ربِّك! أخطأ لأنه اعتمدَ على غيرِ الله، ورجا منهُ أن يحلَّ مشكلتَه! ولو لم يقلْ ذلك للساقي، لأفرجَ اللهُ عنه، ولمَا بقيَ في السجنِ بضعَ سنين!!.

هذا قولٌ مردودٌ باطل، لأنَّه يَتَّهِمُ يوسفَ عليه السلام في صلتِه بالله، وينسب له الخطأَ في موقفِه، ويجعلُه عرضةً للعقوبةِ من الله! وما هكذا يكونُ الكلام على الأنبياء!.

لم يخطىءْ يوسفُ عليه السلام في كلامِه، حتى يقالَ: عاقبَه الله! بل قدَّر اللهُ أنْ يبقى يوسفُ في السجنِ بضعَ سنين بحكمتِه سبحانه، لأنه (يُعِدُّ) يوسفَ لمرحلةٍ جديدة، لم يعلمْها يوسفُ ولا غيره..

ولا بدَّ أن يمرَّ يوسفُ (بدَوْرَةٍ) مهمة، ليتعلَّم الأناةَ والحلمَ والصَّبر، ويتدرَّبَ على الابتلاء، وتقوى عزيمتُه وإرادتُه وهمَّتُه، وهذه صفاتٌ ضروريةٌ للمرحلةِ التاليةِ من حياتِه!.

ثمَّ إنَّ اللهَ لا يريدُ لوليِّه يوسفَ أنْ يخرجَ من السجنِ بوساطةِ أحدِ رجالِ الملك، ولا بعفوٍ خاصٍّ من الملك، حتى لا يكونَ لأحدِ هؤلاءِ الكافرين منَّةٌ عليه، وحتى لا يظنَّ بعضُهم أنه معتدٍ مجرم، مطعونٌ في شرفِه، عفا عنه الملك!، يريدُ اللهُ له أن يخرجَ من السجنِ بعزَّتِه وكرامتِه، وعفَّتِه وطهارتِه، بعدما تُعادُ محاكمتُه، وبعدما يشهدُ الجميعُ ببراءتِه، فيخرجُ وهو مرفوعُ الرأس، لا يحملُ منَّةً إلا للهِ سبحانه!.

أينَ هذا التوجيهُ التربويُّ من زعمِ بعضِهم أنَّه كانَ عقوبةً منَ الله له؟.

١٠ ـ يوسف لا يتعجل الخروج ويطلب إعادة المحاكمة:

أرى اللهُ الملكَ رؤيا خطيرة ـ سبعَ بقراتٍ سِمانٍ يأكلهنَّ سبعٌ عجاف، وسبعَ سنبلاتٍ خضر، وأُخَر يابسات ـ وطلبَ من رجالِه أن يُعَبِّروها له، ولكنهم عجزوا عن ذلك، فتذكَّر (الساقي) يوسفَ السجين، وخبرتَه بتعبيرِ الرؤيا، فذهبَ إليه مسرعاً في السجن، وطلبَ منه تعبيرَ رؤيا الملك، فعبَّرها، وعادَ (الساقي) بالتعبيرِ إلى الملك، الذي أُعجبَ به وبتعبيره!.

أمرَ الملكُ رجالَه بإحضارِ يوسفَ إليه! فماذا كان موقف يوسف؟.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠].

أرسلَ رجالُ الملكِ أحدَهم موفداً من الملك إلى يوسف، ليزفَّ إليه بشرى عفوِ الملكِ عنه، ورغبته في مقابلتِه لإكرامه!.

كيف استقبلَ يوسفُ البشرى؟ وبماذا ردَّ على رسولِ الملكِ؟: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾.

قالَ للرسول: ارجعْ إلى ربِّك ملكك، الذي تعتبرُه ربّاً لك، واطلبْ منه أنْ يُعيدَ بحثَ قضيتي من جديد، يُعيدَ المحاكمة، ويُحضرَ الشهود، ويسألَ النسوة: لماذا قطَّعْنَ أيديهن في بيتِ امرأةِ العزيز، ويسألَ امرأةَ العزيز نفسَها عن مراودتِها لي.. اطلبْ منه أنْ يفعلَ ذلك، ليعرفَ أنّني بريءٌ، وأنني مظلومٌ في سجني بضعَ سنين!.

أما أنا فإنّني أعلمُ كلَّ ذلك، لأني عشتُ الأحداثَ بنفسي! وربّي عالمٌ بذلك، لأنه بكلِّ شيءٍ عليم.

وندعو إلى ملاحظةِ التقابلِ في ذِكْرِ (الرب) في الآية. حيثُ ذُكرت الكلمةُ مرتين: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾: ملكك. ﴿إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾: اللهُ ربُّ العالمين!

لماذا وقفَ يوسفُ هذاالموقف؟ ولماذا لم يسارعْ بالخروج؟ ثم يطلبُ إعادةَ المحاكمةِ وهو خارجُ السجن، يتمتعُ بحريتِه؟.

إنَّ يوسفَ عليه السلام حصيفٌ ذكيٌّ لمَّاح، وقد فهمَ من إشارةِ الملكِ أنه سيُفرَجُ عنه، وقد يسندُ له بعضَ المراكزِ العليا! وهو يعلمُ أنّه (متَّهم) عندَ الناس، وهم لا يعرفونَ حقيقةَ قضيتِه مع امرأةِ العزيز!! فقد شوَّهَ (الإعلامُ الرسميُّ) الذي يُشرفُ عليهِ عزيزُ مصرَ سُمعتَه، على أنّه راودَ امرأةَ العزيزِ وأرادَ الاعتداءَ عليها، ولذلكَ سُجنَ بسببِ جريمتِه!.

وليسَ من المناسبِ أنْ يخرجَ بعفوٍ ملكي، لأنَّ الناسَ سيبقونَ يتكلَّمون عنه، وعن جريمتِه! مع أنَّه عزيزٌ نزيهٌ طاهرٌ شريفٌ معتدى عليه، مسجونٌ ظلماً!.

إذن لابدَّ من إعادةِ بحثِ القضيةِ من جديد، والذي سيحققُ فيها هذه المرة هو الملكُ نفسه: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾!.

يوسفُ عليه السلام الذي قالَ هذا القولَ لرسولِ الملك، هو نفسُه الذي قالَ

لساقي الملكِ قبلَ سنوات: ﴿ ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾!.

ولا تعارضَ في الحقيقةِ بين الموقفيْن!.

لما قالَ للساقي قبلَ سنوات: اذكرني عندَ ربك، لم يُرِدْ أنْ يَخرجَ بعفوٍ ملكي، إنّما أرادَ أنْ يعرفَ الملكُ قصتَه، ليبحثَ قضيتَه! والآن عرفَ الملكُ قصتَه، فلابدَّ أنْ يُعيدَ بحثَها، فلا تناقضَ بينَ الموقفيْن!.

وقد أثنى رسولُنا ﷺ على يوسفَ عليه السلام، لتريثِه في الخروجِ من السجن، واعتبرَ هذا مزيةً من مزاياه.

روى البخاري [برقم: ٣٣٧٢] ومسلم [برقم: ١٥١] عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «نحنُ أحقُّ بالشكِّ من إبراهيم، إذ قال: ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي ﴾.. ويرحمُ الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركنٍ شديد.. ولو لبثتُ في السجنِ طولَ ما لَبِثَ يوسفُ لأجبتُ الدّاعي».

وروى الطبراني [برقم: ١٦٤٠] عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «عجبْتُ لصبرِ أخي يوسفَ وكرمِه، واللهُ يغفرُ له، حيثُ أُرسلَ إليه يستفتى في الرؤيا.. ولو كنتُ أنا لم أفعلْ حتى أخرج.. وعجبتُ لصبرِه وكرمِه، واللهُ يغفرُ له، أُتي ليخرج، فلمْ يخرجْ حتى أخبرَهم بعذرِه، ولو كنتُ أنا لبادرتُ الباب..».

وقد تكلَّمْنا عن معنى كلامِه عن إبراهيمَ ولوطٍ عليهما السلام فيما مضى. أما بالنسبةِ ليوسفَ عليهِ السلام فإنَّ الرسولَ ﷺ يُثني عليهِ لصبرِه، ويُخبرُنا أنَّه لو كانَ مكانَه، وسُجنَ بضعَ سنين ظلماً، وجاءَه الداعي يدعوهُ لمقابلةِ الملك، لأجابَه وخرجَ فوراً، وبعدَ ذلكَ يطالبُ بإعادةِ التحقيق!.

ولهذا قالَ في الروايةِ الثانية: «ولو كنتُ أنا لبادرْتُ الباب». أيْ: لسارعْتُ بالخروجِ من بابِ السجن!.

ومن عجيبِ ما يُقالُ عن سوءِ الفهمِ وعدمِ العلم، أنَّ أحدَ الجهلاءِ زعمَ نفسَه عالماً، ودرَّس على المصلّين في المسجدِ هذا الحديث: «ولو لبثْتُ أنا في السجنِ طولَ ما لبثَ يوسفُ لأجبْتُ الداعي»! وقال: معناه أن محمداً ـ ﷺ ـ لو

كانَ مكانَ يوسف، ودعتْهُ امرأةُ العزيزِ إلى نفسِها، لأجابَ دعوتَها واستجابَ لها!!.

وهذه مصيبةٌ تصدرُ عن الجهلاء، وما أكثرَهم في هذه الأيام!.

١١ ـ من القائل ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ﴾؟:

ازدادَ إعجابُ الملكِ بموقفِ يوسف، حيثُ لم يتعجَّل بالخروج، ولم يتلهَّف على مقابلتِه، وطلبَ أنْ يحقِّقَ هو في القضيةِ بنفسِه.

أحضرَ الملكُ النسوةَ المتآمرات، وفي مقدِّمتهنَّ امرأةُ العزيز، وسألهنَّ: ما خطبكُنَّ إذ راودتُنَّ يوسفَ عن نفسِه؟.

أيْ: ما قصَّتكُنَّ مع يوسف؟ وما شأنكُنَّ معه؟ ولماذا راودتُنَّه عن نفسِه؟.

ويبدو أنَّ الملكَ قد حقَّقَ في القضيةِ قبلَ أنْ يستدعيهُن، وعرفَ أنَّهنَّ اللواتي راودْنَه، فكانَ كلامُه معهنَّ إدانةً لهن! فهو لم يقلْ لهن: أخبرنني بالأمر، وما الذي حصل! وإنَّما أثبتَ لهنَّ المراودة: ما خطبُكُنَّ إذ راودتُنَّ يوسفَ عن نفسِه؟.

قدَّمت نِسوةُ المدينةِ شهادةً ليوسفَ عليه السلام، ورددْنَ على سؤالِ الملكِ قائلات: حاشَ لله، ما علمْنا عليهِ من سوء!.

ويلاحَظُ أنَّهنَّ كرَّرْنَ (حاشَ لله) فلمّا شاهدْن يوسفَ عندَ امرأةِ العزيزِ قلن: ﴿ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾. والآنَ يقلن للملك: «حاشَ للهِ ما علمنَا عليهِ من سوء».

أيْ: إنَّ يوسفَ بريءٌ من كلِّ التُّهَمِ الموجهةِ إليه، وهو عفيفٌ شريفٌ طاهر، لم يراوِدْ ولم يعتدِ، وما علِمْنا عليهِ سوءاً أو عدواناً!!.

وبعدَ ما شهدَتْ النسوةُ المراوداتُ ببراءةِ يوسف، تقدمت امرأةُ العزيز ـ الطرفُ الرئيسيُّ في القضية ـ أمامَ الملكِ باعترافٍ صريحٍ مثير، أقرَّتْ فيه ببراءةِ يوسفَ وعفَّتِه، وأدانَتْ نفسَها بأنها هي التي راودتْه.

قال تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥١ ـ ٥٣].

لقد أثَّرَتْ السنواتُ التي قضاها يوسفُ في السجنِ في امرأةِ العزيز، ويبدو أنها تأثَّرتْ بيوسفَ في دينِه، بعدَ أنْ كانَ تأثُّرها بجماله!.

لقدْ عرفناها فيما مضى امرأةً شهوانيةً شبقة، متهالكةً على يوسف، حريصةً على قضاءِ وطَرِها منهُ بأيَّةِ وسيلة! كما عرفْناها امرأةً ماكرةً متآمرة، تُجيدُ رسمَ المؤامرات، وحَبكَ المكايد، واتّهام الآخرين.

أما الآن، فيبدو من اعترافِها أمامَ الملكِ أنّها تغيَّرَتْ كثيراً، لقد أصبحتْ ناضجةً واعية، موضوعيةً رزينة، متواضعةً معترفة، مؤمنةً بالله، حافظةً ليوسف وُدَّه!.

بدأتْ اعترافَها بقولها: ﴿ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ ﴾ . أيْ: آنَ الأوانُ أن أعترف، وأنْ أُظهرَ الحقَّ في هذه القضية، فطالَما حرصتُ على إخفاءِ الحقيقةِ عدّةَ سنوات، ولكنّني لم أنجح، فلابدَّ أنْ يَظهرَ الحق، وعلى لساني هذه المرة.

و(حصحص) مضاعَفُ كلمة (حَصَّ)، مثل: زلزل، وكفكف.

وأساسُ معنى (الحَصّ) هو القطع، ومعنى حصحص الحق: وَضَحَ الحقُّ وظهرَ وانكشفَ وبان، ولم يَعُدْ هناكَ مجالٌ لإخفائه!.

ثم قالت: ﴿ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ . وهذه إدانةٌ صريحةٌ منها لنفسِها، وتبرئةٌ صريحةٌ منها ليوسف: أنا التي راودتُ يوسفَ عن نفسِه، وهو لم يُراودني! وأنا كذبتُ عليهِ عندما اتّهمتُه أمامَ زوجي بأنّه راودَني وأرادَ بي سوءاً، أما هو فقدْ كانَ صادقاً عندما قالَ لزوجي: هي راودتْني عن نفسِي!.

ماذا يريدُ يوسفُ عليه السلام من إعادةِ بحثِ قضيتِه أكثرَ من هذا الاعتراف، ماذا يريدُ من نسوةِ المدينةِ أن يقلنَ أكثرَ من هذا؟ وماذا يريدُ من امرأةِ العزيزِ أن تقولَ أكثرَ من هذا؟.

ليسَ أقوى من الإقرارِ والاعترافِ من قِبَل أطرافِ القضية، فالاعترافُ سيدُ الأدلة!.

لقدْ حقَّقَ يوسفُ بصبرِه وتحمُّلِه وأناتِه كلَّ ما يريد، وإنّه لحصيفٌ ذكيٌّ ألمعيٌّ حقاً، عليه السلام، فها هي خصْمُه وسببُ محنتِه ـ امرأةُ العزيز ـ تقدِّمُ هذه الشهادةَ الصريحةَ ببراءته!!.

نتظرُ الآنَ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ .

هذا إخبارٌ من الله عن قائلٍ، قالَ هذا القول، معترفاً بخطئِه، وطَرَفا القضيةِ هما: يوسفُ عليه السلام وامرأةُ العزيز! فمَنْ منهما الذي قاله؟.

ذهبَ بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ هذا قولُ يوسفَ عليه السلام، عقَّبَ به على اعترافِ امرأةِ العزيزِ السابق، في قولِها: ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ . عقَّبَ على اعترافِها باعترافٍ مماثل!.

قالوا: أرادَ يوسفُ باعترافِه: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ عزيزَ مصر، الذي أكرَمَه وجعلَه في بيتِه، والمعنى: أريدُ أنْ يعلمَ العزيزُ أنّي لم أخنْه بالغيب، ولم أعتدِ على امرأتِه أثناءَ غيابِه عن البيت، بلْ حافظْتُ على عِرضِه، وعففْتُ عن امرأته!.

وقالوا: هذا اعترافُ يوسفَ بميلِه السريع إلى امرأةِ العزيزِ عندما راودتْه، هذا الميل الذي لم يستمرَّ طويلاً، والذي كانَ نتيجةَ رغبةِ نفسه الأمّارة بالسوء، حيثُ رغبتْ نفسُه فيها، ولكنّه جاهدَ نفسَه، ولم ينفِّذْ ميلَه، بلْ أزالَه وأعادَ ترفُّعه وإباءه!!.

وهذا القولُ منهم مردود، وتفسيرُهم للآيةِ بهذا التفسيرِ غيرُ سديد.

الراجحُ أنَّ هذا القولَ لامرأةِ العزيز، تتابعُ فيهِ اعترافَها المثيرَ أمامَ الملك، السياقُ يدلُّ على هذا، ومعنى الآيات يدلُّ عليه أيضاً!.

امرأةُ العزيزِ هي التي قالت: ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وهي التي تابعت اعترافها قائلة: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ﴾ .

وتقصدُ بكلامِها يوسف، الذي كانَ مازالَ في السجن، عندما قدّمتْ اعترافَها أمامَ الملك. أيْ: اعترفْتُ على نفسي، وشهدتُ ببراءةِ يوسف، وذلكَ ليعلمَ يوسفُ أنني صادقةٌ معه، وأنني شهدتُ لصالحِه، وأنني لم أخنْهُ بالغيب، ولم أشهدْ ضدَّه أمامَ الملك، وهو غائبٌ عنّي لأنّه في السجن، وفعلتُ ذلك إيماناً منّي باللهِ أيضاً، لأنني أعلمُ أنَّ اللهَ لا يهدي كيدَ الخائنين.

وتابعت امرأةُ العزيزِ اعترافَها وإدانتَها لنفسِها أمامَ الملك، فقالت: إنني لا أبرىءُ نفسِي من هذه القصة، فأنا المدانَةُ والمخطئة، ولقدْ راودْتُ يوسفَ عن نفسِه، استجابةً لشهوتي ورغبةِ نفسي، ونفسي هي التي أمرَتني بذلك، وليتَني لم أستجبْ لها، ولم أنفِّذْ أمرَها، فهي أمّارةٌ بالسوء! ونفوسُ معظمِ الناسِ أمّارةٌ بالسوء، ولا يُستثنَى من ذلك إلا أُناسٌ قلائل من الصالحين، رحمهم الله فأعانهم على أنفسهم، فلم تأمرهم بالسوء! ومِنْ هؤلاءِ يوسف، الذي لم تأمرْه نفسُه بالسوء، ولذلكَ لم يتجاوبْ معي! وأنا الآنَ أشعرُ بالذنبِ مما فعلْت، وأستغفرُ اللهَ ربّي، وأرجو منه أنْ يغفرَ لي، لأنَّه غفورٌ رحيم.

ونلحظُ المنطقَ الإيمانيَّ لهذه المرأةِ المؤمنة، التي بدأتْ قصَّتَها مع يوسف شهوانيةً شَبِقة، متآمرةً فاتنة، وانتهتْ قصَّتُها معهُ مؤمنةً صالحة، وصارتْ شخصيَّتُها واعيةً ناضجة، وتأثَّرت بيوسفَ عليه السلام تأثُّراً إيمانياً، فدخلتْ في دينِه!.

١٢ ـ توجيه طلب يوسف الملك:

بعدما ثبتَتْ براءةُ يوسفَ عليه السلام أمامَ الملك، طلبَ من رجالِه إحضارَه، ليُكرمَه ويُنعمَ عليه، ولمّا وقفَ أمامَه وكلَّمه بعزَّة، ازدادَ إعجابُ الملكِ به، وأخبرَه أنّه في أمان، عندَ ذلك طلبَ يوسفُ من الملكِ أنْ يجعلَه على خزائن الأرض، فاستجابَ الملك له.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٤ ـ ٥٥].

يريدُ الملكُ أنْ يستخلصَ يوسفَ لنفسه، ويجعلَه بمنزلةِ المستشارِ والنجيِّ والصَّديق! وهكذا انتقلَ يوسفُ من غياهبِ السجنِ إلى رحابةِ القصر.

ولما كلَّمَ الملكُ يوسف، وجرى بينهما حوارٌ وكلام، لاحظَ الملكُ في كلامِه الصدقَ والجدية، فازدادَ إعجابُه به، وتأكَّد الملكُ أنَّ نظرتَه فيه في محلِّها، وأنّه أهلٌ للتكريمِ والتفضيل. فطمأنه بأنه عندَه في أمان: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾.

أي: لم تَعُدْ عبداً رقيقاً عندَ العزيز، وإنما أنتَ عندي مسؤولٌ من كبار المسؤولين، وأنتَ (مكينٌ) متمكِّنٌ من الحريةِ والمسؤوليةِ والمنزلةِ العالية! وأنتَ

(أمينٌ) في أمـانٍ واطمئنـان، لا تخشى بعدَ اليومِ سـجناً ولا اتهاماً ولا ظُلماً ولا عُدواناً!.

لما سمعَ يوسفُ عليه السلام هذا الأمانَ من الملك، وجَدَها فرصةً مناسبةً ليقدّمَ عرضَه على الملكِ بتحمُّلِ المسؤوليةِ الاقتصاديةِ الكبيرة، لأنَّ البلادَ مقدِمَةٌ على أزمةٍ كبيرة، وهو يريدُ العملَ على إنقاذِها منها، قالَ للملك: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: اجعلْني مسـؤولاً عـن الخـزائـنِ والأمـوال، والـزراعـةِ والتمـويـن، والتخطيطِ والاقتصاد!.

وأخبرَ الملكَ عن اثنيْن من مؤهّلاته للقيامِ بهذا: الحفظ، والعلم.

حفيظٌ: يحفظُ الأمانـةَ والعهد، ويحفظُ المسـؤوليةَ والمنصب، ويحفظُ المالَ والدخل، ويحفظُ الزراعةَ والإنتاج، ويحفظُ البلادَ والعباد.

وعليم: يملكُ من العلمِ والمعرفةِ والخبرةِ والكفاية، ما يُعينُه على أداءِ هذه المهمة.

وقد لا يُحسنُ بعضُهم فهْمَ هذا الطلبَ من يوسفَ عليه السلام، فيسـيءُ تفسـيرَه، ويعتبـرُه رغبةً منه في المنصبِ والمركز، وحرصاً منه على الـوزارةِ والمسؤولية، وطلباً للدنيا وخيراتِها!.

إنَّه لم يطلبْ هذا الطلبَ لنفسِه، ليستفيدَ شخصُه مالاً ومصلحةً ومركزاً وجاهـاً، إنّما طلبَ هذا الطلبَ تضحيـةً منه، ليقومَ بخدمـةِ البلاد، وينقذُها من المجاعةِ التي هي مُقدِمَةٌ عليها!.

فقد سبقَ أنْ عبَّرَ رؤيا الملكِ عن البقراتِ والسنبلات، وأخبرَه أنَّ البلادَ ستعيشُ سـبعَ سنواتِ رخاءٍ وغيثٍ وإنتاج، تَعقُبُها سـبعُ سنواتِ محلٍ وجدبٍ وقحط، وبعدَ ذلك سنةُ غيثٍ وإنتاج.

وهذه الفترةُ الحرجةُ تحتاجُ إلى رجلٍ (حفيظ عليم) يُحسنُ الاستفادةَ من سنواتِ الرخاءِ لسنواتِ الجدب!.

ويوسفُ يعلمُ أنه أهلٌ لهذه المرحلة، يقدرُ على خدمةِ الناسِ فيها، وإنقاذِ البلادِ من أزمتها! فهو مُقدِمٌ على تضحيةٍ كبيرة، ومهمةٍ عظيمة، وتبعةٍ ثقيلة!.

هذا عن توجيهِ طلبِه المُلْكَ والمسؤولية.

واستجابَ الملكُ له، وجعلَه على خزائنِ الأرض، وسلَّمه مسؤوليةَ إدارةِ الاقتصادِ والزراعةِ والخزائنِ والأموال!. وترقَّى في هذا إلى أنْ أصبحَ (عزيزَ مصر)، وحلَّ محلَّ (العزيز) الذي اشتراه، وجعلَه عبداً في بيتِه، وراودتْه امرأتُه.

والراجحُ أنَّ يوسفَ عليه السلام استلمَ منصبَ (عزيز مصر) بعدما صارَ نبياً، وهذا معناهُ أنَّه كانَ يحكمُ البلادَ بشرعِ الله، ويديرُ الأمورَ على منهاجِ الله!.

لقد أطلقَ الملكُ يدَهُ في حكمِ البلاد، فكانَ صاحبَ التصرُّفِ والكلمةِ والقرار، يفعلُ ما يشاء، ويحكمُ في البلادِ كما يشاء، بدونِ اعتراضٍ من الملك.. أي أنَّ يوسفَ عليه السلام كانَ هو الحاكمَ الفعليَّ في مصر، وبقيَ الملكُ مجرَّدَ (رمز) للبلاد، يملِكُ ولا يحكم!.

ومما يدلُّ على هذا غيابُ الملكِ عن الأحداثِ والمشاهدِ التي عرَضَتْها الآيات، بعدما وليَ يوسفُ منصبَ (عزيز مصر) فلا نسمعُ له صوتاً، ولا نرى لهُ تأثيراً، وكأنَّه عيَّن يوسفَ في منصبه، وجعلَهُ على خزائنِ الأرض، ثم توارى في الظلّ.

ولا بدَّ أن يَعرفَ هذا الموقفَ من يوسف عليه السلام وتوجيهَه بعضُ دعاةِ الإسلام المعاصرين، الذين يُريدون أنْ يَلُوا الأمورَ ويستلموا المناصبَ في الأنظمةِ والحكوماتِ التي لا تحكمُ بالإسلام! ويرضونَ أن يكونوا (وزراء) عند حكام لا يحكمونَ بشرعِ الله! ويحاولون تبريرَ هذا العملِ الخاطئ بقياسِه على ما فعلَهُ يوسفُ عليه السلام، حيثُ كانَ وزيراً عند ملكِ مصرَ الكافر! وهم يقتدون به! أليسَ هو نبياً؟ فلماذا لا يقتدون به؟!.

لا بدَّ أن يَعرفَ هؤلاءُ الفرقَ بين فعلِهم الخاطئ وفعلِ يوسف الصائب! فلو فعلوا ما فعلَ يوسفُ لجازَ فعلُهم، ولو أطلقَ الحكامُ يدَ هؤلاءِ الإسلاميين في الحكم كما أطلقَ الملكُ يدَ يوسفَ لجازَ فعلُهم، ولو سمحَ الحكامُ لهم بتطبيقِ شرعِ الله والحكمِ بالإسلام، ولم يُلغوا أحكامَهم بالإراداتِ والقراراتِ التي يُصدرونَها لجازَ فعلُهم!.

وبما أنَّ الأمرَ ليسَ على هذه الصورة، فإن الفرقَ بعيدٌ بينَ فِعلِهم وفعلِ

يوسفَ عليه السلام، ولا يجوزُ لهم الإقدامُ على ذلك الفعلِ الباطل، متعلّلينَ بما قامَ به يوسفُ عليه السلام!!.

١٣ ـ توجيه ما جرى بين يوسف وإخوته:

وليَ يوسفُ عليه السلام مركزَ (عزيزِ مصر)، وأحسنَ الاستفادةَ من سنواتِ الخصبِ والرخاء في سنواتِ الجَدْبِ والمَحْل، وادَّخرَ الحبوبَ وحافظَ عليها، وأحسنَ توزيعَها على أهلِ مصرَ وأهلِ البلادِ المجاورة، ويبدو أنَّ المجاعةَ لم تكنْ في مصرَ فقط، وإنّما شملت البلادَ المجاورة.

وجاءَ إخوةُ يوسف من (البدو) في فلسطين إلى مصر، ليأخُذوا منها الحبوب، وهم لا يعرفونَ أنَّ عزيزَ مصرَ الذي يتعاملونَ معه هو أخوهُم يوسف! وجرى بينَه وبينَهم أحداثٌ تحتاجُ إلى تحليلٍ وتفسيرٍ وتوجيه، منها:

أ ـ لمَّا جهَّزهم طلبَ من فتيانِه أنْ يجعلُوا بضاعتَهم في رحالِهم. قال تعالى: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يوسف: ٦٢].

ما معنى الآية؟ وما توجيهُ فعل يوسف عليه السلام؟.

كانَ الإخوةُ قد أحضروا معهم بضاعةً من منتوجاتِ أراضيهم، ليشتروا بها القمحَ من مصر، فلما حَمَّلَ لهم الفتيةُ أحمالَهم من القمحِ أمَرَهم يوسفُ عليه السلام بدسِّ البضاعةِ التي جاؤوا بها بينَ القمح! وذلك ليُغريهم بالعودة، فعندما يُفرغونَ الحبوبَ سيجدونَ بضاعتهم فيها، وهذا معناهُ أنَّ (العزيز) أعطاهُم الحبوبَ مجاناً، وهذا يدعوهم إلى العودةِ لأخذِ أحمالِ حبوب أخرى.

وهذا التصرفُ من يوسفَ عليه السلامُ صوابٌ لا خطأَ فيه، لأنّه أرادَ إكرامَ إخوته، وتقديمَ هديةٍ إلى أهله، ولا بدَّ أنْ يكونَ دَفَعَ الثمنَ من جيبه!.

ب ـ لما عادَ الإخوةُ إلى أبيهم أخبروهُ بطلبِ عزيزِ مصر، قبلَ أن يفرغُوا أحمالَهم، وطلبوا منه الموافقةَ على أخذِ أخيهم معهم، فتذكَّر يعقوبُ عليه السلام ما فعلُوه بأخيهم: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٣ ـ ٦٤].

ولما فتحُوا متاعَهم، وفرّغوا أحمالَهم وجدوا البضاعةَ بينَ الحبوب، فاستغربُوا وفوجئوا، كما فوجئ أبوهم يعقوب، واعتبروا هذا وسيلةَ ضغطٍ على أبيهم ليوافقَ على إرسالِ أخيهم الصغير: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ [يوسف: ٦٥].

معنى قولهم: ﴿مَا نَبْغِى ۖ﴾: لا نظلمُ ولا ندّعي ولا نكْذب، لقد نفَوا عن أنفسِهم البغيَ والظلمَ عندما طلبوا أنْ يكونَ أخوهم معهم. ودليلُ أنّهم لا يكذبون في طلبهم عودةُ بضاعتِهم إليهم: ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ﴾.

ومعنى ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾: نقدّم لهم الميرةَ والزاد.

ويدلُّ قولهم: ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ﴾ على أنَّ يوسفَ عليه السلام كان (يُقنّن) توزيعَ الحبوبِ في سنواتِ المجاعة، بحيثُ كانَ يعطي لكلِّ إنسانٍ حمل بعير، والإخوةُ عشرة يأخذونَ عشرةَ أحمال، ومجيءُ أخيهم الحادي عشرَ يجعلُهم يأخذونَ حملَ بعيرٍ آخر!.

جـ - بعدما حَلَفوا لأبيهم يعقوب عليه السلام أن يُحافظوا على أخيهم الصغير وافقَ على إرسالِه معهم. وقبلَ أنْ يغادروا إلى مصرَ طلبَ منهم طلباً غريباً. قال تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ﴾ [يوسف: ٦٧].

أيْ: عندما تصلونَ مصر، فلا تَدْخُلوا من بابٍ واحد، لأنّكم أحدَ عشرَ أخاً، وتوزّعوا على الأبوابِ العديدة، وادْخُلوا من أبوابٍ متفرقة، بحيثُ تدخلُ كلُّ مجموعةٍ من باب!.

ولا يمكننا تحديدُ الأبوابِ المتفرقةِ التي أمَرَهم بالدخولِ منها: هل هي الطرقُ التي توصلُ إلى مصر؟ أم هي أبوابُ سورِ عاصمةِ مصر؟ أم هي أبوابُ قصرِ عزيزِ مصر؟ كما لا يمكنُنا تحديدُ عددِ هذه الأبواب: هل هي ثلاثةٌ أو أربعة أو أكثر. لأنَّ كلَّ هذا من مبهماتِ القرآن!.

لماذا أوصاهم يعقوبُ بهذه الوصية؟ وما الحكمةُ التي أرادَ تحقيقَها من ذلك؟ لم يبيّنْ لهم ذلك، واكتفى بقوله: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

والمعنى: عندما أوصيتكم بهذه الوصيةِ لا يَعني أنني أدفعُ بها قَدَرَ اللهِ وأمْرَه، فقط كنتُ آخذُ بالأسباب، وقمتُ بالحذرِ المطلوب، لكنَّ أخذي بالأسبابِ لا يوقفُ قَدَرَ الله، لأنَّ ما قدَّرَهُ اللهُ لا بدَّ أن يقع.

د ـ لمَّا دخلَ الإخوةُ على العزيز (يوسف) ومعهم أخوهم الصغير، خلا يوسفُ بأخيه، وعرَّفه على نفسه: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف: ٦٩].

هذا الأخُ الصغيرُ ليس شقيقاً لإخوانِه الكبار، إنما هو أخوهم من أبيهم، وهذا صريحُ ما جاءَ على لسانِ يوسفَ عندما طلب منهم إحضارَه معهم: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف: ٥٩].

ولعلَّه كانَ شقيقاً ليوسفَ من أبيه وأمه، وهما أصغرُ الإخوة، فقد قال الإخوة العشرة من قبل: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٨].

ولعلَّ يوسفَ عليه السلام كان في شوقٍ إلى أخيهِ الشقيقِ الصغير، ولعلَّه كانَ يخشى على أخيهِ الصغيرِ من كيدِ إخوانِه الكبار، فأرادَ أن يبقيَه عندَه ليكونَ في أمان، حتى تنتهيَ الأحداث، ويجتمعَ أفرادُ الأسرة!.

ولذلكَ ما أنْ شاهدَ يوسفُ أخاه الصغيرَ حتى اهتمَّ به، وآواه إليه، وعامَلَه معاملةً خاصة، بدونِ أنْ يُثيرَ انتباهَ وشكَّ الإخوةِ الآخرين.

ولما خلا به عرَّفه على نفسِه، وقال له: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

وكانَ أخوهُ يعرفُ قصة (يوسف المفقود)، وها هو الآن يعرفُ أنَّ عزيزَ مصرَ الذي يكلِّمه هو أخوه المفقود! وطلبَ منه يوسفُ أنْ يحتفظَ بهذا السِّر، وأنْ لا يخبرَ إخوتَه به، كما طلبَ منه أن يصبرَ على ما فعلَهُ إخوته، وأنْ لا يبتئس بأعمالهم.

هـ ـ أرادَ يوسفُ عليه السلام أنْ يحتفظَ بأخيه، تمهيداً لجمع شملِ الأسرةِ كلِّها، وألهمهُ اللهُ طريقةً عجيبة، تدلُّ على فطنتِه وحصافته.. لقد دسَّ (السقاية) في رحلِ أخيه، دونَ علمِ أحد، لا إخوتِه ولا فتيانِه العاملين عنده! ثم فقدَ فتيانُه

السقاية، ونادوا في الركبُ المرتحلين، واتّهموهم بالسرقة، وفتّش يوسفُ أوعيةَ الإخوة، ثم أخرجَ السقايةَ من رَحلِ أخيه، وبذلك أخذَ أخاه رقيقاً عنده، واحتفظَ به، بتهمةِ السرقة.

وقد أخبرَنا اللهُ بهذهِ الأحداثِ المثيرة. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ۝٧٠ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ۝٧١ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ۝٧٢ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ۝٧٣ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ۝٧٤ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ۝٧٥ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٠_٧٦].

قد يتساءلُ بعضُهم: لماذا وضعَ يوسفُ السقايةَ في رحل أخيه؟.

لقد وضعَها خفيةً في رحلِ أخيـه، دونَ أنْ يراهُ أحد، ليبقي أخاه عندَه، ويكونَ هذا مقدمةً لمجيء أهلِه جميعاً.

وهو لم يخطئ في ذلك، لأنه جعلَهُ خطوةً تمهيدية، تتبعُها خطوات تقودُ إلى ما يريـد. واللهُ هو الذي ألهمه بذلك، لأنه كان نبياً، وأثنى الله عليه بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾.

وهناكَ تساؤلٌ آخر: كيف اتَّهم يوسفُ إخوتَه بالسرقة؟ مع أنهم لم يسرقوا، وهو الذي وضعَ السقايةَ في رحلِ أخيه!.

لم يكنْ هو الذي اتهمهم بالسرقة، إنما هم فتيانُه الموظفون عنده، والآية صريحة بذلك: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾.

لقد فقدَ فتيانُ يوسفَ السقاية، وبحثوا عنها فلم يجدوها، فالتصرفُ المتوقَّعُ هو أنْ يتَّهموا آخر مَنْ كانوا عندهم، وهم إخوةُ يوسف. فقالوا لهم: أيتها العيرُ إنكم لسارقون.

وجرى بين فتيانه وإخوته حوار، وسؤالٌ وجواب، وهو يسمعُ ويراقبُ ويتابعُ الموقفَ عن كثب: فوجئ إخوتُـه بالتهمة، وسألوا الفتيان: ما الذي فقدتموه؟ فأجابوهم: فقدْنا صواعَ الملك! وصواعُ الملك هو (السقاية) المذكورةُ

في الآيةِ السابقة، وحثَّ الفتيانُ الإخوةَ على تسليمِ صواعِ الملكِ المسروق، ورغَّبوهم بأنْ قدَّموا لهم جائزة: مَنْ سلَّم الصواعَ المسروقَ فسوفَ يأخذُ حملَ بعيرٍ من القمحِ مكافأةً له.

نفى الإخوةُ عن أنفسِهم السرقة، فسألهم الفتيان: ما جزاءُ السارقِ في شريعتِكم يا إسرائيليين؟ فأجابوهم: جزاءُ السارقِ عندنا أنْ يأخذَ صاحبُ المالِ المسروقِ السارقَ ليكونَ عبداً رقيقاً عندَه، مقابلَ سرقته!.

عند ذلك اتَّفقوا على التفتيش!.

جرى هذا الحوارُ بين إخوتِه وفتيانه، ويوسفُ يتابعُ ويراقب، فالأحداثُ تسيرُ وفقَ ما خطَّطَ له ورتَّبه، دون أن يقعَ هو في أي خطأ أو مخالفة!.

وعندَ التفتيش، تولَّى هو هذه المهمة، وقامَ بحركةٍ تدلُّ على ذكائِه وحصافته: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ﴾.

إنَّه هو الذي وضعَ السقايةَ في رَحْلِ أخيه، ولو هجمَ على رحلِ أخيه مباشرةً لكانَ عرضةً للاتهام، وقد يُقال: ما أدراكَ أنها هنا؟ وقد يُشَكُّ فيهِ أنَّه وضعَها بيده! ولذلكَ بدأ بأوعيةِ إخوته، وفتَّشها واحداً واحداً، وأخَّر وعاءَ أخيه إلى النهاية، ثم استخرجَها منه!.

إذن: أخوهُ الصغيرُ سارق، سرقَ السقاية، وها هو العزيزُ يخرجُها من وعائِه، ولا بدَّ أنْ يسترقَّه العزيزُ عنده، ويحتفظَ به مقابلَ سرقته!.

اللهُ الذي ألهمهُ أنْ يفعلَ هذا الفعل، كي يحكمَ على أخيه بالشريعةِ الإسرائيلية الربانية، التي عليها يعقوبُ عليه السلام، وليس بالشريعةِ الملكيةِ التي عليها الملكُ ورجالُه في مصر، لذلك قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾.

وهذا دليلٌ آخر على أنَّ يوسفَ عليه السلام كانَ يحكمُ في مصرَ بشرعِ اللهِ الذي أوحى به إليه، وليسَ بشرعِ الملكِ الكافر، الذي جعلَه في منصبِ العزيز! ولا يجوزُ له ولا يليقُ به أنْ يحكمَ بشرعِ الملك، وهو الرسولُ الذي منَّ اللهُ عليهِ بالنبوَّة، وأعطاهُ شريعةً ليحكمَ بين الناسِ على أساسها!.

و ـ فوجئَ الإخوةُ بأخيهم الصغير سارقاً! وهذا معناهُ أنهم سيفقدونَه، لأنَّ

العزيزَ سيسترقه، وقد كانوا عاهدوا أباه أنْ يعودوا به! لذلك حاولوا مع العزيز أن يُخليَ سبيلَه، وأنْ يأخذَ أحدَهم مكانه: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٧٨].

فرفضَ العزيزُ عرضَهم، إذ كيف يعفو عمَّن وَجَدَ عندَه المسروق؟ وكيف يسترقُّ بريئاً ويصادرُ حريته؟ وردَّ عليهم قائلاً: ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ ﴾ [يوسف: ٧٩].

وقد كانَ كلامُه دقيقاً هادفاً، فهو لم يقل: معاذَ اللهِ أنْ نأخذَ إلا السارقَ الذي سرقَ المتاع! لأنَّ أخاهُ الصغيرَ لم يكنْ سارقاً في الحقيقة، ولم يضع السقايةَ في رحلِه، ولم يكن عندَه علمٌ بذلك.

قالَ لهم: ﴿ مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ ﴾. أي: عندما فتَّشنا وعاءَه وجدْنا متاعَنا فيه، ولذلك سنسترقُه لهذا السبب.

ز ـ لم يجد الإخوةُ أمامَهم إلاَّ أنْ يتَّهموا أخاهم الآخرَ بالسرقة، وذلك ليخلِّصوا أنفسَهم من هذا الإشكال، ويتجاوزوا هذا المأزق. قال تعالى: ﴿ ۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ [يوسف: ٧٧].

ويقصدون بكلامِهم أخاه يوسف، والمعنى: نحنُ الإخوةُ الأشقّاءُ العشرةُ لا نسرق، لكنَّ أخانا الصغيرَ سرقَ لأنه مثلُ أخٍ له، لقد كانَ له أخ، وسرقَ سرقة، وهو سارقٌ مثله!.

ووقفَ المفسِّرون أمامَ هذا الكلام، وصاروا يفتِّشون في (ملفِّ) يوسفَ وهو صغيرٌ عندَ أبيه، ليعرفوا ما الذي سرقه، ومِنْ مَنْ سرقه، وكيف كانتْ نهايةُ سرقته؟! وأتوا في هذا برواياتٍ باطلةٍ مكذوبة، أخذوها من الإسرائيلياتِ وأثبتُوا فيها سرقةً قامَ بها يوسف!.

وإثباتُ سرقةٍ ليوسفَ وهو صغيرٌ يتعارضُ مع عصمتِه، ومن المعلوم أنَّ اللهَ يرعى النبيَّ رعايةً خاصةً منذُ ولادتِه وطفولتِه، ولا يجعلُ للشيطانِ سلطاناً عليه، ويحفظُه من المعاصي والذنوب! وهذا معناهُ أنَّ يوسفَ عليه السلام لم يسرقْ في طفولتِه أو شبابِه!.

إذن كيفَ قالَ الإخوة: ﴿ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ﴾؟.

لقد كانوا كاذبين، كَذَبوا ليخلِّصوا أنفسَهم من هذا المأزق، وكَذَبوا حقداً على أخيهم الصغير الذي سبَّبَ لهم هذا الإشكال، وكَذَبوا على يوسفَ حقداً عليه، مع أنَّه مضَتْ سنواتٌ على فراقِهم له.

كَذَبوا على يوسف، ونسبوا له سرقةً لم يَقُمْ بها، كما كَذَبُوا على أبيهم من قبل، عندما اتَّهموا الذئبَ بأكلِ يوسف، فليستْ هذه أول كذبةٍ تصدرُ عنهم!.

ومِنْ حكمةِ يوسفَ عليه السلام وحصافتِه وحلْمِه وحُسْنِ تدبيرِه أنه لم يردَّ عليهم، فهو يعلمُ أنَّهم يقصدونَه هو، وينسبونَ له سرقةً في طفولتِه، وهو بريءٌ من هذه التهمة، ومع ذلك لم يكشفْ هويَّتَه أمامهم، ولم يردَّ عليهم ويبيِّن كذبهم!

لم يقلْ لهم: أنتم كاذبون، وتتهمونني بالسرقة، فأنا يوسف الواقفُ أمامَكم، ولم أسرقْ في حياتي قط!!.

لم ينتصرْ لنفسِه، ولم يدافعْ عنها، لأنَّه يخططُ لشيءٍ آخر، ويرتِّبُ الأحداثَ بحكمة، حتى تصلَ إلى نهايتِها التي رسَمَها لها. ولذلك اكتفى بقوله لهم: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾.

أي: أنتم شرّ، وكلامكم شرّ، ومكانُكم شرّ، وأنتم تتَّهمون أخاً غائباً لكم بأنَّه سارق، وعلْمُ ذلك عند الله، وأخشى أنْ يكونَ كلامُكم كذباً!!.

ح ـ ماذا يفعلُ الإخوةُ الآن؟ ها هم قد فقدوا أخاهم الصغير؟ وقد كانوا عاهَدوا أباهم أنْ يعيدُوه معهم! والعزيزُ لم يسمحْ لهم ولم يقبلْ تبديلَه بأحدِهم! اجتمعوا يتدارسون الموقف: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾.

أي: لما يَئِسوا من استخلاصِ أخيهم الصغير، ذهبُوا إلى لقاءٍ خاصٍّ واجتماعٍ مغلَقٍ لهم، انعزلوا فيه عن الآخرين، فكانَ لقاؤهم خاصاً بهم، جلسوا فيه يتناجَون ويتشاورون ويتحادَثون، ويفكِّرون فيما سيفعلون!.

قالَ لهم أخوهم الكبير: لقد فرَّطنا في يوسفَ وضيَّعْناه وهو صغير، وها أنتم تفرطون في أخيكم الصغير الثاني، وقد أعطيتُم أباكم موثقاً أنْ تعودُوا به، أنا سأبقى هنا، لأنَّني لا أستطيعُ مواجهةَ أبي، أما أنتم فعودوا إلى أبيكم، وأخبرُوه بكلِّ ما حصل، وأنَّ ابنَه سرق، واسترقَّه عزيزُ مصر، وإنْ لم يصدِّقكم، فاطلبوا منه أنْ يسألَ القريةَ التي قَدِمْتُم منها، والقافلةَ التي قدمْتُم معها!!.

وعادَ الإخوةُ إلى يعقوب، وقد خَلَّفوا أخاهم الصغيرَ عند العزيز، والكبيرَ ينتظرُ توجيهَ أبيه!!.

١٤ ـ ابيضت عينا يعقوب من حزنه وكظمه:

عادَ الإخوةُ إلى أبيهم تسعة، حيثُ تخلَّفَ الكبيرُ في مصر، وأُخِذَ الصغيرُ بتهمةِ السرقة. وأخبروا أباهم بما حدث.

قال تعالى: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٨٣ ـ ٨٦].

لمَّا علمَ يعقوبُ بفقدِ ابنِه الصغيرِ الثاني تذكَّرَ ابنَه الصغيرَ الأول ـ يوسفَ عليه السلام ـ ولذلكَ علَّقَ على فقْدِ ابنِه الثاني بنفسِ ما علَّقَ بهِ على فقْدِ ابنه الأول تقريباً.

علَّقَ على فقْدِ يوسفَ بقوله: ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف: ١٨].

وعلَّقَ على فقد ابنِه الصغيرِ الثاني بقوله: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾.

لقد كانَ يعقوبُ على أملٍ كبيرٍ في لقاءِ يوسف، وأخبرَ أبناءَه أنَّه يرجو أنْ يأتيَه اللهُ بهم جميعاً، وهم أبناؤُه الثلاثة الغائبون.

وعَزَّ عليهِ فقْدُ ابنيْه الاثنين، وزادَ هذا في حزنِه وآلامه، وأثَّر هذا على عينيْه. قال تعالى: ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾.

قامَ يعقوبُ من عندِ أبنائِه وأسرتِه، وتذكَّر يوسفَ وما جرى له، وأيقظَتْ مشكلةُ ابنيْه الجديدةُ كوامنَ حزنِه على يوسف، وأطلقَها زفرةَ حرّى، ونفثةَ مكبوتةَ من صدره ﴿ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾.

تولّى يعقوبُ عن أبنائِه، وذهبَ منفرداً بآلامِه وهمومِه وأحزانه، يكظمُها في أعماقِ نفسِه وكيانِه، وقد أثّرَ هذا الكظمُ والتفرّدُ على عينيْه، فغطّى بياضُهما على سوادِهما، وأصبحَ ضعيفَ النظر: ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ﴾

لم يشارِكْه أحَدٌ ممنْ حولَه همومَه وأحزانَه، وإذا بَثَّ همَّه لأحدهم وجدَ عنده اللومَ والتقريع! ولهذا كان منفرداً بهذِه الهموم، لا يكلّمُ أبناءَه بما يعانيه، ولا يجدُ منهم مواسياً ولا مُشاركاً، ولا مُؤْنِساً ولا متفهِّماً، ولذلكَ لم يجدْ لأحزانِه متنفَّساً، فترتدُّ هذه الأحزانُ إلى مشاعرِه وأعصابِه ونفسيّتِه، وتزيدُه ألماً وحزناً، وعندما كانَ يكظمُها ويخزنُها في أعصابِه كانت تؤثّرُ على حواسِّه وجسمِه، فيزداد مرضاً وسقماً!.

ولقد أدّى كظمُ آلامِه وعدمُ تنفيسِ أحزانِه، إلى أضرارٍ على عينيه، فضعفَ بصرُه، وابيضّتْ عيناه.. ومعلومٌ أنَّ كظم واختزانَ الآلامِ النفسية، وعدمَ بثّها إلى أخٍ مؤاخٍ مشارِك، يؤدّي إلى أمراضٍ عضويةٍ بدنية!.

وليسَ معنى ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ﴾ أنَّ يعقوبَ صارَ أعمى لا يرى، لأنَّ العمى قد يعيقُ النبيَّ عن أداءِ رسالتِه، وهو آفةٌ «منفّرة». ومعلومٌ أنَّ الأنبياءَ معصومون من الأمراضِ المنفّرة، التي تُنفّرُ الناسَ وتبعدُهم عنهم، وتعوقُهم عن أداءِ مهمتهم، ولم يكنْ نبيٌّ أعمى!.

إنما معنى هذه الجملة أنَّ أحزانَ يعقوبَ أثّرتْ على عينيْه، فأضعفتْ بصرَه، وقد يكونُ النبيُّ ضعيفَ البصر، أمّا أنْ يكونَ أعمى فلا!.

١٥ ـ قميص يوسف على وجه يعقوب:

تعرّفَ الإخوةُ على (عزيز مصر)، وأنه هو أخوهم يوسف، وقال لهم: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

واعترفوا بفضْلِه عليهم، كما اعترفوا بخطئِهم، عندما فعلوا به ما فعلوا. ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٩١].

وتعامَلَ معهم بحلْمِه وسماحتِه وعفوِه، فعفا عنهم وتجاوزَ عنهم: ﴿قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

وأوشكتْ قصةُ يوسفَ عليه السلام أنْ تنتهي بأحداثِها المثيرة ومشاهدِها العجيبة، وبقيَ أنْ تأتي الأسرةُ من بدوِ فلسطين لتقيمَ معه في مصر، ويُجمعُ شملُها وتزولُ أحزانُها. قال يوسف لإخوانه: ﴿ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [يوسف: ٩٣].

أمرَ يوسفُ عليه السلام إخوتَه بأخذِ قميصِه إلى الأسرة، وإلقائه على وجْهِ أبيه، عند ذلك سيذهبُ عنه ما يجدُه من ألمٍ وضعفِ بصر، وسيعودُ له بصرُه أقوى مما كان..

ما دخْلُ قميصِ يوسف في عودةِ بصرِ يعقوبَ عليهما السلام؟ وماذا في القميصِ من علاجٍ للبصر؟، وكيفَ عرفَ يوسفُ عليه السلام ذلك؟.

يبدو أنَّ اللهَ أخبرَ نبيَّه يوسفَ عليه السلام بذلك، وأمرَه بإلقاءِ القميصِ على وجْهِ يعقوبَ ليعودَ له بصرُه كما كان. وهذا من أمْرِ اللهِ سبحانه، هو الذي جعلَ قميصَ يوسفَ سبباً في عودةِ بصرِ يعقوب، وهو المسبِّبُ والمقدِّر والمُريد. لذلك لا يمكنُ أنْ يعلَّلَ الأمْرُ تعليلاً مادياً، لأنه آيةٌ من آيات الله!.

وسارَ موكبُ الإخوةِ عائداً إلى أبيهم في «البدو»، ومعهم قميصُ يوسف، وقبلَ وصولِهم إلى مكانِ إقامةِ أهلهم، شمَّ يعقوبُ ريحَ قميصِ يوسف!.

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾ [يوسف: ٩٤ـ٩٥].

ومعنى ﴿ فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ ﴾: انفصلت الجِمالُ التي كانوا يركبونَها عن الطريقِ التجاريِّ العام، ودخلتْ في طريقٍ آخرَ يوصلُ إلى مكانِ إقامةِ الأهل! وهذا المكانُ الذي فصلتْ فيه العيرُ مبهمٌ في القرآن، فلا نقدِرُ على تحديدِه وتعيينه!.

ولما دخلت العيرُ في الطريقِ الفرعيِّ شمَّ يعقوبُ عليه السلام في البيتِ ريحَ يوسف، ولا نعرفُ كم المسافةُ بين الإخوةِ المسافرين وبينَ بيتِ يعقوب، ولا ندري على بُعْدِ كم شمَّ يعقوبُ ريحَ يوسفَ عليهما السلام!.

المهمُّ أنَّ يعقوبَ عليه السلام وجدَ ريحَ يوسف، وشمَّ رائحةَ قميصِه من ذلك المكانِ البعيد! أمّا كيفَ شمَّ الرائحةَ من ذلك المكانِ البعيد؟ وكيف كانتْ تلك الرائحة؟ فلا نعرفُ ذلك، لعدمِ وجودِ أدلةٍ تُعينُنا على تفسيرِه، فلا نخوضُ فيه!.

ويعقوبُ عليه السلام بينَ أهله، ومع ذلك يجدُ ريحَ يوسفَ وحدَه، ويوقنُ أنَّ يوسفَ موجودٌ في مكانٍ ما، وأهلُه الذين بجانبِه لا يجدونَ هذه الريح! فكيفَ كانَ ذلك؟ لا نعرفُ ولا نخوضُ فيه أيضاً!.

كان يعقوبُ على يقينٍ تامٍّ بأنَّ يوسفَ حيّ، وأنّه موجودٌ في مكانٍ ما، لأنَّ اللهَ أراهُ رؤيا الأحدَ عشرَ كوكباً والشمسَ والقمرَ وهو صغير، ولا بدَّ أنْ يتمَّ تعبيرُ الرؤيا وتحقيقُها في عالمِ الواقع، لأنَّ اللهَ لا يُخلِفُ الميعاد!.

ولم يكنْ يعقوبُ يعلمُ مكانَ وجودِه، ولا تفاصيلَ ما جرى له، ولا ما هو عملُه، لأنَّ هذا غيبٌ بالنسبةِ له، لا يعلمه إلا الله، وهو لا يعلمُ إلاّ ما أعلَمه اللهُ إياه.

وكانَ يعقوبُ عليه السلام يعيشُ على أملِ اللقاءِ بابنه، وكانَ هذا الأملُ يملأُ عليهِ حياتَه ومشاعرَه، ويرى أنَّ الأيامَ تقرّبُ هذا الأملَ إلى التحقُّقِ في عالم الواقع!.. ولقد أرسلَ أبناءَه إلى مصرَ ليتحسّسوا من يوسفَ وأخيه، وهو يوقنُ أنّهم سيجدونَهما، ويتلهّفُ على قدومِ أبنائِه ومعهم الخبرُ السارُّ بلقاءِ يوسف!.

في هذا الجوِّ النفسيِّ الكبيرِ وجدَ يعقوبُ ريحَ يوسف، ولا نعرفُ كيف وجدَها، فهذا إلهامُ اللهِ له.

وقد أعلنَها بصراحةٍ لأهلِه الذين معه في المنزل: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ ثم تذكَّر استمرارَ لومِ وتأنيبِ أهلِه له، فاستدرك قائلاً: ﴿لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾!.

والتفنيدُ هو نسبةُ الإنسانِ إلى ضعفِ الرأي، ولومُه وتأنيبه!.

أي: أنا أجدُ ريحَ يوسف، لكنّني أخشى تفنيدَكم لي، ونسبتي إلى الهرمِ والخَرَف، بأنْ تقولوا: لقد أصبحتَ شيخاً هرماً خرفاً، تهذي هذياناً، ولا تعرفُ ما تقول! فأين أنتَ من يوسف؟ لقد ماتَ منذُ مدةٍ طويلة، وأنتَ مازلتَ تعيشُ على ذكراه!!.

ولقد فنّده أهلُه فوراً، فما أنْ سمعوا كلامَه حتى قالوا له: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾.

وبعدَ قليلٍ من تفنيدِهم له وقعت المفاجأة! وثبتَ لهم أنَّ يعقوبَ عليه السلام ليسَ في ضلالِه القديم، وإنّما كانَ على يقينٍ وأمل: إنَّ يوسفَ عليه السلام حيّ، وهو عزيزُ مصر، فها هم إخوتُه المسافرون يعودون ومعهم القميص!.

ووصلوا المنزل، وأتى «البشير» حاملُ القميصِ بالبُشرى العظيمةِ السارةِ ليعقوب، وتناولَ القميص، وألقاهُ على وجهِ يعقوب، فعادَ لهُ بصرُه قوياً كما كان: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ﴾.

إنَّ عودةَ البصرِ ليعقوبَ عليه السلام معجزةٌ من الله، فالذي أعادَ له بصرَه هو الله، ولكنَّ اللهَ الحكيمَ شاءَ أن يكونَ قميصُ يوسفَ هو السببَ الماديَّ المباشر في ذلك!.

وفرحَ الأهلُ جميعاً بفرحتين:

الأُولى: فرحتُهم بوجودِ يوسفَ عليه السلام، ومنزلتِهِ العظيمةِ التي وصلَها بفضلِ الله: إنه (عزيز مصر). أي: الحاكمُ الفعليُّ لمصر.

الثانية: فرحتُهم بعودةِ البصرِ لأبيهم يعقوب عليه السلام، وزوالِ المرضِ عنه، وانتهاءِ آلامِه وأحزانِه بالعُثورِ على يوسفَ عليه السلام!.

ولما عادَ البصرُ ليعقوبَ عليه السلام، ما زادَ على أنْ قالَ لأهله: ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾؟.

أي: لقد قلتُ لكم من قبل: عندي علمٌ من اللهِ ليس عندكم، فأنا أعلمُ أنَّ يوسفَ موجود، وكنتم لا تصدّقونني، بل كنتم تُفَنّدونني، فماذا تقولون الآن؟.

عندَ ذلك أقبلَ الأبناءُ على أبيهم معتذرين عن كلِّ ما صدرَ عنهم: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾.

فوعَدَهم أبوهم بالاستغفارِ لهم والعفوِ عنهم. قال: ﴿سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

وفرْقٌ بينَ الوعدِ البطيءِ الذي صَدَرَ عن أبيهم، بسببِ عمقِ الجرح الذي سبَّبوه له، وضخامةِ الأحزانِ التي أصابوه بها، وبينَ العفوِ السريع الذي أصدرَه أخوهم يوسف بحقِّهم، في قوله: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾. وهذه مزيةٌ ليوسفَ تُسَجَّلُ له عليه السلام!.

١٦ ـ توجيه سجود الأبوين والإخوة ليوسف:

أخذَ يعقوبُ أبناءَه وأهلَه جميعاً، وتوجَّهَ بهم من منطقةِ «البدوِ» جنوب

فلسطين، وسارَ بهم إلى ابنِه يوسفَ في مصر.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ﴾ [يوسف: ٩٩ ـ ١٠٠].

ولما وصلَ الموكبُ إلى عاصمةِ مصر، استقبلَهم عزيزُ مصرَ وحاكمُها الفعليُّ «يوسفُ» عليه السلام. ولْنتخيَّل كيف يكونُ اللقاءُ الحارُّ بين الأبِ يعقوب والابنِ يوسف عليهما السلام بعدَ فراقٍ دامَ سنينَ عديدة!.

وآوى يوسفُ إليه أبويْه، وأكرمهما أحسنَ إكرام، وأحلَّهما في أعلى منزلة، وهيَّأَ لإخوانه أفضلَ مكانٍ يُقيمونَ فيه، وقال لهم: ﴿ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾.

وآنَ الأوانُ لتأويلِ رؤيا يوسفَ التي رآها وهو صغير: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُۥ سُجَّدًا ﴾.

أكرمَ يوسفُ أباه وأمَّه، ورفعَهما، وأجلسهما على عرشِ الملك، ووقفَ إخوتُه الأحَدَ عشرَ أمامه... وخرَّ الجميعُ ساجدين ليوسف!.

والظاهرُ أنَّ سجودَهم بينَ يدي يوسفَ عليه السلام كانَ سجوداً حقيقياً، وليسَ مجردَ انحناءٍ بين يديْه! لأنَّ معنى السجودِ المذكورِ هو السجودُ الذي يعرفُه الناسُ على الأرض.

والدليلُ على هذا صياغةُ الجملة: ﴿ وَخَرُّوا لَهُۥ سُجَّدًا ﴾! فإنّ معنى فعلِ (خرّ) وقعَ على الأرض، وليسَ انحنى مجرّدَ انحناءٍ وهو واقف!.

ولم يكنْ سجودُ الأبويْن والإخوةِ ليوسفَ عليه السلام سجودَ عبادةٍ، لأنَّ العبادةَ لا تكونُ إلا لله، كان سجودُهم تكريماً ليوسفَ عليه السلام.

وسجودُهم التكريميُّ ليوسفَ كان تنفيذاً منهم لأمْرِ الله، لأنَّ اللهَ هو الذي أمرَهم بالسجود، فهم في الحقيقةِ كانوا ساجدين لله، وكأنَّ يوسفَ كانَ قبلةً لهم في السجود!.

وسجودُهم ليوسف دليلٌ على أنَّ يوسفَ عليه السلام أفضلُ منهم عندَ الله،

ولعلَّ هذا دليلٌ على أنَّ يوسفَ أفضلُ من أبيه يعقوبَ عليهما السلام!.

وبعد سجودِهم ليوسف، توجَّهَ لأبيه، وذَكَرَ له الرؤيا التي رآها وهو صغير، فها هي تتحقَّقُ في عالمِ الواقع: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾.

وهذا ما وردَ في بدايةِ السورة. قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

ها هم ساجدون له عملياً الآن: أمُّه الشمس، وأبوه القمر، وإخوتُه الكواكبُ الأحدَ عشر!.

ها هي الرؤيا تتأوَّلُ بتحقيقِها في عالمِ الواقع: ﴿جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾.

وفي آخرِ لقطاتِ القصةِ يتوجَّهُ يوسفُ عليه السلام إلى ربِّه حامداً شاكراً، طالباً منه أنْ يتوفّاه مسلماً صالحاً. قال تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

وهذا دليلٌ على أنَّ دينَ يوسفَ عليه السلام هو الإسلام، وأنه جاءَ بالإسلام ـ ومعلومٌ أنَّ الإسلامَ دينُ الأنبياءِ جميعاً ـ ويوسفُ عليه السلام يطلبُ من اللهِ أنْ يتوفّاه مسلماً، وهو في هذا قدوةٌ لمن جاءَ بعده!!.

١٧ ـ إخوة يوسف ليسوا أنبياء، والمراد بالأسباط:

نَصَّ القرآنُ على نبوةِ يوسف، فهو نبيٌّ رسولٌ عليه الصلاة والسلام، ولم ينصّ القرآنُ على نبوةِ إخوته الأحَدَ عشر!.

وقد ذهبَ مفسّرونَ وباحثون إلى القولِ بنبوةِ الإخوة الأحد عشر، وقالوا: هم أنبياء مثلُ أخيهم يوسف.

وقالوا: هم الأسباطُ المذكورونَ في القرآنِ مع مجموعةٍ من الأنبياء. قال تعالى: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

وقال تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠].

وقال تعالى: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٤].

وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].

كلمةُ (الأسباط) مذكورةٌ في هذه الآياتِ الأربعة، ضمنَ مجموعةٍ من الأنبياء، منهم: إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب.

وهذا جعلَ مفسّرين وباحثين يَعتبرون الأسباطَ هم أبناءَ يعقوبَ الاثني عشر! ويجعلونَ معنى (الأسباط) الأبناء، والأسباطُ هم أبناءُ يعقوبَ من صلبِه.

وقبلَ الحديثِ عن نبوةِ أبناءِ يعقوب، نتحدثُ عن (الأسباط) في اللغة!.

الأسباطُ: جمعٌ مفردُه (سِبْط).

قال الراغبُ الأصفهاني: «أصلُ السَّبْط: انبساطٌ في سهولة.. والسِّبْطُ وَلَدُ الوَلَد، كأنه امتداد الفروع. والأسباط: قبائلُ كُلِّ قبيلةٍ من نسلِ رجل!»[1].

وقالَ السمينُ الحلبي عن السِّبْط: «والأسباطُ: جمعُ سبط. وهم في بني إسرائيل كالقبائل في العرب..». وأحسنُ منه ما قالَه الأزهري: «الأسباطُ في ولدِ إسحاق، والقبائلُ في ولدِ إسماعيل..».

واشتقاقُ السِّبْط من الامتدادِ والتفريع، لأنَّ السِّبْطَ وَلَدُ الولد، فكأنَّ النَّسَبَ امتدَّ وانبسطَ وتفرّعَ. وقيل: اشتقاقُ الأسباطِ من السبط، وهو الشجرةُ التي أصلُها واحد، وأغصانُها كثيرة. واستدلّوا بقوله تعالى: ﴿أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾. فترجمَ الأسباطَ بالأمم، فكلُّ سبطٍ أمة.

قال المبرد: «سألْتُ ابنَ الأعرابي عن الأسباط، فقال: هم خاصَّةُ الولد.

---

(١) المفردات للراغب الأصبهاني، ص٣٩٤.

أي: هم أولادُ الولد..»[1].

إذن: السِّبْطُ في اللغةِ هو الشيءُ المنبسطُ الممتدُّ المتفرِّعُ عن الأصل، وهو يُطلَقُ على ولدِ الولدِ، وليسَ على الولدِ نفسِه.

ومعلومٌ عندنا أنَّ الحسنَ والحسينَ رضي الله عنهما هما سِبْطا رسولِ الله ﷺ، وهما ابنانِ لابنتِه فاطمةَ رضي الله عنها!.

فالأسباطُ المذكورون في القرآن، ليسوا أبناءَ يعقوب، بل أحفادُه وذريتُه المتفرعون عن أبنائه!.

والأسباطُ في بني إسرائيل كالقبائلِ في العرب، فهم بمعنى الأُمم. قال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٦٠].

(أمماً) في الآية بدلٌ من (أسباطاً). أي: قطَّعنا بني إسرائيل اثنتي عشرة أمة. ولهذا فجَّرَ اللهُ لهم من الحجر اثنتي عشرة عيناً، على عددِ أسباطهم.

وبما أنَّ (الأسباط) بمعنى قبائل بني إسرائيل، فإنَّ الأسباطَ ليسوا أنبياء، وذكْرُ هذه الكلمةِ ضمنَ مجموعةٍ من الأنبياء على تقديرِ حذفِ مضاف، والتقدير: وأنبياء الأسباط..

أي: آمنّا بما أُنزلَ على الأنبياءِ الذين ذكَرَ الله أسماءَهم: إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب.. وآمنّا بالأنبياءِ الآخرين الذين بعثَهم اللهُ إلى أسباطِ بني إسرائيل، ولم يخبرْنا بأسمائهم..

ومن المعلوم أنَّ اللهَ لم يخبرْنا عن أسماءِ كلِّ الأنبياء. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

وإذا كانَ الأسباطُ ليسوا أنبياء، وإنما هم قبائلُ بني إسرائيل، فهم ليسوا أبناءَ يعقوب عليه السلام.

---

(١) عمدة الحفاظ للسمين الحلبي: ٢/ ١٩١.

الثابتُ الصريحُ في أبناءِ يعقوبَ عليه السلام نبوةُ يوسفَ عليه السلام، ومَنْ أنكرَ نبوَّته فقد كفر.

أما باقي أبنائه الأحدَ عشرَ فليسَ في الآياتِ الصريحةِ والأحاديثِ النبويةِ المرفوعةِ الصحيحةِ ما ينصُّ على نبوَّتهم!. بينما وردَ في العهدِ القديم أنهم أنبياء، فاليهودُ يعتقدونَ أنهم أنبياء، لأنهم أُصولُ وأجدادُ بني إسرائيل!.

ولعلَّ الذين قالوا بنبوةِ أولادِ يعقوب عليه السلام أخذوا هذا من الإسرائيليات وروايات العهدِ القديم، ونحنُ مأمورون بعدمِ الأخذِ عن اليهود!.

إننا مع الذين يقولون: أبناءُ يعقوبَ الأحدَ عشرَ ليسوا أنبياء، لأننا لا نُثبتُ النبوة لأيِّ نبيٍّ إلا بآيةٍ صريحةٍ من القرآن، أو حديثٍ صريحٍ صحيح، مرفوعٍ للنبيِّ ﷺ. وهذا غيرُ موجود هنا!.

فكما أنه لا يجوزُ نفي نبوة نبيٍّ ثبتتْ نبوتُه بالقرآنِ والحديثِ الصحيح، كذلك لا يجوزُ إثباتُ نبوةِ أحدٍ لم ينصّ القرآنُ والحديثُ الصحيحُ على نبوّته!.

ثم إنَّ تصرفاتِ أبناءِ يعقوبَ الأحدَ عشرَ تدلُّ على عدمِ نبوتهم. إنَّها لا يمكنُ أنْ تصدرَ عن أنبياء، ولو قبلَ أن يكونوا أنبياء!.

من جرائمهم: سوءُ نظرتهم لأبيهم، وسوءُ تعاملِهم مع أبيهم، وسوءُ كلامِهم مع أبيهم، والوقاحةُ والفظاظةُ في حديثِهم معه، ومَنْ أبوهم؟. إنه النبيُّ يعقوبُ عليه السلام!.

أخبروا عن أبيهم قائلين: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾. وقالوا له: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ﴾. وقالوا له أيضاً: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾.

فهل يقولُ مؤمنٌ صالحٌ هذا الكلامَ لأبيهِ المؤمنِ الصالح؟ وهل يقولُه من سيكونون أنبياءَ لأبيهم النبي؟.

ومن جرائمهم: الكذب، فقد كَذَبوا على أبيهم عندما اتَّهموا الذئبَ بأكلِ يوسف، وكَذَبوا على عزيزِ مصر (يوسف) عندما قالوا له: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾. فهل يكذبُ النبيُّ بعد النبوة؟ وهل يكذبُ النبيُّ قبل النبوة؟.

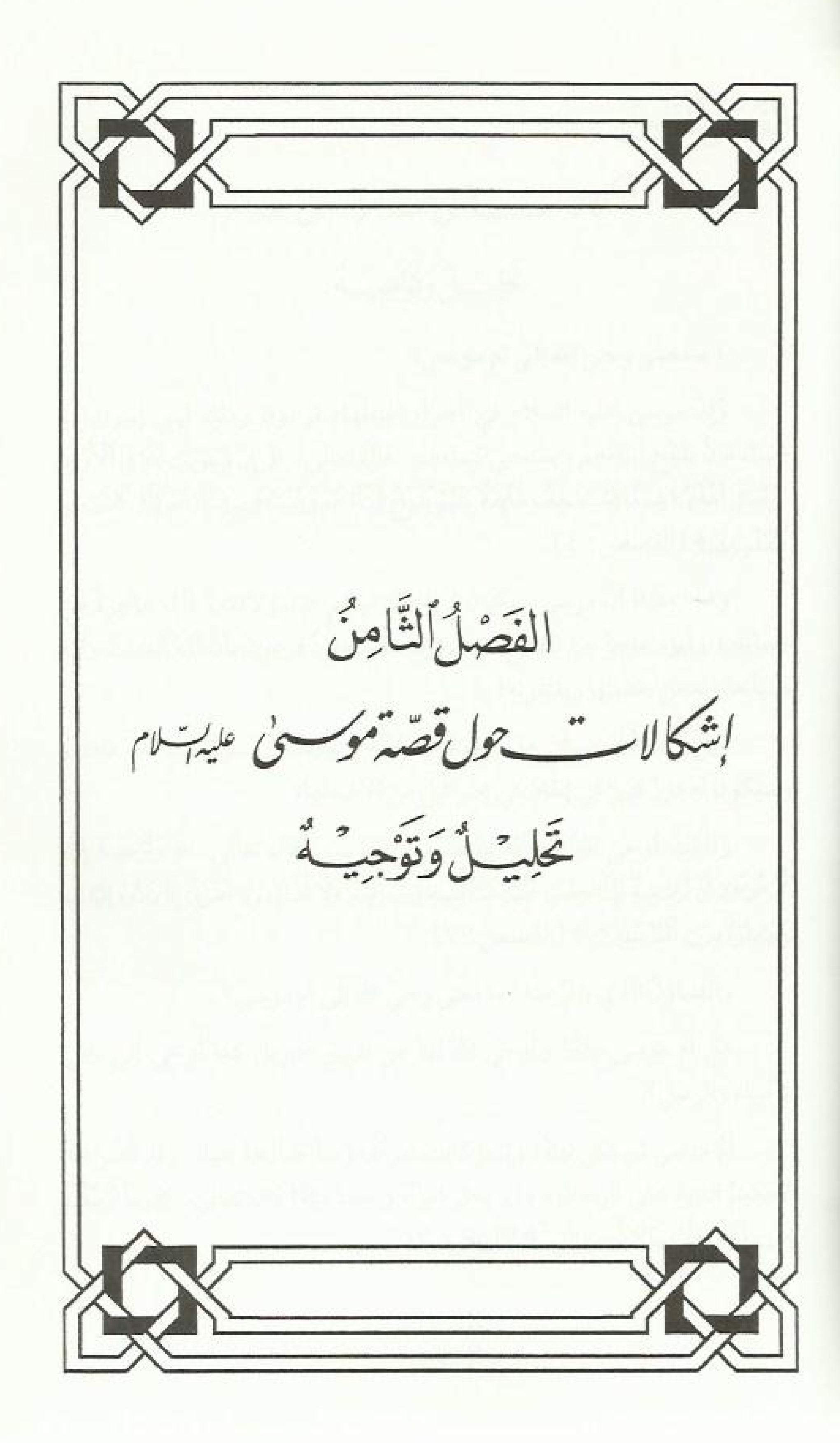
ومن جرائمهم: الحقدُ واللؤمُ والكيدُ والتآمر. وهي أمراضٌ وانحرافاتٌ أخلاقيةٌ وعُقَدٌ نفسية، لا تصدرُ عن من سيكونون أنبياء. وهي تتنافى مع السماحةِ واليُسر، التي لا بدَّ أنْ يتَّصفَ بها الأنبياء.

ومن أفظع جرائمهم: ما فعلوه بأخيهم الصغيرِ يوسف! فهل يفكّر مَنْ سيكونون أنبياءَ بقَتلِ أخيهم الصغير؟ وهل يُقْدمون على إلقائِه في البئر؟.

كلُّ ما نقولُه عن هؤلاء الأبناء: كانوا في أفعالهم التي أخبرتْنا عنها سورةُ يوسف عصاةً مذنبين مخطئين.. وبعدما كَبروا وتقدَّموا في العمرِ شعروا بتأنيبِ الضمير، فتابوا وأنابوا إلى الله، واستغفروا من ذنوبِهم، وطلبوا من أبيهم وأخيهم النبيَّيْن أنْ يستغفرَا اللهَ لهم.

والخلاصة: لم يكنْ إخوةُ يوسفَ أنبياء، وليسوا هم الأسباطَ المذكورين في القرآن، وأقصى ما يُقال عنهم: بدؤوا حياتَهم عصاةً مذنبين، وانتهوا إلى أنْ صاروا مؤمنين صالحين. والله أعلم.

* * *



الفَصْلُ ٱلثَّامِنُ

إشكالات حول قصّة موسى عليه السلام

تحليلٌ وتوجيهٌ

الفَصْلُ الثَّامِنُ

إشكالات حول قصة موسى عليه السلام

تحليل وتوجيه

١ - معنى وحي الله إلى أم موسى:

وُلِدَ موسى عليه السلام في أجواءِ اضطهادِ فرعون وملئِه لبني إسرائيل، حيث كانَ يذبّح أبناءهم ويستحيي نساءهم. قالَ تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

وهذا معناهُ أنّ موسى سيكون في خطرٍ مباشرٍ عندَ ولادته، فأمُّه عاجزةٌ عن حمايتِه، وأبوه عاجزٌ عن الدفاع عنه، وإذا علم جنودُ فرعونَ بأنَّ أمَّهُ أنجبتْ ولداً فسيأخذونه من حضنِها ويقتلونه!.

ويريدُ اللهُ أنْ يعيشَ هذا المولود، لأنَّه سيجعله رسولاً نبياً بعد ذلك، وسيكون له دورٌ كبيرٌ في إنقاذِ بني إسرائيل من الاضطهاد.

ولذلكَ أوحى اللهُ إلى أمّه بالتصرفِ المناسب. قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

والتساؤلُ الذي يثارُ هنا: ما معنى وحي الله إلى أم موسى؟.

هل أم موسى نبيّةٌ؟ وأوحى اللهُ لها عن طريقِ جبريل كما أوحى إلى باقي الأنبياء والرسل؟.

أمُّ موسى لم تكن نبيّةً! وإنما كانت امرأةً مؤمنةً صالحةً تقية. وقد قصرَ اللهُ الحكيمُ النبوةَ على الرجال، ولم يختر امرأةً واحدةً نبيّةً! قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٣].

وبما أنَّ أمَّ موسى لم تكنْ نبيّة، فلم يكن الوحي لها عن طريقِ جبريلَ عليه السلام، لأنَّ جبريلَ عليه السلام أمينُ وحي اللهِ إلى رسلِه!.

وحيُ اللهِ إلى أمِّ موسى هو إلهامٌ فطري، ألهمَها كيفَ تتصرفُ لتنقذَ ابنَها من الخطر، وذلك بأنْ قذفَ هذا الأمرَ إلى قلبِها ومشاعرِها وأحاسيسِها.

وقد وردَ الوحيُ بمعنى الإلهامِ الفطريِّ للإنسان، والإلهامِ الغريزيِّ للحيوان، كما أنَّه وردَ بمعنى الإشارةِ والرمز، والتكليفِ والأمر، وبمعنى إرسالِ جبريلَ عليه السلام إلى أحدِ الأنبياء والمرسلين!!.

قذفَ اللهُ في قلبِ أمِّ موسى، وألهمَها إلهاماً فطرياً خاصاً. وقد أخبرَنا عمّا أوحى به إليها بقوله: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٧].

٢ ـ بين فؤاد أم موسى وقلبها:

نفَّذتْ أمُّ موسى الصالحةُ المعنى الذي قذفَهُ اللهُ في قلبِها، فأرضعتْه، ثمَّ وضعتْه في التابوت، ثم وضعت التابوتَ في اليم، وكلَّفتْ أختَه الذكيةَ أنْ تراقبَ سيرَ التابوت، فسارَت البنتُ الصغيرةُ على شاطئ اليمّ، تراقبُ حركةَ التابوت، إلى أنْ أوصلَهُ اللهُ إلى قصرِ فرعون، وأخذَه أهلُ القصر!.

ووقعتْ أمُّ موسى في قلقٍ شديدٍ وخوفٍ كبير، وصارتْ تراجعُ نفسَها، وكادتْ أنْ تخبرَ الناسَ بفعلتِها، ولكنَّ اللهَ طمأنَها فسكنَتْ واطمأنت.

قال تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [القصص: ١٠].

غزَتْ قلبَ أمِّ موسى الخواطرُ والهواجسُ والوساوس، فشكَّتْ في نفسِها وتصرفها، وكأنَّها تلومُ نفسَها على ما فعلتْ بوليدها، إذ كيفَ تُلقي به في اليمّ؟ وهل سيغرَقُ فيه أم ينجو.. سيطرَتْ عليها هذه الخواطرُ والوساوسُ حتى كادتْ أنْ تخرجَ إلى الناس وتُظهرَ الأمرَ وتكشفَ السّر، وتقول: ابني. لقد ألقيتُه في اليم! فابحثُوا لي عنه!.

ولـو فعلتْ ذلك فسيعرفُ فرعـونُ وجنـودُه أنَّ هذا الولـيد في التابوت

إسرائيلي، وسيقتلونَه فوراً! واللهُ يريد له أنْ يعيش، ولذلك أزالَ قلقَ أمِّ موسى وتوتّرها، وألهمَها أنْ تسكُت، وأنْ لا تُبدي بالأمر، ورزقَها السكينةَ والطمأنينة، فهدأتْ واطمأنّتْ وأيقنَتْ بتحقُّقِ وعدِ الله! .

كانَ فؤادُها فارغاً! كيف؟ .

كان فؤادُها مشغولاً بموسى، مليئاً بالتفكيرِ في موسى! لقد ملأ موسى عليها قلبَها ومشاعرَها وخواطرَها وأفكارَها . . وبما أنَّ فؤادَها مليءٌ بموسى، فقد كانَ فارغاً من غيرِ موسى! أي أنّها من شدَّةِ اهتمامِها وتفكيرِها في موسى نسيتْ كلَّ شيءٍ غير موسى، فليسَ عندَها إلا موسى! .

وقد أزالَ اللهُ قلقَها وتوتُّرَها، وملأَ قلبَها يقيناً وطمأنينةَ وثقةً وصبراً وهدوءاً، ثم ربطَ عليه لئلاً يخرجَ منه شيءٌ من هذه الإيجابيات، ولئلاً يتدسَّسَ إليه شيءٌ من الخواطرِ والهواجسِ والوساوسِ السابقة! .

واللطيفُ في التعبيرِ القرآنيِّ أنَّ الآيةَ تتحدَّثُ عن حالةِ أمِّ موسى عندما ألقَتْ ابنَها في اليمّ، واختلفَ التعبيرُ عن ذلك. فقالَ في أولِ الآية: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ وقالَ بعد ذلك: ﴿لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ .

الحديثُ عن شيءٍ واحد، فلماذا سُمّي (فؤادا) أولاً، ثم سُمّي (قلبا) بعدَ ذلك! .

الفؤادُ من الفأد، والفأدُ هو الصَّدع. وسُمّي (فؤادا) لأنَّ الحديثَ عن توتُّرِ أمِّ موسى وقلقِها وانفعالِها. وسيطرةِ الوساوسِ والخواطرِ عليها، هذه الخواطرُ التي مزَّقتها وشتَّتتْ مشاعرَها، وقطَّعت فؤادها. فالجوُّ جوُّ تمزُّق وتقطُّع، وهذا يناسبُه إطلاقُ اسم (فؤاد) عليه، لأنَّ الفؤادَ يوحي بهذا، ويحقِّق هذه المعاني، ويتناسبُ مع هذا الجو. .

والقلبُ من التقلُّبِ والتغيُّر، والانتقالِ من حالةٍ إلى حالة، ومن وضع إلى وضع، وسُمّيَ (قلباً) لأنَّ الحديثَ عن انتقالِ أمِّ موسى من حالةِ القلقِ والتمزُّقِ والتوتُّرِ إلى حالةِ الاطمئنانِ واليقينِ والهدوءِ والتسليم. . فاللهُ تداركَ أمَّ موسى برحمتِه، وأزالَ توتُّرَها وقلقَها، وملأَ قلبَها طمأنينةً وثقةً وهدوءاً وتسليماً ويقيناً، ثم ربطَ عليه برحمتِه، لتبقى هذه المعاني فيه، فلا تتسرَّبُ منه، ولا تغزوهُ الوساوسُ والخواطر. فالجوُّ جوُّ هدوءٍ وطمأنينةٍ ويقين، وهذا يناسبُه إطلاقُ اسم

(القلب) عليه. وسبحان اللهِ منزّلِ هذا القرآن. فهذا التفاوتُ بينَ الفؤادِ والقلبِ في الآية لا تعارُضَ فيهِ ولا تناقض، إنما هي الدّقةُ القرآنيةُ في اختيارِ اللفظِ المناسبِ للسياق، وهذا مظهرٌ من مظاهرِ الإعجازِ البيانيّ القرآني!.

٣ ـ معنى قوله: ﴿ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ ﴾:

لما أوصلَ اللهُ تابوتَ موسى الرضيع إلى قصرِ فرعون، حبّبه إلى قلبِ امرأةِ فرعون، فرغبَتْ فيه، وطلبَتْ من فرعونَ أنْ يربّيه، ونهتْ عن قتله. ﴿ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾ [القصص: ٩].

وقد وعدَ اللهُ أنْ يعيدَ هذا الوليدَ إلى أمه، ووعدُه سبحانه واقعٌ محقّق، وقد تمّ ذلك بآيةٍ عجيبةٍ من آياته سبحانه!.

كانَ الرضيعُ بحاجةٍ إلى من ترضعُه، وتطوّعتْ كلُّ مرضعٍ لإرضاعه، لتتقرّب بذلك إلى فرعونَ وامرأته، لأنّهما قد تبنّياه، وكانتْ كلُّ مرضع تلقمه ثديَها، ولكنّه كانَ يرفضُه، رغمَ جوعِه وحاجته، وخشيَ عليه فرعون وآله الموت! وصاروا حريصين على إنقاذِ حياته، بعدما كانوا حريصين على قتلِه، وسبحانَ اللهِ الحكيم!.

صاروا مستعدّين للقبولِ بأية امرأةٍ مرضع، يرضى موسى الرضيعُ أن يرضعَ منها، وكانتْ أختُه الفطنةُ تراقبُ الأحداث، فتقدّمتْ في الوقتِ المناسب، وعرضَتْ خدماتها على فرعونَ وملئه، فهي مستعدّةٌ أنْ تدلّهم على امرأةٍ ترضعُه وتكفله! فوافقوا.. وجاءتْ أمُّه، وألقمتْه ثديَها، فرضعَ واطمأن!! وبذلك أُعيدَ الرضيعُ إلى أمّه لترضعَه، بأمرٍ من فرعون نفسه!!.

وأخبرَنا اللهُ عن هذه الآية الباهرة، فقال تعالى: ﴿ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ [القصص: ١٢ ـ ١٣]

ومعنى: ﴿ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ ﴾: أمرْنَا شفتيْه أنْ ترفضا أثداءَ جميعِ النساءِ المراضع، فأيُّ مرضعٍ تُعطيهِ ثديَها امتنعتْ شفتاه عن الرضاع منه.

وعبّرت الآيةُ عن الامتناعِ بالتحريم، لأنّه امتناعٌ بأمرِ الله، بأنْ سخّر الشفتيْن

الصغيرتيْن لعدمِ قبولِ أيِّ ثدي، إلا ثدي أمه!

وفوجئ آلُ فرعـونَ بهذا الموقفِ العجيبِ المثيـر. وليدٌ لم يمضي على ولادتِه ساعات، يرفضُ أنْ يرضعَ منْ أي مرضع، وكأنَّه يبحثُ عن مرضعةٍ معيَّنة! وهل يفرِّقُ وليدٌ ابنُ ساعاتٍ بينَ مرضعةٍ ومرضعة؟ وهل تفرِّقُ شـفتاه بين ثدي وثدي؟.

المعهودُ عندَ الناسِ أنَّ الطفلَ الرضيعَ يرضعُ من أيِّ امرأةٍ مرضع، وتقبلُ شفتاهُ أيَّ ثدي، وإذا جاعَ امتصَّ حليبَ الثديِّ بِنَهم! فلماذا هذا الرضيعُ لا يفعلُ ذلك؟.

إنَّها إرادةُ الله، وهذا تقديـرُ اللهِ الحكيم، وشـفتا الرضيعِ من جنـودِ الله، جعلَهما اللهُ وسيلةً ربانيَّةً لتحقيقِ إرادته.

وعيَّن فرعونُ أمَّ موسى مرضعاً له، وأعطاها أجرتَها مقابلَ إرضاعِه، بينما تولّى فرعونُ أمرَ كفالتِه والإشرافَ عليه وقضاءَ حاجاته.. وكأنَّ فرعونَ خادمٌ له، بعدَ أنْ كانَ حريصاً على قتله!! لكنَّه تدبيرُ اللهِ الحكيمِ الخبير، سبحانه وتعالى..

٤ ـ ملابسة قتل موسى للقبطي:

نشأ موسى في قصرِ فرعون، وقضى فيه طفولتَه وفُتُوَّتَه، حتى صارَ شاباً. وكان محافظاً على أخلاقِه وشخصيتِه، فحياةُ القصرِ لم تُفْسِده.

وأجملَتْ حياتَه في هذه المرحلةِ آيةٌ واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: ١٤].

ولا شـكَّ أنَّ موسى تعرَّفَ على أصله الإسـرائيلي، ووقفَ على اضطهادِ فرعونَ وملئِـه لقومـه الإسرائيليين، وآلَمَه ظلمُ الفراعنةِ لقومه، وكان يسـاعدُ المظلومين، ويواجهُ الظالمين.

وحدثَ حادثٌ خطير، قتل فيه موسى رجلاً من أعدائِه الفراعنة. وأخبرَنا اللهُ عنه في آياتِ سورةِ القصص.

قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ

فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَٰنِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ١٥ ـ ٢١].

نَنظرُ في تسلسلِ الحدثِ حسبِ حديثِ الآيات: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾: المدينةُ هي مقرُّ فرعون وعاصمةُ مصر، ودخلَها موسى عليه السلام في وقتٍ كان أهلُها فيهِ في بيوتِهم، ولا يكادُ يكونُ أحدٌ منهم في الشوارع، وهذا قد يكونُ في وقتِ الظهيرة، حيثُ يأوي الناسُ إلى بيوتِهم هاربين من حرِّ الشمس! وقد يكونُ في الليل..

﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾: بعدما سارَ موسى مسافة، رأى رجلَيْن يقتتلان ويتعاركان. ونظرَ موسى إلى الرجلَيْن فتعرَّفَ عليهما: أحدُهما إسرائيليّ من شيعتِه، والآخرُ قبطيٌّ فرعونيٌّ من عدوه.

إنَّ موسى إسرائيليٌّ مؤمن، يعلمُ أنَّ الإسرائيليّين مظلومون، كانَ الفراعنةُ يذلّونَهم ويظلمونَهم ويعتدونَ عليهم، ولم يكنْ يرضى عن ذلك، وكثيراً ما كانَ يتدخّل لنجدةِ الإسرائيليين المظلومين، والوقوفِ أمامَ الفراعنةِ الظالمين! وقد عرفَ عنه الإسرائيليون ذلك، وكثيراً ما كانوا يستنجدُون به. ووقوعُ المناوشاتِ والمنازَعات بينَ الفراعنةِ والإسرائيليين ظاهرةٌ يوميةٌ في شوارعِ المدينة!.

ولمّا اقتربَ موسى من المتقاتلَيْن عرفَه الإسرائيلي!.

﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾: تذكّر الإسرائيليُّ نخوةَ موسى ونصرتَه للمظلومين. ويبدو أنَّ هذا الإسرائيليّ كانَ مظلوماً، فاستغاثَ موسى واستنصرَهُ واستنجدَ به، ليساعدَه على الفرعوني..

تذكَّر موسى ما يلاقيهِ شيعتُه الإسرائيليون من ظلمٍ وإذلالٍ على أيدي الفراعنة، وهذا مثالٌ صارخٌ على ذلك، وها هو أحدُهم يستغيثُه، ويطلبُ نجدتَه

ونصرتَه وهو مظلومٌ، فماذا يفعلُ موسى؟ هل يصمُّ أذنيه عن الاستغاثة؟ إنَّ طبيعتَه ونخوتَه تأبى عليه ذلك!.

﴿ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ ﴾: توجهَ موسى نحو الرجلَيْن، ودونَ أن يكلِّمَهما أو يحقِّقَ معهما، وجَّه يدَهُ نحو الفرعوني، ووكزَه بها، فقضى عليه ومات!.

والوكْزُ هو الضربُ بجمعِ اليد، بأن يضمَّ الضاربُ أصابعَه نحوَ الداخل، ويوجِّهَ قبضتَه إلى خصمِه، ويضربَه ضربةً أشبهَ ما تكونُ بضرباتِ الملاكمةِ في هذا العصر!.

كانتْ وكزةُ موسى قاتلةً للفرعوني. مع أنَّ الأعمارَ بيدِ الله، فاللهُ هو الذي أماتَ الفرعوني، ولكنَّه جعلَ وكزةَ موسى سبباً مادياً لموته!.

لم يقصدْ موسى قتلَ الفرعوني، ولم يتعمَّدْه، ولم يخطِّطْ له، وهو لم يظلمْه، ولم يعتدِ عليه، كلُّ ما أرادَه موسى هو أنْ يردعَ الفرعونيَّ عن الإسرائيلي، ويوقِفَ عدوانَه عليه، وكان وكزُه له وسيلةً إلى ذلك، والوكزةُ لا تقتلُ رجلاً في الغالب، ولكنَّها إرادةُ اللهِ التي أنهتْ عمرَه بتلكَ الوكزة.

وبهذا نعرفُ أنَّ موسى لم يخطئ في قتلهِ للفرعونيِّ المعتدي!.

٥ ـ لماذا اعتبر موسى القتل من عمل الشيطان؟:

﴿ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾: لما شاهدَ موسى جثةَ الفرعوني أمامَه ندمَ على ذلك، وقال: هذا القتلُ من عملِ الشيطان، وهو عدوٌّ مُضِلٌّ مُبين، يوقعُ الإنسانَ في الخطأ والذنب!.

لم يكنْ موسى مخطئاً في قتلِ الفرعوني، وهناكَ مسوِّغاتٌ تبرِّر قتلَه له، مع أنه لم يُرِدْه ولم يتعمَّده! من تلكَ المسوغات:

ـ الفرعونيُّ كافرٌ ظالم، وردُّ عدوانِ الظالمِ المعتدي مطلوب!.

ـ الإسرائيليُّ مؤمنٌ مظلوم، ونصرةُ المظلوم مطلوبة، فكيفَ إذا كانَ المظلومُ مؤمناً قريباً للمستَغاث به؟.

ـ الإسرائيليُّ استنجدَ بموسى واستصرخَه واستغاثَه، وتلبيةُ نداءِ الاستغاثةِ مطلوب.

ـ دخلَ موسى ليفضَّ الاشتباك، ويُنهي الاقتتال، ويردعَ المعتدي، وهذا تصرُّفٌ طيّبٌ مطلوب.

ـ لم يقصدْ قتلَ الفرعوني، ولكنَّ اللهَ جعلَ وكزةَ موسى سبباً في إنهاءِ حياتِه.

وإذا لم يكنْ موسى مخطئاً في قتلِ الفرعوني، فلماذا اعتبرَ القتلَ من عملِ الشيطان؟ وهل للشيطانِ سُلطان عليه؟.

صحيحٌ أنَّ موسى لم يكن نبياً عندما قتلَ الفرعوني، ولكنَّ اللهَ يحفظُ النبيَّ حتى قبلَ النبوة، ويعصمُه من الذنوبِ والمعاصي، ولا سلطانَ للشيطانِ على النبيّ، لا بعدَ النبوّةِ ولا قبلَها!.

اعتبرَ موسى القتلَ من عملِ الشيطانِ المُضلّ المُبين، بصورةٍ عامة، فالشيطانُ هو الذي يَدعو الناسَ إلى أنْ يعتديَ بعضُهم على بعض، وأنْ يقاتِل بعضُهم بعضاً، وأنْ يقتلَ بعضُهم بعضاً، ولولا نزغاتُ الشيطانِ ووساوسُه لما قتلَ شخصٌ آخر.

وليسَ معنى هذا أنَّ الشيطانَ هو الذي دعا موسى إلى قتلِ الفرعوني، وأنّه قتلَه وهو تحتَ تأثيرِ وساوسِ الشيطان، فإنَّه لا سُلطانَ له عليهِ كما قرّرْنا، إنَّما أرادَ أنْ يقرِّرَ قاعدةً عامةً في كلِّ قتل!.

ومعَ ذلكَ نَدِمَ موسى على قتلِه للفرعوني، رغمَ ملابساتِ قتلِه، والمسوّغاتِ التي تبرّرُ ذلك! فلماذا ندم؟

ندمَ على تسرُّعه، فمهما كانتْ مسوّغاتُ القتل، إلا أنّه خلافُ الأَوْلى، لأنّه قَتْلٌ لفرعوني، وموسى القاتلُ إسرائيلي، وهذا سيجرُّ عليهِ الكثيرَ من المتاعب، فعواقبُه وخيمة، ونتائجُه خطيرة! فمن المتوقّع أنْ ينشطَ رجالُ فرعونَ في البحثِ والتحرّي لمعرفةِ القاتل، وقد يعرفونَه رغمَ أنّه لم يشاهِدْ أحدٌ عمليةَ القتل، ولم يعلمْ بها إلا موسى وصاحبُه الإسرائيلي!.

٦ ـ توجيه استغفار موسى بعد القتل:

بعدَ ندم موسى على قتلِه الفرعونيَّ توجّه إلى الله طالباً المغفرة. قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ

أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٦ ـ ١٧].

وقد يقعُ بعضُهم في إشكالٍ في فهمِ هاتيْن الآيتيْن: فكيفَ يعترفُ موسى بالظلم؟ وهل كانَ ظالماً في قتلِه للفرعونيّ؟ ولماذا استغفرَ ربَّه؟ وهل ارتكبَ معصيةً وذنباً؟ وهل كانَ ظهيراً ومساعداً للمجرمين عندما قتلَ الفرعوني؟.

عندما ننظرُ في الآيتيْن لا يجوزُ أنْ ننسى أنَّ الكلامَ فيهما عن رجلٍ سيكونُ نبيّاً فيما بعد، فنفهَمُهما من خلالِ ما يستحقُّه مقامُ النبيِّ من تكريمٍ وتوقير، وما يمنُّ اللهُ به عليهِ من عصمةٍ وحفظٍ ورعاية، حتى قبلَ النبوة.

إذن ليسَ اعترافُ موسى على نفسِه بالظلمِ كاعترافِ أحدنا به، وليس استغفارُه كاستغفارِ أحدنا، إنَّه اعترافُ واستغفارُ مَنْ سيكونُ نبياً!.

إنَّ اعترافَه بالظلمِ ناتجٌ عن ندمِه على ما فعل، هذا الندمُ الذي يدلُّ على أنّه فعلَ خلافَ الأوْلى، فمع عدمِ خطئِه أو معصيتِه في قتلِهِ للفرعونيِّ إلا أنه ندمَ لأنَّ الأوْلى كانَ عدمَ قتلِه، وبما أنَّه نتجَ عن فعلِه قتلُ شخصٍ آخر، فقد اعتبرَ ذلك ظلماً، واعترفَ بأنَّه ظلمَ نفسَه.

وظلمُه ليسَ ظُلماً حقيقياً، لأنَّ الظلمَ الحقيقيَّ خطأٌ ومعصيةٌ ومخالفةٌ وذنب، وهذه أمورٌ عصمَ اللهُ موسى عليه السلام منها، إنَّما هو فعلَ ما شابهَ الظلم، واتَّفقَ معه في الظاهر، مع أنَّه خالفَه في الحقيقة! اعتبرَ فعلَه ظلماً لأنه لا يليقُ بمقامِ موسى عليه السلام، ومعلومٌ أنَّ النبيَّ (حساس) يعرفُ أنه فعلَ خلافَ الأوْلى مباشرة، وأنَّ ما فعلَهُ لا يتناسبُ مع مقامِ النبوة، وقلبُه حيٌّ متصلٌ بالله، حتى قبلَ النبوّة، فإذا ما صدرَ عنهُ خلافُ الأوْلى عرفَ تقصيرَه ومؤاخذتَه فسارعَ إلى توثيقِ الصلةِ بالله!.

وهكذا استغفارُ موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ﴾.

فهو لم يستغفر اللهَ لذنبٍ ارتكبَه، لأنَّ قتلَ الفرعوني ليسَ ذنباً أو معصيةً أو خطأً، لِمَا سبقَ أنْ وضَّحنا. إنَّما استغفارُه لشعوره بتعجُّلِه وتسرُّعِه في عمليةِ القتل، وهو بذلكَ فعلَ خلافَ الأوْلى، وقد شعَرَ بأنَّه لا يليقُ به أنْ يفعلَ خلافَ الأوْلى، مع أنَّه حلالٌ مباح، لكنَّ الأوْلى كانَ عدمُ فعلِه، ولذلك استغفرَ الله، وقد منَّ اللهُ عليهِ بقبولِ استغفارِه فغفرَ له!.

إنَّ استغفارَ الأنبياءِ ليسَ كاستغفارِ غيرِهم. إنَّ أحدَنا يستغفرُ اللهَ من ذنبٍ يرتكبُه، لأنَّه غيرُ معصوم، أما النبيُّ فإنَّه يستغفرُ اللهَ إما لأنَّه فعلَ خلافَ الأَوْلى مع جوازِه، فيشعرُ بالتقصيرِ في حقِّ الله، فيتلافَى ذلكَ بالاستغفار.. وإما لأنَّ استغفارَه لإزالةِ ما قد يتغشَّاه من الغَبش، أو ما يعتريهِ من الفتور.. وإما لأنَّ استغفارَه صورةٌ من صورِ ذِكرِه لله، واتصالِه به سبحانه..

هكذا يكونُ فهمُنا وتوجيهُنا لاستغفارِ موسى عليه السلام.

ومعنى قولِ موسى بعدَ ذلك: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾: من شكري لكَ يا رب على ما أنعمتَ به عليَّ من قبولِ استغفاري، أنَّني لنْ أكونَ ظهيراً ولا مسانداً ولا معاوناً للمجرمين المعتدين.

وليسَ معنى هذا الاعترافَ بأنَّه كانَ مُظاهراً مُعاوناً للمجرمين عندما قتلَ الفرعوني.. إنَّما يقرِّرُ قاعدةً عامةً في شكرِ المؤمنِ للهِ على ما ينعمُ ويمنُّ به عليه، ويكونُ من ذلك الشكرِ عدمُ مساندةِ أو معاونةِ المجرمين! وليسَ معنى هذا أنَّ موسى كانَ مُساعداً للمجرمين لمَّا قتلَ الفرعوني، لِمَا سبقَ أنْ وضَّحناه!.

٧ ـ الإسرائيلي يكشف سر قتل الفرعوني:

لم تُعرَفْ هويةُ قاتل الفرعوني، رغمَ بحثِ رجالِ فرعون، لأنَّه لم يشاهِدْ أحـدٌ من الناسِ الحادث. وبقي موسى يفكرُ في حادثِ القتل طيلةَ الليل، لأنَّـه خطيرٌ ولهُ نتائجُ خطيرة. وفي الصباحِ كانَ الخوفُ يسيطرُ عليه. قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ١٨].

أي: سارَ في الصباحِ في وسطِ المدينة، وكانَ في حالةِ خوفٍ بسببِ حادثةِ الأمس، وكانَ حذراً (يترقَّب) ويتلفَّت يمنةً ويسرة، يخشى أنْ يعرفَ أحدٌ أنَّه هو القاتل!.

وكانَ خـوفُ موسى طبيعياً، ولا يُلامُ عليه، لأنَّه ليسَ ناتجاً عن جبنٍ أو ضعفٍ أو خور، لقد قتلَ أحدَ الفراعنة، وهذا فعلٌ خطير، وإذا عُرِفَ سيؤدِّي إلى قتلِه، وأشجعُ الناسِ قد يخافُ عندما يقتلُ آخر!.

وبينما كانَ في المدينةِ خائفاً يترقب، نظر، فإذا صاحبُه الإسرائيليُّ مشتبكاً

مع فرعونيٍّ آخر، ولما رآه استصرخَه! قال تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [القصص: ١٨].

طلبَ الإسرائيليُّ نجدتَه وعونَه، لأنَّه يعلمُ أنه سيُنهي العراكَ بضربتِه القاضية، وقد جرَّب هذا منه بالأمس، عندما قتلَ الفرعوني!.

ولم يرتحْ موسى لاستنجادِ الإسرائيليِّ به هذه المرة، ولم يتفاعلْ معه كما تفاعلَ في المرةِ الأولى، ولهذا قال له: ﴿ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴾.

أي: أنتَ صاحبُ مشكلات، فما تخرجُ من مشكلةٍ إلا لتدخلَ في مشكلةٍ أخرى، وأنت غويٌّ حريصٌ على الغواية! فبالأمسِ خلَّصتُك من مشكلة، وها أنتَ اليومَ مع مشكلةٍ جديدة، فلماذا هذه الغوايةُ منك؟.

ومع أنَّه أنكرَ على الإسرائيليِّ مشكلتَه الجديدة، إلا أنه لم يجدْ أمامَه إلا إنجادَه وإنقاذَه، لأنَّه إسرائيليٌّ مظلوم، عانى ما عانى من ظلمِ الفراعنة!.

وتوجَّه موسى للفرعونيِّ الذي هو عدوٌّ لهما ليبطشَ به ويقضيَ عليه، لكنَّ الإسرائيلي خاف، وظنَّه قادماً لقتله، فكشفَ السر. قال تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ [القصص: ١٩].

لقد سمعَ الإسرائيليُّ كلامَ موسى له: ﴿ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴾، وفهمَ منه ذمَّ موسى له، ثم رأى الإسرائيليُّ موسى قادماً إليه، فلمْ يظنَّ أنَّه قادمٌ للبطشِ بعدوِّهما الفرعوني، وإنما ظنَّ أنه قادمٌ لقتله هو.

خاف الإسرائيلي، وخاطبَ موسى قائلاً: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾.

أي: يا موسى لا تهجمْ عليَّ! هلْ تريدُ أن تقتلَني، كما فعلتَ بالأمس، عندما قتلتَ الفرعوني؟.

وها أنتَ تكثرُ من القتل، فهلْ تريدُ أنْ تكونَ جباراً مُفسداً في الأرض، تكثرُ من قتلِ الناسِ وسفكِ الدماء؟ لماذا لا تكونُ من المصلحين؟.

لقد أذاعَ هذا الإسرائيليُّ الخائفُ السرَّ، وكشفَ لغزَ حادثةِ الأمس! إذن موسى هو الذي قتلَ الفرعوني!!.

جعلَ الإسرائيليُّ بخوفه وغبائه المشكلةَ بينه وبين موسى، الذي جاءَه بناءً على استنجادِه به، ونسيَ خصمَه الفرعوني.

وسمعَ الفرعونيُّ الخبرَ المثير، موسى هو قاتلُ الرجلِ بالأمس! وغافلَ موسى والإسرائيلي، وغادرَ المكانَ مسرعاً، وذهبَ إلى جنودِ فرعون، وأخبرَهم بما سمعَه من الإسرائيلي!.

قال لهم: كنتُ قبلَ قليلٍ مشتبكاً مع رجلٍ إسرائيلي، فمرَّ بنا موسى، فاستنجدَ به خصمي الإسرائيلي ليُعينَه عليَّ، وجاءَنا لينجده، ولكنْ جرى بين موسى وبين الإسرائيلي كلام، وسمعتُ الإسرائيليَّ يقولُ له: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾؟.

فغافلتُهما، ونجوتُ من الخطر، وجئتُكم مسرعاً لأخبركم الخبر!.

فوجئوا بما يسمعون، وأخبروا فرعون الذي فوجئ بدوره، ودعا الملأَ إلى اجتماعٍ عاجل، ليتدارَسوا القضية.. واتّخذوا قراراً بقتلِ موسى!.

ويبدو أنَّ أحدَ الرجالِ الحاضرين للاجتماع كان مؤيداً لموسى متعاطفاً معه، ولعلَّه كان إسرائيلياً مثلَ موسى، أو كانَ من الفراعنة لكنَّه كان مؤمناً صالحاً. فخرجَ من الاجتماع فوراً، وأتى إلى موسى يسعى ليخبره، وسبقَ جنودَ فرعون إليه، وقال: يا موسى إنَّ الملأ يأتمرون بك ليقتلوك، فاخرجْ إني لك من الناصحين!

ولم يجدْ موسى فرصةً من الوقتِ للتفكيرِ في الخروج والاستعدادِ والتزودِ له، أو تحديدِ الوجهةِ التي سيتَّجهُ إليها، ولم يَعُدْ إلى البيت، ولم يأخذْ حاجاتِه أو متاعَه، ولم يكلِّمْ أحداً... لأنه إنْ فعلَ ذلك فسوف يأتيه الجنودُ، ويُلقونَ القبضَ عليه. وهو يريدُ أنْ يكسبَ الوقت، لينجو من الخطر..

لذلك سارعَ بالخروجِ من المدينةِ قبلَ وُصولِ الجنودِ إليه..

٨ ـ أين تقع أرض (مدين)؟:

خرجَ موسى عليه السلام من مصرَ خائفاً. قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢١].

هناك صلةٌ وثيقةٌ بين ثلاثِ آياتٍ تتحدثُ عن موسى في (المدينة) عاصمةِ مصر:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا﴾ [القصص: ١٥].

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ١٨].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢١].

بعدما قتلَ القبطيَّ أصبحَ في المدينةِ خائفاً يترقَّب، لأنه يخشى أنْ ينكشفَ أمره، وهذا الخوفُ منطقيٌّ لا يُلامُ عليه.. ولما علمِ أنَّ فرعونَ أصدرَ أمره بقتْلِه، خرجَ من المدينةِ خائفاً يترقَّب، وسبقَ وصولَ الجنود إليه، وهذا الخوفُ أيضاً منطقي، لا يُلامُ عليه.. وهو ليسَ جُبناً ولا ضعفاً، ألا تريدُ من رجلٍ أنْ يخافَ بعدَ أنْ أصدرَ الحاكمُ أمره باعتقاله وقتْلِه!.

لما خرجَ من المدينة توجَّهَ إلى الله، وطلبَ منه أنْ يُنجيَه من فرعونَ وجنودِه الظالمين: ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢١﴾ [القصص: ٢١].

ولم يجدْ أمامَه إلا التوجُّهَ في طريقِ مدين، فسارَ فيها، وطلبَ من الله أنْ يهديَه ويرشده ويأخذَ بيدِه إلى الخير، ويوصلَه إلى الأمان: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢].

و(مدين): منطقةٌ تقعُ شرقيَّ وادي عربة والبحر الميت. قال عنها الإمامُ ابنُ كثير: «كان أهل مدينَ قوماً عرباً، يسكنونَ مدينتهم (مدين) التي هي قريبةٌ من أرضِ (معان) من أطرافِ الشام، مما يلي الحجاز، قريباً من بحيرة قومِ لوطٍ، وكانوا بعدهم بمدةٍ قريبة..»[1].

وقال عنها ياقوتُ الحموي في معجم البلدان: «قال أبو زيد: مدين على بحرِ القلْزَم ـ البحر الأحمر ـ محاذية لتبوك، على نحوٍ من ستِّ مراحل. وهي أكبرُ من تبوك، وبها البئرُ التي استقى منها موسى عليه السلام. وقال الحازمي: «هي بين وادي القُرى والشام...»[2].

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير، ص١٨٥ ـ ١٨٦.

(٢) معجم البلدان لياقوت الحموي: ٥/ ٧٧ ـ ٧٨.

إذن: (مدين) اسمٌ أُطلقَ على الأرضِ الواقعةِ شمالَ خليجِ العقبة، وهي الممتدةُ من وادي عربة إلى معان، متجهـةً إلى الشرق والجنوب الشـرقي حتى تصلَ إلى القربِ من مدينة تبوك..

وقد وصلَ موسى إلى أرض مدين، بعدما اجتازَ خليجَ السويس، وقطعَ شبه جزيرة سيناء.

٩ ـ موسى والمرأتان على ماء مدين:

وصلَ موسى الماءَ الذي يشربُ منه أهلُ مدين، ويسقونَ مواشيهم، ووجدَ الرعاةَ يسقون مواشيهم عليه، ورأى امرأتين بعيدتَيْن عن الماء، وتُبعدان أغنامَهما عنه، فأخذتْه النخوةُ والمروءة، وأرادَ مساعدتَهما، ولما سألهما عن قصتهما، سقى لهما.

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص: ٢٣ ـ ٢٤].

وموقفُ موسى من سؤالِ المرأتيْن وسقيِ غنمِهما سليمٌ وكريم:

لقد أعجبهُ حرصُ المرأتيْنِ على الابتعادِ عن الرجال، وعدمِ الاختلاط بهم أو مزاحمتِهم على الماء، وتحمُّلُهما المشقةَ الكبيرةَ في ذودِ غنمهما عن الماءِ، لحينَ انتهاءِ الرجال من سقي مواشيهم، وشعرَ نحوهما بالرأفة والشفقة، وأرادَ أنْ يعرفَ السببَ الذي دفعَهما إلى هذه المشقةِ والمعاناة!.

هذا هو توجيهُ سؤالِه لهما وكلامِه معهما: فنخوتُه ومروءتُه وشفقتُه صفاتٌ متأصلةٌ في شخصيتِه وكيانِه، وهي التي دفعَتْه لذلك.

وكان سؤالُه لهما بمنتهى الإيجازِ والاختصار، وبمقدارِ الضرورة: ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ أي: ما شأنكما؟ ولماذا تقومان برعي الغنم؟.

وأجابت المرأتان على السؤال بمنتهى الإيجاز والاختصار أيضاً: ﴿ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾.

أي لا نزاحمُ الرجالَ على الماء، وحريصتان على عدم الاختلاط بهم، فننتظرُ حتى ينتهوا من سقي مواشيهم ويغادروا الماء . . ونقومُ برعي الغنم وسقيها ـ وهو عملٌ شاقٌ متعبٌ مرهق، ولا يتناسبُ معنا ـ من باب الاضطرار، فلا يوجدُ عندنا رجالٌ للرعي، وأبونا شيخٌ كبيرٌ طاعِنٌ في السن، عاجزٌ عن القيام بهذه المهمة الشاقة، فتعيَّنَ علينا نحن!!.

كان سؤالاً مختصراً، وجواباً مجملاً، بدونِ تطويلٍ أو تفصيل، دعتْ إليه الضرورة، والضرورةُ تُقَدَّرُ بقَدرِها.

نقولُ هذا في توجيهِ السؤالِ والجواب، كي لا يُسيءَ بعضُ الناس فهمَ وتفسيرَ التخاطبِ بين موسى والمرأتين، وكي لا يعتمدوا عليه ويحتجُّوا به في اختلاطِهم بالنساء، وجلوسِهم معهن، وانبساطِهم في محادثتِهن ومحاورتهن . . يجلسُ الرجلُ مع المرأة فتراتٍ وفترات، يحادثُها وتحادثُه، فإذا ما اعتُرِض عليه قد يحتجُ بما جرى بين موسى والمرأتين!.

١٠ ـ من الرجل الصالح الذي عمل موسى عنده؟:

سقى موسى للمرأتين، وغادرتا الماءَ مسرورتين شاكرتين، وشعرَ موسى بالراحةِ النفسية، لأنه خدَمَهما. قال تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

جلسَ في الظلِّ وناجى ربَّه، وأعلنَ حاجتَه إلى خيرِه وفضلِه وإنعامه، فهو غريبٌ في هذه البلاد، لا يعرفُه أحد، ولكنَّه لا يطلبُ حاجتَه إلاَّ من الله، وهو يعلمُ أنَّ اللهَ سيكتبُ له الخير!.

وأخبرت المرأتان أباهما عن الشابِّ الغريبِ ونخوتِه ومروءته، وأرادَ الشيخُ الكبيرُ أنْ يكافئَ موسى على حُسنِ صنيعِه، ولا رجلَ عندَه في البيت يذهبُ إليه. فلم يجدْ إلا ابنتَه ليكلِّفَها باستدعائه!.

قال تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ [القصص: ٢٥].

مجيئُها له من بابِ الضرورة، لعدمِ وجودِ رجلٍ يأتيه. هي ترى المسألة ثقيلةً صعبة، فكيف تُخاطبُ رجلاً غريباً؟ جاءَتْه تمشي على (استحياء)، سيطرَ الحياءُ على كيانِها ومشاعرِها وأعصابِها وشخصيتِها، وانعكسَ على الجوِّ كلِّه، بل

على الطريقِ التي تمشي عليها، وكأنَّ الطريقَ كلَّها تحولتْ إلى حياءٍ واستحياء!.

ولما وقفتْ أمامَ موسى بلَّغتْهُ الرسالةَ بمنتهى الذكاءِ والحذرِ والجدية: ﴿ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾.

الذي يدعوهُ إلى البيتِ هو أبوها، وذلك تحديداً للداعي، ومنعاً للريبةِ أو الشبهة! والهدفُ من الدعوةِ تكريمُ موسى ومكافأتُه لأنه أكرمَهما بسقي الغنم.

والملاحَظُ أنّه لم يجْرِ بينهما حديثٌ مطوَّل، ولم يرُدَّ على كلامِها بكلامٍ آخر...

ووصلَ موسى إلى البيت، وأحسنَ الرجلُ المؤمنُ استقبالَه. قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾.

قصَّ موسى على الرجلِ الصالحِ قصَّتَه، وأخبرَه بقتْلِه للفرعوني، وهربِه من مصر.. وأُعجبَ الرجلُ بالقصةِ المثيرة، ولاحظَ فيها رعايةَ اللهِ له، وأحبَّ موسى لإيمانِه وشهامتِه ونخوتِه، ودعاهُ إلى الشعورِ بالأمانِ. فجنودُ فرعون جادّون في البحثِ عنه لقتله، ولكن لا سلطانَ لفرعونَ على أرضِ مدين..

وهذا من تقديرِ اللهِ وتدبيره، فهو الذي ساقَ موسى إلى مدين، وقدّرَ له الوصولَ إلى بيتِ هذا الرجل المؤمن!.

وقد اختلفَ المفسرونَ والمؤرّخون في تبيينِ هذا الرجلِ المؤمنِ الصالح:

١ ـ فقالَ بعضُهم اسمُه (يثرون) وهو المذكورُ في أسفارِ العهدِ القديم: ولا دليل لهم على هذا الرأي، إنما أخذوه عن الإسرائيليات. ونحنُ لا نأخذُ عن تلكَ الإسرائيليات!.

٢ ـ وقالَ بعضُهم: هو ابنُ أخي النبيِّ شُعيب عليه السلام، وشعيبٌ هو عمُّه: وهذا أيضاً لا دليلَ عليه.

٣ ـ وقال كثيرٌ من المفسِّرين والمؤرِّخين: هو نبيُّ الله شعيبٌ عليه السلام، لأنَّ اللهَ بعثَ شعيباً عليه السلام نبياً رسولاً إلى أهل مدين.

٤ ـ وقال آخرون: هو رجلٌ مؤمنٌ صالحٌ في مدين، وهو ليسَ شعيباً، إنما هو من ذريةِ المؤمنين الذين نَجوا مع شعيبٍ عليه السلام، وبينَه وبين شعيب فترةٌ

زمنيةٌ طويلة. واسمُه مبهم، لم يبيّنْه القرآن، ولم يَرد تبيينُه في حديثِ رسول الله ﷺ، ونحنُ نُبقيه على إبهامه، ولا يضرُّنا الجهلُ باسمه.

والراجحُ هو القولُ الرابع. والله أعلم.

إنه ليس شعيباً عليه السلام! فمن خلالِ قصةِ إبراهيمَ ولوطٍ وشعيبٍ عليهم الصلاة والسلام، نجدُ أنَّ لوطاً كان معاصراً لإبراهيم، ونجدُ أنَّ شعيباً ولوطاً كانا متقاربين.

كانَ قومُ لوطٍ وقومُ مدين متقاربيْن من حيثُ الزمان، ومنْ حيثُ المكان، وكان دمارُ قومِ لوط قُبيلَ دمار قوم مدين! بدليلِ تذكيرِ شعيبٍ عليه السلام لقومِه بالحادثِ القريبِ الذي دُمّر فيه قومُ لوط! قال تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾ [هود: ٨٩].

والشاهدُ في الآية قولُه: ﴿وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾ أي: قومُ لوطٍ قريبون منكم من حيثُ المكان، فهم جيرانٌ لكم، وقريبونَ منكم من حيثُ الزمان، فقد دمرهم الله من وقتٍ قريب، ما زلتمُ تتذكرونَه!

وبما أنَّ هلاكَ قومِ لوطٍ كان في زمنِ إبراهيمَ عليه السلام، فقد كان هلاكُ قومِ مدين قريباً من عهد إبراهيم عليه السلام!

وبينَ إبراهيم وموسى عليهما السلام فترةٌ زمنيةٌ طويلة، تمتدُّ لعدةِ قرون. بينَهما كلٌّ من إسحاق ويعقوب ويوسف عليهم السلام، وبينَ يوسفَ وموسى مدةٌ زمنيةٌ طويلة، قد تزيدُ عن أربعةِ قرون!.

وهذا معناهُ أنَّ شعيباً ماتَ قبلَ موسى عليهما السلام بعدة قرون، قد تزيدُ عن أربعة!.

قال سيّد قطب في الظلال: «سبقَ أنْ قلتُ مرةً في الظلال: إنَّ هذا الرجلَ هو شعيب.. وقلت مرة: إنَّه قد يكونُ شعيباً، أو لا يكون.

وأنا الآنَ أميلُ إلى ترجيحِ أنه ليس هو، وإنما هو شيخٌ آخر من مدين!.

والذي يحملُ على هذا الترجيح أنَّ هذا الرجل شيخٌ كبير، وشعيبٌ شهدَ مهلكَ قومِه والمكذّبين له، ولم يبقَ معه إلاّ المؤمنون به، فلو كان هو النبيّ شعيباً

بين بقيةِ قومِه المؤمنين، ما سقوْا قبلَ بنتيْ نبيِّهم الشيخ الكبير.. فليس هذا سلوكَ قومٍ مؤمنين.

ويُضافُ إلى هذا أنَّ القرآنَ لم يذكر شيئاً عن تعليمِه لموسى صهرِه، ولو كان شعيباً النبي، لسمعنا صوتَ النبوةِ في شيء من هذا مع موسى، وقد عاش معه عشر سنوات..»[1].

١١ ـ زواج موسى من ابنة الصالح مقابل رعيه الغنم:

بعد أن اطمأنَّ الرجلُ الصالحُ لموسى، تدخَّلت ابنتُه، وطلبتْ منه أنْ يستأجره لرعي الغنم، قال تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

وفي طلبِها هذا إشارةٌ إلى أنَّ الأُختيْن رَعَتا الغنم من بابِ الضرورة، لعدمِ وجودِ مَنْ يقومُ بذلك من الرجال، أما وقد تيسَّرَ الآن هذا الرجل، فلْيَقُم هو بهذه المهمة! وهو مؤهَّلٌ لها قويٌّ أمين.

جمعَ موسى عليه السلام بين مظهريْن من مظاهرِ القوة: القوة الجسمية المتمثلةِ في متانةِ الجسم. والقوةِ النفسيةِ الأخلاقيةِ المعنوية، المتمثلةِ في الأمانة.

وصدقَتْ فراسةُ تلك المرأةِ في موسى عليه السلام. قالَ عبدُ الله بن مسعود رضي الله عنه: «أفرسُ الناسِ ثلاثة: صاحبُ يوسف حينَ قال لامرأتِه: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾، وصاحبةُ موسى حين قالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾، وأبو بكر حين استخلفَ عمر رضي الله عنهما».

عرضَ الرجلُ الصالحُ على موسى أنْ يعملَ عندَه في رعي الغنم، مقابلَ زواجه إحدى ابنتيه: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: ٢٧ـ٢٨].

وكان الرجلُ الصالحُ حكيماً عندما عرضَ على موسى عليه السلام العملَ

---

(١) في ظلال القرآن: ٥/٢٦٧٨.

عنده مقابلَ زواجِه بابنته، فقد أراحَ ابنتيْه من مهمـةِ رعي الغنمِ الشـاقةِ الثقيلـة. وجعلَ إقامتَه في البيتِ مشروعةً مأمونة، فعندما زوَّجه ابنته صارتْ أُختُها محرمةً عليه، فلا مجالَ للشيطانِ كي يوسوسَ لرجلٍ غريب يقيمُ في بيتٍ فيه امرأتـان شابَّتان!.

والرجلُ هو الذي بحثَ لابنتِه عن الزوج المناسب، فلما وجَدَه عرضَ الأمرَ عليه، ورغبَ في مصاهرته، وبما أنه فقيرٌ لا يجدُ مالاً كان مهرُ امرأتِه ثماني سنين رعياً للغنم!.

وكان موسى عليه السلام حكيماً أيضاً عندما قبلَ العرض، وبما أنَّ الرجلين مؤمنان صالحان فقد جرى الاتفاقُ بينهما في ظلالِ الإيمان والصدق، وبعباراتٍ كلُّها لطفٌ وأنس: الرجلُ يقول لموسى عليه السلام: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وموسى عليه السلام يردُّ عليه قائلاً: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

المطلوبُ من موسى عليه السلام العملُ في رعي الغنمِ ثمانيَ سنين، وإنْ زادَهما سنتين كان كريماً، وقد اختارَ موسى الكرمَ والإكرام، فعملَ عشرَ سنين.

روى البخاريُّ موقوفـاً [برقم: ٢٦٨٤] عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال: «سألني يهوديٌّ من أهلِ الحيرة: أيَّ الأجليْن قضى موسى؟ فقلتُ: لا أدري، حتى أقدمَ على حَبْرِ العربِ فأسألَه. فقدمتُ، فسألتُ ابنَ عباس، فقال: قضى أكثرهما وأطيبَهما! إنَّ رسولَ الله إذا قال فعل!».

وهكذا تزوجَ موسى عليه السلام في مدينَ ابنةَ ذلك الرجلِ المؤمنِ الصالح، ورعى عنده الغنمَ عشر سنين. وخلالَ هذه المدة سيخفُّ طلبُ الفراعنةِ له، وبحثُهم عنه، فيطمئنَّ ويأمن.

ورعْيُ الغنمِ كأنه(دورةٌ) تربويةٌ أعدَّها الله الحكيم له، فبعدما قضى طفولتَه وصِباهُ في قصر فرعون، مُنعَّماً مُرَفَّهاً، ها هو في البرِّ والصحراء، يتابعُ الأغنام، ويتعرضُ للحرِّ والريح والعَرَق والتَّعب، ويواجهُ كلَّ ذلك بالصبر والاحتمال!! فعلَ الله هذا به، لأنه يُعِدُّهُ لمهمةٍ كبيرة!! مهمـةِ إنقاذِ بني إسـرائيل من فرعون وآله!!.

١٢ ـ عصا موسى: هل هي جان أم حية؟:

لما خاطبَ اللهُ موسى عليه السلام في الوادي المقدَّسِ طُوى في تلك الليلةِ المباركة، أمره أنْ يُلقيَ عصاه، وهي قطعةٌ يابسة، قطعها من شجرة، لا حياة فيها ولا خُضرة، ولكنَّ الله المحيي القادرَ على كلِّ شيء، جعلَ فيها حياةً حقيقيةً خاصة، حيثُ جعلها حيةً تسعى.

أخبرَ الله عن تحويلِ العصا إلى حيةٍ تسعى. قال تعالى: ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴾ [طه: ١٩ ـ ٢١].

وأخبرَ في موضعٍ آخر أنَّ العصا أصبحتْ تهتزُّ كأنها جانّ: قال تعالى: ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [النمل: ١٠].

وقال تعالى: ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴾ [القصص: ٣١].

وقد يظنُّ بعضُهم أنَّ حديثَ القرآنِ عن العصا التي صارتْ حيةً متناقض، فهل صارتْ حيةً تسعى، أم صارتْ تهتزُّ كأنها جان؟

ولا تعارضَ في ذلك، إذ يمكنُ الجمعُ بين الآيات بسهولة: فقدْ مَرَّ جعْلُ الحياةِ في العصا بمرحلتين:

المرحلة الأولى: عندما جعلَ اللهُ فيها العصا صارتْ تهتزُّ وتضطربُ وتتحركُ كأنها (جان) حيث شُبِّهتْ في ذلك بالجانِّ ـ وهو الجني ـ في اهتزازهِ وحركتِه!. وأخبرَ عن هذه المرحلة قوله تعالى: ﴿ رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ﴾.

المرحلة الثانية: انتهاءُ اضطرابِ الحيةِ واهتزازِها، وانتقالُها إلى مرحلةِ الزحفِ والمشيِ والسعيِ، حيث صارتْ حيةً تسعى. وأخبرَ عن هذه المرحلةِ قوله تعالى: ﴿ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾.

لا تعارضَ إذن بين الآيتين، حيث تُنَزَّلُ كلُّ آيةٍ على مرحلة.

ومعنى قولِ الله لموسى: ﴿ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴾،

أمسك الحيةَ وتناوَلْها بيدك، ولا تخفْ منها، فإنها لن تلدَغَك، وعندما تكونُ بين يديكَ ستُعيدها إلى ما كانت عليه، مجردَ عصا خشبيةٍ جامدة!!.

اللهُ هو الذي بثَّ فيها الحياة، والله هو الذي جعلها حيةً تسعى، والله سبحانه هو الذي نزعَ الحياة منها، وأعادها عصا خشبيةً كما كانت.. وهو الذي سيبثُّ فيها الحياةَ ويجعلُها حية، ثم يعيدُها عصا خشبية، مرتيْن فيما بعد، مرةً أمام فرعون، ومرةً أمام السحرة..

لقد جعلَ الله ذلك آيةً من آياتِه الدالةِ على وحدانيته سبحانه، فهو المحيي الذي يَهبُ الحياةَ لمن يشاء، وهو المميتُ الذي ينزعُ الحياةَ ممن يشاء!.

١٣ ـ توجيه خوف موسى من الحية:

بعدما ألقى موسى عليه السلام عصاه، ورآها تهتزُّ كأنها جانّ، خافَ خوفاً شديداً، وولّى مدبراً ولم يعقّب، فطمأنَه الله بما أزالَ خوفَه، وأعادَ له هدوءه. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النمل: ١٠ ـ ١١].

وقد يعتبرُ بعضُهم هذا مأخذاً على موسى عليه السلام، إذ كيفَ يخافُ ويهربُ من عصا كانتْ بيدِه يراها حيةً تسعى؟.

وخوفُه في الحقيقةِ لا يُلامُ عليه، لأنه حالةٌ عاديةٌ في ذلك الجوِّ الخاص، ومَنْ لامَه على خوفِه فإنه لو كانَ مكانه في ذلك الجوِّ لكانَ أكثر خوفاً منه!.

إنه وحيد، في وادٍ صحراويٍّ مظلمٍ بارد، ليس معه رفيقٌ ولا أنيسٌ من البشر، ويأمره الله بإلقاءِ عصا كانتْ في يده، ولما ألقاها على الأرض نظرَ إليها، فإذا بها وقفتْ بعد أنْ كانتْ ملقاةً على الأرض، وبدأتْ تتحركُ وتهتزُّ، ولها رأسٌ وعينان وذيل.. وقفَتْ على ذيلها، وحركتْ رأسَها يميناً وشمالاً، ونظرتْ بعينيْها يمنةً ويسرة، أليس هذا المنظرُ في ذلك الجوِّ الليليِّ الموحش يدعو للخوف؟!.

خوفُ موسى إذنْ حالةٌ منطقية، وهربُه أيضاً حالةٌ منطقية. ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي هربَ ولم يلتفتْ إليها، ولم ينظر خلفَه.

المهمُ ليس خوفُه المتوقَّعُ المعلَّل، ولكن ماذا فَعَلَ بعدما طمأنه الله؟.

لما طمأنه الله وبشّره بالأمن والأمان زالَ خوفُه، وعادَ له هدوؤه واطمئنانُه، ورجعَ إلى مكانه، وتناولَ الحيةَ التي تسعى.

نهاهُ الله عن الخوفِ قائلاً: ﴿ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾، أي: أنتَ يا موسى رسول، والرسُلُ لا يخافون، فلماذا تخافُ من العصا التي تحولَتْ حية؟

والاستثناءُ في قوله: ﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ ﴾ استثناءٌ منقطع - كما يقول علماءُ النحو - المستثنى من غيرِ جنسِ المستثنى منه!.

أي: أنت رسـول، والرسلُ لا يخافون، ثم انتقلَ إلى كلامٍ جديـد، عن الذين يخافونَ ويظلمون ويُخطئون ويعصون، من غير الرسل والأنبياء، فمنْ تابَ من هؤلاء، ثم عمل حُسْناً بعد سوء، فإنَّ الله يغفرُ له.

فما بعدَ الاستثناء لا ينطبقُ على موسى عليه السلام في خوفِـه من الحية، لأنَّ خوفَـه خوفٌ طبيعيٌّ فطري، قد يعتري البشر - حتى لو كانوا أنبيـاء - أمامَ الأخطار.

١٤ - هل موسى رسول إلى فرعون؟:

نعلمُ أنَّ موسـى عليه السـلام رسولٌ إلى بني إسرائيل، لأنهم قومُه، وكلُّ رسولٍ يُبعثُ إلى قومِه خاصة.

لكن وردَ في القرآن أنَّ اللهَ أرسلَ موسى عليه السلام رسولاً إلى فرعون! فلما كلَّمه هناك في الوادي المقدس طوى كلَّفه بالذهاب إلى فرعون، وعَرْضِ الدعوة عليه!!.

قال تعالى: ﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ﴾ [النازعات: ١٥-١٩].

ولم يُرسَلْ موسى عليه السلام إلى فرعون فقط، إنما أُرسلَ إلى ملئِه وقومِه أيضاً، قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾ [الشعراء: ١٠-١١].

وقال تعالى: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [النمل: ١٢].

فهذه الآياتُ صريحةٌ في أنَّ الله بعثَ موسى عليه السلام رسولاً إلى فرعون وملئه وقومه، بالإضافة إلى كونه رسولاً إلى بني إسرائيل!.

وليسَ في هذا إشكال!.

إنَّ موسى عليه السلام رسولٌ في الأساسِ إلى بني إسرائيل، لأنهم قومُه، وهو واحدٌ منهم، وكلُّ رسولٍ كان يُبعثُ إلى قومه خاصة!.

ولكنَّ بني إسرائيل كانوا مضطَهَدين مستعبدين عند فرعون وملئه، وحتى تتحققَ رسالةُ موسى عليه السلام فيهم، فلا بد أنْ يُرفَعَ عنهم الظلمُ والعدوان.. ولا يُرفعُ عنهم الظلمُ والعدوان إلا بإيمانِ الظالمينَ الفاسقين، وخوفِهم من الله، وتوقّفِهم عن استعبادِ عبادِ الله.

فرسالةُ موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه ثانويةٌ وليستْ أسياسية، وهي تمهيدٌ لرسالتِه الأساسيةِ إلى بني إسرائيل.

ولذلك كانَ موسى عليه السلام صريحاً في دعوةِ فرعونَ إلى الإيمانِ باللهِ، قال تعالى: ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾ [النازعات: ١٨ ـ ١٩] كما كانَ صريحاً في دعوتِه إلى رفع الظلم عن بني إسرائيل، والسماح لهم بالخروج معه. قال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٤ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الأعراف: ١٠٤ ـ ١٠٥].

رسالةُ موسى عليه السلام إلى بني إسرائيل في الأساس، وتكليفُه بالذهابِ إلى فرعونَ وملئِه تمهيدٌ لها، ومتمم لها! فلا إشكالَ في المسألة!.

١٥ ـ عقدة لسان موسى وحكاية الجمرة والتمرة:

لما علمَ موسى عليه السلام بالمهمةِ الشاقة التي كلَّفه اللهُ بها، طلبَ من اللهِ أنْ يُعينَه عليها، وسألَه أشياءَ تحققُ له حُسْنَ أدائها.

قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ۝٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ۝٢٦ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴾ [طه: ٢٥ ـ ٢٨].

طلبَ موسى عليه السلام من اللهِ أنْ يشرحَ له صدْرَه، وأنْ ييسرَ له أمْرَه، وأنْ يَحُلَّ عقدةً من لسانِه ليفقهوا قوله.

ولم يُحسن بعضُ المفسّرين فهمَ عقدة لسانِ موسى عليه السلام، التي طلبَ من اللهِ أن يحلَّها له، فقال بحكاية (الجمرة والتمرة) التي حرقَتْ لسانَه وهو صغير!.

وخلاصةُ تلك الحكاية أنه لمّا دعتْ امرأةُ فرعونَ زوجَها إلى تبنّي موسى وعدمِ قتلِه، استجابَ لها وتبنّاه.. وفي يومٍ من الأيامِ كانت امرأةُ فرعون جالسةً مع زوجِها، وكانَ موسى طفلاً في حضنِها، فأمسكَ فرعونُ به وحمله، ووضعَه في حجرِه، فتناولَ موسى لحيةَ فرعون وشدَّها نحو الأرض!.

فقالَ الغواةُ أعداءُ اللهِ لفرعون: إنَّ هذا الطفلَ يتهددُكَ، وسيكونُ مقتلُك على يدِه!.

فغضبَ فرعونُ وطلبَ من الذبّاحين أنْ يذبحوه!.

فقالت له امرأتُه: ما بدا لكَ في هذا الغلامِ الذي وهبْتَه لي؟

قال: لقد شَدَّ لحيتي، وهو يزعمُ أنه يعلوني ويَصرعُني!

ودعتْ فرعونَ إلى اختبارِ الطفلِ، ليَعرفَ أنه لم يقصدْ حركتَه.. وَضَع فرعونُ أمامَه جمرةً وتمرة، فتناولَ موسى الجمرةَ ووضعها على لسانِه! فأحرقَتْه!!

وبذلك أُصيب موسى بلثغةٍ دائمة، فسألَ اللهَ أنْ يحُلَّ العُقدةَ ويُزيلَ اللثغة، ليُحسنَ تبليغَ الرسالة!

وقد قبلَ بعضُ المفسّرين والمحدّثين روايةَ الجمرةِ والتمرة، لأنه صَحَّ إسنادُها إلى الإمام ابن عباس رضي الله عنهما، واعتبرَها بعضُهم من بابِ المرفوع إلى النبيِّ ﷺ، مع أنَّ ابنَ عباس لم يصرِّحْ برفعها! بينما اعتبرَها آخرون موقوفةً على ابن عباس..

ونحنُ نتوقفُ في هذه الرواية، ونعتبرُها موقوفةً على ابن عباس. ونوافقُ الإمام ابن كثير في تعليقِه على الرواية. قال: «.. وهكذا رواهُ النّسائي في السنن

الكبرى. وأخرجَه أبو جعفر بن جرير وابنُ أبي حاتم في تفسيريهما، كلُّهم من حديثِ يزيد بن هارون به.

وهو موقوفٌ من كلامِ ابنِ عباس، وليس فيه مرفوعٌ إلاّ قليلٌ منه. وكأنه تلقاهُ ابنُ عباس رضي الله عنه مما أُبيحَ نقلُه من الإسرائيليات عن كعبِ الأحبار، أو غيره، واللهُ أعلم، وسمعتُ شيخنا الحافظ أبا الحَجّاج المزّي يقولُ ذلك أيضاً»[1].

وبما أننا نتوقفُ في هذه الرواية، فلا نقولُ بحكايةِ الجمرةِ والتمرة، ولا نقولُ: إنّ العقدةَ التي في لسانِ موسى عليه السلام هي لثغةٌ بسببِ حَرْقِ الجمرةِ للسانِه، فلْنبحث عن تعليلٍ آخرَ لهذه العُقدة!.

١٦ ـ كانت عقدة لسان موسى معنوية:

لم تكن العقدةُ في لسانِ موسى عليه السلام مادية، ولم تكنْ لثغةً في لسانه، وإنما كانتْ عقدةً معنوية، تقومُ على انفعالِه وغضبِه، فإذا ما انفعلَ وغضبَ أسرعَ في كلامه، بحيثُ قد لا يَفهمُ السامعون بعضَ ما يقول!.

وسياقُ الآياتِ يدلُّ على ذلك، حيثُ طلبَ موسى عليه السلام من ربِّه أنْ يشرحَ له صدرَه وييسّرَ له أمرَه، ويحلَّ عقدةً من لسانه، وحلُّ العقدةِ مرتبطٌ بشرحِ الصدر!.

يجبُ أنْ ننظرَ في الآياتِ التي تتحدثُ عن ضيقِ الصدرِ وعقدةِ اللسان:

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾ [طه: ٢٥ ـ ٢٨].

وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ﴾ [الشعراء: ١٢ ـ ١٣].

وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص: ٣٣ ـ ٣٤].

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ١٤٩.

إن قولَه: ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي ﴾ يوضِّحُ المرادَ بالعقدة في قوله: ﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُواْ قَوْلِي ﴾.

أيْ أنَّ عقدةَ اللسان كانتْ مرتبطةً بضيقِ الصدر، ذلك الضيقُ الذي يترتبُ عليه عدمُ انطلاقِ اللسان.

كان موسى عليه السلام يعرفُ من نفسِه أنه ينفعلُ عند المواقفِ الخاصةِ المثيرة، وانفعالُ مشاعرِه يؤدّي إلى ضيقِ صدره، وتلاحقِ أنفاسه، وينتجُ من هذا عدمُ انطلاقِ لسانِه عندما يتكلّم، وإذا تكلَّمَ كان كلامُه سريعاً متتابعاً غيرَ واضح، وبهذا لا يكادُ يُبينُ أو يفصح.

هذا ما يقرِّرُه قوله: ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي ﴾ فتكذيبُهم له يؤدي إلى انفعالِه وغضبِه، وانفعالُه يؤدي إلى ضيقِ صدره، وضيقُ صدرِه يؤدِّي إلى عدم انطلاقِ لسانه، وعدمُ انطلاقِ لسانه (عقدة) معنوية تُعيقُ أداءَه مهمتِه، ولهذا سألَ اللهَ أنْ يحلَّ هذه العقدةَ المعنوية من لسانه.

وحلُّ عقدةِ لسانِه يكون بعدمِ ضيقِ صدره، عندما ينفعلُ أمام تكذيبهم له! لذلك سألَ موسى عليه السلام ربَّه أنْ يشرحَ له صدرَه، فإذا شرحَ صدرَه زالَ انفعالُه، وهدأَتْ نفسُه، واستقرَّت أنفاسه، واطمأنتْ أعصابه، وبذلك تُحلُّ عقدةُ لسانه، ويتكلمُ بهدوء، وتظهرُ كلُّ كلمةٍ من كلماتِه بوضوح.

وقد استجابَ اللهُ له، فأزالَ ضيقَ صدره، وبذلك حَلَّ عقدةَ لسانِه المعنوية!

وقد كان التابعيُّ محمدُ بن كعب القرظي سريعَ الكلام، بحيثُ لا يكادُ السامعُ يفهمُ كلَّ كلامِه.

فقالَ قريبٌ له يوماً: لا بأسَ بك، لولا أنك تلحنُ في كلامِك، ولستَ تُعربُ في قراءتِك!

فقالَ له محمد بن كعب: يا ابنَ أخي: ألستُ أُفهِمُك إذا حدَّثتُك؟.

قال: نعم.

قالَ ابنُ كعب: لا بأسَ إذاً، فإنَّ موسى عليه السلام إنما سألَ ربَّه أن يحللَ عقدةً من لسانه، ليفقهَ بنو إسرائيلَ كلامَه!».

قالَ سيدُ قطب في تفسيرِ عقدةِ لسانِ موسى عليه السلام: «والظاهرُ أن خوفَ موسى عليه السلام ليسَ من مجردِ التكذيب، ولكنَّ خوفَه من حصولِ التكذيب في وقتٍ يضيقُ فيه صدرُه، ولا ينطلقُ لسانُه، فلا يملكُ أن يُبين وأن يناقشَ هذا التكذيبَ ويفنِّدَه. . إذ كانتْ بلسانه (حبْسَة). . . ومن شأنِ هذه الحبسةِ أنْ تُنشئ حالةً من ضيقِ الصدر، تنشأُ من عدمِ القدرةِ على تصريفِ الانفعالِ بالكلام، وتزدادُ كلما زادَ الانفعال، فيزدادُ الصدرُ ضيقاً. . . وهكذا. . وهي حالةٌ معروفة. .»[1].

١٧ ـ كيف هارون أفصح لساناً من موسى؟:

لما طلبَ موسى عليه السلام من اللهِ أنْ يجعلَ معه أخاهُ هارون وزيراً، وأنْ يُرسلَه معه إلى فرعون، علَّلَ ذلك بأنه أفصحُ منه لساناً. قال تعالى: ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص: ٣٤].

هارونُ أفصحُ من موسى ـ عليهما السلام ـ في كلامِه، باعترافِ موسى نفسه، لأنَّ كلامَه واضحٌ عند الانفعال والمواجهة، بسبب هدوئه.

وقد تفرَّدت الآيةُ بذكرِ كلمتيْن اثنتيْن لم تردا في غيرِها من آيات القرآن، وهي: أفصح، ورِدءاً.

قالَ الإمامُ الراغبُ عن معنى الفصاحة: «الفَصْح: خُلوصُ الشيء مما يشوبُه. . . ومنه يُقال: فصُحَ الرجل: جادَتْ لغتُه»[2].

ومعنى فصاحة اللسان: كلامُه بكلامٍ جيد، ليس فيه شائبةٌ ولا خفاء.

وقال عن معنى الردء: «الرِّدء: هو الذي يَتْبَعُ غيرَه مُعيناً له»[3].

هارونُ عليه السلام هو الأفصحُ لساناً، لأنه كان يتمتعُ بأعصابٍ هادئة، مهما انفعلَ أو استُثير، فيتكلم كلاماً واضحاً هادئاً مسموعاً مفهوماً.

---

(١) الظلال، ص٢٥٨٩.
(٢) المفردات، ص٦٣٧.
(٣) المصدر السابق، ص٣٥٠.

وهو أخ لموسى عليهما السلام، لا نعرُف عن حياتِه قبلَ النبوةِ شيئاً، فهناك مبهماتٌ كثيرةٌ في حياته، لم تبينْها آياتُ القرآن: لا نعرفُ متى وُلد، ولا هل ولِدَ قبلَ موسى أَمْ بعده، ولا كيفَ نجا من قتْلِ فرعون، ولا كيفَ وأين كانتْ نشأتُه! ويبدو أنه ظلَّ مُقيماً في مصر عندما أقامَ موسى في مدين عشر سنوات.

ولا غرابةَ أنْ يكونَ موسى منفعلاً، يضيقُ صدْرُه عندما يغضبُ أو يُستثار، بينما أخوه هادىءُ الأعصاب، واسعُ الصدر، فصيحُ الكلام!.

إنّهما نموذجان مكروران في حياة البشرية: نموذجُ المنفعلِ ضيّقِ الصدر، ونموذجُ الهادئ واسعِ الصدر!.

الشخصُ هادىءُ الأعصابِ يستقبلُ المواقفَ المثيرةَ بأعصابٍ هادئة، فلا ينفعلُ كثيراً، ولا تتوتّـرُ أعصابُه، ولا يتسارعُ نبضُه، ويبقى محتفظاً بهدوئـه وأناتِه، يتكلّم بهدوءٍ وتأنٍّ، ويَضبطُ كلماتِه، فتخرجُ من لسانِه واضحةً فصيحةً مسموعة..

والشخصُ المنفعلُ يَستقبلُ المواقفَ الانفعاليةَ بأعصابٍ مشدودة، حيثُ يحتدّ، ويتسـارعُ نبضُه، وتتلاحَقُ أنفاسُه، ويؤدي الانفعالُ العالي إلى ضَياعِ صوتِه، وعندما يحاولُ التكلّمَ فإنَّ الهواءَ ينحبسُ في رئتيْه، ولا يكادُ يصلُ إلى جهازِ النطق، ولهذا تضيعُ منه الكلمات.

وإذا لم يصل المنفعلُ إلى هذه الحالةِ الحادَّةِ من انحباس الهواء، وضَياعِ الصوت، فإنه لا يتمكّنُ من توضيح كلامِه، لأنه يتكلمُ بسرعةٍ فائقة، ويكون كلامُهَ متسارعاً متتابعاً متدفقاً، وتتحكمُ في كلامِه مشاعرُه المنفعلة، وأنفاسُه المتسارعة، ونبضُهُ المتلاحق، فلا تخرجُ كلماته من مخارجها، ويضيعُ كثيرٌ منها، وتخفى حروفٌ كثيرةٌ منها، وبذلـك يكـونُ كلامُـه غيرَ مفهـوم.. والذي يسـمع كلامَـه لا يفهمُه، ولا يعرفُ ماذا يريدُ منه!.

عند استحضارِنا لهذيْن النموذجيْن المكرورَيْن في حياةِ البشرية، نعرفُ لماذا هارونُ الهادئ أفصحُ لساناً من أخيه موسى المنفعل ـ عليهما السلام ـ..

وقدْ مَنَّ اللهُ على موسى عليه السلام، فأزالَ انفعالَه أمام المفاجآت، وتمتعَ بهدوءٍ وتأنٍّ!!.

١٨ ـ معنى (ضلال) موسى في قتله للفرعوني:

لما وقفَ موسى عليه السلام أمامَ فرعون، ودعاهُ إلى الإيمان بالله، ذكّره فرعونُ بماضيه، ونشأتِه في قصرِه، فهو ربيبُ نعمتِه، فكيفَ الآنَ يزعمُ أنه نبيّ؟.

قالَ تعالى عن امتنانِ فرعون عليه: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝١٨ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٨ ـ ١٩].

إنَّ قتلَ موسى للفرعوني قبلَ عشر سنوات جريمةٌ عظمى عند فرعونَ وقومه، ولهذا وصفَه فرعونُ بالكفر: ﴿وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

ولم يردْ فرعونُ بالكفر معناه الديني، وهو الكفرُ بالله، لأنه لا يعرفُ الإيمانَ بالله.. وإنما أرادَ بالكفرِ الجحودَ ونكرانَ الجميل. أي: كنتَ من الجاحدين الذين جَحَدوا نعمتنا وكفروها، فقد أحسَنّا إليك لما ربّيناك حتى صرتَ شاباً، ولكنك قابلْتَ إحساننا، بالإساءة، وإنعامَنا بالكفران والجحود، فعدوْتَ على رجلٍ منّا وقتلْتَه! أهكذا تُجازي إحساننا؟ لقد كنت كافراً بنعمتِنا، جاحِداً لفضلنا!.

وردَّ موسى عليه السلام على فرعون بقوله: ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ۝٢٠ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٢١ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٠ ـ ٢٢].

اعترفَ موسى عليه السلام بأنه قتلَ الفرعوني، وبأنهُ كانَ في ذلك الوقتِ ضالاً!، فما المرادُ بالضلال؟ وكيف موسى النبيُّ عليه السلام يعترفُ ويصفُ نفسَه به؟

المرادُ بالضلال هنا الجهل، وليس الكفر، أي أنه كان من الجاهلين، لعدمِ وجودِ تشريعاتٍ وأحكام.

قالَ ابنُ عباس: ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾: وأنا من الجاهلين.

ووضّحَ موسى عليه السلام ذلك الضلال بأنه كانَ جاهلاً، ولما قتَلَ الفرعونيَّ هَرَبَ منهم خوفَ أن يقتلوه، وغابَ عنهم عشرَ سنين، ولما عادَ إليهم بعثَهُ اللهُ نبياً رسولاً لهم.

وكأنَّ موسى عليه السلام يقولُ لفرعون: لا تبحثْ في ماضيَّ، ولا يمنعُكَ

التفكيرُ فيه من الاستفادةِ مما معي من الخير والهدى، ولا تُحمّلني منّةً لأنكم ربيتُموني وأنا صغير، وقتلي للفرعوني وأنا جاهل لا يؤثرُ فيما معي من الهدى!.

١٩ ـ توجيه نحوي لقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾:

جاءَ السحرةُ بحبالِهم وعصيّهم للمباراةِ مع موسى عليه السلام، ونصحَهم موسى عليه السلام بعدمِ الافتراء ومواجهةِ الحق، قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ۝٦٠ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ [طه: ٦٠ ـ ٦١].

وتردّدَ بعضُ السحرة، وتنازعوا واختلفوا، فردَّ عليهم الفريقُ الآخر ليُثبتوهم ويشجعوهم. قال تعالى: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ ۝٦٢ قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ۝٦٣ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٢ ـ ٦٤].

شجّع السحرةُ بعضَهم بعضاً للثباتِ في التحدي، ووصفوا موسى وأخاه هارون عيهما السلام بأنهما ساحران، وليسا نبيّين.

وفي قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ إشكالٌ نحوي، يحتاجُ إلى توجيه. وقبلَ توجيهِ هذه القراءة نذكرُ ما فيها من قراءاتٍ صحيحة، من القراءات العشر.

في هذه الجملةِ من الآيةِ ثلاثُ قراءاتٍ صحيحة:

الأولى: قراءة أبي عمرو بن العلاء البصري ـ أحد القراء العشرة ـ: «قالوا: إنَّ هذيْن لساحران» بتشديد الحرف (إنَّ) و (هذيْن) بالياء!.

وهذه القراءةُ لا إشكالَ فيها، لأنّها وفق عملِ (إنَّ) عند النحويين.

(إنَّ): حرفُ توكيد ونصب، (هذيْن): اسمُ (إنَّ) منصوب، وعلامةُ نصبه الياء، لأنه مثنّى، و(اللام) في (لساحران): لامُ المزحلقة، و(ساحران): خبرُ (إنَّ) مرفوع، وعلامةُ رفعه الألف، لأنه مثنى.

الثانية: قراءةُ نافع وحمزة والكسائي وابنِ عامر: «قالوا: إنَّ هذان لساحران» بتشديد (إنَّ)، والألف في (هذان).

(هذان): اسمُ (إنّ) منصوبٌ بالألف. و(لساحران): خبرُ (إنّ) مرفوع.

وهذه القراءةُ وفقَ لغةٍ من لغاتِ العرب، الذين يجعلونَ إعراب المثنى بالألف، يقولون: هذان رجلان. كان هذان رجلان. إنَّ هذان رجلان!.

الثالثة: قراءةُ ابن كثير وحفص عن عاصم: «إنْ هذان لساحران»: بتخفيفِ (إنْ)، وألف في (هذان).

ولا إشكالَ في هذه القراءة، لأنه عندما خُفِّفَتْ (إنْ) فالأولى أنْ تلغى، فلا تعملُ في ما بعدها، و(هذان) مبتدأ مرفوع بالألف. و(لساحران) خبرٌ مرفوعٌ بالألف.

قال ابنُ مالك في (الألفية):

وخُفِّفَتْ (إنَّ) فقَلَّ العَمَلُ ... وتَلْزَمُ اللامُ إذا ما تُهْمَلُ

واللام في (لساحران) تسمّى (لامَ الفرق)، وهي التي تُفرِّقُ بين (إنْ) المخففةِ للتوكيد، وبينَ (إنْ) التي هي مجردُ حرفِ نفي.

٢٠ ـ كان سحر السحرة تخييلاً:

بدأ السحرةُ بإلقاءِ ما معهم من الحبالِ والعصيِّ، وكانتْ كثيرةً ضخمة، فتأثَّرَ الناسُ بها، قبلَ أنْ يلقيَ موسى عليه السلام عصاه.

وقد أخبرَ اللهُ عما ألقوه من حبالٍ وعصي. قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦].

وقال تعالى: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦].

تتحدثُ آيةُ سورةِ الأعراف عن تأثُرِ الناسِ المشاهدين بما ألقى السحرةُ من حبالٍ وعصي، أما آيةُ سورةِ طه فتتحدثُ عما تخيَّله موسى عليه السلام منها.

وتدلُّ الآيتان على أنَّ سحرَهم الذي جاؤوا به سحرٌ مُتَخيَّل، لا حقيقةَ له، إنما المشاهدون وهم تحتَ تأثيرِ الرهبةِ ظنُّوا أنه سحرٌ حقيقي، مع أنه خداعٌ وتخييل!.

قال تعالى: ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾: أي: أثروا في أعينِ المشاهدين،

عن طريقِ الإيهام والتأثير، خطفوا أبصارهم، فصارتْ تتوهمُ أنها ترى أشياءَ حية، وهي ليستْ حية، ولذلك رأت الجماداتِ من الحبالِ والعصيّ أفاعيَ وثعابينَ تتحرك وتسعى، مع أنها جامدةٌ ساكنة.

﴿ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ ﴾: مبالغةٌ من الرهبة التي قذفَها السحرةُ في نفوسِ المشاهدين، الذين كانوا في حالةٍ نفسيةٍ خائفةٍ قلقةٍ متأثرةٍ بالسحر والسحرة.

والهمزةُ والسينُ والتاءُ في الفعل (استرهبوهم) تدلُّ على التأكيد، وتُثبتُ (إرهابَ) السحرةِ للمشاهدين. وإنَّ (استرهاب) السحرة للمشاهدين هو السببُ في تأثرهم النفسي، ووقوعِهم في الأوهامِ والتخييل، ورؤيةِ عيونهم الأشياءَ على غير ما هي عليه، بحيثُ خُيِّلَ لها أنَّ الحبالَ والعصيّ أفاعي تسعى، ولولا الاسترهابُ النفسي لما سُحرتْ عيونُ المشاهدين.

والتنكيرُ في قوله: ﴿ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ﴾ للتهويلِ والتضخيم، ويكفينا وصْفُ اللهِ له بأنَّه سحرٌ عظيمٌ لنتصوّر مدى كثرته وضخامته، قدَّموه لاسترهابِ الناسِ وسحرِ عيونهم.

ومما يدلُّ على ضخامةِ وعظمةِ سحرِهم، وأنه تخييلٌ لا حقيقةَ له، أنَّ موسى النبيَّ الرسولَ عليه السلام خُيِّلَ إليه تخييلاً أنه حقيقة: ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ﴾.

أي: لما ألقى السحرةُ حبالَهم وعصيَّهم، خُيِّلَ لموسى عليه السلام أنها ليستْ مجرَّدَ حبالٍ وعصي، وإنما هي أفاعٍ تسعى حقيقة!

فإذا خُيِّلَ لموسى الرسولِ المؤيَّدِ بالوحي عليه الصلاة والسلام أنَّ حبالَهم وعصيَّهم أفاعٍ تسعى، فكيفَ بالناسِ المشاهدين؟ هذا يدلُّ على مدى استرهابِ السحرةِ للناس، وعلى سحرِ أعينِهم وإيهامهم.

إنَّ كلَّ ما قدّمه السحرةُ إنما هو تخييلٌ وخداع، ولا حقيقةَ له، وهذا ما وردَ في صريحِ الآيتيْن السابقتيْن: آيةِ سورةِ الأعراف، وآيةِ سورة طه.

وهذا لا يعني أنَّ كلَّ سحرٍ تخييلٌ وخداعٌ، فقد ذكرَ القرآنُ نوعيْن من السحر:

الأول: سحرٌ لا حقيقةَ له، وهو تخييلٌ وخداع، يقومُ على خفّةِ ومهارةِ الساحر، وقدرته على خداع المشاهدين وسحرِ عيونهم، وما قدَّمه ليس له رصيدٌ من الحقيقةِ الواقعية، وهذا معظمُ ما يقدّمُه السحرة، ومن هذا البابِ سحرُ السحرةِ

أمامَ موسى عليه السلام.

الثاني: سحرٌ له حقيقةٌ ورصيدٌ من الواقع، بمعنى أنَّ الساحرَ قد يفعلُ بعضَ الأشياء، وقد يضرُّ بعضَ مَنْ يوجِّهُ السحرَ له، وقد يؤذيه، لكنَّه لا يفعلُ ذلك إلا بإذنِ الله.

من هذا النوعِ سحرُ أهلِ بابل من اليهود، الذين كانوا يُفرّقون به بين المرءِ وزوجه، ويَضُرّون به الآخرين، بإذنِ الله!

قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ﴾ [البقرة: ١٠٢].

٢١ ـ الخيفة التي أوجسها موسى في نفسه:

عندما شاهدَ موسى عليه السلام حبالَهم وعصيَّهم، خُيِّلَ إليه من قوّةِ سحرِهم أنها أفاعٍ حقيقيةٌ تسعى، عند ذلك تدسَّسَ الخوفُ إلى نفسه قليلاً، لكنَّ اللهَ تداركه بالتثبيت. قال تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٦ ـ ٦٩].

وقد يلومُ بعضُهم موسى عليه السلام على الخوفِ الذي اعتراه، فكيف يخاف واللهُ سبحانه وتعالى معه؟

ما معنى (أوجس)؟ وما الفرق بين الخوفِ والخِيفة؟

التوجُّسُ لا يكونُ إلا مقترناً بالخوف، وهو حالةٌ نفسيةٌ شعورية، فإذا تعمّقتْ في النفسِ قادتْ إلى الخوفِ الفعلي.

قال الإمامُ الراغبُ عن التوجّس: «الوجْس: الصوتُ الخفيّ. والتوجُّس: التَّسمُّع. والإيجاس: وجودُ ذلك في النفس. قال تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ قالوا: الوَجْسُ حالةٌ تحصلُ من النفسِ بعد الهاجس، لأنَّ الهاجسَ مبتدأُ التفكير،

ثم يكونُ الواجسُ، ثم الخاطر . . .»[1].

التوجُسُ مبنيٌّ على الهاجس، وهو نداءٌ نفسيٌّ خفيّ، ووسواسٌ داخليٌّ يكونُ بسببِ مرورِ الإنسانِ بحالةٍ معينة.

وقد أطلقَ القرآنُ على هذا الواجسِ النفسيِّ كلمةَ (خيفة) ولم يُسَمّه (خوفاً)، وفرّقَ بين (الخوف) و(الخيفة).

قال الإمامُ الراغبُ عن الفرقِ بينهما: «الخوفُ توقّعُ مكروهٍ عن أمارةٍ مظنونةٍ أو معلومةٍ. . والخيفة: الحالةُ التي عليها الإنسانُ من الخوف»[2].

الحالةُ التي مرّتْ بموسى عليه السلام (خيفةٌ) وليست (خوفاً)، وهذه الحالةُ في نفسه: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ . . وهذا يدلُّ على أنها كانتْ حالةً نفسيةً عرضيةً سريعةً، سرعانَ مازالتْ، وحلَّ محلَّها ثباتُهُ ويقينُه، وهذا التوجُسُ النفسيُّ السريعُ لم يؤثّرْ على موقفِه وتحدّيه، ولم تتحوّلْ هذه (الخيفة) إلى خوفٍ فعلي!

وهذه الخيفةُ العرضيةُ التي ألمّتْ به من لوازمِ بشريته، ولا يلامُ عليها، لأنها لم تستمر طويلاً، ولم تتحوّلْ إلى جبنٍ وخوف، ولم تُودِ به إلى الهزيمة. .

ومرورُ الخيفةِ به سريعاً على صورةِ طائفٍ عرضيّ موقوت، أمرٌ مفهومٌ مبرَّر، لأنه كان في مباراةٍ كبيرة ومعركةٍ قوية، ومَنْ كان مكانَه لا يتوجّسُ خيفةً وإنما ينهارُ من الخوف!.

لقد مَنَّ اللهُ على موسى عليه السلام، حيث تداركَه بإزالةِ الخيفة، وإحلالِ الثباتِ مكانَها، حيث قال له: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٦٨ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾، أي: لا تخفْ يا موسى من سحرِهم وحبالِهم وعصيّهم، ولا من اعتزازِهم بفرعون المتكبر! إنّك أنت الأعلى منهم جميعاً، لأنكَ على الحق، وهم على الباطل.

٢٢ ـ موسى وآياته التسع إلى فرعون وملئه:

أخبرَ اللهُ أنّه آتى موسى عليه السلام تسعَ آياتٍ موجّهة إلى فرعونَ وقومه.

---

(١) المفردات، ص٨٥٥.

(٢) المرجع السابق، ص٣٠٣.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ ﴾ [الإسراء: ١٠١].

وقال تعالى: ﴿ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [النمل: ١٢].

وهذه الآياتُ التسعُ قبلَ غرقِ فرعونَ وجنودِه، ونجاةِ بني إسرائيل مع موسى عليه السلام. فما هي هذه الآياتُ التسع؟

منها آيتان بيِّنتان ومعجزتان باهرتان، قدَّمهما موسى عليه السلام إلى فرعون، لما قابله أولَ مرة، وهما العصا واليد. قال تعالى: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٠٧ـ١٠٨].

آيةُ العصا: عصا جامدةٌ تحولتْ إلى ثعبانٍ مبين، تسعى هنا وهناك، وعندما يمسكُها موسى عليه السلام تعودُ عصا خشبيةً جامدة.

أما اليد: فإنَّ موسى عليه السلام كان أسمرَ اللون، ويدُه كانت سمراء، والآيةُ فيها أنَّه عندما كان يُدْخلها في جيبه، ثم يُخرجُها منه تكونُ بيضاءَ ناصعةَ البياض، وبياضُها من غير سوء، فهو ليسَ ناشئاً عن برَصٍ أو مرض. وإنما هو من فعلِ الله، وبعد ذلك تعودُ اليدُ سمراءَ كما كانت.

والعصا آيةٌ للتحدي، ولذلك هَزَمَ الله السحرةَ لما جاؤوا لإبطالها بحبالِهم وعصيِّهم، وآمنَ السحرةُ لأنهم أيقنوا أنها من الله، وليستْ من فعلِ موسى عليه السلام.

وأخبرَنا اللهُ عن الآياتِ السبعِ الأخرى في سورةِ الأعراف. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ ﴾ [الأعراف: ١٣٠ـ١٣٣].

وهذه الآيات السبعُ هي:

١ ـ السِّنين: وهي جمعُ (سَنَة) والمرادُ بها سنةُ الجدبِ والمحْلِ والقحْط، حيث تنحبسُ الأمطار.

٢ ـ نقصُ الثمرات: وهي ناتجةٌ عن الآيةِ الأولى، فعندما تنحبسُ الأمطارُ تيبسُ المزروعات، وتنقصُ الثمرات.

وهاتان الآيتان مذكورتان في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾.

٣ ـ الطوفان: أجرى الله عليهم الماءَ طوفاناً جارفاً، بعدَ انحباسِ الأمطار ونقصِ الثمرات.

٤ ـ الجراد: وهو آفةٌ ماحقةٌ تقضي على المزروعاتِ والثمار. فبعدما انتهى الطوفانُ وزالَ الفيضان، استبشرَ قومُ فرعون بموسمٍ زراعيٍّ جيد، وزرعوا أراضيهم بالمزروعات، ولما نَما الزرعُ وفَرحوا به، أرسلَ اللهُ عليه الجرادَ فأكلَه وأهلكه.

٥ ـ القُمَّلُ: ولم تَرِدْ هذه الكلمةُ في غير هذا الموضع من القرآن. وهو السوسُ الذي يُصيبُ السنابلَ والحبوبَ ويَقضي عليها.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: القُمَّلُ: السوسُ الذي يَخرجُ من الحنطة، فالحبوبُ التي نَجَتْ من الجراد والتي تمكَّنوا من جنْيِها والاحتفاظِ بها، أرسَلَ الله عليها السوسَ فأكلها..

٦ ـ الضفادع: آيةٌ جديدةٌ أرسلها الله عليهم، وهي مبهمةٌ في القرآن، فلا نعرفُ تفاصيلها، ولا كيف أرسلَها الله عليهم.

٧ ـ الدم: هي آيةٌ مُبهمةٌ أيضاً، لا نعرفُ عن تفاصيلها شيئاً.

هذه هي الآياتُ التسعُ التي آتاها اللهُ موسى عليه السلام، ولما كفرَ فرعونُ وقومُه بها أهلكهم الله!.

٢٣ ـ ما هي (مفاتح) كنوز قارون؟

ذكرَ القرآنُ أنَّ قارون كان إسرائيلياً من قوم موسى، وأخبرَ عن مجملِ قصته، فهو إسرائيلي، لكنه بغى على قومه، وانحازَ إلى فرعون، وكان من أعوانه، وآتاهُ اللهُ الكنوزَ الكثيرة، ولكنّه استخدمها في البغي والفساد، ولم يستمعْ لنصحِ الناصحين المؤمنين، وفُتِنَ كثيرون من الإسرائيليين به، وتمنّوا أنْ يكونوا

أغنياء مثله، ولما تمادى في طغيانِه وضلاله، خسفَ الله به وبداره وكنوزِه الأرض، فابتلعَتْه!!.

أخبرَ الله عن كثرةِ كنوزه بقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦].

مفاتحُ كنوزِ قارون تنوءُ بمجموعةِ الرجال الأقوياء عندما يُريدونَ حمْلَها.

وقد خاضَ رواةُ الإسرائيليات كثيراً في (مفاتيح خزائن) كنوزِ قارون، وذهبَ بعضُهم إلى أنَّ هذه المفاتيحَ كانتْ تُحملُ على سبعين بغلاً!! فإذا كانتْ هذه هي المفاتيحُ فكيفَ الخزائن وما فيها من كنوز؟!.

ونحنُ نبقى مع ظاهرِ النصِّ القرآنيِّ في حديثِه عن مفاتحِ كنوز قارون، ولا نذهبُ إلى الإسرائيليات لنعرفَ تفاصيلَها.

إنَّ التعبيرَ عن أموالِ قارونَ بالكنوز يوحي بأنَّه حصَّلَها بأدنى جهد، وأنَّه كانَ يَعُدُّها ويحفظُها، ويكنزُ بعضَها فوق بعض، ولا يُخرجُ منها شيئاً للمحتاجين! وكانَ يُكثِرُها ويُنمّيها ويزيدُها، ولا يقنعُ ولا يكتفي بما امتلك منها!

ما المرادُ بالمفاتحِ في الآية؟ ولماذا عبَّرت الآيةُ بها ولم تُعبِّر بالمفاتيح؟

ذهَبَ بعضُهم إلى أنَّ المفاتحَ هي المفاتيح، التي تُفتحُ بها خزائنُ كنوزه، وهذه المفاتيحُ يعجزُ الرجالُ الأشداءُ عن حملها!.

ونحنُ لا نرى ذلك، لأنّه لا ترادُفَ بين المفاتح والمفاتيح.

المفاتحُ جمعُ (مَفتح)، أما المفاتيح فإنها جمع (مِفتاح).

قال أبو البقاء الكفوي في (الكليات) عن الفرق بينهما: «المفتاح: آلةُ الفتح، والمَفتح: الخزانةُ والكنزُ والمخزن. والمفاتحُ جمعُ مَفْتح، وهو المكان، وليستْ جمعَ مفتاح، ولو كانتْ جمعَ مفتاح لوجَبَ أنْ تُقلبَ ألفُها ياءً، فيقال: مفاتيح»[1].

المفاتحُ إذنْ هي الخزائنُ الكبيرةُ التي كانت توضَعُ فيها كنوزُ قارون.

---

(١) الكليات للكفوي، ص٨٦٧.

هذه الخزائنُ كانت (تنوءُ) بالعصبةِ أولي القوة. أي: عندما يَحملُها عصبةُ الرجالِ الأقوياء فإنها تُثقِلُهم وتُتعِبُهم، ولا يكادون يحملونها.

يقال: ناءَ الرجلُ بحمْلِه، إذا نهضَ وقامَ به مُثقَلاً.

و: ناءَ الرجل: إذا أثقله الحمل، فسقط، ولم ينهض به.

و: ناءَ الحملُ بالرجل: إذا أثقل الحملُ الرجلَ وأمالَه[1].

وكونُ خزائنِ قارون تنوءُ وتَثقلُ بالمجموعة من الرجالِ الأقوياءِ دليلٌ على كثرَتِها. وهذا دليلٌ آخر على أنَّ المرادَ بالمفاتح في الآية هو الخزائن، وليسَ المفاتيحَ التي تُفتحُ بها الخزائن، فالمفاتيحُ لا تنوءُ بالعُصبة أولي القوة، بل لا تنوءُ بالرجل الواحد، إذ يستطيعُ الرجل الواحدُ حملَ مئاتِ المفاتيح بسهولةٍ ويُسر!.

٢٤ ـ معنى (ويكأن) الله يبسط الرزق ويقدر!:

فَتَنَ قارونُ الناسَ عندما خرجَ على قومِه في زينتِه، حيثُ تمنّى الذين يُريدونَ الحياةَ الدنيا أن يكونوا مثلَه. قال تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴾ [القصص: ٧٩ ـ ٨٠].

عند ذلك حقَّتْ عليه كلمةُ الله، فخسفَ به وبداره وكنوزه الأرض: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ [القصص: ٨١].

وقد أجملَ القرآنُ الحديثَ عن الخسفِ بقارون، فلم يُفصِّلْ ذلك، بينما ذَكرت الإسرائيلياتُ تفاصيلَ كثيرة لهذا الخسف، ونحنُ لا نقول بها لأنها لم تثبت.

وهناكَ حديثٌ صحيحٌ لرسولِ الله ﷺ، أخبرَ فيه عن الخسف برجلٍ من السابقين.

---

(١) المعجم الوسيط: ٢/ ٩٦٠.

روى البخاري [برقم: ٥٧٨٩]، ومسلم [برقم: ٢٠٨٨] عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسولِ الله ﷺ قال: «بينما رجلٌ يمشي، قد أعجبته جُمَّتُه وبُرْداه، إذْ خُسِفَ به في الأرض، فهو يتجلجلُ في الأرضِ حتى تقوم الساعة».

ولم يُصرح الحديثُ بأنَّ هذا الرجلَ الذي خُسفَ به هو قارون، لكن فهمَ بعضُ العلماءِ أنه قارون.

وبعدما خسفَ اللهُ الأرضَ بقارون وبيتِه وكنوزِه تغيَّر موقفُ الذين فُتِنوا به وبزينتِه! فبالأمس كانوا يتمنَّون أنْ يكونوا مثلَه، ويقولون: ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾.

والآن صاروا يحمدونَ اللهَ لأنَّهم ليسوا مثلَه، فلو كانوا مثلَه لخسَفَ اللهُ بهم! قال تعالى: ﴿وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [القصص: ٨٢].

وكلمة (وَيْكَأَنَّ) كُررتْ مرتيْن في الآية!

وقد التبسَ على كثيرين فهمُ معناها، ومنْ ثمَّ وردَ في معناها أقوال:

١ ـ فقال بعضُهم: معنى (ويكأن): ويلك اعْلَم أنَّ. أي: ويلك اعلمْ أنَّ الله يبسطُ الرزقَ لمن يشاءُ ويقدِر. ويلك اعلمْ أنه لا يفلحُ الكافرون.

٢ ـ وقال آخرون معناها: ألم تَرَ. أيْ: ألم ترَ أنَّ الله يبسطُ الرزق..

٣ ـ وقال آخرون: (ويكأن) مكوَّنَةٌ من كلمتين. (وي): للتعجب، و(كأن) بمعنى: أظُن.

والراجحُ هو القولُ الأخير، فهي مكونةٌ من كلمتين: وي، كأن.

والراجحُ في إعرابها هو: (وي) اسمُ فعلٍ مضارعٍ بمعنى نعجَبُ، و(كأن): حرفُ تشبيه. والتشبيهُ هنا ليس مراداً، وإنما هو للتقريرِ واليقين.

والمعنى: لما رأى القومُ المخدوعون بقارون نهايتَه الأليمةَ تعجَّبوا، وأيقنوا بصحةِ ما قاله المؤمنون لهم.

قالوا: (وي): إننا نتعجبُ مما حصلَ لقارون من الخسف.

ثم قالوا: كأن ﴿ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ﴾. أي: نوقنُ ونعلمُ أنَّ اللهَ يبسطُ الرزقَ لمن يشاء، ويوسعُه عليه، ويضيقُ الرزقَ على مَنْ يشاء.

ثم قالوا: ﴿وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾: إننا نتعجبُ مما انتهى إليه قارون، ونوقنُ ونعلمُ أنه لا يفلحُ الكافرون، وقارونُ لم يفلحْ لأنه كافر!.

اعتبروا أنَّ الله مَنَّ عليهم لأنَّه لم يُعْطِهم المالَ الكثير، ولو أعطاهم المالَ الكثيرَ لخَسَفَ بهم كما خَسَفَ بقارون، وحَمدوا اللهَ على قلةِ مالِهم!.

لكن متى عرفوا ذلك؟ عرفوه متأخرين بعدما شاهدوا هلاكَ قارون بعيونهم! وشتَّانَ بين المعرفتين: معرفةِ المؤمنين الصابرين لهذه الحقيقةِ أثناءَ فتنةِ قارون، فلم يغتروا ولم يُفْتَنوا به، ومعرفةِ هؤلاء المتأخرة!!.

٢٥ ـ موسى على جبل الطور أربعين ليلة:

كان بنو إسرائيل في سيناء، يقودُهم موسى وهارونُ عليهما السلام، وقد أمرَ اللهُ موسى عليه السلام بالمجيءِ إلى جبل الطور، لمناجاتِه وإنزالِ التوراة عليه، واستخلفَ موسى أخاهُ هارون على بني إسرائيل، وتوجَّه إلى جبل الطور.

قال تعالى: ﴿۞ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

ما دلالة فعل (واعدنا)؟

إنه فعلٌ ماضٍ رُباعي، والألفُ فيه ألفُ مفاعلة.

وفرْقٌ بين الفعلين: (وعَدَ) و(واعَدَ).

(وعَدَ): يدلُّ على أنَّ الوعْدَ من طرفٍ واحد، بأنْ يَعِدَ شخصٌ شخصاً آخر موعداً.

أما (واعد): فإنه يدلُّ على أنَّ الوعدَ متبادلٌ من الطرفين.

كانت المواعدةُ من الله لموسى عليه السلام، بأنْ دعاهُ للمجيءِ إلى جبلِ الطور ليكلِّمه ويُكرمَه ويناجيه، والمواعدةُ من موسى أيضاً، بأنْ جاءَ ونفَّذَ ما أمره الله به.

أخبرَ اللهُ موسى عليه السلام قبلَ مجيئِه إلى الطورِ أنّه سيغيبُ عن قومِه ثلاثين ليلة، فاستخلفَ عليهم أخاه هارونَ عليه السلام، وأوصاه أنْ يخلفَه فيهم بخيرٍ ويُصلح، وأنْ يحذرَ المفسدين.

ولما انتهت الليالي الثلاثون وموسى عليه السلام على جبلِ الطور، أتمّها الله بعشرِ ليالٍ أخرى، فصارتْ أربعين ليلة.

أخبرتْ سورةُ البقرةِ عن المجموعِ النهائي لليالي بدونِ تفصيل. فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ [البقرة: ٥١].

بينما فصّلَتْ سورةُ الأعراف هذه الليالي. قال تعالى: ﴿ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

كانت الليالي ثلاثين، ثم مُدِّدَتْ عشراً، فصارتْ أربعين ليلة، ولم يذكر القرآنُ سببَ هذا التمديد، فلا نخوضُ فيه.

وبعدما انتهت الليالي الأربعون كلّم اللهُ موسى عليه السلام على جبلِ الطور تكليماً. قال تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤].

ولا نخوضُ في كيفية كلامِ اللهِ لموسى عليه السلام، ولا في كيفيةِ سماع موسى عليه السلام لكلامِ الله، لأننا لا (نُكيِّفُ) صفاتِ الله، ولا نعرفُ كيفيةَ اتّصافِه سبحانه بها.

إننا نُثبتُ (الكلامَ) صفةً من صفاتِ الله، ونؤمنُ أنّ الله متكلّم، وأنّه لا نهايةَ لكلامه، وأنّه يُكلمُ مَنْ شاء من خلقِه، كما يليقُ بعظمتِه سبحانه.

كلَّمَ اللهُ موسى عليه السلام مباشرة، فهو كليمُ اللهِ، كما كلَّمَ محمداً ﷺ ليلةَ المعراج في السموات العلى، فهو كليمُ الله أيضاً.

ولما سمعَ موسى عليه السلام كلامَ اللهِ ووعاه، استشرفَتْ نفسُه إلى أنْ يرى الله، فطلبَ من الله أنْ يراه! . قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وقد يعتبرُ بعضُهم هذا الطلبَ مأخذاً يُؤخذُ على موسى عليه السلام، فكيف

يطلبُ من اللهِ أنْ ينظرَ إليه بعينيْه؟ ألم يكنْ يعلمُ أنَّ هذا غيرُ ممكنٍ في الدنيا؟.

وفي الحقيقةِ لا نرى هذا مأخذاً يُؤخَذُ عليه، وهو لم يُخطئ في هذا الطلب!

لم يكنْ يعلمُ أنَّ رؤيةَ اللهِ غيرُ ممكنةٍ في الدنيا، ولو كان يعلمُ ذلك ما تجرّأ وطلب، لأنَّه عليه السلام ملتزمٌ بشرعِ اللهِ لا يخالفه!.

والذي دفعَهُ إلى طلبِه أنه سعدَ بما خصَّه اللهُ به من الكرامةِ والفضل، حيثُ كلَّمه تكليماً، وسمعَ هو كلامَ الله يقيناً، فتاقَتْ نفسُه إلى أنْ يرى الله بعينيه، ليجمعَ الفضلَ من طرفيه، طرفِ السمع وطرفِ البصر، وبما أنّه سعدَ بسماعِ كلامِ اللهِ بأذنيه، فقد أرادَ أنْ يرى الله بعينيه!!.

وأرادَ اللهُ أنْ يبيّنَ لموسى عليه السلام أنَّ رؤيتَه في الدنيا غيرُ ممكنة، ولذلك قال له: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾.

لم يَلُم اللهُ موسى عليه السلام على طلبِه أن يراه، وأعذرَه فيه، لأنه لا يعلم، ولما علمَ موسى عليه السلام أن اللهَ لا يُرى أنابَ إليه.

تجلّى اللهُ للجبلِ الذي يقفُ موسى عليه، تجلّياً يليقُ بعظمتِه وجلالِه، ولا نعرفُ كيفَ تجلّى سبحانه للجبل، لأننا لا نعرفُ كيفياتِ أفعالِ الله، لأنَّ تصوُّرَ كيفيةِ أفعالِه سبحانه وتعالى ناتجٌ عن تصورِ كيفيةِ ذاتِه، وهذا ما لا يمكنُ أنْ يكون..

قال سيد قطب: «كيف كان هذا التجلي؟ نحنُ لا نملكُ أنْ نصفَه، ولا نملكُ أنْ ندركَه، ولا نملكُ أنْ نستشرفَه إلا بتلك اللطيفةِ التي تصلُنا بالله، حينَ تشفُّ أرواحُنا وتصفو، وتتجهُ بكليتها إلى مصدرها، فأما الألفاظُ المجردة فلا تملك أنْ تنقلَ شيئاً.. لذلك لا نحاولُ بالألفاظِ أن نصوِّر هذا التجلي»[1].

تجلّى اللهُ للجبلِ كما يليقُ بجلاله، فجعلَ الجبل دكّاً، وخرَّ موسى صعقاً، ولما أفاقَ أيقنَ أنَّ اللهَ لا يمكنُ أن يُرى في الدنيا، فقال: ﴿سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

---

(١) الظلال: ٣/١٣٦٩.

بدأ كلامَه بتسبيحِ اللهِ وتنزيهِه عن كلِّ نقص، ووصفِه بكلِّ كمالٍ وجلال.

ثم أعلنَ توبتَه إلى الله، وهي ليستْ عن ذنبٍ ارتكبه، لأنَّ الأنبياء معصومون عن الذنوب والمعاصي، ولا تدلُّ على أنَّ موسى عليه السلام أخطأ عندما طلبَ من الله أنْ يراه، لأنه لم يكنْ يعلمُ أنَّ اللهَ لا يُرى في الدنيا، وغيرُ العالم لا يُسمى مخطئاً، وتوبةُ موسى عليه السلام ذكْرٌ منه لله، وتوثيقٌ لصلته به!.

وصرَّحَ موسى عليه السلام بأنه أولُ المؤمنين. أي أنه أولُ المؤمنين بالله، الذين يعتقدون أنَّ الله لا يمكنُ أن يُرى في الدنيا، لأنه رأى الجبل يُدَكُّ لما تجلّى ربُّه له.

وليس المرادُ بأولِ المؤمنين هنا الأولية التاريخية، لأنَّه يوجَدُ مؤمنون كثيرون قبلَ موسى عليه السلام، منذُ آدمَ عليه السلام. إنما المرادُ بذلك أوليةٌ خاصة، فهو أولُ المؤمنين من قومِه بني إسرائيل، لأنه رسولُهم وإمامُهم وأولُهم وأفضلُهم!.

ونشيرُ هنا إلى أنَّ عدمَ رؤيةِ اللهِ في الدنيا لا تعني عدمَ رؤيتِه في الجنة، فقد صرَّحَت الآياتُ والأحاديثُ الصحيحةُ بأنَّ المؤمنين يرونَ الله تعالى في الجنة، وأنَّ هذه الرؤيةَ هي أعظمُ من كلِّ نعيمٍ في الجنة. وليس هذا موضعَ تفصيلِ القولِ فيها..

٢٦ ـ بعض صفات التوراة الإيجابية!:

أنزل اللهُ التوراةَ على موسى وهو على جبلِ الطور، وكانتْ مكتوبةً على (الألواح) التي أنزلتْ عليه من السماء. قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

(الألواح) جمعُ لوح، وهو ما يُكتَبُ عليه من خشبٍ ونحوه، وهي الألواحُ التي كُتبتْ عليها التوراة، كتابُ الله النازلِ على موسى عليه السلام.

وتدلُّ الآيةُ على أنَّ التوراة كُتبتْ على تلك الألواح في السماء، وتناولها موسى مكتوبةً جاهزة. لأنه لم يَرِدْ في مصادرِنا الإسلامية أنَّ موسى عليه السلام كان كاتباً، أو أنه أخذَ معه ألواحاً إلى جبلِ الطور، فكان يكتبُ عليها ما يوحي به

الله إليه، أو أنـه كانَ حولَه كُتّابٌ آخرون من بني إسرائيل! وبما أن هذا لم يَرِدْ عندنا، فالألواحُ كُتبتْ عليها التوراة في السماء، وأُنزلَتْ على موسى عليه السلام جاهزة.

والألواحُ المذكورةُ هنا مبْهمة، لم يُفصِّل القرآنُ الحديثَ عنها، فلا نعرفُ عددَها ولا حجْمَها ولا مادتَها ولا وصفَها. فنُبقيها على إبهامها.

وكتبَ اللهُ التوراةَ في الألواح، وجعلَ فيها كلَّ شيء: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾.

وهذا يدلُّ على شمولِ التوراةِ لما يحتاجُه بنو إسرائيل من الشرائع والمواعظِ والتوجيهاتِ والآداب، لأنها كتابُ الله، وكلُّ كتبِ اللهِ شاملةٌ للأقوام الَّذين أُنزلتْ إليهم.

أمرَ اللهُ موسى عليه السلام أنْ يأخُذَ التوراةَ بقوة: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾، والمرادُ بالقوةِ هنا قوةُ العزيمةِ والإرادة، وقوةُ الفهمِ والعلم، وقوةُ الالتزامِ والعملِ والتنفيذ.

وطلبَ اللهُ من موسى عليه السلام أن يأمُرَ قومَه أنْ يأخذوا بأحسنها: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾.

و(أحسن) في الجملةِ أفعلُ تفضيل، وظاهِرُه أنَّ ما في التوراة نوعان: منه ما هو حَسَن، ومنه ما هو أحْسَن.

وقد يقعُ بعضُهم في إشكال، فالتوراةُ كلامُ الله، كيف يكون فيها حَسَن وفيها أحسن؟

الراجحُ أنَّ أفعلَ التفضيلِ ليس على بابه، إنما المرادُ به وصْفُ التوراة بأنها حسنة، وكلُّ ما فيها ذو حُسْنٍ تامٌّ كامل. وذلك لأنَّ التوراة كلامُ الله، وكلُّ كلام الله حسن، والمعنى: أأمُرْ قومَك بأخْذِ ما في التوراة، والاستمساكِ به فإنه كاملُ الحسن.

وقد وردتْ بعضُ صفاتِ التوراة في القرآن:

- فهي كتاب وفرقان. قال تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٥٣].

التوراة كتابٌ لأنها كلامُ الله، أمرَ بكتابتِه على الألواح، وهي أحدُ كتبِ الله التي يجب الإيمان بها، ومَنْ لم يؤمنْ بها فهو كافر.

والتوراةُ فُرْقان، لأنَّ الله فرّقَ فيها بين الحقِّ والباطل، فكلُّ ما فيها حق، وكلُّ ما خالفَها فهو باطل.

ـ وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ﴾ [الأنعام: ٩١].

فالتوراةُ في هذه الآيةِ موصوفةٌ بأنّها نور، يُنير للناسِ حياتَهم، وهي هُدى يهديهم إلى الصراطِ المستقيم.

ـ وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨].

فالتوراةُ في هذه الآيةِ موصوفةٌ بأنها فُرقان، بالمعنى الذي بيّنّاه، وهي ضياءٌ يضيء لبني إسرائيل حياتَهم، وهي ذِكْرٌ للمتقين، تدلُّهم على كيفيةِ ذكرِهم لله، وحسنِ عبادته.

ـ وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣].

جعلَ اللهُ التـوراةَ بصائـرَ للناس، يُبصرون بها الحق، ويتعرّفـون عليه، ويُميّزونَه عن الباطل، وهدى يهتدون به إلى طريقِ الحق، ورحمـةً من اللهِ لهم يرحمهم بها.

هذه الصفاتُ الإيجابيةُ للتوراةِ التي أنزلَها اللهُ على موسى عليه السـلام، فهي: كتابٌ وفرقان، وهي نورٌ وهدى، وهي ضياءٌ وذكر، وهي بصائرُ ورحمة، لأنها كلامُ الله وكتابُه، وكلُّ كلامِ الله هكذا، وكلُّ كتبِ الله هكذا.

وقد يُخطئ بعضُهم فيجعلُ هذه الصفاتِ الإيجابيةِ للتوراةِ الموجودةِ الآن بين أيدي اليهود، والتي يسمونها (العهد القديم).

قد يُحسنُ بعضُهم الظنَّ في التوراةِ التي بأيدي اليهودِ الآن، ويعتبرُها كتابَ الله، ويؤمنُ بها ويُصدقُ بما فيها، لأنَّ القرآنَ أثنى عليها!!.

لذلك يجبُ أنْ نُنبِّهَ إلى أنَّ هذه الصفاتِ الإيجابيةِ إنما هي للتوراةِ التي أنزلها اللهُ على موسى عليه السلام، ولما التزمَ بنو إسرائيل بها زمنَ موسى عليه السلام أسعدوا أنفسَهم واستقامتْ حياتُهم.

وبعد ذلك حرَّفَ أحبارُ اليهودِ التوراة، ومَزَجوا كلامَ الله الذي فيها بكلامِهم، وملؤوها بالإسرائيليات والأكاذيب، والكفرِ والتضليل، وبذلك طمسوا ما فيها من نور وضياء، وقضَوا على ما فيها من هدى وفرقان، وأصبحتْ كتابَ كفرٍ وكذبٍ ألَّفهُ الأحبار، ولم تَعُدْ بعد ذلك التحريفِ كتاباً من كتب الله.

ويجبُ على كلِّ مسلم أنْ يُؤمنَ أنَّ التوراةَ الموجودةَ الآن بين أيدي اليهود لم تَعُدْ كتاباً من كتبِ الله، وليستْ هي التوراةَ النازلةَ على موسى عليه السلام، وإنما هي كتابٌ محرَّفٌ مُبَدَّلٌ مكذوبٌ كَتَبَهُ الأحبارُ بأيديهم، ونَسبوه إلى الله كذباً، وهذا الكتاب (العهد القديم) ليس هدى ولا ضياء، ولا نوراً ولا رحمة، ولا فرقاناً ولا بصائر..

٢٧ ـ عتاب الله لموسى على عجلته:

بينما كانَ موسى عليه السلام على جبلِ الطور أخبرهُ اللهُ أنَّ قومَه ضلّوا في غيبته وعبدوا العجل. وعاتبَه الله بسؤاله: ﴿ ۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ٨٣ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾ [طه: ٨٣ ـ ٨٤].

ومعنى قوله: ﴿ ۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ أيُّ شيء حملَك على العجلةِ والسرعة؟ ولماذا تعجلْتَ القدومَ إلى جبل الطور وسبقتهم؟

وهذا السؤالُ فيه معنى العتاب، عاتبَ اللهُ موسى عليه السلام لتعجُّلِه وسبْقِه لقومِه! ولا يَعني هذا أنَّ موسى عليه السلام مخطئ في تعجلِه، لأنه جاءَ جبلَ الطورِ بأمرِ الله، وتَرَكَ أخاهُ هارون عليه السلام خليفةً فيهم.

وقد أجابَ موسى على السؤال بقوله: ﴿هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾. والأثر: هو ما يتركُه الماشي على الأرض، من علامةِ قَدَم أو خُفّ. فهو بمعنى العلامة.

يقال: جاءَ فلانٌ على أثره. أي: جاءَ يتبعُه.

ومعنى قوله: ﴿ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي ﴾: إن قومي سائرون على أثري، متابعون لمواقعِ قَدَمي. أي: إنَّ قومي قادمون ينزلون قريباً من جبل الطور.

وهذا يدلُّ على أنَّ بني إسرائيل كانوا مع هارون عليه السلام قريبين من موسى عليه السلام!.

كما يدلُّ على أنَّ موسى عليه السلام قد سبقَ قومَه بالقدومِ إلى جبلِ الطور، حسبَ الموعدِ الذي واعده اللهُ إياه، وطلبَ منهم أنْ يلحقوا به بإمرةِ هارون، وأنْ يكونوا قريبين منه.

ولما عاتبهُ اللهُ على عجلتِه أجابَ قائلاً: ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾. أي: تعجلْتُ في القدومِ إليكَ يا ربي، حسبَ الموعدِ الذي واعدْتَني إياه، وكلّي شوقٌ لحلولِ الموعد، لتزدادَ رضاً عني.

وعلَّقَ سيد قطب على هذا العتابِ بقوله: «لقد غلبَ الشوقُ على موسى إلى مناجاةِ الله، والوقوفِ بين يديه، وقد ذاقَ حلاوتها من قبل، فهو إليها مشتاقٌ عجول.. ووقفَ في حضرةِ مولاه، وهو لا يعلمُ ما وراءه، ولا ما أحدثَ القومُ بعدَه، حينَ تركهم في أسفلِ الجبل..»[1].

لقد كان سؤالُ الله لموسى عليه السلام عن سببِ تعجلِه عن قومه فيه عتابٌ له على ذلك التعجل، وأجابَ موسى عليه السلام عليه، وهو لمْ يُخطئ في تعجلِه لأنَّه أبقى أخاه هارون عليه السلام خليفةً على قومه، وتعجَّل إلى ربِّه ليزدادَ رضاه عنه، فلا يُلامُ على ذلك!.

٢٨ ـ غضب موسى وإلقاؤه الألواح:

أخبرَ اللهُ موسى عليه السلام وهو على جبلِ الطورِ أنَّ قومَه ضلّوا أثناءَ غيابه، وعَبدوا العجل، وتابَعوا أوامر السامري، فغضبَ مما فعلوا. قال تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴾ [طه: ٨٥].

أخذ موسى عليه السلام الألواحَ وعادَ إلى قومِه وهو غاضب: ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ﴾ [طه: ٨٦].

---

(١) الظلال: ٤/٢٣٤٦.

وصفَت الآيةُ موسى عليه السلام بوصفين: غضبان أسِفاً.

غضبان: وصفٌ يدلُّ على شدةِ غضبِه على قومه، لضلالِهم وفسادِ أحوالِهم وعبادتِهم للعجل.

وأسِفاً: وصفٌ يدلُّ على شدةِ حزنهِ على قومِه بسببِ ما فعلوه.

قالَ الإمامُ محمد الطاهر بن عاشور عن غضبِه وأسفِه:

«الغَضَب: انفعالُ النفس، وهيجانٌ ينشأ عن إدراكِ ما يسوؤها ويُسخطُها دونَ خوف، والوصْفُ منه غضبان.

والأسف: انفعالٌ للنفس، ينشأُ عن إدراكِ ما يحزنُها وما تكرهُه، مع انكسارِ الخاطر. والوصفُ منه: أسِف.

وقد اجتمعَ الانفعالان في نفسِ موسى عليه السلام، لأنَّه يسوؤه وقوعُ ذلك في أمته، فانفعالُه المتعلقُ بحالِه غَضَب، وهو أيضاً يحُزنُه وقوعُ ذلك وهو في مناجاةِ الله، التي يأمَلُ أنْ تكونَ سببَ رضى الله عن قومه. فإذا بهم أتوا بما لا يرضي الله، ولذلك انكسرَ خاطرُه..»[1].

توجَّه موسى عليه السلام إلى قومه وهو غضبانُ أسف، حزينٌ منكسرُ الخاطر، ويحملُ الألواحَ التي فيها التوراة.. ولما وصلَهم وجدَهم عاكفين على العجلِ الذهبي، عابدين له، فزادَ انفعالُه وغضبُه، وحزنُه وأسفُه، وألقى الألواحَ من يديه، وعنَّفَ قومَه، ولامَ أخاه.. وهي حركاتٌ وتصرفاتٌ تحتاجُ إلى تفسيرٍ وتحليلٍ وتوجيه!.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

وقال تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾ [طه: ٨٦].

---

(١) تفسير التحرير والتنوير: ١٧/٢٨١ـ٢٨٢.

وقد يقعُ بعضُهم في إشكالٍ عندَ فهمِه لغضبِ موسى عليه السلام! مع أنّه لا إشكالَ عليه في الحقيقة، فغضبُه إنما هو لله، من الغيرةِ والحمية، وإنكارِ المنكَر، وعدمِ قبولِ الباطل، ومخالفةُ قومِه مخالفةٌ عقيديةٌ كبيرة، تدعو إلى الغضب!.

ألا تريدُ أنْ يغضبَ غضباً شديداً! إنه إمامُهم وقائدُهم ورسولهم، غابَ عنهم أربعينَ يوماً، وتركَ فيهم أخاه النبيَّ هارون عليه السلام، وأخبرَهم أنه ذاهبٌ ليأتيهم بالشريعة، وعادَ بتلك الشريعةِ مكتوبةً على الألواح.. فإذا بهم قد كفروا بالله، وصنعوا عجلاً ذهبياً، وجعلوه إلـهاً، وعبدوه من دون الله!!.

أليسَ هذا التصرفُ من قومِه يدعو إلى الغضبِ الشديدِ والانفعالِ الكبير؟ ولو كان رجلٌ آخر مكانَ موسى عليه السلام ألا يَغضب؟.

إذنْ غضبُ موسى عليه السلام إنما هو لله، وغيرةٌ على دينِ الله، ورفضٌ للباطلِ والمنكرِ والضلال، وهو مأجورٌ على هذا الغضب، وليس مخطئاً أو ملوماً بسببه!.

ولما غضبَ موسى على قومِه ألقى الألواحَ التي أحضرَها معه، من شدةِ غضبِه وحزنِه وأسفِه وانفعالِه.

وهو لا يُلامُ على إلقائِه الألواح، لأنّه لم يفعلْ ذلك إهانةً أو تحقيراً لها. إنما كانَ ذلك أثراً من آثارِ غضبِه وانفعاله، وناتجاً عن صدمتِه بقومِه لما شاهدَهم يعبدونَ العجل.

كانَ انفعالُ موسى عليه السلام أكثرَ عندما شاهدَ قومَه يعبدون العجل، فقد أخبرَه اللهُ وهو على الجبلِ بأنهم عبدوا العجلَ فغضبَ وحزن، لكنّه لمّا رآهم يعبدون العجلَ زادَ حُزنُه وانفعالُه بحيثُ ألقى الألواح.

روى أحمد في المسند [١: ٢١٥] عن ابنِ عباس رضي الله عنهما، عن رسولِ الله ﷺ قال: «ليس الخَبَرُ كالمعاينة. إنَّ اللهَ تعالى أخبر موسى بما صنع قومُه في العجل، فلم يُلقِ الألواح، فلما عاينَ ما صنعوا ألقى الألواح».

يشيرُ الحديثُ إلى الفرقِ بين تأثُرِ مَنْ أُخبرَ عن شيء، وتأثُرِ مَنْ عايَشَ ذلك الشيء ورآه، إذْ ليس الخبرُ كالمعاينة، فتأثُرُ وانفعالُ المشاهدِ للشيء أضعافُ تأثُرِ مَنْ أُخبرَ به! وهذا ما حصلَ مع موسى عليه السلام، عندما ألقى الألواح من شدةِ غضبه، وفورانِ انفعاله!.

وأقبلَ موسى عليه السلام على قومه موبّخاً معنّفاً لهم، فَذَمَّهم على مخالفتِهم له في غيابه: قال لهم: ﴿ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِيٓ ﴾. أي: أهكذا تخلفوني؟ لم أغبْ عنكم كثيراً، فبئسَ الفعلُ الذي فعلتموه!.

وقالَ لهم: ﴿ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾. أي: لماذا سارعْتُم بفعْلٍ ما يُسببُ غضبَ ربّكم عليكم؟.

أما علمتم أنَّ اللهَ يغضبُ من ذلك ويعاقبُ مَنْ فَعلَه؟ أتريدون أنْ تتعجَّلوا بذلك عقابَ الله؟.

وقال لهم: ﴿ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ﴾؟. أي: لقد وعدكم الله وعداً حسناً، حيثُ دعاني إلى جبلِ الطور، لينزِّل عليَّ التوراة، وفيها سعادتُكم، وكان الأَوْلى بكم أنْ تنتظروا هذا الوعدَ بالحسنى والعبادةِ لله.

وقالَ لهم: ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ ﴾؟: يقصدُ بذلك مدةَ غيابه عنهم، فقد أخبرهم أنه سيعودُ إليهم بعد ثلاثين يوماً، وأبقى فيهم أخاه هارون النبيَّ عليه السلام، ومدَّدَ اللهُ المدةَ عشرةَ أيامٍ أخرى، وفي هذه الأيام العشرة عبدوا العجل!

يُنكرُ عليهم جريمتهم.. ألأنه غابَ عنهم عشرةَ أيامٍ أُخرى خالفوا دينَه وعبدوا العجل؟.

أكانت الأربعون يوماً عهداً طويلاً وفترةً مديدة، طالَ عليهم العهدُ فيها، ودفعتهم إلى عبادةِ العجل؟.

وقال لهم: ﴿ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴾! أم هنا حرفُ إضرابٍ بمعنى (بل)، والمعنى: كلا، إنه ما طالَ عليكم العهدُ في غيابي عنكم، بل أنتم أردتُم أنْ يحلَّ عليكم غضبٌ من ربّكم، فأخلفتُم موعدي وعبدْتُم العجل!.

٢٩ ـ موقف هارون من عبادتهم العجل:

استخلفَ موسى هارون عليهما السلام، وأمرَه بالإصلاح. قال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

ونفَّذَ هارون عليه السلام وصيةَ أخيه، فخلَفَه في قومِه بخير.

وقد يقعُ بعضُهم في إشكالٍ في بيانِ موقفِه منهم لما عبدوا العجل!.

إن أحبارَ اليهودِ الكفار ـ الذين ألَّفوا أسفارَ العهدِ القديم ـ زعموا أنَّ هارونَ عليه السلام عبدَ العجلَ مع بني إسرائيل!.

وردَ في سِفْرِ الخروجِ من العهدِ القديمِ هذا النص: «ولما رأى الشعبُ أنَّ موسى قد طالتْ إقامتُه على الجبل، اجتمعوا حول هارون، وقالوا له: هيَّا اصنعْ لنا إلـهاً، يتقدمُنا في مسيرنا، لأننا لا ندري ماذا أصابَ هذا الرجلَ موسى، الذي أخرجَنا من ديارِ مصر.

فأجابَهم هارون: انزعـوا أقراطَ الذهب التي في آذانِ نسـائكم وبنـاتِكم وبَنيكم، وأعطوني إياها.. فنزعوها من آذانهم، وجاؤوا بها إليه.. فأخذَها منهم، وصَهرَها، وصاغَ عجلاً.

عندئذٍ قالوا: هذه آلهتُك يا إسرائيل التي أخرجَتْك من ديارِ مصر!.

وعندما شاهدَ هارون ذلك، شيَّدَ مذبحاً أمامَ العجل، وأعلن: غداً هو عيدٌ للرب.

فبكَّر الشعبُ في اليوم الثاني، وأصعدوا مُحرَقات، وقدَّموا قرابين سلام، ثم احتفلوا، فأكلوا وشربوا، ومن ثم قاموا للَّهوِ والمجون»(1).

هذا كفرٌ يهوديٌّ خبيث، يتهمُ هارون النبيَّ عليه السلام بأنه هو الذي صنعَ العجل، ودعا القومَ إلى عبادتِه من دونِ الله! وهل يُعقلُ أنْ يفعلَ نبيٌّ كريمٌ هذا الفعلَ القبيح؟ وهل يدعو نبيٌّ قومَه إلى عبادة غير الله؟.

لقد كذَّب القرآنُ الكريمُ الأحبارَ الكاذبين الكافرين، حيثُ صرَّح بموقفِ هارون الصريحِ الواضحِ من جريمةِ قومِه، عندما أنكرَ عليهم عبادةَ العجل!.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴾ [طـه: ٩٠].

---

(1) الكتاب المقدس، سفر الخروج: ٣٢/١ ـ ٦.

قالَ لهم هارون عليه السلام: يا قوم إنما فُتنتم بالعجل، وفُتنتم بالسامريِّ الذي صنَعَه، وهذا تمثالٌ من الذهب، وليس إلهاً، وإنَّ ربّكم هو اللهُ الواحدُ الخالقُ الرحمنُ المنعم، فاعْبدوه وحدَه، ولا تَعْبدوا هذا العجل!.

يا قوم: اتَّبعوني، لأني نبيٌّ من عندِ الله، ولأني خليفةُ رسولِكم موسى عليه السلام، وأطيعوا أمري، فإني لا آمركم إلا بطاعةِ الله، ولا تطيعوا أمْرَ السامريِّ لأنه ضالٌّ مُضِل!.

إذنْ نهى هارونُ عليه السلام قومَه نهياً صريحاً عن عبادةِ العجل، ودعاهم إلى عبادةِ اللهِ وحده، وهذا هو المتوقَّعُ منه، لأنه رسولٌ كريم، عليه الصلاة والسلام.

ولكنَّ القومَ لم يستمعوا لهارون عليه السلام، ولم يطيعوه. قال تعالى: ﴿قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩١].

أي: سنبقى عابدين للعجل، عاكفين على عبادتِه، مُلازمين له، حتى يرجعَ إلينا موسى، فإنْ رجعَ سالماً وأنكرَ علينا أطعْناه، أما أنت يا هارونُ فلن نطيعَك!

٣٠ ـ ما جرى بين موسى وهارون عليهما السلام:

غضبَ موسى عليه السلام، وألقى الألواح عندما رآهم يعبدونَ العجل، ثم أقبلَ على أخيه هارون عليه السلام، لائماً معنِّفاً، وجرى بينهما حوارٌ وكلام، أشار له القرآن.

قال تعالى: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠ ـ ١٥١].

وقال تعالى: ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَا ابْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٢ ـ ٩٤].

لقد ظنَّ موسى أنَّ أخاهُ قصَّرَ في الإنكارِ على قومه، فقامَ ضدَّه بحركةٍ ماديةٍ

عنيفة، حيثُ سحبَه من شعْرِ رأسه ولحيته، وصارَ يجرُّهُ إليه، كما قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾.

وهذه الحركةُ الماديةُ مبالغةٌ من موسى عليه السلام في الإنكارِ عليه، وقامَ بها وهو تحتَ تأثيرِ الانفعالِ والغضب!.

وخاطبَ أخاهُ لائماً فقال: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾.

إنَّ موسى عليه السلامُ يعلمُ ويوقنُ أنَّ أخاهُ لم يَعبد العجلَ مع مَنْ عَبَدوه، لأنه نبيٌّ معصوم، ويعلمُ أنَّه أنكر عليهم عبادةَ العجل، لأنَّ هذا مما يتفقُ مَع نبوته، لكنَّه كانَ يريدُ أنْ يكونَ إنكارُه أشدَّ وأقوى وأقسى، كأنْ يُحطمَ العجلَ أمامهم، فإنْ عَجَزَ عن ذلك غادرَهم ولحقَ به على جبلِ الطور، ليخبرَهُ بما فعلوا!

ولهذا قال له: عندما رأيتَهم ضلُّوا لماذا لم تَتبَعْني وتأتِ إليَّ، ما الذي منعكَ من المجيء؟ هل عصيتَ أمري ورضيتَ أنْ تبقى مع القومِ الذين عبدوا العجل؟.

وقد لاحظَ هارونُ غضبَ وانفعالَ أخيه عليهما السلام، فأرادَ أنْ يستعطفَه ويرقِّقَ قلبَه ويُخفِّفَ غضبَه، فناداه باعتباره ابنَ أمِّه: ﴿يَبْنَؤُمَّ﴾.

ولا يدلُّ قولُه له: ﴿يَبْنَؤُمَّ﴾ على أنَّه أخوه لأمه، وليسَ أخاً شقيقاً له، والظاهرُ أنه أخوه الشقيق، وخاطبَه بذلك مبالغةً في استرحامِه واستعطافِه، حيثُ ذكَّره بأنهما ابنان لأمٍّ واحدة، اشتركا في رحمٍ واحدة!

قال الإمامُ ابن كثير: «قال له يا ابن أم: ترَقَّقَ له بذكْرِ الأم، مع أنه شقيقه لأبويه، لأنَّ ذكْرَ الأمِّ ها هنا أرقُّ وأبلغ في الحنوّ والعطف»[1].

ومعنى قوله: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ﴾: لا تشُدَّني من شعْرِ لحيتي، ولا من شعْرِ رأسي، فإنَّ هذا يؤلمني ويوجعني.

وبيَّنَ هارون لأخيه عليهما السلام أنه لم يسكتْ على عبادتِهم العجل، وإنما أنكرَ عليهم ونهاهم، وذكَّرَهم وأرشدَهم، لكنهم لم يستجيبوا له، واستضعفوه، وكادوا يقتلونه: ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى﴾.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ١٥٩.

وهذه الجملةُ تدلُّ على أنه عارضَهم معارضةً شديدة، ولما لم يستجيبوا له سكتَ خشيةَ أنْ يقتلوه . .

وأجابَ هارونُ على لومِ أخيه عندما قال له: ﴿ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ﴾ بأنَّه اجتهدَ في بقائِه بينهم، رغمَ عصيانهم.

قال له: ﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ .

وكأنَّ هارونَ عليهِ السلام يقولُ له: كانَ بإمكاني أنْ آتيك لأخبرَك، فتحصلَ الفوضى فيهم بعدي، وأخشى عند ذلك أن تلومَني وتقول: لقد فرَّقْتَ بين بني إسرائيل، وأوقعْتَ فيهم الفوضى بذهابك عنهم.

وكان بإمكاني أنْ آخذ معي الفريقَ الثابتَ على الإيمان، وهم قلائل، ولكنّي خشيتُ أنْ تقعَ الفرقةُ بينَ الفريقين، وقد يقعُ الاقتتال بينهما، وعندها ستلومُني أنت وتقولُ لي: أنت فرَّقْت بين بني إسرائيل، ولم ترقُبْ قولي، ولم تحافظْ على وصيتي وعهدي، عندما قلتُ لك: اخلُفْني في قومي وأصْلح ولا تتبعْ سبيل المفسدين.

فجملةُ ﴿ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ معطوفةٌ على ما قبلها، وهي تابعةٌ لما كان هارونُ يخشاه ويتخوَّفُه من موسى. أي: إنْ فارقْتُهم وأتيتُك خشيتُ أنْ تقولَ لي: لماذا يا هارونُ فرَّقتَ بين بني إسرائيل؟ ولماذا يا هارون لم ترقُبْ قولي ولم تنفذ عهدي؟

وقد كانَ اجتهادُ هارونَ عليه السلام خلافَ الأوْلى، وكانَ الأوْلى أنْ لا يكتفي بالإنكارِ عليهم والنصحِ لهم، بل أنْ يُتبِعَ ذلك بإزالةِ المنكرِ بيده. . ولكنَّه لم يكنْ مخطئاً في اجتهاده، وفعلُ خلافِ الأوْلى ليس خطأً.

ولما عرفَ موسى عليه السلام حقيقةَ موقفِ أخيه تركَ لومَه وتعنيفه، ودعا اللهَ لهما، قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥١].

ودعاؤه اللهَ لهما بالمغفرةِ ليسَ معناهُ أنهما ارتكبا ذنباً، إنما هو ذكرٌ منه لله وأدبٌ منه مع الله، وحساسيتُه وتحرُّجُه من فعْلِ خلافِ الأوْلى. إنه يستغفرُ اللهَ مما ظهرَ عليهِ من الغضبِ والانفعال، مع أنَّه لم يخطئ فيه، وإنما فعلَ خلافَ الأوْلى، ويستغفرُ الله لأخيه مِنْ فعْلِه خلافَ الأوْلى في بقائه مع القوم!

٣١ ـ السامري وصناعة العجل:

ذكرَ القرآنُ أنّ السامريَّ هو الذي أضلَّ بني إسرائيل، ودعاهم إلى عبادةِ العجل. قال تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴾ [طـه: ٨٥]

ولم يُذكَر السامريُّ في غير سورةِ طـه. وهو اسم علمٍ أعجمي جامدٌ غيرُ مشتق، فلا نبحثُ عن مادةِ اشتقاقه، ولا معناهُ في اللغة العربية. وهو من مبهمات القرآن.

لم يرِدْ أيُّ بيانٍ عنه في مصادرِنا الإسلاميةِ اليقينية، فلا نعرفُ عنه غيرَ ما وردَ في القرآن.

ولم يذكُرْ لنا القرآنُ كيف كانتْ بدايةُ السامري، ولا ما جرى له بعد عقابِ موسى له، ولا كيف كانت نهايتُه!.

وظهرتْ فرقةُ (السامريين) اليهودية بعدَ ذلك، أقامتْ في مدينةِ السامرة بالقربِ من مدينة نابلس، وفيها طائفةُ (السُّمَرَة).

ويبدو أنه لا صلةَ بين السامريِّ والسامريين إلا في الاسم. لأنهم ظهروا بعده بعدة قرون.

كيف أضلَّ السامريُّ بني إسرائيل؟.

اعترفوا هم لموسى عليه السلام. قال تعالى: ﴿ قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴾ [طـه: ٨٧].

أي: لم نتعمدْ إخلافَ موعدِك، ولا عبادةَ العجل، وما فعلنا ذلك برغبتنا واختيارِنا، والذي حَمَلَنا على ذلك أننا لما خرجْنا من مصرَ أخذْنا معنا بعضَ الذهب والزينة من أهلها، وشعَرْنا بالوزرِ والإثمِ والحرج، وأردْنا أنْ نتخلّصَ منها لننجوَ من الإثم!.

اعتبروا ما معهم من ذهبٍ وحليٍّ وزينةِ المصريين أوزاراً وأحمالاً يحملونها، وآثاماً يقعونَ فيها، ولا بدَّ أنْ يتخلّصوا منها، لتزولَ عنهم الآثام!.

الذي أخبرَهم بهذا هو السامري، ليحققَ شيئاً أراده: ﴿ فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴾.

دعاهم إلى طرحها والتخلُّص منها، ليأخذها ويصنعَ منها عجلاً: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ [طه: ٨٨].

التفتَ موسى عليه السلام إلى السامري، وسأله عما جرى، فأجابه. قال تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَـٰسَـٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ [طه: ٩٥_٩٦].

ومعنى السؤال: ما شأنُك؟ وما الذي حَمَلكَ على فعْلِ ما فعلْتَه؟.

وجوابُ السامريِّ في فهمِه إشكال، لأنه جوابٌ مبهم، ولا يوجَدُ له بيانٌ وتفصيلٌ في مصادرِنا الإسلامية اليقينية، المتمثلة في القرآنِ والأحاديثِ الصحيحة.

﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ﴾: أبصرتُ ما لم يُبصروه، ونظرتُ ما لم ينظروه، ورأيتُ بعيني الذي لم يروه، وما أبصرته ورأيته أوحى لي بشيء لم يلتفتوا له.

﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا﴾. أي: أخذتُ شيئاً مقبوضاً من أثر الرسول.

والأثر: هو ما يتركه الماشي من صورةِ قدمِه على الأرض.

والرسول: الراجحُ أنَّ المرادَ به هنا جبريلُ عليه السلام.

والنبذُ هو: الإلقاءُ والطرح.

أي: أخذتُ قبضةً من التراب، من أثرِ الرسولِ جبريل عليه السلام.

وخلاصةُ صناعةِ السامريِّ للعجل هي: كان السامريُّ يمشي أثناءَ ذهابِ موسى إلى جبلِ الطور، فرأى الرسولَ جبريلَ عليه السلام، ولم يره أحدٌ غيرُه من بني إسرائيل، وألقيَ في روْعِه وهاجسه وخاطرِه أنْ يأخذَ قبضةً من الترابِ من أثرِ قدمِ جبريلَ عليه السلام، فأخذها لأنه سيكونُ لها شأنٌ فيما بعد.

وزيَّنَ السامريُّ لبني إسرائيل التخلصَ من الزينةِ التي أخذوها من المصريين، فألقوها، وأخذها هو وصَهَرها وأذابها بالنار، وألقى عليها تلك القبضةَ من التراب، فتفاعلتْ تلك القبضةُ مع الذهبِ المصهور، وصَنَعَ منها تمثالَ العجلِ الذهبي!.

قال عكرمة: رأى السامريُّ الرسول، فأُلقيَ في روعِه أنك إنْ أخذتَ من أثرِ

هذا الفرسِ قبضة، فألقيتَها في شيءٍ فقلتَ له: كنْ فكان! فقبضَ قبضةً من أثرِ الرسول، ولما ذهبَ موسى للميقات، وكان بنو إسرائيل قد استعاروا حليَّ آلِ فرعون، فقالَ لهم السامري: إنَّ ما أصابَكم من أجلِ هذا الحليّ، فاجْمعوه، فجَمعوه، وأوقَدوا عليه فذاب، فألقي في روع السامري أنك لو قذفْتَ هذه القبضةَ من التراب في هذا الذهبِ المصهور، فقلتَ كن، فكان. فقذفَ القبضةَ وقال: كن عجلاً. فكان عجلاً جسداً له خوار[1].

وقد وصف الله العجلَ بأنه جسدٌ له خوار. قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨].

وقال تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ۝٨٨ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه: ٨٨ ـ ٨٩].

العجلُ هو ولد البقرة قبلَ أن يكبرَ ويَصير ثوراً.

ولم يكن العجلُ الذي صنعـهُ السامريُّ عجلاً حقيقيـاً، له روحٌ وحياة، ومكوَّنٌ من لحمٍ ودمٍ، لأنه لو كانَ كذلك لكان السامريُّ خالقاً! وهذا مستحيلٌ، لأنَّ الله وحده هو الخالقُ المحيي!.

السامريُّ صانعُ تماثيل، ماهرٌ في تشكيلِها وتصويرِها وإخراجها، لكنها تبقى تماثيلَ جامدة، لا حياةَ فيها ولا روح. ولهذا وُصفَ العجلُ الذي صنعه بأنه جسدٌ له خوار.

ولما صنعَ السامريُّ العجلَ دعا بني إسرائيل إلى عبادته: ﴿فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾.

أي: هذا العجلُ هو إلـهكم، وإلهُ نبيكم موسى، ولكنَّ موسى نسـيَ أنَّ إلـهه هنا معنا، فذهبَ يبحثُ هناك عنه عندَ جبلِ الطور.

وقد عاقب موسى عليه السلام السامريَّ عقوبةً شديدة، وحرقَ العجلَ الذي صنعه. قال تعالى: ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ١٥٩.

مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: ٩٧].

عاقب موسى عليه السلام السامريَّ بأنْ خَلعَهُ من بني إسرائيل، وعزلَه عنهم، وأمرَه بالذهاب بعيداً عنهم، لأنه لم يَعُدْ واحداً منهم، لا يمسُّ أحداً، ولا يمسُّه أحد: ﴿فَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾.

وانتهى السامريُّ في الصحراء، منبوذاً مطروداً، وقضيَ بذلك على فتنته!.

أما العجلُ الذهبيُّ فقد أمرَ موسى عليه السلام بتحريقه، ثم نسْفه وتذريته، وإذهابه متلاشياً فانياً: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾.

٣٢ ـ قول موسى لربه: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾:

بعدما تابَ بنو إسرائيل عن عبادةِ العجل، أمَرَ الله موسى عليه السلام أن يأخذَ أفضلَ سبعين رجلاً منهم إلى جبل الطور، ليعاهدوا الله نيابةً عن قومهم، ولكنهم رفضوا إعطاءَ العهد، وطلبوا من موسى عليه السلام أن يروا الله جهرة، فرفع الله الطورَ فوقهم، وأخذَتْهم الصاعقة فصُعقوا، فدعا موسى عليه السلام ربَّه وتضرعَ إليه من أجلهم.

قال تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]

والمعنى: لما أخذت الرجفةُ الرجالَ السبعين، نظرَ موسى إليهم فوجَدهم صرعى، فظنهم أمواتاً، وخشيَ اتهامَ قومِه له بقتْلِهم، فقال: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ﴾.

أي: أتمنى ياربِّ لو كانتْ سبقَتْ مشيئتُك أنْ تُهلكهم من قبلِ خروجِهم معي، أو أن تهلكَني وإياهم وسطَ القوم، أمّا إنْ أهلكتَهم في هذا المكان فإنني سأقعُ في حرجٍ شديد مع بني إسرائيل، حيثُ سيقولون: ذهبْتَ بخيارِنا لتهلكهم!

وكلامُ موسى عليه السلام لربِّه دعاءٌ وتضرعٌ إلى الله أنْ لا يُهلكهم، وأنْ يمنَّ عليهم بالإفاقةِ والصحو!.

والاستفهامُ في قولِ موسى عليه السلام: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾؟ ليس إنكارياً، لأنَّ موسى عليه السلام نبيٌّ كريم، وهو لا يُنكرُ على الله فعْلاً من أفعاله، لأنه يوقنُ أنَّ الله عليمٌ حكيم.

هذا الاستفهامُ للتفجع والخشية. والمعنى: إنني أخشى يا ربنا أنْ تُهلكنا بما فعل السفهاءُ منا، وأرجو أنْ لا تُهلكنا بسببِ جرائمهم.

والمراد بالسفهاءِ الذين عبدوا العجل، لأنه لا يعبدُ غيرَ الله إلا سفيه.

وقال موسى عليه السلام: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ﴾.

وفي هذا القولِ إشكالٌ يحتاجُ إلى توجيه! فكيف ينسبُ موسى الفتنةَ إلى الله؟ وما المرادُ بها؟

يقصدُ موسى عليه السلام بكلامه عبادةَ بعضِ قومه للعجل! فهو يقولُ لربِّه: إنَّ عبادةَ بني إسرائيل للعجل فتنةٌ منك، فتنْتَهم وامتحنْتَهم واختبرْتَهم بها، وأنتَ الحكيمُ الخبير، تمتحنُ وتختبرُ الناسَ بما تشاء.

وأنت تُضِلُّ بفتنتك وامتحانك مَنْ تشاء، وهو الذي يختارُ الكفرَ والضلال، فهذا يَفتتن، ويسقط في الفتنة، ويرسبُ في الامتحان: ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾. وأنتَ تهدي بفتنتك وامتحانِك مَنْ تشاء، وهو الذي يختارُ الإيمانَ والطاعة، فهذا ينجحُ في الامتحان، ويَسلمُ من الفتنة.

وبما أنَّ المرادَ بالفتنةِ الامتحانُ والاختبارُ والابتلاء، فلا إشكالَ في إسنادها إلى الله في قولِ موسى عليه السلام: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ﴾.

٣٣ - موسى ينفض يديه من بني إسرائيل:

عاشَ موسى عليه السلام مع بني إسرائيل عدةَ سنوات، وهو يحاولُ أنْ يرتفعَ بهم ويُربيهم، ولكنَّهم لم يَتجاوبوا معه، وأصرّوا على تمردِهم وعصيانِهم ومخالفتِهم، وفي النهاية أمرهم بدخولِ الأرضِ المقدَّسةِ مجاهدين، وأخبرهم أنَّ الله سينصرهم، ولكنَّهم جَبنوا وقعدوا، ولما ألحَّ عليهم خاطبوه بوقاحةٍ وسوءِ أدب، وطلبوا منه أنْ يقاتلَ هو وربُّه، بينما هم قاعدون.

قال تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢٤].

عند ذلك فُجِعَ موسى عليه السلام في قومِه الجبناء، وتوجَّه إلى ربِّه يشكوهم إليه.

قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٥].

لقد أعلنها موسى عليه السلام صراحة: إنه لا يملكُ إلاّ نفسَه وأخاه هارون النبيّ عليه السلام! وهذا يدلُّ على أنَّ هارون بقيَ مع موسى عليهما السلام، يساعدُه في إدارةِ أمورِ بني إسرائيل.

وقد يعتبرُ بعضُهم هذا مأخذاً يُؤخَذُ على موسى عليه السلام، إذ كيفَ يتبرأُ منهم وهو الرسول إليهم؟ وكيفَ يطلبُ من الله أنْ يفرُقَ بينَه وبينهم؟

وحتى نُحسنَ فهمَ هذا نتساءل: متى نفضَ يديْه منهم؟

لو كان هذا في بدايةِ إرسالِه إليهم لعُدَّ مأخذاً عليه! لكنه في نهايةِ الصلةِ بينَه وبينهم، بعدَ سنواتٍ عديدةٍ قضاها معهم، في مصرَ وفي سيناء، وبعدَ جهودٍ مُضنية، بذَلَها في تربيتهم وتقويمهم، وبعدَ خبرةٍ طويلة بهم، وقد واجهوا كلَّ جهوده بالمخالفةِ والتمرد والعصيان!.

ماذا يستطيعُ موسى عليه السلام في النهاية أنْ يفعلَ أكثرَ من هذا؟ لقد أعلنَها صريحة، ورفعَ بها صوته، وخاطبَ بها ربَّه: إنه لا يملكُهم، ولا يَضمنُهم، ولا يثقُ بهم، ولا يقدر أنْ يكلِّفَهم ويطلبَ منهم الالتزام، ولا يستطيعُ أنْ يحملَهم على الطاعة، فما عادوا يُطيعونَه!!.

في هذا الجوِّ دعا موسى عليه السلام ربَّه أنْ يفصلَ ويفرقَ بينَه وبين القومِ الفاسقين العصاةِ المتمردين.

وقد استجابَ الله دعاءَ نبيِّه موسى عليه السلام، فَفَرَق بينَه وبين جموعِ بني إسرائيل الفاسقين، حيثُ حرمَهم من دخول الأرض المقدسة، بسببِ جبنِهم وخوفِهم، وكتبَ عليهم التيه في الصحراء أربعين سنة!.

قال تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٦].

ينهى الله موسى عليه السلام عن الأسى والحزنِ على قومه الفاسقين، لأنهم فسقوا وعصَوْا، وتمرَّدوا على أحكامِ الله، واستحقوا بذلك عقوبة التيه في الصحراء. لا يأسى عليهم لأنه لم يقصِّر في تربيتهم، وفي النهوض بهم، لكنهم لم يتجاوبوا معه لانحرافهم.

٣٤ ـ توجيه مواقف موسى مع الخضر عليهما السلام:

أخبرنا الله في القرآن الكريم عن قصةِ موسى مع الخضر عليهما السلام، وذلك في اثنتين وعشرين آيةً من سورة الكهف (٦٠ ـ ٨٢).

وفي بعضِ مواقفِ موسى مع الخضر إشكالاتٌ تحتاجُ إلى توجيه:

أ ـ ذكر رسول الله ﷺ سببَ الرحلة:

روى البخاري [برقم: ٣٤٠٠]، ومسلم [برقم: ٢٣٨٠] عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قالَ رسول الله ﷺ: «بينما موسى في قومِه يُذكِّرُهم بأيامِ الله ـ وأيامُه: نعماؤه وبلاؤه ـ فسُئِل: أيُّ الناسِ أعلم؟ فقال: أنا أعلم!.

فعتبَ الله عليه إذْ لم يردَّ العلمَ إليه. فأوحى الله إليه: إنَّ عبداً من عبادي بمجمعِ البحريْن هو أعلمُ منك!.

قال موسى: أيْ رب: كيفَ لي به؟ دُلَّني عليه!.

فقيل له: احملْ حُوتاً مالحاً في مكْتَل، فحيثُ تفقدُ الحوتَ فهو ثَمَّ!».

وظاهرُ الحادثةِ فيه مأخذٌ على موسى عليه السلام، فهو يُسْألُ من قِبَلِ أحدهم: أيُّ الناسِ أعلم؟ فيجيبُ: أنا!.

فهل جوابُه فيه اعتدادٌ بعلِمه وبنفسه؟ وهل فيه نوعٌ من التكبّر؟

الجوابُ بالنفي، لأنَّ موسى عليه السلام نبيٌ كريمٌ متواضع، غيرُ متكبِّر أو معتدٌ بنفسه.

لقد كانَ يُذكِّرُ بني إسرائيلَ بأيامِ الله، فأعجبوا به وبعلْمِه، ولذلك قيلَ له: أيُّ الناسِ أعلم؟

ولما أجابَ بأنه أعلمُ الناسِ كان على صوابٍ في جوابه، لأنه نبيٌّ رسول، وهو أعلمُ مِنْ أخيه هارون عليه السلام، لأنَّ هارون نبيٌّ فقط. وبما أنه نبيٌّ رسولٌ فهو أعلمُ الناس، لأنه لا يوجدُ رسولٌ غيرُه على وجْهِ الأرض حسبَ علْمِه!.

ولكنَّ الله عتبَ عليه، لأنه نسيَ أنْ ينسبَ العلمَ إلى الله، وكانَ عليه أنْ يقول: الله أعلم! فجوابُه صحيحٌ، لكنه فعلَ خلافَ الأوْلى، والأوْلى أن يقول: الله أعلم.

ولذلك بيَّنَ الله له قُصورَ علْمِه، ونقْصَ معرفتِه، فأخبرَه أنَّ هناك مَنْ هو أعلم منه، وهو الخضرُ عليه السلام.

ولما علمَ موسى عليه السلام بذلك سارعَ في الرحلةِ إليه، ليتعلَّمَ العلمَ منه، فدلَّه الله على الطريقِ إليه. وجرى بينهما ما جرى، مما أخبرَ عنه القرآن.

ب ـ مكان التقاء موسى بالخضر هو مجمع البحرين:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾ [الكهف: ٦٠].

فتى موسى المذكورُ في الآيةِ هو العبدُ المؤمنُ (يوشع بن نون) رضي الله عنه، كما أخبرَ عن ذلك رسولُ الله ﷺ.

توجَّهَ موسى مع فتاهُ إلى مجمعِ البحرين، لأنَّ الله أخبره أنه سيجتمعُ هناك بالخضر.

ووردَ (مجمع البحرين) في القرآنِ والسنةِ مبهَماً، بدونِ بيان، أو تحديدٍ للمكان! فهناكَ بَحران اثنان، قريبان جداً من بعضهما في نقطةٍ معينة، تفصلُ بينهما قطعةٌ صغيرةٌ من اليابسة، هذه القطعة هي مجمعُ البحرين.

ولما سمعَ موسى عليه السلام(مجمع البحرين) عرفَ المكان، فتوجَّه إليه فوراً.

أما نحنُ فلا نقدرُ على تحديد مجمعِ البحرين على الخارطة الجغرافية، لعدمِ وجودِ نصوصٍ تحددُه: هل هو التقاءُ البحرِ الأحمرِ بالبحرِ المتوسط؟ أو التقاءُ البحرِ الأحمر بالبحرِ العربي عند مضيقِ باب المندب؟ أو هو التقاءُ خليج

السويس بخليج العقبة عند نقطةِ (رأس محمد)؟ قد يكونُ أحدها صحيحاً، وقد يكونُ غيره. والعلمُ به عند الله، ولا يضرّنا الجهلُ بتحديدِ مجمعِ البحرين.

جـ- الخضر يبيِّن لموسى سبب عدم صبره:

قابلَ موسى الخضرَ عليهما السلام عند مجمع البحرين، فعرضَ عليه أنْ يصحبـه ليتعلَّمَ منه، لأنه ما جاءَه إلاَّ لهذا الهدف! ولكنَّ الخضرَ بَيّنَ له أنـه لنْ يستطيع صبراً على السير معه والتعلُّم منه!.

قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ۝٦٦ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ۝٦٧ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ [الكهف: ٦٧-٦٨].

عرضَ موسى عليه السلام على الخضرِ أنْ يتبعه ليتعلم منه، وأسلوبُه في العرضِ فيه الأدَبُ في طلبِ العلم، وحسنُ مخاطبةِ المتعلِّمِ لشيخه.

فاجأ الخضرُ موسى بقوله: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ وفي هذا الجواب إثارةٌ لموسى، أوجدَ عنده مزيداً من الحرصِ على مرافقته للتعلم منه.

لقد أعلم اللهُ الخضرَ أنَّ موسى لنْ يستطيع الصبر معه، مهما جاهدَ نفسه على ذلك، ولذلك نفاهُ نفياً مؤكداً بحرف (لن)!.

ولم يترك الخضرُ موسى في حيرته واستغرابه، وإنما علَّل له ذلك تعليلاً نفسياً عجيباً: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ بيَّن له أنه سيراهُ يفعلُ أفعالاً غريبـة، يدعو ظاهرها للإنكار، وسيتعاملُ موسى مع ظواهرها، لأنه لا يعرفُ حقيقتها ولا حكمتها، ولذلك لن يصبرَ على الخضر، بل سيعترضُ وينكرُ عليه فعلها!

والخُبرُ - بضمِّ الخاء - في الآية ﴿لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ هو المعرفةُ ببواطن الأمور.

أي أنَّ موسى عليه السـلام لم يُحِط خُبـراً ببواطنِ الأفعال التي سيفعلُها الخضر، وسيبقى عندَ ظواهرها، أما الخضرُ فقد أحاطَ (خُبراً) بها، حيثُ أطلعه الله على بواطنها وخفاياها!.

ولكنَّ موسـى عليه السلام ما جاء إلاَّ ليتعلم، ولذلك سيجاهدُ نفسَـه، ويضبطُ أعصابه، وسيبذلُ جهدَه ليصبرَ على ما سيراه. ولذلك قال للخضر: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: ٦٩].

عند ذلك اشترط عليه الخضرُ أنْ لا يسأله عن شيء، وأنْ لا يعترضَ على شيء، وأنْ ينتظرَ من الخضر تعليلَ وتأويلَ ما سيراه: ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٧٠].

اتفقا على ذلك، وبدأت الرحلةُ المثيرة.

د ـ لم يصبر موسى واعترض على الخضر:

لَمْ يصبرْ موسى على ما رآهُ من الخضرِ عليهما السلام، واعترضَ عليه في أفعالٍ ثلاثة فعلَها، أوردتْها آياتُ سورةِ الكهف، وحديثُ رسول الله ﷺ:

الأول: مرتْ بهما سفينة، فعرفَ أصحابُها الخضر، فأركبوهما مجاناً بدونِ أُجرة، إكراماً لهما، وبعدما سارت السفينةُ قليلاً اقتلعَ الخضرُ لوحاً منها وخرقَها!.

فاستغربَ موسى من فعله، وأنكرَ عليه، وقالَ له: قومٌ أكرمونا وأركبونا بغير أُجرة، فكيفَ تخرقُ سفينتَهم؟ إنك بهذا ستُغرقُها وتغرقُ أهلها! وقد فعلْتَ فعلاً إمراً كبيراً.

ذكَّره الخضرُ بما سبقَ أنْ قالَه له مِنْ أنه لنْ يستطيعَ معه صبراً! فاعتذرَ موسى بأنّه نسيَ ما اشترطه عليه، وطالَبه أنْ لا يؤاخذَه!.

الثاني: لما نزلا من السفينة، وسارا في الطريق، رأى الخضرُ أمامَه غلاماً، فتوجَّه إليه وقتَلَه! استغربَ موسى من ذلك، فكيفَ يقتلُ الخضرُ غلاماً صغيراً، فأنكرَ عليه، وقال له: أقتلْتَ نفساً زكيةً بغيرِ نفس؟ لقد فعلْتَ فعلاً منكراً يدعو للإنكار.

ذكَّره الخضرُ بما سبقَ أنْ قاله له! فقال له موسى: إنْ اعترضْتُ عليك بعد ذلك فلا تصاحبني.

الثالث: وصلا إلى قرية، فوجدا أهلها بخلاء، بحيثُ طلبا منهم الطعام، لكنهم لم يُقدموه لهم، ووجَدا جداراً على وشكِ السقوط، فأصلحه الخضر، وقامَ موسى بالاعتراض عليه، فقالَ له: كان الأَوْلى بك أنْ تأخذَ منهم أجرة، لأنهم بُخلاء، ولا يستحقون منك الإكرام!.

عند ذلك فارقه الخضر، فقد أعطاهُ ثلاثَ فُرَص، ولكنَّه لم يصبر . . وقبل أن يفارقه أوّلَ له أفعاله الثلاثة التي اعترض عليها، وبَيَّنَ له حكمتها، وأخبره عن حقيقتها.

أما خرقُه للسفينة فقد كان على صواب فيه، لأنَّ الله أعلمه بوجودِ ملكٍ أمامهم وهو ظالم غاصب، كلما يرى سفينةً صالحةً يصادرُها ويأخذها غصباً، فنزعَ الخضرُ اللوحَ من السفينة ليموِّه على الملك، فإذا رآها هكذا تركها، وبعدَ ذلك يصلحها أصحابها. فخَرْقُه للسفينة للمحافظةِ عليها وليس لإغراقها.

وأمّا قَتْلُه للغلام فقد أخبره الله أنَّ هذا الغلامَ سيكفرُ عندما يكون شاباً، وسيكون طاغيةً ظالماً، وسيُتعبُ والدَيْه المؤمنين، فكانت الحكمةُ تقضي بقتْلِه، وسيرزقُهما الله غلاماً خيراً منه.

وأمّا بناؤه للجدارِ فقد أخبرَه الله أنَّ هذا الجدارَ كان لرجلٍ صالح، وأنه وضعَ تحته كنزاً لغلاميْه قبلَ أنْ يموت. والغلامان اليتيمان صغيران، فإذا سقطَ الجدارُ عدا أهلُ القرية البخلاءُ الطامعون على الكنز وأخذوه.

فكانت الحكمة تقضي بإصلاح الجدار، لحينِ أنْ يكبرَ الغلامان، فيأخذا الكنز، وهذا ليس خدمةً لأهلِ القرية.

عند ذلك عرفَ موسى عليه السلام أنَّ الخضرَ على صواب في أفعالِه الثلاثة، لأن الله أعلمه بحقيقتها، وعَرَفَ أنَّ اعتراضَه عليه في غيرِ موضعه، ومبعثُ اعتراضه هو وقوفُه عند ظواهرِها، والوقوفُ عند ظواهرها يدعو للاعتراض، لأنَّها تبدو خطأً من هذه الزاوية!.

وذَكَرَ الخضرُ لموسى عليهما السلام أنه لم يفعل الأفعالَ الثلاثة باجتهادٍ منه، إنما هو بإيحاءٍ من الله. ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾. وهذا يدلُّ على أنَّ الخضرَ عليه السلام نبي!.

ولم يكنْ موسى عليه السلام مخطئاً عندما اعترضَ على أفعالِ الخضرِ الثلاثة، لأنَّ ظاهرَ تلك الأفعال يدعو إلى ذلك، ولم يُطلعْه الله على حقائقها كما أطلعَ الخضر.

ولا يُلامُ موسى عليه السلام على عدمِ صبره على ما شاهده، لأنَّ ما شاهده يدعوهُ إلى الإنكار، فكيفَ يسكتُ على المخالفة ـ حسب الظاهر ـ؟.

٣٥ ـ موسى وبراءته ومعجزة الحجر والثوب:

كان بنو إسرائيل متمردين على موسى عليه السلام، وقد آذوْه أكثر من مرة. وذمَّهم على إيذائهم له. وأخبرنا الله عن ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾ [الصف: ٥].

ونهى اللهُ المسلمينَ عن الاقتداءِ ببني إسرائيلَ في هذه المخالفة. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وقد أخبرَنا رسولُ الله ﷺ عن نموذجٍ من نماذجِ إيذائهم المتكرر لموسى عليه السلام:

روى البخاريُّ [برقم: ٣٤٠٤]، ومسلم [برقم: ٣٣٩] عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «إن موسى عليه السلام كان رجلاً حيياً ستِّيراً، لا يُرى من جلْدِه شيء، استحياءً منه..

فآذاهُ مَنْ آذاهُ من بني إسرائيل، فقالوا: ما استتَرَ هذا التستُّرَ إلا مِنْ عيبٍ في جلده، إمّا برَص، وإما أُدْرَة، وإمّا آفة.

وإنَّ الله عزَّ وجلّ أرادَ أنْ يبرئه مما قالوا. فخلا يوماً وحده، فوضَعَ ثوبَه على الحجر، ثم اغتسل... فلما فرغَ أقبلَ إلى ثيابه ليأْخذَها. وإن الحجرَ عدا بثوبه. فأخذَ موسى عصاه، وطلبَ الحجر، فجعلَ يقول: ثوبي حجر! ثوبي حجر!.

حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل، فرأوهُ عرياناً، أحسنَ ما خلقَ الله!.. وبرأه الله مما يقولون. وقامَ الحجر، فأخذَ ثوبَه فلبسه، وطفقَ بالحجرِ ضرباً بعصاه.. وإنَّ بالحجرِ لَنَدَباً من أثرِ ضربه، ثلاثاً، أو أربعاً، أو خمساً».

يخبرُ هذا الحديثُ الصحيحُ عن تبرئةِ الله لموسى عليه السلام من اتهامِ اليهودِ بمعجزة: فقد كان موسى عليه السلام حيياً ستِّيراً، يَحرصُ على أنْ لا يكشفَ عورتَه، فعندما يغتسلُ كان يذهبُ بعيداً عن قومه، أما هم فلم يكونوا يتحرَّجونَ من كشفِ عوراتهم، ولذلك كانوا يَغتسلونَ عُراة.

وقد أساء بنو إسرائيل تفسيرَ فعْلِ موسى عليه السلام، فلم يعتبروا حرصَه على سترِ عورتِه من باب الحياء والستر، إنما اعتبروه إخفاءً لعاهةٍ أو عيبٍ في عورتِه، كأنْ يكون فيها بَرَص، أو (أدرة) والأدَرةُ هي انتفاخُ الخصيتين.

وأرادَ الله تبرئةَ موسى عليه السلام من هذا الإيذاءِ والاتهام، فأجرى معجزةً من معجزاتِه سبحانه وتعالى.

ابتعد موسى عليه السلام عن بني إسرائيل ليغتسل، ووضعَ ثوبَه على حجر، ونزلَ في الماء، ولما كان يغتسل أمَرَ الله الحجر أنْ يهربَ بثوبه! فذهبَ الحجرُ به، ورأى موسى عليه السلام منظراً عجيباً، الحجرُ يعدو بثوبه.. فخرجَ من الماء عارياً، ولحقَ بالحجر وهو يقول: ثوبي حجر. ولكنَّ الحجرَ لم يتوقَّفْ، وواصلَ سيْرَه حتى وصلَ إلى ملأ جالسين من بني إسرائيل.. وشاهدَ الملأ المنظرَ العجيبَ المدهشَ: الحجرُ يهربُ بالثوب، وموسى يركضُ خلفَه ليأخذَ ثوبَه، ورأوا موسى عرياناً، وإذا به أحسن ما يكونُ الرجال، ليس به أدرة ولا آفة.. وتوقَّفَ الحجرُ أمامَهم، وتناولَ موسى ثوبَه ولبسه، ثم أقبلَ على الحجرِ يضربُه بعصاه!!.

وهكذا برّأ الله موسى عليه السلام مما قالوه، بهذه المعجزة: ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾.

ولا يستغربَنَّ أحَدٌ من الحادثة: حجرٌ يهربُ بالثوب الذي عليه، وموسى يجري خلفَه، وهو يركضُ أمامَه، حتى وصلَ إلى ملأ من بني إسرائيل! يفعلُ هذا مع أنه حجر!.

ولا غرابةَ في هذا، لأنَّ هذا معجزة، وهو من أمْرِ الله وفعْله، فالله هو الذي أمَرَ الحجرَ الجمادَ بالذهابِ حاملاً الثوب، وأوجدَ سبحانه وتعالى فيه (قدرة) خاصةً على الذهابِ والسيرِ والتوجُّه نحوَ بني إسرائيل، وعدم استجابتِه لنداءِ موسى عليه السلام.. الله هو الذي أوجدَ فيه هذا، وأمره بذلك، فنفَّذَ أمره سبحانه، والله فعَّالٌ لما يُريد، ونحنُ نعلمُ أن المعجزات خرقٌ للعادة التي اعتادها الناس!.

٣٦ - توجيه موقف موسى من ملك الموت!:

أخبرنا رسـولُ الله ﷺ عن موقفٍ عجيبٍ لموسى عليه السلام من مَلَكِ

الموت، وهذا الموقفُ يحتاجُ إلى توجيه.

روى البخاري [برقم: ١٣٣٩]، ومسلم [برقم: ٢٣٧٢] عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «أُرسلَ مَلَكُ الموتِ إلى موسى عليه السلام، فلما جاءَه صكَّه، ففقأ عينَه! فرجعَ إلى ربه، فقال: أرسلْتني إلى عبدٍ لا يُريدُ أنْ يموت!.

فردَّ الله إليه عينَه! وقال له: ارجعْ إليه، وقل له: يضعَ يدَه على متْنِ ثور، فله بما غطَّتْ يدُه بكلِّ شعرةٍ سنة!.

قال: أي رَبِّ: ثم ماذا؟

قال: ثم الموت!.

قال: فالآن!!.

فسأل الله أنْ يُدنيهِ من الأرضِ المقدَّسة رميةً بحجر!.

قال رسول الله ﷺ: فلو كنتُ ثَمَّ، لأريتكم قبْرَه إلى جانبِ الطريق، تحتَ الكثيبِ الأحمر».

وقد يستغربُ بعضُهم الحادثة، وقد يقودُه هذا إلى الطعنِ في الحديث، وتضعيفِه وردِّه، مع أنه في الصحيحين!.

إنَّ من تكريمِ الله للأنبياء، أنه لا يقبضُ روحَ أحدِهم حتى يُخيِّرَه بين الدنيا والآخرة.

روى البخاري [برقم: ٤٤٣٥]، ومسلم [برقم: ٢٤٤٤] عن عائشة رضي الله عنها، قالت: كنتُ أسمعُ أنه لن يموتَ نبيٌّ حتى يُخَيَّرَ بين الدنيا والآخرة.. فسمعْتُ رسولَ الله ﷺ في مرضِه الذي ماتَ فيه، وقد أخذَتْه بَحَّة، يقول: «مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً».. فظنَنْتُه خُيِّرَ حينئذ...

ولذلك خيَّرَ الله موسى عليه السلام قبلَ قبْضِ روحِه، تكريماً له، وفقَ سنتِه مع الأنبياء..

واختارَ الله الحكيمُ أنْ يُرسلَ له مَلَكَ الموتِ على صورةِ بشرٍ غريب، لم

يعرفه موسى، وجعل الله للملائكة القدرةَ على التشكُّلِ والتحوُّل، والظهورِ في صُوَرِ بشر، وقد لا يَعرفهم الأنبياءُ وهم في الصورةِ البشريةِ المتحولة، كما حصلَ مع إبراهيمَ ولوط عليهما السلام، حيثُ لم يَعرفا أنَّ الرجالَ الذين أمامهم ما هم إلاّ ملائكة!.

فلا غرابةَ أنْ لا يعرفَ موسى عليه السلام أنَّ الرجلَ الغريب الواقفَ أمامَه هو مَلَكُ الموت، لأنَّ الله لم يُخبره، وهو لا يعلمُ من الغيبِ إلاّ ما أعلَمُه الله إياه.

طلب الرجلُ الغريب من موسى عليه السلام طلباً غريباً عجيباً، حيثُ قال له: أجبْ ربَّك وأعْطني روحَك!.

رجلٌ غريبٌ يريدُ أنْ يأخذَ روحَه، فهل يفعل؟ لو كان أحَدُنا مكانَه فهل يستسلمُ أم يدافعُ عن نفسه؟

التصرفُ الطبيعيُّ من موسى عليه السلام أنْ يُدافعَ عن نفسِه أمامَ الرجلِ الغريبِ الذي يُريُد القضاءَ عليه، فقد يكونُ الرجلُ فاتكاً باطشاً!! لذلك وجَّهَ موسى عليه السلام للرجلِ لكمةً من يده القوية، أصابتْ عينَه ففقأتْها.

ففقأ موسى العينَ البشريةَ لملَكِ الموتِ المتحَولِ إلى بشر، وليست عينَه الملائكيةَ الحقيقية! ولا غرابةَ في هذا.. ويمكنُ أنْ نتصورَ هذا ونقربَهُ إلى أذهاننا باستحضارِ ما يفعلونَه الآنَ في الأفلامِ التمثيلية، وما يجري فيها من (حيلٍ سينمائية) فقد نرى يدَ الممثلِ في (الفيلم) مقطوعة، أو رأسَه مفصولاً عن جسدِه، والدمُ يخرجُ من رقبته كالنافورة! وهو تمثيلٌ في تمثيل!!.

رجعَ مَلَكُ الموتِ إلى ربِّه شاكياً موسى عليه السلام، فأعادَهُ له مرةً ثانية.. في هذه المرةِ عرفَ موسى أنَّ الذي أمامَه هو ملكُ الموت، أرسلَهُ الله إليه ليخيِّره، وفقَ سنةِ الله في قبضِ أرواحِ الأنبياء.. فاستسلمَ موسى عليه السلام لأمْرِ الله، وتجاوبَ مع مَلَكِ الموت، وقدَّرَهُ حقَّ تقديره.

أرادَ الله أنْ يُقدمَ حقيقةً لموسى عليه السلام، وهي أنه غيرُ مخلَّد في هذه الدنيا، ولا بدَّ أنْ يموت! فأمرَ مَلَكَ الموتِ أن يقول له: إن كنتَ تريدُ الحياةَ فضعْ يدَكَ على جلْدِ ثور، وانظر المساحةَ التي غطَّتْها يَدُك، وحاولْ إحصاءَ الشَّعَرِ الذي تحتَ يدك، فإنَّ لك بكلِّ شعْرة سنة! ولو كانَ تحتَ يدِه ثلاثةُ آلافِ شعْرة، فإنه سيعيشُ ثلاثةَ آلاف سنة!.

قال له موسى : وماذا بعدَ ذلك؟

قال له ملَكُ الموت : بعدَ ذلك الموت!.

أي : لو عشتَ ثلاثةَ آلاف أو خمسة آلاف سنة، فلا بدَّ أنْ تموتَ بعدَ ذلك.

لقد كتبَ الله الموتَ على كلِّ مخلوق، سواء كان إنساً أو جناً أو مَلَكاً.. قال تعالى يخاطبُ نبيّه محمداً ﷺ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ۝٣٤ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤ ـ ٣٥].

عند ذلك وعى موسى عليه السلام الدرس، فاختارَ لقاءَ الله، وقال: الآن. أي: اقبضْ روحي الآن!.

وكانَ له طلبٌ قبلَ قبضِ روحه، وهو أنْ يُقَرَّبَ من الأرضِ المقدسة مقدارَ رميةٍ بحجر، ثم تُقبضُ روحُه! وهذا يدلُّ على أنَّ وفاةَ موسى عليه السلام كانت قبلَ دخولِ بني إسرائيل الأرضَ المقدسة! ورميةُ الحجرِ لا تتجاوزُ مئاتِ الأمتار! وهذا الطلبُ من موسى عليه السلام بسببِ شوقِه الشديدِ للأرضِ المقدسة، فإذا لم يتمكنْ من دخولها، فلا أقلَّ منْ أنْ يموتَ قريباً منها!.

ولما تُوفيَ موسى عليه السلام قريباً من الأرضِ المقدسة ـ على بعد رميةِ حجرٍ منها ـ دُفنَ هناك، لأنَّ الله قَدَّرَ أنْ يُدْفَنَ كلُّ نبي في المكانِ الذي ماتَ فيه، ولا يُنقلَ منه ليُدفنَ في مكان آخر.

وأخبرَنا رسولُ الله ﷺ أنه دُفنَ بجانبِ الطريق، تحتَ الكثيب الأحمر، وأخبرَ الصحابةَ أنَّه لو كان معهم في المنطقةِ لدلَّهم على قبره، وحَدَّدَ المكانَ الذي هو فيه! «فلو كنتُ ثَمَّ لأريتكم قبرَه إلى جانب الطريق تحتَ الكثيبِ الأحمر».

وقد مرَّ رسولُ الله ﷺ في رحلةِ الإسراء بموسى عليه السلام في قبره عند الكثيب الأحمر، فوجدَه قائماً يصلي!.

روى مسلم [برقم: ٢٣٧٥] عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «مررتُ ليلةَ أُسريَ بي على موسى قائماً يصلي في قبره، عندَ الكثيب الأحمر..».

ولا يمكنُنا تحديدُ منطقةِ (الكثيب الأحمر) بالضبط، لأنَّ المنطقةَ الواقعةَ

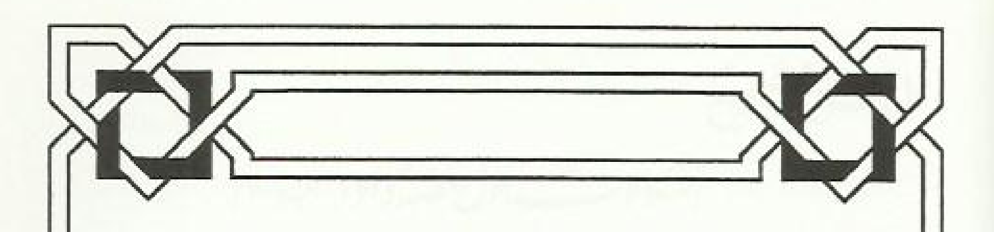
شرق الأرض المقدسة ـ منطقةُ شرقِ نهر الأردن ـ كلّها منطقةُ كثبانٍ رمليةٍ عديدة، ابتداءً من خليج العقبة حتى بحيرة طبرية. سواء كانَ في وادي عربة، أو منطقةِ الأغوار، أو منطقةِ مَعان، أو شرقِ خليج العقبة!.

وهذا الحديثُ يردُّ مزاعمَ اليهود في أن بني إسرائيل حَمَلوا معهم جثةَ موسى عليه السلام عندما دخلوا الأرضَ المقدسةَ بقيادةِ خليفته (يوشع بن نون) ودَفنوه في الأرضِ المقدسة، وذهبَ بعضُهم إلى أنَّ موسى عليه السلام مدفونٌ في منطقةِ (الخان الأحمر) بين أريحا والقدس.

وهذا كلامٌ لا دليلَ عليه، لأنه ماتَ قبلَ دخولهم الأرضَ المقدسة، ودُفنَ على جانبِ الطريق، تحتَ الكثيب الأحمر، ولأنَّ كلَّ نبيٍّ كان يُدْفنُ في المكانِ الذي مات فيه!.

روى ابن ماجه [برقم: ١٦٢٨] عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «ما قُبِضَ نبيّ، إلا دُفِنَ حيثُ يُقْبَض..»

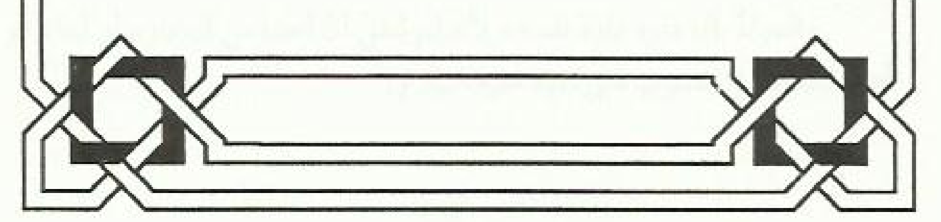
* * *



الفَصْلُ التَّاسِعُ

إشكالات حول قصّة داود عليه السلام

تَحليلٌ وَتوْجِيهٌ



الفَصْلُ التَّاسِعُ

إشكالات حول قصة داود عليه السلام

تحليلٌ وتوجيهٌ

١ ـ توجيه تسبيح الجبال والطير مع داود:

أخبرنا الله أنّه سَخَّرَ الجبال والطيرَ لتسبح مع داود عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

وقال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [سورة ص: ١٧ ـ ١٩].

أمَرَ الله الجبال والطيورَ أنْ يُسَبِّحْنَ مع داود عليه السلام، فهو يسبحُ الله، وهنَّ يشاركنَه هذا التسبيح.

وقد وهبَ الله داودَ عليه السلام صوتاً جميلاً عَذْباً مشرقاً، ويزدادُ صوتُه جمالاً وعذوبةً إذا ذكرَ الله، وقرأ في (الزبور) الذي أنزلَه الله عليه.

وقد شبَّه رسول الله ﷺ صوتَ أبي موسى الأشعري رضي الله عنه بصوتِ داود عليه السلام، في جماله وحسنِه، ولهذا كان ﷺ يُحبُّ أن يسمعَ القرآنَ منه.

روى البخاري [برقم: ٥٠٤٨]، ومسلم [برقم: ٧٩٣] عن أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال له: «لقد أوتيتَ مزماراً من مزاميرِ آلِ داود».

والمرادُ بآلِ داود داودَ نفسه، لأنه لم يُنقلْ أنَّ أحداً من آلِ داود أو أبنائه أو أهله كان جميل الصوتِ مثل داود عليه السلام.

وبسببِ جمالِ صوتِ داود عليه السلام فإنَّ الجبالَ والطيورَ كانتْ تتأثر به، ولذلك كانت تشاركُه التسبيح.

ولا يستغربَنَّ أحدٌ هذا، فقد وردَ في صريحِ آياتِ القرآن، والله هو الذي أمَرَ الجبالَ والطيورَ بالتسبيح، فنفَّذَتْ أمرَ الله!.

إنَّ الجبالَ خاضعةٌ لأمْرِ الله خضوعاً تسخيرياً، تنفذُ أمره ولا تتمردُ عليه. وإنَّ الطيرَ عابدةٌ لله، تنفذُ أمره أيضاً.. وللجبالِ لغةٌ خاصةٌ بها رغمَ أنها جمادات، ونحنُ لا نفقهها، وللطيورِ أصواتٌ خاصةٌ تسبحُ الله بها، ونحنُ نسمعُ الأصواتَ، لكننا لا نفقهُها.

ومن المعلوم أن كلَّ شيء في هذا الكونِ يسبحُ الله. قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [الإسراء: ٤٤].

إنَّ عدمَ فقهنا لأصواتِ هذه المخلوقات وهي تسبحُ الله ـ ومنها الجبالُ والطيور ـ لا يعني أنها لا تسبحُ الله، فكم من ظواهرَ ماديةٍ طبيعيةٍ موجودةٍ من حولنا، نحسُّ بها، ونجزمُ بوجودها، ولكن لا نَقْدرُ على تفسيرها وتحليلها وتعليلها.. ومع ذلك لم نقم بإنكارِها لأنها بدهيةٌ مسلَّمة!.

فلماذا لا نجعلُ تسبيحَ المخلوقاتِ الحيةِ وغيرِ الحية من هذا الباب؟ ولماذا ننكرُ تسبيحَها بحجةِ عدمِ فقهنا له؟

وبما أنَّ تسبيحَ الجبالِ والطيرِ مع داود عليه السلام وردَ في صريحِ آياتِ القرآن، فيجبُ أن نؤمنَ بها ونُسلِّم بمدلولها، ونقولَ بما قالتْ به.

لقد أخبرَتْ آيةُ سورةِ الأنبياء أنَّ الجبالَ والطيرَ كانت تسبِّحُ معه: ﴿وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ﴾.

أما آيةُ سورةِ سبأ فقد أخبرتْ أنَّ الجبالَ كانت تؤَوِّبُ معه: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ﴾.

معنى (أوِّبي): رَجِّعي معه، ورَدِّدي صوتَه، وأعيديه. وهذا معناهُ أنَّ تسبيحَ الجبالِ والطير مع داود عليه السلام كان تأويباً وترجيعاً وترديداً لتسبيحه.

وأخبرتْ آيةُ سورةِ (ص) أنَّ الجبالَ والطير كانت تسبِّحُ معه مرتيْن؛ مرةً في

الصباح ومرةً في المساء: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

العَشيّ: وقتُ المساءِ عند غروبِ الشمس. والإشراق: وقتُ الصباحِ عند شروقِ الشمس!.

وتَخَيُّلُ منظرِ الجبالِ والطير وهي تسبّحُ الله في الصباح والمساءِ منظرٌ جميلٌ لطيفٌ مؤثِّر، تتفاعلُ معه النفوس.

داودُ عليه السلام يقفُ ويقول: «سبحان الله». فتسمعُ الجبالُ صوتَه الجميل، وتُجاوبُه مُسَبِّحة، ويسمعُها وهي تقول: «سبحان الله»! وتأتيه أسرابٌ من الطيور، وتجاوُبه مُسَبِّحة، ويسمعُها وهي تقول: «سبحان الله»!.

إنه مشهدٌ عباديٌّ تسبيحيٌّ مؤثِّر، وإنَّ تَخَيُّلَ تسبيحِ داود والجبال والطير يملأُ المؤمنَ أُنساً واستمتاعاً وجمالاً!.

٢ ـ داود حداد يصنع الدروع:

أخبرَ الله عن قوةِ داود عليه السلام، حيثُ وصَفَهُ بأنه (ذو الأَيْدِ)، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [سورة صٓ: ١٧].

و(الأَيْدِ) هي القوةُ الشديدةُ.. وهو مشتقٌّ من الفعل (آدَ). تقول: آدَ، أيْداً. بمعنى: قويَ واشتدّ. وأيَّدَه: قَوّاه. وذو الأَيدِ: ذو القوة.

وبما أنَّ داود عليه السلام كان ذا أيْدٍ وقوة، فقد حرصَ على أنْ يكون له عملٌ يعملُه بيده، ليأكلَ من عملِ يدِه، رغم أنه كان مَلِكاً في بني إسرائيل، يملكُ التصرفَ في أموالِهم، لكنه كان يعفُّ عنها، ويعملُ عملاً بيده، يأكلُ منه.

روى البخاريُّ [برقم: ٢٠٧٢] عن المقدامِ بن معد يكرب رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «ما أكَلَ أحَدٌ طعاماً قط خيراً مِن أنْ يأكلَ من عملِ يده، وإنَّ نبيَّ الله داود عليه السلام كان يأكلُ من عمل يده».

ماذا كانتْ مهنةُ داود النبيِّ الرسولِ الملكِ الخليفةِ عليه السلام؟ لقد كان حداداً، فهو اختارَ المهنةَ التي يخدمُ بها أُمته، والعملَ الذي يُقَوّي به دولَتَه!.

كان داودُ حداداً، وألانَ الله له الحديد، فكان طوعَ يديْه، يصهرُهُ بالنار،

ويصنعُ منه ما يشاء. قال تعالى: ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴾ [سبأ: ١٠].

هدى اللهُ داودَ عليه السلام إلى اكتشافِ مناجمِ الحديدِ في دولته، وصارَ يصنعُ منه ما يشاءُ من الدروع، ومختلفِ الصناعاتِ الحربية، وصارَ هذا مظهراً من مظاهرِ قوةِ الدولة.

وعلَّمه اللهُ صنعَ الدروع الحربية. قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٧٩ ـ ٨٠].

كان داودُ عليه السلام هو أوّلَ مَنْ صنعَ الدروعَ الحربيةَ للجنود، وذلك لتحميهم من سلاح الأعداء.

معنى قوله: ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ ﴾: علّمناه صنعَ الدروع، التي تلبسونَها في المعارك.

ومعنى قوله: ﴿ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ﴾: لتحميكم هذه الدروعُ عند القتال.

وقد أشارتْ آيةُ سورةِ سبأ إلى كيفية صنع داود عليه السلام للدروع. قال تعالى: ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ﴾ [سبأ: ١٠ ـ ١١].

ومعنى قوله: ﴿ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ ﴾: اعمَل دُروعاً سابغاتٍ واسعاتٍ طويلةً كاملة، بحيثُ يُغطي الدرعُ الواحدُ منها جسمَ الجندي، فلا يُصابُ منْ قبل الأعداء.

و(السرد): هو الثقبُ في الدرع.

ومعنى قوله: ﴿ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ﴾: أحسِنْ تقديرَ المساميرِ في حِلَقِ الدرع، وأحْسِنْ ثقبَ حِلَقِ الدرع، بحيثُ تجيءُ فتحةُ الحلقةِ على قدْرِ المسمار، فلا الفتحةُ أوسَعُ من المسمارِ لئلا يتحرك ويتخلخلَ فيها، ولا هي أضيقُ من المسمارِ فلا يدخلُها.

قال مجاهد: ﴿ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ﴾: لا تُصغِّر المسمار وتُكبِّر الحلقة، فيَسْلُسُ المسمارُ ويتقلقلُ فيها، ولا تُعظِّم المسمارَ وتُصغر الحلقةَ فيتكسَّر. ولكن اجعلْ ذلك بقدر.

وداود عليه السلام أولُ مَنْ صنعَ الدروع، مسرودةً بالحلَقِ والمسامير،

وجعلها سابغةً طويلة على حجم وطولِ جسمِ الجندي، وكانت قبلَ ذلك صفائح، كلُّ درعٍ صفيحةٌ من الحديد، وكان دخُلُه من تلك الدروع، وليس من خزينة المملكةَ.

وانتشارُ الدروع الحديديةِ المحكمةِ المتينةِ في الدولةِ الإسرائيلية المؤمنة، التي أنشأها داود عليه السلام سببٌ من أسبابِ قوة تلك الدولة، وتقدُّمِها وتفُّوقِها على الآخرين، الذين كانوا يجهلون هذه الصناعةَ للدروع.

٣ ـ سليمان يستدرك على داود في قضية الغنم والحرث والولد:

آتى الله داودَ عليه السلام الحكمةَ وفصلَ الخطاب. قال تعالى: ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [سورة صَ: ٢٠].

قال مجاهد: الحكمةُ هي: الفهمُ والعقلُ والعدلُ والصواب.

وقال قتادة: الحكمةُ هي: كتابُ الله واتباع ما فيه.

وقال السدي: الحكمةُ هي: النبوة[١].

وهذه الأقوالُ الثلاثةُ متقاربة، وكلُّها تفسيرٌ للحكمة التي آتاهُ الله إياها.

وبما أنَّ الله آتى داودَ عليه السلام الحكمة، فقد كانَ حكيماً في نفسه، يتمتعُ بالفطنـةِ والفهمِ والذكاءِ والفقهِ والعلم، وكان حكيماً مع قومه، يقضي بينهم بالحكمةِ والحقِّ والصواب، وكان حكمُه وقضاؤُه يمنعُ الفساد، ويحققُ الخيرَ والصلاح.

وآتاهُ الله فصْلَ الخطاب: وهو ثمرةٌ للحكمةِ التي مَنَّ الله بها عليه.

قال مجاهد والسدي: فصلُ الخطاب هو: إصابةُ القضاءِ وفهمُ ذلك.
وهذه شهادةٌ من اللهِ لنبيِّه داودَ عليه السلام بموهبتِه في الحكمِ والقضاء، حيث كانَ يحكمُ بين الناسِ بشرعِ الله، على ما آتاهُ الله من الحكمة.

ومع ذلك كانتْ بعضُ أحكامِه تحتاجُ إلى استدراك، وكان يستدركُ عليه ابنُه سليمان عليه السلام، الذي آتاهُ الله الحكمةَ أيضاً، وكان داودُ يتقبلُ ذلك برضى.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير: ٤/ ٣١.

وقد ذكر القرآنُ حكماً لداود في قضية، استدرك عليه ابنه سليمان. قال تعالى: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [الأنبياء: ٧٨-٧٩].

تخبرُ الآيتان عن حكمِ داودَ وسليمان عليهما السلام في قضيةٍ رُفعتْ لهما، تحاكم فيها طرفان خصمان!.

كان لأحدهما (حَرْثٌ) أي: زَرْع. حيثُ زَرَعَ أرضَه حبوباً كالقمح والشعير، أو أشجاراً مثمرةً كالعنب والزيتون!.. وكان للآخر غنمٌ ترعى.

وفي إحدى الليالي دخلت الغنمُ ذلك الحرث - المزرعة - فأفسدته وأتلفته. وفي الصباح ذهبَ الرجلُ إلى حرثِه، فإذا به أصابه الإتلافُ والفساد، ويبدو أنه عرفَ صاحبَ الغنم التي رَعَتْه!.

فاشتكى على صاحبِ الغنمِ إلى داودَ عليه السلام، فحكمَ داودُ في القضية.. ولما علمَ ابنُه سليمان عليه السلام بحكمِه استدركَ عليه، وحَكَمَ بحكمٍ آخر.

وقد أثنى اللهُ على سليمانَ في حُكمه، حيثُ قال: ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ﴾. والضميرُ (ها) في الجملةِ (ففهمناها) تعودُ على القضيةِ المرفوعة. أي: فَهَّمنا سليمانَ القضية، وأرشدناهُ إلى أن يحكمَ فيها الحكمَ الأصوب.

كما أثنى على داودَ وسليمانَ كليهما، عليهما السلام: ﴿ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾.

أي: آتى اللهُ داودَ حكماً وعلماً، فحكمَ في القضيةِ بما آتاهُ الله من ذلك، وآتى الله سليمان حكماً وعلماً، فحكمَ في القضية بما آتاه الله من ذلك.. وجاءَ حكمُ داودَ في المسألة صحيحاً صائباً، ولكنَّ حُكمَ سليمان فيها أصحُّ وأصوب!.

لم تُخطِّئ الآيةُ داودَ في حكمه، بل أثنتْ عليه لما عندَه من حكمٍ وعلم، وهذا معناهُ أنَّ حكمه كان صحيحاً وليس خطأً، لكنَّ حكمَ سليمان كان أصح، لقوله: ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ﴾.

ما هو حكمُ داودَ عليه السلام في المسألة؟ وما هو حكمُ سليمانَ عليه السلام فيها؟

لم يبيّن القرآنُ ذلك، ولم يحدِّده رسولُ الله ﷺ، والأَوْلى أنْ لا نخوضَ فيه، وأنْ نبقى مع القرآنِ والحديثِ الصحيح، نقولُ بما قالا به، ونسكتُ على ما سكتا عنه، ولا يضرُّنا الجهلُ بما لم يُبَيَّنْ فيهما!.

وقد أخبرَنا رسولُ الله ﷺ عن حكمٍ آخرَ لداود، استدركَ عليه فيه سليمان عليهما السلام.

روى البخاريُّ [برقم: ٣٤٢٧]، ومسلم [برقم: ١٧٢٠] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «كانت امرأتان معهما ابناهما، فجاءَ الذئبُ فذهبَ بابنِ إحداهما!.

فقالت: صاحبتُها: إنما ذهبَ بابنِك!.

وقالت الأخرى: إنما ذهبَ بابنك!.

فتحاكمتا إلى داود عليه السلام، فقضى به للكبرى.

فخرجتا على سليمانَ بن داود عليه السلام، فأخبرتاهُ بذلك.

فقال: ائتوني بالسّكين أشقُّه بينكما!!.

فقالت الصغرى: لا تفعلْ يرحمُك الله! هو ابنُها!!.

فقضى به للصغرى!».

لقد حكمَ داودُ عليه السلام بالولدِ للكبرى، وكأنَّ حجة الكبرى كانتْ في الظاهرِ أقوى من حجةِ الصغرى، وكأنَّ الكبرى كانتْ أمضى لساناً وأفصحَ بياناً، فحكمَ داودُ بما عليه ظاهرُ الحجة.

ولا يَضيرُ داودَ حكمُه، ولم يُخطئ فيه، لأنَّه اجتهدَ أنْ يحكمَ بالحق، وبذلَ جهدَه في ذلك، وهذا هو الواجبُ عليه، وهو مأجورٌ على اجتهاده وبذْلِ جهدِه في ذلك!.

أما سليمانُ عليه السلام فقد زادَهُ الله فطنةً وحكمةً وفهماً، ولذلك لم يحكمْ بالظاهر، ولم يؤخذْ ببلاغةِ وفصاحةِ الكبرى، وإنما امتحنَ المرأتين بطريقةٍ عجيبةٍ مثيرة، ليعرفَ مَنْ أمُّ الطفلِ منهما؟

طلبَ السكينَ، وصَرَّحَ لهما بأنه سيشقُّ الولدَ بينهما، ليُعطي كلَّ واحدةٍ

نصفَه! وهو لا يقصدُ ذلك حقيقة، إنما أرادَ أنْ يكتشفَ الأمَّ المدعية!.

وافقت الكبرى على شقِّ الطفلِ بينهما، لأنَّه ليس ابنَها، وتريدُ أنْ تشاركَها الصغرى حسرة الحرمانِ من الطفل! لكنَّ الصغرى رفضتْ ذلك، وتنازلَتْ عنه، وقالتْ بلهفةِ الأم: لا تفعلْ يا نبيَّ الله، هو ابنُها!!.

إنها تريدُ أنْ يعيشَ ابنُها، ولو لم يكنْ عندَها! عند ذلك عرفَ سليمانُ بمزيدِ فطنتِه وفهمِه أنه ابنُ الصغرى فحكَمَ به لها، واستدركَ بذلك على حكْمِ أبيه!.

وينطبقُ على استدراكِه وحكمِه في هذه المسألة قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾.

ولقد أشارَ رسولُنا ﷺ إلى أنَّه قد يحكم بالظاهرِ، وأنَّ حكمُه قد يكونُ خلافَ الحقيقة.

روى مسلم [برقم: ١٧١٣] عن أمِّ سلمةَ رضي الله عنها قالت: قالَ رسولُ الله ﷺ: «إنكم تختصمونَ إليَّ، ولعلَّ بعضَكم أنْ يكونَ ألحنَ بحجتِه منْ بعض، فأقضيَ له، على نحوِ مما أسمعُ منه، فمنْ قطعْتُ له مِنْ حقِّ أخيه شيئاً، فلا يأخُذْه، فإنما أقطعُ له به قطعةً من النار!».

وفي روايةٍ ثانيةٍ عن أمِّ سلمةَ رضي الله عنها أن رسولَ الله ﷺ سمعَ جَلَبَةَ خصمٍ ببابِ حجرتِه، فخرجَ إليهم، فقال: «إنما أنا بشر، وإنه يأتيني الخصم، فلعلَّ بعضَهم أنْ يكونَ أبلغَ من بعضٍ، فأحسبُ أنه صادق، فأقضيَ له، فمنْ قضيتُ له بحقِّ مسلم، فإنما هي قطعةٌ من النار، فليحملها أو يذرْها..».

يشيرُ رسولُ الله ﷺ إلى أنه قد يأخذُ بالظاهر، فيحكمُ بما أدَّاهُ إليه، ويكونُ حكمُه خلافَ الحقيقة، لكنَّه لم يُخطئ في حكمه، لأنه بذلَ جهدَه، واجتهدَ في تحرّي الحق! وهو لا يعلمُ من الغيب إلا ما أعلمَهُ الله إياه!.

ومن هذا البابِ حكمُ داود عليه السلام لصاحبِ الغنم، مما دفعَ سليمان عليه السلام إلى الاستدراك عليه، وحكمُه بالولدِ للكبرى، مما دفعَ ابنَه إلى الاستدراك عليه.. إنه لم يُخطئ في حكمه، لأنَّه حَكَمَ بما قادَهُ إليه اجتهاده، وحكمُه صواب، ولكنَّ سليمان عليه السلام زادَه الله فهماً وفطنة، فتعمَّقَ المسألة، وحكَمَ فيها، وكانَ حكمُه هو الأصحَّ والأصوب، ولقد مدحَ الله الاثنين: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩].

٤ ـ حقيقة ما جرى بين داود والخصمين:

من مواقفِ داود عليه السلام التي قد توقعُ في لَبْسٍ وإشكالٍ، وتحتاجُ إلى توجيهٍ وتحليلٍ، موقفُه من الخصمين لما تحاكما إليه.

قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [سورة ص: ٢١ ـ ٢٦].

في حديثِ القرآنِ عن قصةِ داود عليه السلام مع الخصمين مبهماتٌ كثيرة، ولم تَرِدْ حولها أحاديثُ صحيحةٌ عن رسول الله ﷺ. تُضيفُ جديداً حولَ الآيات.

وقد ذكرت الإسرائيلياتُ وأساطيرُ العهدِ القديم تفصيلاتٍ باطلةً مكذوبة، فيها اتهاماتٌ لداودَ بالنساءِ والنظرِ إليهن، وتزوجِ إحداهن بعدما أُعجب بجمالها وهي تغتسلُ عارية، وعملَ على قتلِ زوجِها في إحدى المعارك ليتزوَّجَها، فأنزلَ الله له الملكيْنِ في صورةِ خصمين، يُعاتبانه بشأنها!.

وهذه أكاذيبُ باطلة، نُبرئ نبيَّ الله داود عليه السلام منها، ولا يجوز ذكرها، إلا من بابِ التحذيرِ منها.

ولا بدَّ أنْ نفهمَ الآياتِ كما أنزلها الله، لأنه لا توجَدُ أحاديثُ صحيحةٌ عن رسول الله ﷺ تُضيفُ عليها شيئاً!!.

خلاصةُ ما تُشيرُ له الآياتُ أنَّ داود عليه السلام كان في محرابه يذكُرُ الله، فجاءَ خصمان، وتسوَّرا المحراب، وتسلَّقا عليه، ودَخلا على داودَ فجأةً وهو جالسٌ فيه يذكرُ الله، وفوجئ بهما واقفيْن أمامَه، ففزعَ وخافَ منهما، وظنَّهما رجليْن يُريدان أنْ يُصيباه بسوء، فطمأناه، وقالا له: لا تَخفْ منّا، واطمئن، فما نحنُ إلا خصمان، اختصمْنا في شركةٍ بيننا، فأتيناك لتحكمَ بيننا بالحق!.

تكلمَ أحَدُ الخصمين فقال: إنّ هذا شريكي أخي له تسعٌ وتسعون نعجة،

وأنا لي نعجةٌ واحدة، فأرادَ أنْ يأخذها منّي، ليضمَّها إلى نعاجِه!!.

تعجَّلَ داودُ في الحكم، وأدانَ الرجلَ الآخر، وقالَ للمتكلمِ الشاكي: لقد ظلَمَك أخـوك في إصراره على ضمِّ نعجتِك إلى نعاجـه! وكثيـرٌ من الشـركاءِ الخلطاء يبغي بعضُهم على بعض، ويظلمُ بعضُهم بعضاً، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهؤلاء قلائل.

عند ذلك عرفَ داودُ عليه السلام أن الخصميْن أرسلهما الله له ابتلاءً وامتحاناً وفتنة، فسارعَ بالتوبةِ والإنابةِ إلى الله، وخرَّ راكعاً ودَعا الله، فغفر الله له!.

﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴾: الخطابُ من الله لرسـوله محمد ﷺ، والاستفهامُ هنا للتقرير. والخصْمُ هما الملكان اللّذان بعثهما الله لداود.

وتسوَّروا المحراب: ظَهَرا على سورِ المحراب، ونزلا عنه، ودخلا على داود.

والمعنى: قد أتاكَ يا محمد نبأُ الخصم، عندما جاءَ الرجلانِ وتسلَّقا على سور المحراب.

﴿ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ ﴾: كان داودُ عليه السلام جالساً في محرابه يذكـرُ الله، وفوجئ بـالرجلين نازليْن عليه من السور، ففزعَ وخافَ منهما، ولكنهما طمأناه وأزالا خوفه وفزعَه.

﴿ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴾ نحنُ خصمان، بيننا خلافٌ ونزاع وخصومة، فبغى أحدنا على الآخر، وتعدّى عليه وظلمه، وأرادَ أنْ يأكلَ حقَّه! وقد أتيناك وتحاكمنا إليك، فاسمعْ قضيتَنا، واحكمْ بيننا بالحقِّ والعدل، ولا تُشطط في حكمك، ولا تَمِلْ مع أحدِنا ضد خصمه، ودُلّنا على الطريق الصحيح الذي نحلُّ به المشكلة.

تكلمَ أحدُ الخصميْن عن خصمِه، وقال عنه: ﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى ﴾: فاعتبرَهُ أخاً له، وخلافُه معه لم يؤثّر على أخوته له.

﴿ لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴾: يملكُ تسـعاً وتسـعين نعجة، وأنـا لا أملكُ إلا نعجةً واحدة. والنعجةُ أنثى الضأن، والذكرُ هو الخروف.

ورغمَ أنه يملك هذا العددَ الكثيرَ من النعاج، إلا أنه لم يكتفِ بها، وتطلعَتْ نفسُه إلى نعجتي الوحيدة، وطمعَ فيها، وأرادَ أخذَها وضمَّها إلى نعاجه: ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾: قال لي: ضمَّ نعجتَك إلى نعاجي، لأكونَ كافلاً لها! وغَلَبني في الكلامِ والجدال، وقهرني وظلمني وبغى عليَّ.

وهذا اعترافٌ من المتكلمِ بأنَّ خصمَه أقوى منه، ولذلك يقهره ويظلمُه، وهو أقوى منه في الكلام، ولذلك يغلبُه في حجته.

المشتكي مظلومٌ حسبَ كلامه، وخصمُه باغٍ ظالمٌ متعدّ، ولم يطلبْ داودُ عليه السلام من المشتكى عليه حجتَه، وظنَّ أنَّ الأمرَ واضح، لا يحتاجُ إلى سماع كلام الظالمِ المتعدي، ولذلك سارعَ بإصدارِ حكمه: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾: أي: ظلمَك خصمُك، عندما طلبَ منك ضمَّ نعجتِك إلى نعاجه!.

وتابع داودُ عليه السلام كلامَه بقوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾: أي: معظمُ الشركاء يبغي بعضُهم على بعض، ويظلمُ بعضُهم بعضاً، ولا يُستثنى من ذلك إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم، وهم قلائل.

وبعدما انتهى داودُ عليه السلام من كلامه فكر، فعرفَ حكمةَ هذه الحادثة، وأنه هو المقصود: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾.

ومعنى (ظن): أيقنَ وأدركَ وعلمَ.

أيقنَ داودُ عليه السلام أنَّ اللهَ فتنَه وابتلاهُ وامتحنَه بهذيْن الرجليْن الواقفين أمامَه. إنهما ليسا رجليْن حقيقييْن، ولكنَّهما مَلكان من الملائكة، وليست بينهما شراكةٌ حقيقية، ولا توجدُ مئة نعجة حقيقية، وإنما ذكرَا له قصةً رمزيةً تمثيلية، وعلمَ أنه تسرَّع في حكمِه على المشتكى عليه قبلَ أنْ يسمعَ كلامَه.

وبعدما عرفَ داود عليه السلام هدفَ الحادثةِ كلِّها، وأنه هو المقصودُ بها، لجأ إلى الله، فسجدَ له واستغفره وأنابَ إليه: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾.

ولا يُرادُ بالركوع في الآية الركوعُ المعروف في الصلاة، وإنما المرادُ به السجودُ على الأرض، لأنه قال: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾، وفعل (خرَّ) لا يُستعملُ إلا في السجود!.

والإنابةُ إلى الله: الرجوعُ إليه بالتوبة والاستغفار.

وهذه الحركةُ العمليةُ من داود عليه السلام دليلٌ على حرصِه على رجوعِه إلى الله، وذكْرِه وشكرِه وعبادته!.

وأخبرنا الله أنه قبلَ توبتَه: ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾.

غفر الله له، وزادَه قربى منه. وجعلَ له زُلفى وحظوةً عنده: ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾.

وهذا ثناءٌ من الله على داود عليه السلام.

ويبدو أنَّ الرجليْن الخصمين غادرا المحرابَ كما دخلاه، بعدما عرفَ داود عليه السلام الحكمة من الحادثة.

وكان التعقيبُ على قصةِ الخصمين الرمزية بالتذكير بمجموعةٍ من الحقائقِ المتعلقةِ بالحكمِ والخلافةِ والقضاء.

قال تعالى: ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾.

٥ ـ توجيه موقف داود من الخصمين:

١ ـ كان داود عليه السلام خليفةً ملكاً، وكان حريصاً على الإكثار من ذكْرِ الله وعبادته، ولذلك خصصَ النهارَ للخلافةِ والملكِ والحكم بين الناس، وحلِّ مشكلاتِهم وقضاءِ حوائجهم، بينما خصصَ الليلَ لعبادةِ الله وذكره ومناجاتِه.

وكان إذا دخلَ محرابَه ليلاً للعبادة لا يدخُلُ عليه أحدٌ فيه، ويأمرُ الحراسَ بإغلاقِ الأبوابَ وعدمِ إدخالِ أحدٍ لأنه في عبادةِ الله!.

هل أخطأ داود عليه السلام في هذا الفعل؟

الجوابُ بالنفي، فقد جعلَ النهارَ للحكم والقضاءِ بين الناس، ولذلك لم يهملْهم ولم يتركهم، وليلُه خصصَه لمناجاةِ الله، وفعلُه صواب!.

لكنْ كانَ الأوْلى والأفضلَ والأكملَ له أنْ لا يغلِقَ بابَه أمامَ أحد، في أيِّ ساعةٍ من ساعاتِ الليلِ والنهار، وعليه أنْ يسمعَ شكوى أيِّ مشتكٍ أو متظلمٍ حتى لو كان في محرابه!.

وأرسلَ الله له الملكين في صورةِ رجلين، وتسَوّروا عليه المحراب، وعَرَضا عليه قضيةً مثيرة، وذلك لإرشادِه إلى أنه تركَ الأوْلى والأفضلَ والأكمل.

إذنْ فعلُه صوابٌ وصحيح، ولا خطأ فيه، ولكنَّ الله أرشدَه إلى ما هو أوْلى وأفضل! وقد وعى هذا التوجيهَ عليه السلام!.

٢ ـ ولما تسوَّرَ الرجلانِ عليه المحراب خافَ وفزعَ منهما. فهل أخطأ في ذلك؟

الجوابُ بالنفي! فالجوُّ والطريقةُ والكيفيةُ التي دخلا بها عليه تدعو إلى الخوفِ والفزع.

فهو قد أمَرَ بإغلاقِ الأبواب، وأمَرَ الحراسَ بمنع الناسِ من الدخول، وهو في محرابه مستغرقٌ بمناجاةِ الله.. وفجأةً رفعَ رأسه فرأى رجلَيْن نازلين عليه من سورِ المحراب!!.

أليس في هذا ما يدعو للفزع!.

إن خوفَه في هذه الحالةِ طبيعي، لأنه توقَّعَ الخطر، وخافَ حُصولَ مكروه، ومَنْ كانَ مكانَه فسيخافُ كما خاف.

إنه لم يُخطئ في ذلك.. ولكن كانَ الأوْلى والأفضلُ والأكملُ له أن لا يخاف! لأنَّه مستغرقٌ في مناجاةِ الله وذكرِه وتسبيحه، فالأوْلى أنْ لا يخاف وهو في هذه الحالةِ الإيمانيةِ العالية!.

٣ ـ ساقَ له الرجلانِ الخصْمان ـ الملَكان في الحقيقة ـ قصة رمزية، وليستْ حادثةً واقعيةً ومشكلةً حقيقية، ليُرشداهُ إلى أنَّ الأوْلى والأفضلَ أنْ لا يُغلقَ قصره ليلاً، فقد يأتيه متخاصمانِ في مسألةٍ ملحَّة، تحتاجُ إلى حكمٍ سريع!.

سمعَ داودُ عليه السلام الشكوى من المشتكي، وإذا به مظلوم، فظنَّ أنَّ الأمْرَ لا يتطلبُ سماعَ الطرفِ الآخر، لأنَّ الصورةَ وضحتْ أمامَه.

هل أخطأ في ذلك؟.. الجوابُ بالنفي. فقد عرفَ الشكوى من المشتكي، وبانَ له الحقُّ فيها، ولذلك أصدرَ حكْمَه، وهو في حالةِ تأثرٍ وانفعال، فقال: إنَّ خصْمَك ظالم، وقد ظلمك بسؤالِ نعجتكَ إلى نعاجه..

إنَّ حكمَه صواب، وقولَه صحيح، فطالما رأى أنه عرفَ المسألة، فعليه أن يقضيَ فيها..

ولكن كانَ الأَوْلى والأفضلُ والأكملُ لـه أنّ لا يحكمَ حتى يسـمعَ حجةَ الطرفِ الآخر، حتى لو وقفَ على الحقيقة. عليه أنْ يُعطي الطرفَ الآخرَ حقَّه في الكلام، وإنْ كانَ كلامُه لا يغيرُ في الحكم شيئاً، لوضوحِ الصورة عند القاضي!.

هذا توجيهُ موقفِ داود عليه السلام في المسائلِ الثلاثة: احتجابُه عن الناسِ في الليل لمناجاة الله، وخوفه من نزولِ الرجليْن عليه، وحكمُه في القضيةِ قبلَ سماعِ الطرف الآخر..

وبهذا عرفنا أنه لم يُخطئ فيها، وأنَّ موقفَه كان صحيحاً صواباً، لكنه تركَ الأوْلى والأفضلَ والأكمل، فأرشدهُ الله إلى ذلك.

٤ ـ فإذا كان ذلك كذلك ففيم كان سجودُه واستغفارُه وإنابتُه وتوبتُه؟.

لما وعى الدرس، وعرفَ أنه فتنةٌ وامتحانٌ وابتلاءٌ من الله، أدركَ أنه في المواقف الثلاثةِ فعل خلافَ الأوْلى والأفضل.. وبما أنه نبيٌّ مقرَّبٌ عند الله فعليه أنْ يفعلَ الأصحَّ وليس الصحيح، والأصوبَ وليس الصواب!.

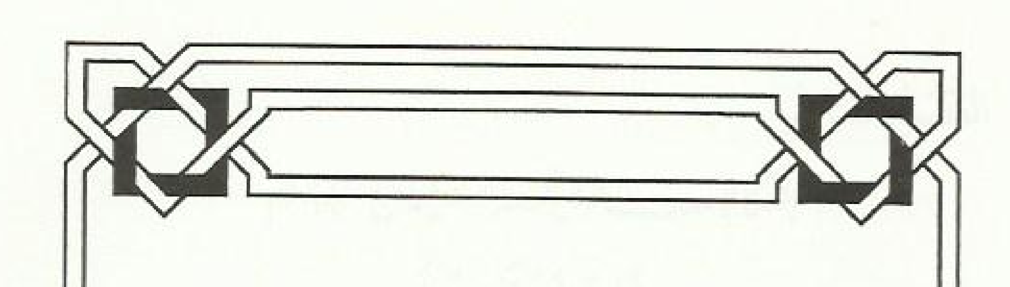
فلما تركَ الأصحَّ والأصوبَ شعرَ بالتقصيرِ والحرج، فسارعَ إلى السجودِ والتوبةِ والاستغفار.

استغفارُه لم يكنْ بسبب ذنْبٍ ارتكبه، أو خطأ وقعَ فيه، لأنه نبيٌّ معصوم، وإنما استغفارُه لأنه فعل خلافَ الأوْلى، وهو صورةٌ من صورِ ذكْرِه لله ومناجاتِه والقرب منه!.

ولذلك زادَهُ الله باستغفاره وتوبتِه زلفى وقربى عنده: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾.

هكذا نفهمُ قصةَ داود عليه السلام مع الخصمين والمئة نعجة، وحكمه وتوبته واستغفاره، وهكذا نوجِّهها توجيهاً يتفقُ مع نبـوَّته وعصمته ومنزلتِه وكرامته، بعد استبعادِ الإسرائيليات والاتهامات التي وجهها له أحبارُ اليهودِ الكافرون.

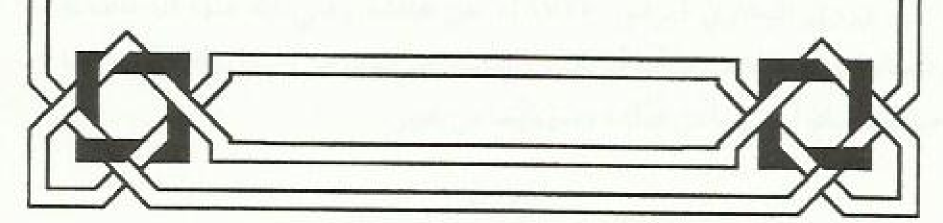
* * *



الفَصْلُ ٱلعَاشِرُ

إشكالات حول قصّة سليمان عليه السلام

تَحليلٌ وتوْجيهٌ



الفَصْلُ ٱلعَاشِرُ

إشكالات حول قصة سليمان عليه السلام

تَحْلِيلٌ وَتَوْجِيهٌ

١ ـ بماذا ورث سليمان داود عليهما السلام؟ :

داودُ نبيٌّ رسـولٌ مَلِكٌ في بني إسـرائيل، وابنُه سـليمانُ نبيٌّ رسولٌ مَلِكٌ فيهم، عليهما الصلاة والسلام، ولما تُوفيَ داودُ ورثَه ابنُه سليمان، عليهما السلام.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ ﴾ [النمل: ١٥ ـ ١٦].

نصَّت الآيةُ على أَنَّ سليمانَ ورثَ أَباهُ داود، عليهما السلام، لكن بماذا ورثَه؟.

لقد ورثَـه في النبوةِ والرسـالة، فهو نبيٌّ رسولٌ بعده عليهما الصلاة والسلام. كما ورثَه في الملكِ والخلافة، لأنه وليَ أمر بني إسرائيل من بعدِ أبيه.

ولم يرثْه في الأموالِ والممتلكات، لأنَّ سنة الله في الأنبياء أنهم لا يورِّثون، فلا يأْخذُ أولادُهم وورثتُهم شيئاً مما خلَّفوه وراءهم، فإنْ تركوا شيئاً وراءهم كان صدقة في سبيل الله!.

دليلُ ذلك حديثُ رسول الله ﷺ:

روى البخاريُّ [برقم: ٦٧٣٠]، ومسلم [برقم: ١٧٥٨]، عن عائشةَ رضي الله عنها أَنَّ أزواجَ النبيِّ ﷺ حين تُوفيَ رسولُ الله ﷺ، أردْنَ أَنْ يبعثْنَ عثمانَ إلى أبي بكر يسأَلْنَه ميراثَهن. فقالتْ لهنَّ عائشة: أليس قالَ رسول الله ﷺ: «لا نُورَث، ما تركنا صدقة».

وروى البخاريُّ [برقم: ٦٧٢٥]، عن عائشةَ رضي الله عنها أَنَّ فاطمـة والعباسَ رضي الله عنهما أتيا أبا بكر، يلتمسانِ ميراثهما من رسول الله ﷺ، وهما حينئذٍ يطلبانِ أرضهما من فَدَك، وسَهْمَهُما من خيبر.

فقال لهما أبو بكر: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لا نورَث، ما تركنا صدقة».

قال الإمامُ ابن كثير عن وراثةِ سليمانَ لداودَ عليهما السلام: «قال الله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ أي: ورثه في النبوةِ والملك.

وليسَ المرادُ أنه ورثه في المال، لأنه قد كان له بنون غيرُه فما كان ليُخَصَّ بالمالِ دونَهم.

ولأنه قد ثبتَ في الصحاحِ من غيرِ وجْه، عن جماعةٍ من الصحابة أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لا نورَث، ما تركنا صدقة». وفي لفظ: «نحنُ معاشرَ الأنبياءِ لا نورَث».

فأخبرَ الصادقُ المصدوقُ عليه السلام - أنَّ الأنبياءَ لا تورَثُ أموالُهم عنهم، كما يورَثُ غيرهم، بل تكونُ أموالُهم صدقةً من بعدِهم على الفقراء والمحاويج، لا يخصّون بها أقرباءَهم، لأن الدنيا كانتْ أهونَ عليهم وأحقرَ عندهم من ذلك، كما هي عند الذي أرسلَهم واصطفاهم وفضَّلَهم..».

٢ - توجيه موقف سليمان من الصافنات الجياد:

أشارَتْ آياتُ القرآنِ إلى حادثةٍ جرَتْ لسليمانَ عليه السلام، وهي فعلُه بالخيلِ الصافنات. قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ [سورة ص: ٣٠ - ٣٣].

لا توجدُ أحاديثُ صحيحةٌ عن رسولِ الله ﷺ تُضيفُ شيئاً عن الصافناتِ الجياد. أما الإسرائيلياتُ فقدْ أوردتْ تفصيلاتٍ عن فتنةِ سليمانَ بالخيل، وتقصيرِه في العباداتِ والواجبات، لاشتغالِه بالخيلِ وسباقِها، ولما ندمَ على ذلك قتَلَ تلك الخيل!!.

ويجبُ أنْ نرفضَ الإسرائيليات، ونُنزه سليمان الكريم عليه السلام عن هذه الاتهامات والأكاذيبِ والمزاعم!.

ما معنى الآيات الإجمالي؟

﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴾ : العشيُّ ما كان قبلَ مغيبِ الشمس . والصافنات الجياد : الخيلُ الجيدة .

الصافناتُ : جمع صافِن . والجيادُ : جمعُ جواد .

والصَّفْنُ حركـةٌ لطيفةٌ للفرسِ عنـد وقوفها ، حيثُ تقفُ على ثـلاثٍ من قـوائمِها الأربع ، أما الرابعةُ فإنها تَرفعُها وتثنيها ، وتجعلُ طرفَ حافرهـا على الأرض ، وهي بهذا تجمعُ بين رفعِها وبين الوقوفِ عليها ، فلا هي رفعَتْها عن الأرض ، ولا هي وقَفَتْ عليها .

وهذه حركةٌ لطيفةٌ جميلة ، يُدركُ جمالها من استمتعَ بمنظرِ الفرسِ وهي صافنة .

والخيلُ الجيادُ هي الخيلُ النجيبةُ التي تجودُ في سيرِها وعدْوِها ، فهي تبذُلُ جهدَها وطاقتَها في عدوها ، وتجودُ بذلك ، ولا تضنُّ منه بشيء ، فيأتي عدْوُها سريعاً ! .

الوصْفان : ﴿ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴾ : يدلان على حركتين لطيفتين : فالصافناتُ تصويـرٌ للخيلِ عند وقوفِها وسكونها . . والجيـادُ تصويرٌ للخيلِ عند عَدْوِها وإسـراعِها . . والخيلُ جميلةٌ في صَفْنِها عند وقوفها ، وجميلةٌ في جودِها عند عَدْوِها ! .

ولهذا قال : ﴿ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي ﴾ .

وأخبرنا رسول الله ﷺ عن الخيرِ الجميلِ الملازمِ للخيل . فقد روى البخاري [برقم : ٢٨٥٠] ، ومسلم [برقم : ١٨٧١] ، عن عبدِ الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «الخيلُ معقودٌ في نواصيها الخيرُ إلى يومِ القيامة» .

لما عُرضت الخيلُ الصافناتُ الجيادُ على سليمان عليه السلام وقت العشيِّ حَمَدَ الله على ما أنعمَ به عليه منها ، وقال : ﴿ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي ﴾ .

والمعنى : إني أحببتُ الخيلَ حباً كثيراً ، لما فيها من خير ، وحُبّي لها عن ذكرِ ربي ، وبسببِ ذكرِ ربي .

فكأنَّه ذاكرٌ لربِّه عندما يحبُّ الخيل ، وحبُّه لها ذكْر منه لله ، يحمدُ الله ويشكرُه على إنعامِه عليه بها ، وعندما يراها يذكرُ ربَّه ويشكرُه ، كما أنَّ إشرافَه عليها وإعدادها

للجهاد صورةٌ من صورِ عبادتِه وذكرِه لربه.

﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾: الكلامُ عن الخيلِ التي أحَبَّها. ومعنى (توارت): اختفتْ.

والحجاب: شيءٌ كانَ يحجبُها عن سليمان، كأنْ يكونَ جبلاً أو تلاً.

وتدلُّ الجملةُ على أنَّ سليمان عليه السلام كان يراقبُ خيلاً وهي تجري، لتتدربَ على الجريِ والعَدْوِ، وتكونُ بذلك جاهزةً للجهاد.

ويبدو أنه أمَرَ بركْضِ الخيل وعَدْوِها، فلما رآها تجري في الميدان حَمَدَ الله على ذلك، واعتبرَ حبَّه لها صورةً من ذكره لله، وقال: ﴿إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾.. وبقيَ ينظرُ إلى الخيل الجاريـة في الميدان معْجباً، حتى تـوارَتْ واختفتْ وراءَ الجبلِ الذي حجبَها.

ولما توارَتْ وغابَتْ عن ناظريْه قال: ﴿رُدُّوهَا عَلَىَّ﴾ أي أعيدوها إليّ.

ولما أعادوها، ووقفت أمامَه صارَ يمسحُ عليها، كما قال تعالى: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾.

والسوقُ: جمعُ ساق. والمرادُ بها: سيقانُ الخيل. والأعناقُ: جمعُ عنُق.

والمعنى أنَّ سليمان عليه السلام صارَ يمسحُ على سيقانِ وأعناقِ الخيل، ويُمررُ أصابعه عليها برقَّة، يُلاعبُها ويُداعبُها ويُكرمُها، من اهتمامِه بها.. ومن المعلومِ أنَّ الخيلَ تحبُّ هذه الحركةَ اللطيفةَ من صاحبها، وتأنسُ به عندما يمسحُ على سوقِها وأعناقِها، فتزدادُ وفاءً له وتعلُّقاً به، كما تزدادُ إقداماً على الجهاد!.

٣ ـ ما هو الجسد الملقى على كرسي سليمان؟:

أخبرنا الله أنه فتنَ سليمانَ عليه السلام بأنْ ألقى على كرسيِّه جسداً. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [سورة ص: ٣٤ ـ ٣٥].

المرادُ بالفتنة الابتلاءُ والامتحان، والله يمتحنُ مَنْ شاءَ مِن خلقِه بما شاء من فعله. ومن النـاس مَنْ يعرفُ حكمةَ الابتلاء ويَستفيدُ منه، فينجح، ومنهم مَنْ لا يعرفُ ذلك فيخسر.

وأشدُّ الناسِ بلاءً الأنبياء، لأنهم الأقربُ إلى الله، وهم يَعرفونَ حكمةَ الابتلاء، فتزيدُهم الفتنةُ قرباً من الله.

ولما فتنَ الله داودَ عليه السلام بقصةِ الملَكيْن، عرفَ ذلك، فأقبلَ على الله واستغفره وتابَ وأنابَ إليه!.

ولما فتنَ الله سليمانَ عليه السلام أقبلَ عليه وأنابَ إليه، وتضرَّعَ ودعا. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾.

كيف كانتْ فتنةُ سليمان عليه السلام! وما هو الجسدُ الذي ألقاهُ الله على كرسيه؟

تتحدثُ الإسرائيلياتُ المكذوبةُ الباطلةُ عن اتهاماتٍ فاجرةٍ لسليمان عليه السلام.

تقولُ تلك الإسرائيليات: وافقَ سليمانُ امرأتَه الكافرةَ على الكفرِ بالله، وصنعَ لها صنماً ووضَعَه في قصرِه لتعبده من دون الله! فعاقبهُ الله على ذلك! وكان يحكمُ الجنَّ والشياطينَ بخاتمِه السحري، فأذِنَ الله للشيطانِ الماردِ أنْ يتزيّا بزيّه، فأخذَ الخاتمَ منه، واستلمَ الحكمَ منه، وكأنه قامَ بانقلابٍ عسكريٍّ ضدَّه!! وبقيَ على هذا عدةَ أسابيع، ثم عادَ له الحكمُ بعد ذلك، بعد أن استخرجَ خاتمهُ من بطنِ سمكة، ثم وضعَ الماردَ في صندوق، وألقاهُ في قعْرِ البحر!!.

ونحنُ لا نجيزُ تفسيرَ كتابِ الله بهذه الأكاذيبِ والافتراءات، ونوجبُ تبرئةَ سليمان عليه السلام منها!.

عندنا حديثٌ صحيحٌ عن رسول الله ﷺ، يتحدثُ عن الجسدِ الملقى على كرسيِّ سليمان عليه السلام، ولعلَّه هو المرادُ بالفتنةِ المذكورةِ في الآية.

روى البخاري [برقم: ٣٤٢٤]، ومسلم [برقم: ١٦٥٤]، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «قال سليمان بن داود عليهما السلام: لأطوفَنَّ الليلة على سبعين امرأة، كلُّهم تأتي بفارس، يُجاهدُ في سبيل الله!.

فقال له صاحبُه: قل: إن شاءَ الله. فلم يقل: إنْ شاء الله.

فلم تحملْ شيئاً إلا واحداً، ساقطاً إحدى شقَّيْه!.

فقال النبي ﷺ: لو قالها لجاهدوا في سبيل الله!».

وفي رواية أخرى للبخاري [برقم: ٥٢٤٢] عن رسول الله ﷺ: أنَّ سليمان عليه السلام قال: «لأطوفنَّ الليلةَ على مئة امرأة، كلهنَّ تأتي بفارسٍ يجاهدُ في سبيل الله.

فقال له صاحبُه: قلْ إنْ شاءَ الله! فلم يقلْ إنْ شاءَ الله!.

فلم تحملْ منهنَّ إلا امرأةٌ واحدة، جاءتْ بشقِّ رجل.

والذي نفسُ محمدٍ بيده لو قالَ: إنْ شاء الله؛ لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون».

خلاصةُ الحادثةِ التي أشارَ لها الحديث أنَّ سليمانَ عليه السلام كان عندَه مئة امرأة، بين حرةٍ وأمَة، وكانَ رجلَ جهادٍ وقتال، فقالَ في ليلة: لأطوفَنَّ الليلةَ على مئة امرأةٍ لتحملَ كلُّ واحدة، وتلدَ غلاماً يكونُ فارساً مجاهداً في سبيل الله.

فهو يريدُ أنْ يكونَ له مئةُ ولدٍ فارسٍ مجاهد.

فقال له المَلَك: قلْ إنْ شاء الله! ولكنَّه نسيَ ذلك، فلم يقلْ إنْ شاء الله!.

وطافَ على نسائِه المئة، وجامعهُنَّ في ليلةٍ واحدة!.

وفَتَنَهُ الله لأنَّه لم يقلْ إنْ شاء الله، فلم تحملْ من النساءِ المئة إلا امرأةٌ واحدة، حملتْ بجَنينٍ مشوَّه، ولما وضعَتْه ولدتْه ميتاً، وكان شقَّ إنسان، فوضعَتْه له على كرسيِّه! ولعلَّه هو الذي أشارتْ له الآية: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾.

لا غرابة في أنْ يكونَ لسليمانَ عليه السلام مئةُ امرأة، ما بين زوجةٍ حرةٍ، وأمَـةٍ جارية، إنَّ عدمَ جوازِ الزواج بأكثـرَ من أربع نسـاءٍ في وقتٍ واحد هو في شرعنا ولعلَّ هذ المنعَ لم يكنْ في شريعةِ سليمان عليه السلام!.

ولم يكن احتفاظُ سليمان عليه السلام بمئة امرأةٍ بقصْدِ الشهوة، إنما بهدفِ النسلِ والإنجابِ لتكونَ له الذريةُ الصالحة.

وبما أنه كانَ رجلَ جهاد، فقد أرادَ أنْ يَطوفَ على نسـائِه المئة في ليلـةٍ واحدة، لينجبنَ رجالاً مجاهدين!.

وقد جامعَ سليمانُ عليه السلام نساءَه المئةَ في ليلة واحدة! وهذا يستحيلُ

أنْ يصدرَ عن الإنسانِ العادي. أما سليمانُ عليه السلام فقد فعلَ ذلك، ولعلَّ الأمْرَ (معجزةٌ) من الله، أجراها الله له، وأمكنَه من معاشرةِ نسائه المئة! وبما أنَّ الأمرَ من الله فلا غرابةَ فيه، لأنه وردَ في الحديثِ الصحيح!.

ولما قال سليمان عليه السلام: لأطوفنَّ على مئةِ امرأةٍ كلُّ واحدةٍ تلدُ غلاماً يجاهدُ في سبيل الله، قال له الملَك: قل إنْ شاءَ الله، فنسيَ أنْ يقول: إنْ شاءَ الله.

ونسيانُه أنْ يقولَ إنْ شاء الله مظهرٌ من مظاهرِ بشريته، فلا يُلامُ عليه، فهو رسولٌ بشرٌ عليه الصلاة والسلام، يَعتريه ما يعتري البشرَ مما لا يتعارضُ مع النبوة، ومن ذلك النسيان!.

قد ينسى الرسلُ في غيرِ التبليغ، وها هو رسولُنا محمد ﷺ، يسألُه المشركون عن ذي القرنين وأهلِ الكهفِ والروح، فقال لهم: أُجيبكم غداً. ونسيَ أنْ يقول: إنْ شاء الله! فعاتَبه الله بأنْ أوقفَ عنه الوحيَ حوالي أسبوعين، وبعد ذلك أنزلَ عليه سورةَ الكهف، وفيها توجيهُه إلى الاستثناءِ عند الوعد، بأنْ يقول: إنْ شاءَ الله.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٣ ـ ٢٤].

ولا غرابةَ أنْ ينسى سليمانُ قولَ: إنْ شاء الله، رغمَ تذكيرِ الملَكِ له بذلك.

وقد عاتبهُ الله، وأراهُ آيةً من آياتِه، فلم تحملْ من نسائِه المئة إلا امرأةٌ واحدة، وأنجبتْ له شقَّ إنسانٍ ميت، وضعتْه له على كرسيِّه.

وعلَّقَ رسولُنا ﷺ على ذلك بأنه لو قال: إنْ شاء الله، لحملت النساءُ المئة، ولكان له مئةُ ولد، كلُّهم فرسان مجاهدون.

وهذا تأكيدٌ على المشيئةِ الإلهية، فما شاءَ الله كان، وما لم يشأْ لم يكن، وهنا لم يشأْ سبحانه أنْ يحققَ رغبةَ سليمان عليه السلام، في أنْ يكونَ له مئة ولدٍ فارس!!.

٤ ـ توجيه طلب سليمان الملك الواسع:

بعدما فَتَنَ الله سليمان عليه السلام بالجسدِ الملقى على كرسيِّه، تضرعَ سليمان إلى ربِّه، وطلبَ منه ملكاً واسعاً عريضاً.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ

لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [سورة ص: ٣٤ـ٣٥].

واستغفارُه في قوله: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي﴾ ليس عن ذنبٍ ارتكبه، فإنه نبيٌّ معصوم، وإنما هو صورةٌ من صورِ ذكْرِه لله، وتقرُّبٌ إليه بالاستغفار.

وقد طلبَ من الله الوهابِ أنْ يهبَه ملكاً خاصاً به، لا يُعطيه لأحدٍ من بعده! فما توجيهُ هذا الطلب؟ وعلى ماذا يدل؟

قد يعتبرُ بعضهم هذا الطلبَ حرصاً من سليمان عليه السلام على الزعامة، وتهالكاً على المُلك، وتفاخراً على الآخرين! أي أنه أرادَ المُلكَ من أجلِ المُلك!

سليمانُ نبيٌّ كريمٌ عليه الصلاة والسلام، وهو مُنَزَّهٌ عن هذه الأمراضِ والآفاتِ التي تُصيبُ الملوكَ والزعماء، وهو راغبٌ في الله والدار الآخرة، وحياتُه في الدنيا وقفٌ على دينِ الله والتمكينِ له، وهو يريدُ الملكَ الخاصَّ العريضَ الواسعَ لهذه الغاية.

إنه يريدُ الملكَ الذي لا ينبغي لأحدٍ من بعده لنشرِ دينِ الله والدعوة إليه، وليكون مظهراً من مظاهرِ الإنعامِ الربانيِّ عليه، وليتخذه وسيلةً لذكرِ الله وشكْرِه.

إنه لا يريدُ الملكَ الواسعَ ليكون غايةً مقصودة، إنما يريدُه وسيلةً لتحقيقِ الغايةِ الإيمانيةِ العظيمة!.

ولذلك استجابَ الله دعاءَه، وأعطاهُ من الملك ما لم يعطِهِ لأحدٍ قبلَه، ولا لأحدٍ بعدَه، ولو كانَ على طلبه ودعائه مأخذٌ لما استجابَ الله له!.

قال تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [سورة ص: ٣٦ـ٣٩].

سخَّرَ الله له الريح، فكانت تجري بأمره. وسخَّرَ له الجنَّ والشياطين، فكانوا طوعَ أمره.. وسخَّرَ له الطيرَ فكانتْ من جنوده..

وهبه الله ملكاً خاصاً لم يَهبْهُ لأحدٍ من بعده، فكان حاكماً لمجموعاتٍ من: الجن، والإنس، والطير، والريح.

وهل هناك حاكمٌ قبلَ سليمان أو بعدَه حَكَمَ الإنسَ والجنَّ والطيرَ والريح؟

لهذا كان سليمانُ عليه السلام أكثرَ الحكام ملكاً، ليسَ بسببِ سَعةِ مملكته، ولا بسببِ كثرةِ عددِ سكان مملكتِه. فهناك حكامٌ حكموا بلاداً أكبرَ من مملكته، وحكموا ملايينَ أكثر منه! إنه أوسعُ الحكامِ ملكاً لأنه حكمَ طوائفَ ومجموعاتٍ من الجنِّ والإنس والطير والريح!!.

وقد عرفَ رسولُنا محمد ﷺ لسليمان عليه السلام ما خصَّه الله به من الملك، ومنه تسخيرُ الجنِّ والشياطين له.

روى البخاري [برقم: ٤٦١]، ومسلم [برقم: ٥٤١] عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ عِفريتاً من الجن تفلَّتَ عَلَيَّ البارحة، ليقطعَ عليَّ صلاتي، فأمكنني الله منه، فأردتُ أنْ أربطه إلى ساريةٍ من سواري المسجد، حتى تنظروا إليه كلُّكم، فتذكَّرتُ دعوةَ أخي سليمان: قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعدي فرددته خاسئاً».

وفي روايةٍ أخرى عند مسلم [برقم: ٥٤٢]، والنسائي [برقم: ١٢١٥] عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قامَ رسول الله ﷺ يصلي فسمعناه يقول: «أعوذُ بالله منك، ألعنكَ بلعنةِ الله. أعوذ بالله منك، ألعنُك بلعنة الله. أعوذُ بالله منك، ألعنُك بلعنةِ الله» وبسطَ يدَه كأنه يتناولُ شيئاً.

فلما فرغَ من الصلاةِ قلنا: يا رسول الله ﷺ: قد سمعْناكَ في الصلاة تقولُ شيئاً، لم نسمعكَ تقولُه قبلَ ذلك، ورأيناك بسطْتَ يَدَك؟

قال: «إنَّ عدوَّ الله إبليسَ جاءَ بشهابٍ من نار، ليجعلَه في وجهي، فقلتُ: أعوذُ بالله منك، ثلاثَ مرات، ثم قلت: ألعنكَ بلعنةِ الله التامة، ثلاثَ مرات، فلم يستأخر!.

ثم أردتُ أخذه، واللهِ لولا دعوةُ أخي سليمان لأصبح موثَقاً، يلعبُ به ولدانُ أهل المدينة».

أرادَ الرسولُ ﷺ أنْ يوثقَ الشيطانَ الذي جاءَ ليُفسدَ عليه صلاتَه، ولو فعلَ لتفرَّجَ عليه المسلمون، ولعبَ به الولدانُ في المدينة، والذي منعَه من ذلك تذكُّرُه دعوةَ سليمان عليه السلام، بأنْ يهبَه الله ملكاً لا يهبُه أحداً من بعده، فأرادَ الرسولُ ﷺ أنْ يُبقيَ هذه الخاصيةَ لسليمانَ عليه السلام!.

٥ ـ كيف سخرت الريح لسليمان عليه السلام؟:

أخبرنا الله أنه سخَّرَ الريحَ لسليمان عليه السلام. قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨١].

وقال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢].

ما معنى هذه الآيات، وكيفَ سخَّر الله الريحَ لسليمان عليه السلام، وما معنى ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾؟.

جعلَ الله الريحَ طوعَ أمْرِ سليمان عليه السلام، تتحركُ أينما شاء، وتسيرُ إلى أيِّ مكانٍ أراد، وتُقدمُ الغيثَ والخيرَ للناس، وكان هذا آيةً من آياتِ الله لسليمان عليه السلام.

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [سورة صَ: ٣٦]: كانت الريحُ تجري وتتحركُ وتسيرُ بأمر سليمان عليه السلام، وتحملُ معها الرَّخاءَ والغيث.

وكلمةُ (رُخاء) في الآية ذاتُ دلالةٍ لطيفة.

إنها مشتقةٌ من (رخا) بمعنى: حَسُنَ واتَّسع. تقول: رَخا فلان: أي حَسُنَ حالُه. ورخا عيشُه: اتسعَ عيشُه. والرَّخاءُ ـ بفتح الراء ـ العيشُ الواسعُ الرغيد.

وفرقٌ بين (رُخاء) بالضم، و(رَخاء) بالفتح.

الرُّخاء ـ بالضم ـ هي: الريحُ اللينةُ الطيبةُ النافعة.

والرَّخاءُ ـ بالفتح ـ هو: سَعَةُ العيشِ ويُسْرُه وليونتُه ورفاهيتُه.

والثاني نتيجةٌ للأول وثمرةٌ له، فالرَّخاءُ والرغدُ والخصبُ واليسرُ نتيجةٌ للريح الرُّخاء، لأنَّها تأتي بالغيث، فينتجُ عنه الزرعُ والثمرُ والخصب، ولذلك يعيشُ الناسُ في رَخاءٍ وسَعةٍ ويُسْر!

هذه الريحُ الرُّخاء كانتْ تجري بأمْرِ سليمان عليه السلام إلى الأرض المقدسة: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأنبياء: ٨١]

والأرضُ التي باركَ الله فيها هي الأرضُ المقدسة فلسطينُ وما حولها، التي كان فيها حكمُ سليمان عليه السلام.

هذه الريحُ الرُخاءُ العاصفة كان غدوُها شهراً ورواحُها شهراً!.

والغُدوُّ هو أولُ النهار. تقول: غدا، يغدو، غدواً. إذا بكّر وخرجَ في أولِ النهار.

والرواحُ هو السيرُ في آخرِ النهار، قُبيلَ الغروب.

فالغُدوُّ والرَّواحُ أمران متقابلان، الأوّل في أوّلِ النهار، والثاني في آخره.

ومعنى: ﴿ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾: جعلَ الله الريحَ عاصفةً سريعة، تحملُ معها الغيثَ والخير، وتقطعُ مسيرةَ شهرٍ في غدوِّها وقدومِها ومجيئها وقتَ الصباح، وتقطعُ مسيرةَ شهرٍ آخرَ في رواحِها وذهابها وقتَ العشيِّ في آخرِ النهار.

أي: أنَّ الريحَ كانتْ تقطعُ مسيرةَ شهرَيْن في اليومِ الواحدِ! وهذا مظهرٌ من مظاهرِ الرخاءِ والخصبِ الذي كانت تأتي به هذه الريح، وتتحركُ بأمرِ سليمان عليه السلام!.

ويجبُ أنْ نستبعدَ الإسرائيلياتِ الخرافيةَ المتعلقةَ بالريحِ المسخَّرةِ لسليمانَ عليه السلام، إنها تتحدثُ عن (بساط الريح السحري) الذي كان يركبُ عليه سليمانُ وجنودُه ورجالُه، فيطيرُ بهم هذا البِساطُ في الجو، ويتجولُ عليه في مختلفِ بلادِ العالم، وكأنه (طائرة) من طائراتِ هذا الزمان!.

وقد استهوتْ هذه الإسرائيلياتُ والأساطيرُ بعضَ المفسرين والإخباريين المسلمين، وفسّروا بها آياتِ القرآن، وسَجّلوا بعضَ رحلاتِ سليمان الجويةِ المثيرةِ على (بساط الريح).

٦ ـ تقرير الهدهد عن ملكة سبأ:

كانَ سليمانُ عليه السلام يحكمُ الأرضَ المقدسة، حيثُ أقامَ فيها حكماً (إسلامياً) قوياً. وقد أخبرنا القرآنُ عن اتصالٍ جرى بينَه وبين مملكةِ (سبأ) في اليمن. والمسافةُ بين فلسطين واليمن طويلة، تزيدُ على الألفي كيلو متر.

الذي أخبرَ سليمانَ عن مملكةِ سبأ هو (الهدهد) الذي كان في جيشِه المكوّنِ من الجنِّ والإنسِ والطير. وتحدثتْ عن ذلك آياتُ سورةِ النمل [١٥ ـ ٤٤].

قال تعالى عن تقرير الهدهد عن مملكة سبأ: ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ

أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٢٢ ـ ٢٤].

أخبرَ الله عن رحلةِ الهدهد إلى سبأ بقوله: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾! وهذا يشيرُ إلى تقصيرِ فترةِ غيابِ الهدهد عن جيش سليمان عليه السلام!.

كيفَ مكثَ الهدهدُ غيرَ بعيد: مع أنَّ المسافةَ بين اليمنِ وفلسطين بعيدة؟ تزيدُ على الألفي كيلو متر، وبينهما بقاعٌ عديدةٌ مثل: نجران وعسير والحجاز ومدين!! كيفَ مكثَ الهدهدُ غيرَ بعيد مع أنَّ المسافةَ بين اليمن وفلسطين تحتاجُ إلى شهورٍ لقطعها؟

لقد كان قطعُ الهدهدِ للمسافةِ الطويلةِ في وقتٍ قصيرٍ (معجزة) ربانية، فالله طوى له الطريقَ الطويلة، وجعلَهُ يجتازُها في فترةٍ قصيرة، ويعودُ في مدةٍ يسيرة. ولا ننسى أنَّ الله سخَّرَ الريحَ لسليمان عليه السلام، غدوُّها شهرٌ ورواحُها شهر.. وقد يكونُ لهذه الريحِ دورٌ في حملِ الهدهدِ إلى اليمنِ وعودتِه إلى فلسطين.

ولعلَّ غيبةَ الهدهدِ عن سليمانَ عليه السلام لم تزد على يومين، يومٌ للذهاب، ويوم للعودة.

وقدّم الهدهدُ لسليمان عليه السلام تقريراً عن سبأ، أرضاً وشعباً وملكةً وعرشاً وديانة.

﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾: كان نظامُ دولةِ سبأ ملكياً، وكانتْ ملكتُهم امرأة، شاهَدَها الهدهد.

وكلمةُ (امرأةً) في الآية نكرة، وهذا التنكيرُ للإبهام، ولم يذكر القرآنُ اسْمَها، كما لم يَرِدْ اسمُها في حديثٍ صحيحٍ عن رسول الله ﷺ.

وذهبَ الإخباريون والمفسّرون إلى أنَّ اسمَها (بلقيس). لكن ليس عليه دليلٌ من القرآنِ والسنة، ولذلك لا نخوضُ فيه.

﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾: أمعنَ الهدهدُ نظرَهُ في أحوالِ الملكة، وفي مظاهرِ مُلْكِها، فوجدَ عندها الكثير، وأجملَ ذلك في هذه الجملة ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾.

أي: أُوتيتْ من كلِّ شيءٍ من متاع الدنيا، مما يحتاجُ إليه الملكُ في ملكه، ويؤدي إلى تقويةِ الملكِ ومتانته. وهذا يعني أنَّ مملكةَ سبأ كانت قويةً غنيةً مزدهرة في ذلك الوقت، تتمتعُ بالكثيرِ من مظاهر الخيرِ والرَّفاهِ والمتاع، وها هي أوتيتْ من كلِّ شيءٍ من متاع الدنيا..

﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾: أخبرَ الهدهدُ عن عظمةِ عرشِ ملكة سبأ، ويكفينا تصوُّرُ مدى عظمةِ العرش وضخامتِه من خلالِ التنوينِ في الكلمتين: ﴿عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾. ولسنا بحاجةٍ إلى الإسرائيليات والأساطيرِ للحديثِ عن عظمةِ هذا العرش، والكلامِ عن مقاساته طولاً وعرضاً وارتفاعاً، وعن المادةِ التي صُنعَ منها، وعن الذهبِ والجواهرِ واللآلئِ التي زُيِّنَ بها، ونبقى مع التفخيمِ في التنوين: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾.

ولاحظَ الهدهدُ شركَهم بالله، وعبادتَهم للشمسِ من دون الله، واستغربَ هذا الشرك مع أنه طائر! ولذلك تابعَ تقريرَه لسليمان عليه السلام بقوله: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩﴾ [النمل: ٢٤ ـ ٢٦].

٧ ـ موقف مملكة سبأ من كتاب سليمان إليها:

كتبَ سليمانُ عليه السلام كتاباً إلى مملكةِ سبأ وقومِها، يدعوهم فيه إلى الدخول في الإسلام، وذكرَ القرآنُ نصَّ الكتابِ وهو: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [النمل: ٣٠ ـ ٣١].

وكلَّفَ الهدهدَ حملَ الكتاب إليهم، ومراقبةَ الأمرِ لمعرفةِ ردِّ فعلِهم. قال تعالى: ﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل: ٢٧ ـ ٢٨].

وأوصلَ الهدهدُ الكتابَ إلى ملكةِ سبأ، ولا نعرفُ كيفَ أوصله، ولا يهمُّنا معرفةُ ذلك، لأنه مسكوتٌ عنه في القرآن.

قرأتْ ملكةُ سبأ كتابَ سليمان عليه السلام، وفهمتْ قصْدَه. وهي تسمعُ بسليمانَ وتعرفُ مَنْ هو، وتدركُ مظاهرَ قوَّته.. وبهذا عرفَتْ أنها مُقْدِمَةٌ على

أحداثٍ خطيرة لها ما بعدها، حيثُ قصدَها حاكمُ أقوى دولةٍ في عهدها، فكيفَ تتصرف؟ وبماذا تردُّ على كتابه؟

دعت الملأ المستشارين من قومِها، وعرضَت الأمرَ عليهم، ففوّضوها بالتصرفِ المناسب. قال تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ٢٩ ـ ٣٥].

لقد مالتْ ملكةُ سبأ إلى المسالمة والمهادنة، ونفرتْ من الحرب، لأنَّها ستخسرها، وقالتْ عن سليمان عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

ومعنى كلامِها أنها تُبرزُ للمستشارين ميلَها إلى المسالمة، وتقولُ لهم: إني أخشى أنْ نحاربَ سليمان ونمتنعَ عليه، لأنه سوفَ يقصدُنا بجنوده، ويهلكُنا بمنْ معه، إنه ملك قوي، وإذا احتلَ بلاداً أفسدَها، لأنَّ الملوك إذا دخلوا قريةً أفسدوها، وجعلوا أعزةَ أهلِها أذلة!.

وتقصدُ ملكةُ سبأ بكلامِها سليمان عليه السلام، ولكنَّ بعضَ المسلمين يُعممُ كلامَها على كلِّ الملوك في الماضي والحاضر، ويعتبرُ القرآنَ ذاماً للملوكِ كلِّهم بنصِّ الآية، لأنَّه يصفُهم بالإفسادِ والتخريب وإذلالِ الناس!.

ولسنا من أنصارِ تعميمِ كلامِ ملكةِ سبأ على كلِّ الملوك، ليسَ تبرئةً لهم، ولكن لأنها تقصدُ بكلامِها مَلِكاً مصلحاً، ونبياً رسولاً، وحاكماً عادلاً مجاهداً، هو سليمانُ عليه السلام، وتجعلُه مفسداً مخرباً!.

الملوك نوعان:

ـ ملوكٌ ينطبقُ عليهم كلامُ ملكةِ سبأ، وهم الذين لا يُطيعون الله، ولا يحكمونَ الناسَ بشرعِ الله، فالفسادُ والإفسادُ ملازمٌ لحكمهم.

ـ وملوكٌ لا ينطبقُ عليهم كلامُ ملكة سبأ، وهم الملوكُ الصالحون، المطيعونَ لله، الذين يحكمونَ الناسَ بشرعِ الله، وقليلٌ ما هم!!.

وذِكْرُ القرآن لكلامِ ملكةِ سبأ حول الملوك الذي تقصدُ به سليمان عليه السلام، هو من باب الإخبارِ عما قالَتْه، وليس من بابِ اعتمادِه وتقريره، وجعْلِه حقيقةً قرآنية مطردة. ويدخلُ هذا ضمنَ ذكْرِ القرآن لأقوالِ الكافرين عن شركهم وكفرهم، فهو يذكُره من بابِ الإخبار، ولا يقولُ أحدٌ إنه بذكْره له يقررُه ويعتمدُه. وهكذا ذكْره لكلامِ ملكةِ سبأ عن الملوك.

٨ ـ لماذا أراد سليمان إحضار عرش الملكة؟:

أرادتْ ملكةُ سبأ امتحانَ سليمان عليه السلام، لتعرفَ مدى جدّيته في دعوته، فبعثتْ له هديةً ثمينةً، مع وفد من مستشاريها، فإنْ قبلَها كان راغباً في الدنيا، وإنْ رفضَها وأصرَّ على دعوته كان جاداً داعية: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

وسليمان عليه السلام داعيةٌ مجاهدٌ جادٌّ. ولذلك رفضَ الهديةَ، وأصرَّ على دعوته، وخاطبَ الوفدَ بغايةِ الصراحةِ والشدة. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [النمل: ٣٦ ـ ٣٧].

وعادَ الوفدُ إلى الملكةِ يخبرُها برفضِ سليمان الهدية، وتصميمِه على الدعوة، وتهديدِه بغزوِ اليمن واحتلالها.

عند ذلك عرفت الملكةُ حقيقةَ سليمان عليه السلام، وأيَّ نوعٍ من الملوك هو، وأنها أمامَ رجلٍ دعوة وليس جامعَ مال، وأنه قادمٌ لقتالهم، وأنه لا طاقةَ لهم به! واقتنعتْ بدعوتـه لها إلى الإسلام، وصممتْ على المجيء إليه مع وفدٍ من قومها، للإسلام معه!.

وعلمَ سليمان عليه السلام بتوجُّهِ الملكةِ إليه للإسلام، فأرادَ أنْ يُريها آيةً ربانيةً باهرة، تدلُّ على أنَّ الله معَه.

قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [النمل: ٣٨].

تركتْ ملكةُ سبأ عرشَها العظيم خلفَها في قصرِها تحتَ الحراسةِ الشديدة، وسليمان عليه السلام يريدُ من الملأ إحضارَ هذا العرش قبلَ وصولِ الملكةِ إليه!.

وهدفُ سليمان عليه السلام من ذلك أنْ يُرِي الملكةَ ووفْدَها مزيداً من مظاهرِ قوته ونفوذِه وسلطانِه، وذلك ليُزِيلَ أيَّ فكرةٍ عندها أو عندَ وفدِها بالمواجهةِ أو المقاومة، وليزدادوا قناعةً بعدم نفع معبوداتِهم لهم، وليقدِّمَ لهم الدليلَ القويَّ على أنَّ الله معه، ولذلك قدَّرَ إحضارَ العَرشِ إليه!.

هدفُه من إحضارِ عرشِها هدفٌ دعويٌّ إيمانيٌّ رفيع! وليسَ مجردَ امتلاكٍ لذلك العرشِ العظيم.

٩ ـ كيف أحضر عرشها في لحظة؟:

لما طلبَ سليمان عليه السلام من الملأ إحضارَ عرشِها قبلَ وصولها، قُدِّمَ له عرضان:

عرضُ العفريت، وعرضُ الذي عنده علم من الكتاب، وكلَّفَ سليمان عليه السلام الثاني بإحضارِ العرش لأنَّه قدمَ عرضاً أسرع!.

قال تعالى: ﴿قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل: ٣٨ ـ ٤٠].

كان في مجلس سليمان عليه السلام اثنان:

الأول: عفريتٌ من الجن. استعدَّ أنْ يُحضرَ عرشَ الملكةِ من اليمن إلى فلسطين، قبل أن يقوم سليمان من مجلسه!.

وهذا خارقٌ من الخوارق، يُجريه الله على يدي العفريتِ الجنّي، كرامةً له، لأنَّ المسافة بين اليمن وفلسطين طويلة، تحتاج إلى أسابيع ذهاباً، وأسابيع إياباً، وحمْلُ العرشِ العظيم يحتاجُ إلى مجموعةٍ من الرجال! فكيف سيُحضرُ هذا العفريتُ العرشَ وحدَه؟ وكيف يحضرُه في ساعاتٍ قليلة؟.

ليس هذا إلا كرامةٌ من الله، سيُجريها على يدِ العفريت! وهذا العفريتُ الجنيُّ مبهمٌ من مبهماتِ القرآن، لا نعرفُ اسْمَه، ولا نعرفُ وظيفتَه عند سليمان،

ولا نعرفُ مركزَه في الجن!

الثاني: الذي عنده علمٌ من الكتاب. وقد استعدَّ أنْ يُحضر العرشَ قبلَ أنْ يرتدَّ طَرْفُ سليمانَ إليه: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾.

والطَّرْفُ: هو تحريك جفْن العين.

والمعنى: امْدُدْ بصرَكَ، وانظر إلى شيء بعيد، يصلُه طَرْفُك، ومُدَّ طَرْفَك إليه، فإنه لا يرتدُّ ويرجعُ إليك طرفَك، إلاّ والعرشُ حاضرٌ عندك!

وعَرْضُ الذي عنده علمٌ من الكتاب أسرعُ من عَرْضِ العفريتِ من الجن، لأنه سيَطوي المسافةَ الطويلةَ في لحظات! لأنَّ عودةَ الطَّرْفِ لا تستغرقُ إلاَّ ثواني معدودة!

الله الذي سيأتي بالعرش، وهذا الذي عنده علمٌ من الكتاب سبب، سيُجري الله على يديْه هذه المعجزة الباهرة، وبما أنه من فعْلِ الله في الحقيقةِ فلا غرابةَ فيه، لأنَّ الله فعّالٌ لما يريد، ولا يعجزُهُ شيءٌ في الأرضِ ولا في السماء...

وقد أبهمَ القرآنُ هذا الشخصَ الذي سيُحضرُ العرشَ في لحظات، ولم يصِفْه إلا بأنه: ﴿عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾. ولا يوجد حديثٌ صحيحٌ عن رسول الله ﷺ يُضيفُ جديداً إلى ما ذكره القرآن!

لا نقول عنه إلاّ أنه عندَه علمٌ من الكتاب! فلا نعرفُ اسْمَه، ولا نسبه، ولا جنسَه أهو من الجنِّ أم من الإنس، ولا وظيفتَه وعملَه عند سليمان عليه السلام.

و(الكتاب): هو كتاب الله الذي يحكم به سليمانُ عليه السلام، وكان أنبياءُ وحكامُ بني إسرائيل يحكمون قومهم بالتوراة، وقد أنزل الله على داود عليه السلام الزبور، مصدِّقاً للتوراةِ ومكملاً لها.

وهذا معناهُ أنه كانَ عند سليمان عليه السلام كتابان: التوراة، والزبور.

فهذا الرجلُ كانَ ﴿عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾. أي: علمٌ أخذه من التوراةِ والزبور، علّمه الله إياه، وكان بهذا العلم قادراً بإذن الله على إحضار العرش في لحظات.

ولم يتحدث القرآن عن العلم الذي أخذه هذا الرجلُ من الكتاب، وعَبَّرَ عنه

بأنه : ﴿عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ، وهذا التنكيرُ مقصود ، حتى لا نخوضَ نحنُ في تحديد هذا العلم ، لأنَّ الآياتِ والأحاديثَ الصحيحةَ لم تحدده!

كلَّفَ سليمانُ عليه السلام هذا العالمَ الصالحَ بإحضارِ العرش في (طَرْفَةِ عين) ، وأجرى الله على يديْه كرامةً خارقةً . . أرسل سليمان عليه السلام طَرْفَه ، وهو جالسٌ مكانه ونظر إلى بعيد ، وقام الذي عنده علمٌ من الكتاب بإحضار العرش . . . وما إنْ عادَ طرفُ سليمان إليه ؛ حتى رأى عرش ملكة سبأ أمامه ، مستقراً عنده!!

كيف أحضر العالمُ العرشَ في لحظة؟

الأمْرُ ليس خاضعاً لمقاييس البشر ، ولا لطاقاتهم وقدراتهم وإمكاناتهم ، وهو مستحيلٌ بالحساب البشري! لكنَّ الأمر أمْرُ الله ، وهو فعّالٌ لما يُريد ، وليس عليه شيءٌ مستحيل!.

إنَّ الله هو الذي أحضرَ عرشَ ملكةِ سبأ ، من اليمن إلى فلسطين ، في لحظة ، ودورُ الذي عنده علمٌ من الكتاب ظاهري ، جعلَه الله سبباً بشرياً ، وأجرى الخارقةَ على يديه . .

فلا مجالَ للاستغراب أو الدهشة أو الإنكار ، وبما أنَّ الله أخبرنا عن ذلك في القرآن أنه وقَع ، فلا بدَّ أنْ نَصدِّقَ به! ولا مجالَ لتفسير ما حدثَ تفسيراً علمياً مادياً ، ولا قياسه بعاداتِ البشر وقدراتهم ، لأنَّ المعجزةَ أو الكرامةَ أمْرٌ خارقٌ لعاداتِ الناس ، ونقْلُ عرشٍ وزنُه عدة كيلو غرامات من اليمن إلى فلسطين في لحظة ، لا يَقْدِرُ عليه إلاّ الله ربُّ العالمين!!.

١٠ ـ لماذا امتحان الملكة بتنكير عرشها؟:

رأى سليمانُ عليه السلام عرشَ ملكةِ سبأ أمامه ، قبلَ وصولها مع وفدها ، وأراد أن يمتحنَها ، فأمر بتنكير عرشها .

قال تعالى : ﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [النمل : ٤١ ـ ٤٣] .

طلب سليمان عليه السلام من رجاله أن (يُنكِّروا) للملكة عرشها ، وذلك

بإجراء بعض التغييرات الشكلية الجزئية عليه، لا تُغيِّرُ صورتَه الحقيقية. وصَرَّحَ بأنَّ هدفه من هذا التنكير والتغيير الجزئي هو امتحان الملكة في ذكائها، ومعرفةُ فطنتها وقوة ملاحظتها. فعندما ترى العرشَ هل ستعرفُه بعدَ التنكير والتغيير؟.
﴿ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾.

ولما جاءت الملكة ودخلت القصر، ورأت العرش أمامَها سألوها: أهكذا عرشك؟

وهذا السؤال في قمة النباهة. فلم يقولوا لها: أهذا عرشُك؟... فلو كان السؤال بهذه الصيغة لكان فيه شبهُ تلقين لها، والإيحاءُ لها بالجواب، وإشارةٌ خفيةٌ إلى أنهم أحضروا عرشَها في غيبتها!

لو قالوا لها: أهذا عرشُك؟ فسيكون جوابها: نعم هو عرشي.

كلمةُ (أهكذا) مكوَّنةٌ من ثلاثة أحرفٍ داخلةٍ على اسمِ الإشارة (ذا) وهي: همزةُ الاستفهام (أ). وهاءُ التنبيهِ (ها). وكافُ التشبيه (ك).

شبه الجملة (أهكذا) في محلِّ رفعِ خبرٍ مقدَّم. و(عرشُك) مبتدأٌ مؤخرٌ!

وقُدمت هاء التنبيه على كافِ التشبيه (أهكذا).. والأصل: أكهذا. وكافُ التشبيه بمعنى (مِثْل). والمعنى: أَمِثْلُ هذا العرشِ عرشُك؟

ومعنى السؤال دعوةُ الملكة إلى إمعان النظر في العرش الموجود أمامها، وملاحظةِ أَوجه الشَّبهِ بينَه وبين عرشها. وكأنهم يقولون لها: أَعرشُك مثلُ عرشِنا؟

نظرت الملكةُ بإمعان إلى العرش: إنه عرشها، ومظاهرُ التنكير والتغيير عليه لم توقعْها في اللَّبس!

ووقعتْ في حيرة: ما الذي جاءَ بعرشها إلى هنا؟ أهو عرشُ سليمان؟ وهلْ من الممكنِ أنْ يكونَ العرشان متشابهين إلى هذه الدرجة؟

أمامها ثلاثُ إجاباتٍ على السؤال:

الأولى: هذا عرشي. ولو أجابتْ بهذه الإجابة لكانت ساذجة، لأنها ستتهمُ رجالَ سليمانَ بأخذِ عرشِها وسرقته، وهذا لا يتفق مع (الكياسة) الرسمية!!

الثانية: ليس عرشي. ولو أجابت بها لما كانت فطنة، لأنَّ هذا العرشَ يشبهُ عرشَها في كثيرٍ من الأمور.

الثالثة: كأنَّه هو! وهذه الإجابةُ المتفقةُ مع الحكمةِ والفطنة.

حرفُ التشبيه (كأنَّ) يدلُّ على الشبهِ الكبير بين العرشيْن، كأنه لا فرق بينهما.

معنى قولها: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾: كأنَّ عرشي هو هذا العرش. وهو قريبٌ من القول: هو هو! لكنه يخلو من الاتهام المباشر بخطف العرش.

لم تقل: هكذا هو. ليتطابق الجواب مع السؤال، لأنَّ هذا يدلُّ على وضوحِ التغاير بين العرشين! وهي لا تكادُ تجدُ التغايرَ بينهما واضحاً.

لقد كان جوابُها: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ في غاية الكياسة والحصافة، فلا هي اعترفَتْ أنه هو، ولا هي نَفَتْ أنه هو. واحتفظتْ في جوابها بخطِّ الرجعة، وأبقت البابَ مفتوحاً لكلِّ الاحتمالات!!

عرف سليمان عليه السلام فطنةَ الملكةِ وكياستَها وحصافتَها في جوابها: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾. لكن فرقٌ كبيرٌ بين حيرتِها رغم فطنتِها، وبينَ علمِه ويقينه. ولذلك علَّقَ سليمانُ على جوابها قائلاً: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾.

أي: سليمانُ نبيٌّ مسلمٌ عليه السلام، ولذلك آتاهُ الله ما آتاهُ من العلمِ النظريِّ والعملي، استطاعَ هو ورجالُه بهذا العلم إحضارَ عرشها.. أما هي فلم تُؤتَ من ذلك العلم، لأنها لم تكنْ مسلمة، وصَدَّها كُفْرُها بالله وعبادتُها الآلهةَ الباطلةَ عن ذلك العلمِ الهادي اليقينيِّ النافع، الملازم للإسلام.

وهكذا انهزمت ملكة سبأ في هذه المواجهة بينها وبين سليمان عليه السلام، وتغلَّبَ هو عليها لإيمانه وإسلامه وإقباله على الله!

١١ ـ الملكة والصرح الممرد من قوارير!:

وبينما كانت ملكة سبأ تحت تأثير الدهشة والحيرة من العرش الموجود أمامها، أَعَدَّ لها سليمان عليه السلام مفاجأةً أُخرى مذهلة! اضطرتْ عندها للاعتراف بالهزيمة.

قال تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

وقفتْ على باب القصر لتدخلَه، ولم يكن القصرُ مبنياً من حجارةٍ وطين، إنما كان قصراً من بلّورٍ زجاجي، وجهّزَ مدخلَه بطريقةٍ عجيبةٍ مثيرة، حيثُ كان مبنياً من زجاجٍ متينٍ سميك، أُقيمَ على بركةِ ماء. فإذا نظرَ له القادم لم يرَ الزجاج، وظنَّ أنه مقبلٌ على خوضِ الماء، فيستعدّ لذلك برفعِ ثوبه عن ساقيْه.

وقف سليمان عليه السلام على باب القصر لاستقبال الملكة، والزجاجُ المبنيُّ على الماء يفصلُ بينه وبين الملكة.. ودُعيت الملكةُ إلى الدخول والعبور للوصول إلى سليمان: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ﴾.

احتارت الملكة؛ كيف ستصلُ إلى سليمانَ الواقفِ أمامَها، وبينَها وبينَه حاجزٌ من الماء؟ إذنْ لابدَّ أنْ تخوضَ الماء!.. رفعَتْ ثوبَها عن ساقيْها لتخوضَ (لجةَ) الماءِ أمامها! ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾.

ولنتصور سخرية الواقفين مع سليمان عليه السلام من الملكة، وهي ترفعُ ثوبَها لتقطع ما حسبتْه لجة! هذه الملكة القوية الغنية الذكية، التي تحكم دولةً غنية، وأُوتيتْ من كلِّ شيء، ولها عرشٌ عظيم، وتتمتعُ بفطنةٍ وذكاء، هي الآنَ صارتْ مجالاً للسخرية، وأصبحت حركتها بالكشف عن ساقيْها شبهَ ساذجة.

وقبلَ أنْ تخطوَ قدماها خطوتَهما الساذجة، قال لها سليمان عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾!

وزاد كلامُه لها من استغرابِها ودهشتها، فها هي تمرُّ أمام سليمان بسلسلةٍ من المفاجآت المثيرة، تنهزم هي فيها واحدة واحدة.

معنى ﴿مُّمَرَّدٌ﴾: أملس. ومعنى ﴿قَوَارِيرَ﴾: زجاج.

أي: هذا قصرٌ مبنيٌّ من الزجاج. كأن سليمان عليه السلام يقول لها: إن ما أمامك ليس لجةَ ماء، فلا داعيَ لكشفِ ساقيك، إنما هو ممرٌّ من الزجاج بُنِيَ على بركة من الماء، فاعبُريه بأمان!

وتأبى الإسرائيلياتُ إلاّ ذكرَ الخرافاتِ والأكاذيب، حتى في هذه المسألة! لماذا بنى سليمان القصر من الزجاج، وجعل أمامه هذا المدخل من الزجاج المبنيِّ على بركة الماء؟

قال دعاةُ الإسرائيليات: كان سليمان قد سمع الكثير عن جمالِ (بلقيس)

ملكة سبأ، لكنّه سمع أنّ على رجليْها شعراً كثيفاً! فأراد أنْ يتأكّد، هل على رجليْها شعرٌ أم لا؟! فبنى لها هذا البناء من زجاج لتضطرَّ إلى الكشفِ عن ساقيها!

قالوا: ولما كشفت عن ساقيْها نظرَ إليهما، فرأى عليهما شعراً كثيفاً!! فأمر رجاله بإعداد دواء لها يُزيلُ ذلك الشعر!!

هذه الإسرائيلياتُ والأكاذيبُ يجبُ أنْ نُبعدها عن كتابِ الله، ولا يجوز أن نفسّر بها أعمالَ ومواقفَ أنبياءِ الله!!

لقد أراد سليمانُ عليه السلام مفاجأة ملكة سبأ بالقصر المبنيّ من زجاج، ومدخلِه الزجاجيّ المبنيّ على ماء، ليُريها قوّته وعظمةَ سلطانه، باعتبارِه نبياً مؤمناً بالله، وأنّ الله رب العالمين معه، وأن يُبينَ لها ضعْفَها أمامَه، وهزيمتها أمام قوته، لأنها كافرةٌ بالله، ليقودها ذلك إلى الإيمان بالله!

إنَّ هدفَه من مفاجآتِ الملكة المتتابعةِ هدفٌ دعويٌّ إسلامي، وليس هدفاً تسلُّطياً، أو هدفاً (شهوانياً)!! وحاشاه أن يفعل ذلك!!.

١٢ ـ الإسلام الذي دخلت ملكة سبأ فيه:

في نهاية رحلة ملكة سبأ المثيرة إلى سليمان عليه السلام، اعترفت بقوته وتفوقه عليها، وبهزيمتها وضعفها أمامه، وهي التي أُوتيتْ من كلِّ شيء.

عرفَتْ أنَّ سرَّ قوة سليمان عليه السلام إيمانُه بالله، فالله معه، هو الذي مكّنَ له، ووهبَه هذه المظاهرَ للقوةِ المادية، وعرفَتْ أنَّ سِرَّ ضعفها كفرُها بالله، وآلهتُها لم تنفعْها ولم تنصُرْها. إذنْ هي ظالمةٌ لنفسِها بكفرِها.

وأعلنَتْ دخولها في (الإسلام) دينِ سليمان عليه السلام. وكانت آخر جملةٍ قالتْها في نهاية قصتها المثيرة: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أسلمت هي، وأسلم وفْدُها الذي جاءَ معها، وأسلَمَ قومُها!

وهكذا نجحَ سليمان عليها السلام في هدفه من دعوة هؤلاء إلى الإسلام، وتحققت رسالتُه التي بعثَها لهم: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٠ ـ ٣١].

وسكتَ القرآنُ عن ما جرى بعد ذلك: فلا ندري هل تزوَّجَ سليمانُ ملكةَ سبأ أم لا؟ ولا ندري كيف كانت نهاية ملكة سبأ؟ وعلينا أنْ نسكت عن ما سكت عنه القرآن.

والمهمُّ هو الوقوفُ أمام دعوةِ سليمان عليه السلام ملكة ملكة سبأ وقومها للدخول في الإسلام، ودخولها في الإسلام فعلياً!

وقد يلتبسُ الأمر على بعضهم، لأنه يظنُّ أنَّ الإسلامَ هو الدينُ الذي جاءَ به محمدٌ رسولُ الله ﷺ فقط، والذي دخلنا نحن فيه... أما الأنبياء السابقون فأين هم من هذا الإسلام؟ وكيف يدعو سليمان إلى الإسلام مع أنه إسرائيلي، وكان رسولاً إلى بني إسرائيل، وملكاً عليهم؟؟

لقد حرص القرآن على تأكيد حقيقة أن الإسلام هو دينُ سليمان عليه السلام، ولذلك دعا ملكةَ سبأ وقومها للدخول فيه! ولذلك كررَ (الإسلام) أكثر من مرة، في حديثه عن قصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ.

قال تعالى: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣١].

قال تعالى: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

إن الإسلام هو دين الرسل والأنبياء جميعاً، كلُّهم جاؤوا بالإسلام، ودعَوْا قومهم للدخول في الإسلام.

وقد أوردَ القرآن ثلاثة معانٍ للإسلام:

الأول: الإسلام بالمعنى العام: وهو دينُ كلِّ المخلوقات في هذا الوجود. كلُّ واحدٍ منها (مسلم) مستسلمٌ خاضعٌ منقادٌ لله.

قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

إنَّ الآية صريحةٌ في أنَّ كلَّ مخلوقٍ أسلمَ لله، إما طوعاً وأما كرهاً. والكونُ خاضعٌ لله مستسلمٌ له، أو قل: (مسلمٌ) لله، بهذا المعنى العام للإسلام!

الثاني: الإسلام بالمعنى التاريخي: وهو دينُ كلِّ نبيٍّ ورسول.. إنَّ كلَّ نبيٍّ مسلمٌ، ودينَه هو الإسلامُ، وقد دعا الناس إلى الإسلام، وأتباعُه يسمّون (مسلمين).

وعلى هذا قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٠ـ١٣٣].

الثالث: الإسلام بمعناهُ الخاص: وهو دينُ الإسلام وشريعتُه، الذي جاء به محمدٌ ﷺ، خاتمُ الأنبياء والمرسلين، إنه هو الذي انتهت إليه رسالات الرسل، والذي نسخَ الله به الأديان السابقة، وطالبَ الناسَ جميعاً أنْ يعتنقوه، واعتبره الدينَ الوحيدَ المقبولَ عنده، ومَنْ لم يعتنقْه فهو كافر!

على هذا قولُه تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...﴾ [المائدة: ٣].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا...﴾ [آل عمران: ٨٥].

لقد جاءَ سليمانُ عليه السلام بالإسلام بالمعنى الثاني ـ الإسلام التاريخي ـ فهو مسلمٌ خاضعٌ لله، ودعا الناسَ إلى الدخول في دينه الذي هو الإسلام، واستجابتْ ملكةُ سبأ وقومُها لدعوته، ودخلوا في الإسلام بهذا المعنى، وكانوا مسلمين خاضعين لله، عابدين مخلصين له.

١٣ ـ كيف مات سليمان عليه السلام؟:

أشارتْ آيةٌ قرآنيةٌ إشارةً مجملةً إلى موتِ سليمان عليه السلام، والتبسَ فهمُها على بعضهم.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سبأ: ١٤].

ولا يوجدُ حديثٌ صحيحٌ عن رسول الله ﷺ يُضيفُ تفصيلاتٍ على ما ذكرته الآية من موت سليمان عليه السلام، ولذلك نبقى مع الآية، متدبِّرين لكلماتها.

لقد أراد الله الحكيم أن يجعل من موت سليمان عليه السلام عبرةً ودرساً للجنِّ والإنس، ودلالةً إيمانيةً عقيديةً على أنهم لا يعلمون الغيب، لأنه لا يعلم الغيب إلاَّ الله!

إننا نعلم أنَّ سليمان عليه السلام قد حكمَ فريقاً من الجن، وكانوا خاضعين له، منفِّذين لأوامره، يَصْنعون له الصناعات المختلفة، وكان حازماً شديداً معهم، يعاقبُ كلَّ مَنْ خالفَ منهم.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٢ ـ ١٤].

وكان الشياطين من الجنِّ يُطلقونَ إشاعات وأكاذيب، حيث كانوا يزعمونَ أنهم يعلمون الغيب، ويُمَوِّهون بذلك على أتْباعهم من الإنس. فأراد الله الحكيمُ جعلَ موتِ سليمان عليه السلام إبطالاً لتلك الإشاعاتِ الشيطانية.

لما حانَ أجَلُ سليمان عليه السلام، وجاءَه مَلَكُ الموت، كان يُشرفُ على مجموعة من الجنِّ والشياطين، وهي تقوم بأعمالٍ متعبة شاقة، ويبدو أنه كان واقفاً أمامهم، متكئاً على عصاه...

وبما أنه كان حازماً شديداً، فقد كانوا يهابونَه ويخافونَ منه، ولعلَّهم كانوا لا يَرفعون رؤوسهم ولا يَنظرونَ إليه خوفاً منه!

في هذا الجوِّ أرسلَ الله مَلَكَ الموت لقبض روح سليمان عليه السلام، ففاضَتْ روحُه الشريفة وهو متكىءٌ على عصاه. وبقيَ الجنُّ مقْبلين على العمل، لاعتقادهم أنَّ سليمان متكىءٌ على عصاهُ لمراقبتهم، وهم لا ينظرون إليه خوفاً منه.

حفظَ اللهُ جثةَ سليمان عليه السلام من السقوط، وبقي متكئاً عليها، والجنُّ

منهمكون في أعمالهم! لا يعلمون بموته!!

وأرسلَ اللهُ (دابة الأرض) إلى عصا سليمان عليه السلام، وهي (الأرضة) المعروفة بأكل الأخشاب، وأخذت الأَرَضَةُ بأكْلِ العصا ونَخْرِها من الداخل، ولما نُخِرَت العصا لم تحملْ جسمَ سليمانَ الميت عليه السلام، فانكسرت، وخَرَّ جسمُ سليمانَ على الأرض!

ونظروا إليه، وفوجئوا بما حصل! إذن سليمانُ عليه السلام ماتَ منذ فترة، وهم لا يعلمونَ بذلك، ولو كانوا يعلمون الغيب لعرفوا ذلك! إنهم لا يعلمونَ الحاضرَ البارزَ أمامهم، فكيف يعلمون الغيب؟

إن سليمانَ عليه السلام أمامَهم ميت، وهم لا يعلمون أنه ميت، وأنَّ جسده على العصا بدون روح، وإذا كانوا جاهلين بشيء أمامَهم فكيفَ يزعمونَ العلمَ بالغيب: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ. . .﴾.

لقد حكمَ سليمان عليه السلام الجنَّ مَيتاً كما حكمَهم حياً، حكمَهم جسدُه الهامد، كما حكمهم جسْمُه الحيُّ المتحرك، وهابوه وهو ميت ـ وهم لا يعلمونَ أنه ميت ـ كما هابوه من قبلُ وهو حي.

كم كانت الفترة بين وفاته وهو متكئ على عصاه، وبين خُرورِه على الأرض بعدما انكسرتْ عصاه؟

ذهبَ بعضُهم إلى تقديرها بسنوات، أو عشرات السنين! لأنَّ تسوُّسَ العصا وأكْلَ السوسِ للُبِّها يحتاجُ إلى سنوات!!

هل يعقلُ هذا؟ هل يبقى سليمان عليه السلام ميتاً متكئاً على العصا سنواتٍ عديدة؟ ألم يكتشفْ واحدٌ من رجالِ دولتِه غيابَه في هذه المدة؟ ألم يبحثوا عنه؟ وهو ليس رجلاً عادياً، بل ملكٌ يحكمُ مملكةً قويةً كبيرة! وهل يُعقلُ أنْ يغيبَ الملكُ عن مملكتِه سنواتٍ عديدة؛ دون أن يبحثَ عنه رجالُه؟

وهل يعقلُ أنْ يبقى الجنُّ منهمكين في العملِ طيلةَ هذه السنوات؟ لا يَرفعون رؤوسهم، ولا يذهبون إلى الطعام والشراب والراحة والنوم؟ ألم يجوعوا ويعطشوا وينعسوا خلال هذه السنوات؟

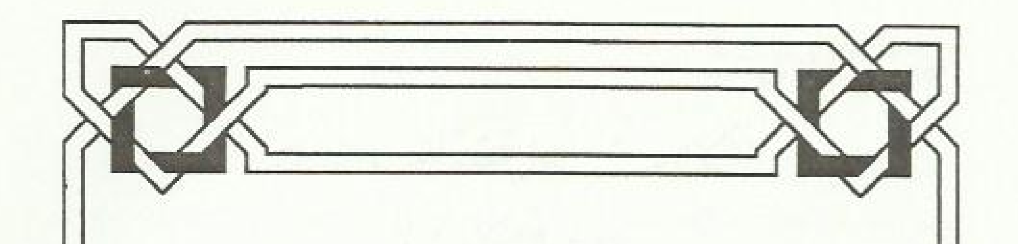
الذي نراه أنَّ أكْلَ دابةِ الأرض لمنسأةِ سليمان عليه السلام كان خارقةً من

الخوارق، لم يستغرق أكثر من عدة ساعات!.

ولا نعرفُ عمرَ سليمان عليه السلام عندما مات، كما لا نعرف مقدار سنوات حكمه.

وبوفاة سليمان عليه السلام انتهى العصرُ الذهبيُّ المشرقُ لبني إسرائيل، المتمثل في حكم داود وسليمان عليهما السلام. وما زالت الخلافاتُ تعصفُ بالدولة، ومازالت معاصيهم تستجلبُ عقاب الله، حتى زالت تلك الدولة نهائياً بعد فترة، وشَرَّدَ الله اليهود الكافرين في الأرض!

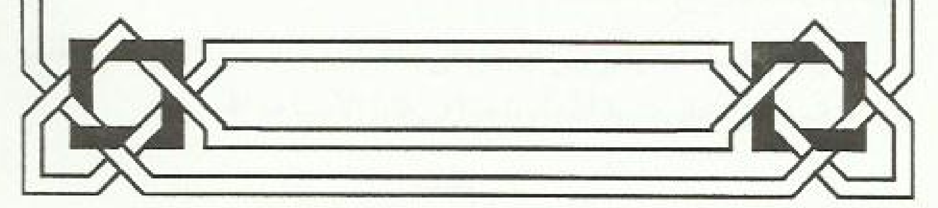
* * *



الفَصْلُ الحَادِي عَشَر

إشكالات حول قصّة أيّوب عليه السلام

تَحلِيلٌ وتَوْجِيهٌ



الفَصْلُ الحَادِي عَشَر

إشكالات حول قصة أيوب عليه السلام

تَحليلٌ وتَوجيهٌ

١ - توجيه ابتلاء أيوب عليه السلام:

أيوب نبيٌّ كريمٌ عليه السَّلام، ابتلاهُ اللهُ فصبر، وهو إمامُ الصابرين وقدوةٌ لهم، وقد تحدثت سورة الأنبياء عن ابتلائه وصبره وتضرعه إلى الله واستجابة الله له.

قال تعالى: ﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٣ ـ ٨٤].

يخبر القرآنُ أنه لما أُصيبَ أيوبُ عليه السلام بالضُّرِّ أقبلَ على الله، يدعوهُ ويتضرعُ إليه ويستغيثُ به.

معنى ﴿ مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ ﴾: أصابني الأذى والمرض، ووقعَ على بدني.

وهذا يدلُّ على أنَّ الضرَّ أصابه في نفسِه وبدنه، حيثُ أُصيبَ جسمُه بالمرض، كما مسَّه في أهله وأولاده وأمواله وممتلكاته.

وجاءت كلمة (الضر) في قوله: ﴿ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ ﴾ مطلقة، وذلك لتشملَ كلَّ أنواع الضر..

وهو يعلمُ أنَّ هذا الضرَّ من الله، يبتليه به، ولذلك رضي بقدرِ الله، وصَبَرَ على ابتلائه، وتأدَّبَ معه سبحانه، فقال له: ﴿ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾.

إنه يتوسلُ إلى الله برحمتِهِ كي يكشف عنه الضر، بدون سخطٍ ولا ضجر، وإنما بغاية الأدبِ مع الله سبحانه.

وهذا الدعاء منه يشيرُ إلى أنَّ المبتلى بالضرِّ عليه أنْ يلجأ إلى الله، ويطلبَ منه كشفَ الضر، على شرطِ أنْ يكون هذا في غايةِ الأدب مع الله.

واستجابَ الله لأيوبَ عليه السلام بعد دعائه مباشرة: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾، الفاء في ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ للعطف، عَطفت الاستجابةَ على الدعاء، وتدلُّ الفاءُ على الترتيب مع التعقيب الفوري، أيْ أنَّ الاستجابة كانت بعد الدعاء مباشرة، وهذا من مظاهر رحمة الله بأيوب عليه السلام، فما أنْ دعا الله، متوسلاً إليه برحمته، حتى استجاب الله مباشرة وكشفَ عنه ضرَّه!.

كشف الله عن أيوب عليه السلام الضُّرَّ الذي أصابَه في جسمه، وعافاهُ من أمراضِه، وأزال الضرَّ الذي أصابَه في أهله، وضاعفَهم له: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾.

وهذه الجملة مبهمةٌ غير مبيَّنَة، وكلُّ ما نأخذه منها أنَّ الله آتى أيوب عليه السلام أهلَه، وآتاه مثلَهم معهم أيضاً. أمّا تحديدُ هؤلاء الأهل فلا دليل عليه، لانعرفُ عددهم، ولا نعرفُ درجة قرابتهم له، هل هم أولاده أم بناتُه، ولا نعرفُ كيف آتاه الله إيّاهم ومثلَهم معهم.

وجعلَ الله قصةَ أيوبَ عليه السلام ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾.

والعابدون هم المؤمنونَ بالله، والمستسلمونَ به، الراضون بقضائه، المتضرعون إليه، الصابرون على ابتلائه. إذا ابتلاهم الله بالضُّرِّ يتذكرون ابتلاءَ أيوب عليه السلام، فيقتدون به في فعله، فيصبرون ويحتسبون، ويسألون الله كشف الضرِّ عنهم بأدب.

لم يوقع الله به الضُّرَّ في أهلِه ونفسِه وماله عقوبةً له، لأنَّ الله لا يُعاقب أنبياءَه، ولأنَّ العقوبةَ لا تكون إلاّ بسبب الذنب، والأنبياء معصومون من الذنوب والمعاصي، فأيوب عليه السلام لم يُذنب، ولم يرتكب ما يوجب العقاب.

إنما كان ابتلاء الله له لقوةِ إيمانه، فالله يَبتلي أنبياءَه وأحبابَه، والأنبياءُ هم أشدُّ الناس بلاء، يَليهم العلماء ثم الصالحون، وقدَّرَ الله بحكمته أنْ يَبتليَ الرجلَ على قدر دينه، فإنْ وُجدَ في دينِه صلابة زِيدَ له في الابتلاء!

أيوبُ عليه السلام أعظمُ الناسِ في عصره إيماناً، ولذلك ابتلاهُ الله، ليزدادَ إيماناً، وترتفع درجاته عنده، ويكون قدوةً لأصحابِ الابتلاء من العابدين المؤمنين الصابرين!

٢ ـ كيف مسه الشيطان بنصب وعذاب؟:

أخبر القرآن أنَّ أيوبَ عليه السلام لما دعا ربّه ذكر أنَّ الشيطانَ هو الذي مسَّهُ بالنُّصْبِ والعذاب. قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾ [سورة ص: ٤١].

وقد يقعُ بعضُهم في إشكال في فهم الآية، فكيفَ يمسُّـه الشيطان؟ وهل للشيطانِ سلطانٌ عليه وهو النبيّ؟ وما المرادُ بالنُّصْبِ والعذاب الذي مسَّه الشيطانُ به؟

(النُّصْبُ) لها أربعُ حالاتٍ من التشكيل، ولها معنى خاصٌ في كلِّ حالة:

النُّصْب ـ بالضمِّ والسكون ـ: العلةُ التي تُصيبُ البدن.

والنَّصَب ـ بفتح النون والصاد ـ: الإعياءُ والتعب.

والنُّصُب ـ بضم النون والصاد ـ: العذاب.

والنَّصْب ـ بالفتح والسكون ـ: البلاء والشر.

وقد فرَّقَ قتادة بين النُّصْبِ والعذاب الذي أصابَ أيوبَ عليه السلام، فقال: «النُّصْب: الضرُّ الذي أصابَه في بدنه، والعذابُ ذهابُ المالِ والأهل».

ونحنُ مع قتادة في هذا التفريق، فالنُّصْب هو الضُرُّ الذي أصابَه في جسده، والذي سـببَ له التعبَ والمشـقةَ والإعياءَ والمرضَ والألم. أما العذابُ الذي أصابه فهو الابتلاءُ الذي أوقعه الله على مالِه وأهلِه.

ونسبَ أيوبُ عليه السلام ما أصابهُ إلى الشيطان: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ من أدبه مع الله.

وإلا فإنَّ الله هو الذي قَدَّرَ أنْ يَبتليه، ويُصيبَه بنُصْبٍ وعذاب، لأنَّ الفعلَ فعلُ الله، يفعلُ بعباده ما يشاء، فكلُّ ما يصيبهُم من ضُرٍّ أو نفع، هو من الله في الحقيقة، لأن الأمورَ كلَّها بيده، الخلْقُ خلقُه، والفعْلُ فعلُه، والأمر أمره.

ومع يقينِ المؤمنين بهذه الحقيقة الإيمانية، إلاّ أنهم لاينسبونَ الشرَّ إلى الله، أدباً مع الله.

قالَ إبراهيمُ عليه السلام: ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾

﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٧٧ ـ ٨٠].
فنسبَ الهدايةَ والإطعامَ والسقايةَ والشفاءَ إلى الله ونسب المرضَ إليه أدباً مع الله! مع أنّ المرض من الله في الحقيقة.

وهكذا نسب أيوب النُّصْبَ والعذاب إلى الشيطان أدباً مع الله، لأن النصب والعذاب أصابه بأمر الله وقَدَرِه، ابتلاءً واختباراً له.

ولا سلطانَ للشيطانِ على أيوبَ عليه السلام، لأنه نبيٌّ كريم، وعصمَ الله أنبياءه من الشيطان، فلم يجعلْ له سلطاناً عليهم.

ونُحَذِّرُ من أكاذيبِ (سفر أيوب) في العهد القديم، التي أَلَّفها أحبارُ اليهود الكفار. وقد زعموا فيها أنَّ الشيطانَ طلبَ من الله أنْ يسلِّطَه على أيوب، فسلَّطَه عليه، فأهلك أهله، وأبادَ أمواله، وقضى بالمرض على جسده، فشكا وضْعَه إلى الله!.. وذكروا في ذلك تفصيلاتٍ مطوَّلة، كلُّها كذبٌ وافتراء!

وقد ردَّدَ معظمُ المفسِّرين هذه الإسرائيليات الكاذبة، وفسَّروا بها قولَه تعالى: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾.

ونقل الإمام القرطبيُّ كلاماً جيداً للقاضي أبي بكر ابن العربي، في رفْضِ تلك الإسرائيليات ولومِ المسلمين الذين ردَّدوها.

قال ابنُ العربي: «والذي جرَّأهم على ذلك، وتَذَرَّعوا به إلى ذكْرِ هذهِ، قولُه تعالى: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾. فلما رأوه قد شكا مَسَّ الشيطان، أضافوا إليه من رأيهم ما سبقَ من التفسير في هذه الأقوال.

وليس الأمر كما زعموا.

والأفعالُ كلُّها، خيرُها وشَرُّها، في إيمانِها وكفرِها، وطاعتِها ومعصيتِها، خالقُها هو الله، لا شريكَ له في خلْقِها، ولا في خلْقِ شيءٍ غيرِها.

ولكنَّ الشرَّ لا يُنسبُ إليه ذكْراً، وإنْ كان موجوداً منه خَلْقاً، أدباً أدَّبنا به، وتحميداً علَّمناه. وكان من ذكر محمد ﷺ لربِّه به قولُه: «والخيرُ في يديك، والشَّرُّ ليس إليك».

ومنه قولُ إبراهيم عليه السلام: «وإذا مرضت فهو يشفين».

ولم يصحّ عن أيوّب عليه السلام في أمره إلاّ ما أخبرنا الله عنه في كتابه، في

آيتين: الأولى قوله تعالى: ﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ ﴾ [الأنبياء: ٨٣]. والثانية: ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ [سورة ص: ٤١].

وأمّا النبيُّ ﷺ فلم يصحّ عنه أنه ذكَره بحرفٍ واحد، إلاّ قولَه: «بينما أيوب يغتسل . . .» الحديث.

وإذْ لم يصحّ فيه قرآنٌ ولا سنّة إلاّ ما ذكَرناه، فمَنِ الذي يوصِلُ السامع إلى أيوبَ خبَره؟ أم على أيّ لسانٍ سمعَه؟

والإسرائيليات مرفوضةٌ عند العلماء على البتات، فأعرِضْ عن سُطورِها بَصَرَك، واصمم عن سماعِها أُذنيك، فإنها لا تُعطي فكْرَك إلا خيالاً، ولا تزيد فؤادك إلا خبالاً»[1].

وكم كان ابنُ العربي موفَّقاً في ردّه لتلك الإسرائيليات، وفي توجيه قول أيوب عليه السلام، وياليت المفسرين الذين ذكروا ماذكروا اقتدوا به، وفعلوا مثْلَ فعلِه!!

٣ ـ معنى قول الله: ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ . . . ﴾:

أَرشدَ الله أيوبَ عليه السلام إلى العلاج الذي يُزيلُ ما أصابه من ضُرٍّ وألَمٍ ومرض. قال تعالى: ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ [سورة ص: ٤٢].

ومعنى قوله: ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ﴾: اضرب الأرض برجلك.

قال الإمام الراغب: «الركضُ: الضربُ بالرِّجْل. فمتى نُسبَ إلى الراكب فهو إعداءُ مركوب. نحو: ركضتُ الفرس. ومتى نُسِبَ إلى الماشي فهو وطء الأرض. .»[2].

وعلَّلَ أمْرَه بضربِ الأرض برجله بأنّ أمامَه مغتسلٌ باردٌ وشراب: ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾.

ويبدو أنه كان واقفاً على الأرض، وليس أمامَه عينُ ماء، ولما أمره الله أنْ يضرب الأرض برجله أراد أن يُحقق معجزةً على يد أيوب عليه السلام.

---

(١) تفسير القرطبي: ١٥/ ٢١٠.

(٢) المفردات، ص٣٦٤.

فلما ضرب الأرض برجله، أنبع الله له عيناً من الماء البارد!! وتُذكِّرُنا هذه المعجزة بمعجزة تفجير العيون من الحجر، لما ضربَه موسى عليه السلام بعصاه، كما تذكِّرنا بمعجزة ضرب جبريل الأرض بجناحه فأنبع الله ماء زمزم أمام الرضيع إسماعيل!

أيوب هو السبب في نبع الماء البارد لما ضرب الأرض برجله، لكنَّ المقدِّر والمسبِّب هو الله، فالله في الحقيقة هو الذي أنبع الماء البارد.

وأمَرَ الله أيوب عليه السلام بالاغتسال من هذا الماء البارد، ثم الشربِ منه، وجعلَ هذا الماء البارد سبباً لشفائه من الأمراض، وإزالة الضرِ عنه، والله الحكيم يختار ما يشاء من الأسباب والوسائل.

ونفَّذَ أيوب عليه السلام أمْرَ الله، فاغتسل من عين الماء البارد، فأذهب الله عنه المرض الخارجيَّ الذي أصاب بدنه، ثم شرب منه، فأذهبَ الله عنه المرض الباطنيَّ الذي أصابَه!

وهكذا أزال الله عن أيوب عليه السلام ما أصابَه من نُصْبٍ وعذاب، وأعادَ له صحتَه وعافيتَه، ووهب له أهلَه ومثلَهم معهم، وجعلَ هذا رحمةً منه به، لأنه صبرَ على الابتلاء، وأقبلَ على الله، متضرعاً منيباً.

وبينما كان أيوبُ يغتسلُ ساق الله له آيةً أخرى، ومعجزةً جديدة.

روى البخاري [برقم: ٢٧٩] عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «بينما أيوب يغتسلُ عرياناً، خَرَّ عليه جرادٌ من ذهب، فجعلَ أيوبُ يَحثي في ثوبه، فناداه ربُّه تبارك وتعالى: يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى؟!

قال: بلى، ولكن لا غنى لي عن بركتك».

أخبرنا رسول الله ﷺ في هذا الحديث أنَّ الله عوَّض أيوب عليه السلام مالَه، الذي هلك أثناءَ ابتلائه، ويبدو أنَّ هذا كان أثناء اغتساله بالماء البارد! فبينما كان يغتسل أمطر الله عليه جراداً من ذهب.

أنزل الله عليه الذهب على صورة جراد، وكان هذا الجراد من الذهب كثيراً، وجعل الله هذا الذهب الكثير آيةً من آياته، أكرمَ بها نبيَّه عليه الصلاة والسلام.

ولما رأى أيوب عليه السلام هذا الذهب مصبوباً عليه تناول ثوبَه الذي

وضعَه بجانبه أثناءَ الاغتسال، وصار يجمع الذهبَ بيديه ويحثُوه ويضعُه في ثوبه!

فعجب الله من فعله، وقال له: «ياأيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى؟!».

أي أنَّ الله أغناهُ بما وهبَه من رزق، فلماذا يجمع الذهب بثوبه؟

أجابَ أيوب عليه السلام: بلى. لقد أغنيتني يا ربّي، ولكنَّ هذا المالَ بركةٌ منك، وبركتُك لا غنى لي عنها!

لم يكن أيوبَ عليه السلام حريصاً على المال، منهوماً في جمعه، بل كان زاهداً في الدنيا، مُقْبِلاً على الآخرة، ومعلومٌ أنَّ الأنبياء هم أئمة الزاهدين.. إنَّ جمعه للذهب بثوبه باعتباره بركةً من الله، وبركةُ الله تُطْلَبُ ويُحْرَصُ عليها.

وهذا التصرفُ من أيوب عليه السلام يدلُّ على أنه يجوزُ للمؤمن أنْ يجمع المال، وأنْ يستكثر منه، وأنْ يحتفظَ به، بشرط أنْ يأتيه من حلال، وأنْ يُخرجَ حقَّ الله فيه، وأن لاتستشرفَه نفسُه، ولا يملأ عليه حياتَه!

٤ ـ توجيه يمين أيوب والضرب بالضغث:

أشار القرآن إلى يمينٍ حَلَفَه أيوب عليه السلام، فأرشده الله إلى طريقة تنفيذه. قال تعالى: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ [سورة صٓ: ٤٤].

الضِّغْث: مشتقٌ من (ضَغَثَ).

ورد في (المعجم الوسيط): «ضَغَثَ الحشيش، ضَغْثاً: جمَعَه وجعلَه ضِغْثاً... وضَغَثَ الأشياءَ: خَلَطَ بعضَها ببعض.

والضِّغْث: المضغوث. وكلُّ ما جُمِعَ وقُبِضَ عليه بجمْعِ الكفّ»[1].

والمراد بالضغث هنا الغُصْنُ من الشجرة فيه عدةُ فروعٍ صغيرة.

أمرَ الله أيوبَ عليه السلام أن يأخذَ هذا الغصنَ الذي عليه مجموعةٌ من الفروع والأوراق، وأن يَضربَ به الشخص الذي حَلَفَ أن يضربَه، وذلك لئلا يحنَثَ في يمينه: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا ﴾.

---

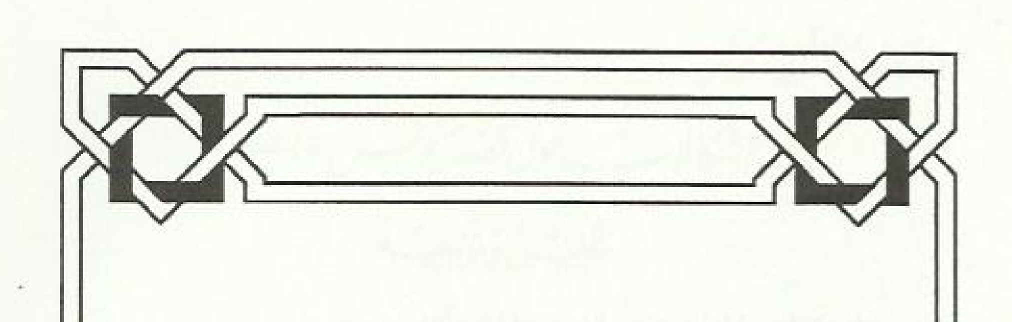
(١) المعجم الوسيط، ص٥٤٠.

والذي يُؤخَذُ من هذه الإشارة أنه حصلَ شيءٌ ما بين أيوب عليه السلام وبين أحد الأشخاص أثناء مرضه، فحلَفَ أنْ يَضرب ذلك الشخص! ولما عافاه الله من مرضه، أرشده الله إلى طريقة تنفيذ يمينه، فأمره أن يأخذ ضغثاً ـ غصناً ـ من الشجر عليه عدة فروع وأوراق، وأن يضرب ذلك الشخص به، وبذلك لا يحنث في يمينه.

ولم يبيّن القرآن ذلك الشخص، هل هو امرأتُه أم غيرها؟ كما لم يُبيِنْ درجة قرابة ذلك الشخص له، ولم يَذكُرِ السبب الذي دعا أيوب عليه السلام إلى أن يحلف أن يضربه، ولم يُبينْ كيف ضرب أيوب الشخص الآخر بذلك الضغث! ولم يَرِدْ حديثٌ صحيحٌ عن رسول الله ﷺ يبينُ هذه المبهمات، ويقدمُ بعض التفصيلات.

وقد أورد المفسرون رواياتٍ فصَّلوا فيها هذه الحادثة، وبيَّنوا فيها هذه المبهمات، ولكن رواياتهم مأخوذةٌ من الإسرائيليات! ولذلك لا نذكر منها شيئاً.

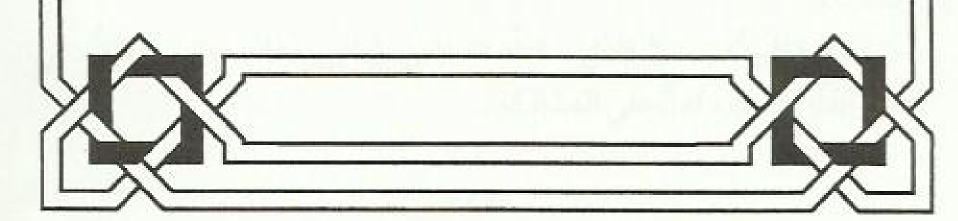
* * *



الفَصْلُ الثَّانِي عَشَر

إشكالات حول قصّة يونس عليه السلام

تَحليلٌ وتَوْجِيهٌ



الفَصلُ الثَّاني عَشَر

إشكالات حول قصة يونس عليه السلام

تحليل وتوجيه

١ ـ كيف يغادر يونس قومه مغاضباً؟:

يونسُ بنُ مَتّى رسولٌ من رسلِ الله، عليه الصلاة والسلام، بعثَه اللهُ رسولاً إلى أهل نينوى في شمال العراق.

قال تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

في هذه الجملة من الآية ثلاثة إشكالات:

الأول: ما معنى ﴿ ذَا ٱلنُّونِ ﴾؟ ولماذا وُصفَ يونسُ به؟

الثاني: ما معنى قوله: ﴿ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا ﴾؟ وأين ذهب؟ وكانَ مغاضباً لمن؟

الثالث: ما معنى قوله: ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ ﴾؟.

(النون) هو: الحوت. الذي الْتَقَمَ يونسَ عليه السلام.

وسُمِّيَ يونسُ عليه السلام (ذا النون)، كما سُمي (صاحب الحوت) في قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ ﴾ [القلم: ٤٨]، لأنهُ عاشَ في بطنِ الحوت فترة، وبقيَ فيه حياً بإذن الله!

واللطيفُ أنَّ القرآنَ اعتبرَها صحبةً بين يونسَ والحوت! وكأنَّ الحوتَ عندما ابتلعَ يونسَ عليه السلام كانَ صاحباً مساعداً له، ابتلعَه لحرصِه وإشفاقِه عليه، لأنَّه خافَ أن تأكلَه باقي الحيتان والأسماك، فأنقذَه منهم بابتلاعِه، بهدفِ حمايتِه لا بهدفِ أكله! ولهذا صارتْ بينهما صحبة!!

وقد أخبرنا اللهُ أنَّ ذا النون عليه السلام ذهَبَ مغاضباً: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا ﴾.

و(مغاضباً): اسمُ فاعل. فعلُه الماضي رُباعي (غاضب). والألفُ في الفعلِ ألفُ مفاعلة، تدلُّ على المشاركة.

والمشاركةُ تدلُّ على أنَّ الغضبَ كان بين طرفَيْن: الطرف الأول هو يونسُ عليه السلام، لكن مَنْ هو الطرفُ الثاني؟

ذهب ناقلو الإسرائيليات إلى أنَّ الطرفَ الثانيَ هو اللهُ سبحانه، أي أنَّ يونسَ عليه السلام غادرَ قومَه وذهبَ عنهم مغاضباً لربّه!! قالت الإسرائيليات: غضبَ يونسُ من ربّه؛ لأنهُ لم يوقع العذابَ على قومِهِ خلالَ ثلاثة أيام، مما جعلَه يبدو أمامَهم كاذباً، وغضبَ اللهُ منه لأنَّه غادرَهم بدونِ إذنٍ منه!!

وهذا فعلٌ لا يجوزُ أنْ يَصدرَ عن مسلمٍ صالح، فكيفَ يصدرُ عن نبيٍّ كريم عليه السلام؟ المسلمُ الصالحُ لا يغضبُ من الله فهل يغضبُ يونسُ النبيُّ من الله؟ وهل يغضبُ اللهُ منه؟ يجبُ أن نبرّئ يونسَ عليه السلام من هذه الأكاذيب والاتهامات الإسرائيلية!!

لقد كانت المغاضبةُ بين يونسَ عليه السلام وبين قومِه الكافرين: غضبَ هو منهم لأنَّهم رفضوا دعوتَه، وأصرُّوا على الكفر. وغضبوا هم منه، لأنَّه أنذرَهم العذاب، وأخبرَهم أنه سيقعُ بهم بعد ثلاثةِ أيام!!

إذن معنى قوله: ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾: غادرَ يونسُ عليه السلام قومَه مغاضباً، غضبَ منهم لكفرِهم، وغضبوا منه لتهديدِه لهم بالعذاب!

لماذا غادرَ قومَه؟ هل كان نَزِقاً ضيّقَ الصدر؟ لم يصبرْ عليهم ولم يحتملْهم؟

كلا؛ إنَّه نبيٌّ كريمٌ عليه السلام، وما بعثَ اللهُ نبياً إلا وهو صابرٌ واسعُ الصدر، متحملٌ لتكاليفِ الدعوة!

غادرَ يونسُ عليه السلام قومَه لأنه ظنَّ أنَّ مهمتَه فيهم قد انتهت... فقدْ أخبرَه اللهُ أنَّ العذابَ سيقعُ بهم بعد ثلاثة أيام. وهذا معناهُ في ظنّه أنَّ الأمْرَ عندهم قد انتهى، وأنَّ الدعوةَ فيهم قد توقَّفَتْ، وأنّهم لن يؤمنوا، إذن لماذا يبقى بينهم؟ عليهِ أن يذهبَ عنهم، وأن يبحثَ عن أُناسٍ آخرين يبلّغهم الدعوة!

ويؤكدُ هذا الفهمَ قولُه تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾.

وقد وقعَ بعضُهم في إشكالٍ في فهمِ هذه الجملة! واعتبرَ الكلامَ فيها عن قدرةِ الله، وقالوا: ظنَّ يونسُ بمغادرتِه لقومه أنَّ اللهَ لن يقدرَ عليه، وسيعجزُ عنه!

وهذا ظنٌّ لا يجوزُ أن يصدرَ عن مسلم صالح، فكيف يصدرُ عن يونسَ عليه السلام؟! هل يمكن أن يظنَّ يونسُ عليه السلام أنَّ اللهَ ليس على كلِّ شيء قدير؟! وأنَّ اللهَ يعجزُ عن أشياء يريدُ فعْلَها؟! حاشا أن يظنَّ يونسُ النبيُّ عليه السلام بربِّه هذا الظن! إنَّ يونسَ عليه السلام يوقنُ أنَّ اللهَ على كل شيءٍ قدير، وأنه لا يُعجزُه شيءٌ في الأرضِ ولا في السماء!

الفعل (نَقْدر) بمعنى: نُضَيّق.

تقول: قَدَرَ، يَقْدِر، قَدْراً: بمعنى: ضيَّق. وقَدَرَ عليه رزْقَه: ضيَّقه عليه.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ [الفجر: ١٦]، أي: ضَيَّقَ عليه رزقَه.

وقال تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ [الطلاق: ٧]، أي مَنْ ضُيِّقَ عليه رزقُه فلينفِق مما آتاهُ الله.

إذنْ فعلُ (نقدر عليه): من القَدْرِ بمعنى التضييق، وليسَ من القُدرة بمعنى الاستطاعة والتمكن!

معنى قوله: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾: ظنَّ يونس أنَّ اللهَ لن يُضيقَ عليه، بإبقائه عند هؤلاءِ الكفار، المنتظِرين للعذاب، وسيوجِّهه إلى قومٍ آخرين يَدعوهم إلى الله!

قال السمينُ الحلبي في معنى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ أَن﴾: «ظنَّ أن لن نضيق عليه. والتقديرُ هنا: التضييق. ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ [سبأ: ١١]، أي: ضَيِّق في الدرع، لتكونَ الفتحةُ على قَدْرِ المسمار.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أرسلَ لي معاويةُ بن أبي سفيان رضي الله عنه، فقال لي: لقد ضربَتْني أمواجُ القرآن!

قلتُ: بماذا؟

قال: في قوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾، أيظنُّ عبدٌ من عبيد اللهِ أنَّ اللهَ لا يَقْدِرُ عليه، فضلاً عن نبيٍّ من الأنبياء؟!

قلتُ له: ليس ذلكَ من القُدرة، إنما ذلك من التقدير بمعنى التضييق، قال

تعالى: ﴿فَقُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ أي: ضيق عليه رزقه»[1].

وذكرَ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ما جرى بين يونسَ عليه السلام وبينَ قومِه قُبيلَ مغادرتِه لهم: «إنَّ يونس عليه السلام كانَ وَعَدَ قومَه العذاب، وأخبرَهم أنه يأتيهم إلى ثلاثةِ أيام. . ففرّقوا بين كلِّ والدةٍ وولدها، ثم خرجوا، فجأروا إلى الله، واستغفرُوه فكفَّ الله عنهم العذاب.

وغدا يونسُ عليه السلام ينتظرُ العذاب، فلم يرَ شيئاً، وكان مَنْ كَذَب، ولم يكنْ له بينةٌ قُتِلَ! فانطلقَ مغاضباً، حتى أتى قوماً في سفينة، فحملوه. . ».

إذن: خرجَ يونسُ عليه السلام من عند قومِه بعد أنْ أنذرَهم وقوعَ العذابِ بهم، وبعد أن غاضبَهم وغاضبُوه، وظنَّ أنَّ الله لن يُضيق عليه بإبقائِه بينهم، وسيوجّهُه إلى قومٍ آخرين. .

٢ ـ يونس في خروجه فعل خلاف الأولى:

وصفَ القرآنُ مغادرةَ يونسَ لقومِه بالإباق. قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٣٩ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [الصافات: ١٣٩ ـ ١٤٠].

ما معنى الإباق؟ وما توجيهُ وصْفِ يونس النبيِّ به عليه السلام؟

قال السمينُ الحلبي: «الإباق: هربُ العبدِ من سيّده. ولما كان الخلقُ كلُّهم عبيدَ الله قالَ اللهُ في حقِّ عبدِه يونسَ عليه السلام: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾. ولله أنْ يقولَ ما يشاء، أما نحنُ فلا يجوزُ لنا أن نقول: أَبَقَ نبي!

وقالَ المبرد: أَبَقَ: تباعَد. وقيل: خرجَ سرّاً من الناس!»[2].

إذن أساسُ معنى (أَبَقَ) هرب، ويُستعمل في هروبِ العبدِ من سيده.

لكنّه قد يُستعمَلُ في الخروجِ سرّاً من الناس، والتباعُدِ عنهم، ولو لم يكن ذلك الخروجُ هروباً!

ولم يَرِدْ فعل (أَبَقَ) في القرآنِ إلا في هذا الموضع: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾.

---

(١) عمدة الحفاظ: ٣/ ٣٢٧.

(٢) المرجع السابق: ١/ ٥٠.

ولا يُرادُ به حقيقة الهروب، كهروبِ العبدِ من سيده، لأنَّ يونس عليه السلام نبيٌّ كريم، يُنَزَّه عن هذا الهروب، وهو لا يهربُ من دعوةِ الناس.

إنما شُبِّه فعلُه بفعلِ هروبِ العبدِ من سيّده، وأُطلقَ عليه أنه إباق، لأنه شابهه في الظاهر، وإن اختلفَ عنه في الحقيقة، لأنَّ ذاك هروبٌ من الخدمة، وهذا انتقالٌ إلى موقعٍ آخر للدعوة.

كلُّ ما في الأمرِ أنَّ يونسَ خرجَ من قومِه سرّاً، دون أن يشعروا به أو ينتبهوا له.

هل كانَ يونسُ عليه السلام مخطئاً في مغادرته لقومه؟

حتى نعرفَ الجوابَ على ذلك لابد أن نتعرَّفَ على الجوِّ الذي غادرَهم فيه:

بعدَ أن دعاهم فترةً طويلة، وواجَهوا دعوتَه بالإصرارِ على الكفرِ والتكذيب. أمرَه اللهُ أن يُنذرَهم العذاب، وأنّه سيقعُ بهم قريباً، ولما أنذرهم غضبوا منه وغضبَ منهم..

معنى هذا في نظرِه أنه لم يَعُدْ فيهم خيرٌ ولا أمَل، لأنَّ العذابَ قريبٌ منهم، فلن يؤمنوا.. ومعنى هذا أنَّ مهمتَه عندَهم قد انتهت! إنه رسولُهم، وقد بلَّغهم الدعوة، وأقامَ عليهم الحجة، وسيعذِّبُهم اللهُ عن قريب، فما الداعي لأن يبقى موجوداً بينهم؟ فلْيبحثْ عن قومٍ آخرين يَدعوهم إلى الله!!

يشيرُ إلى هذا قولُه: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾، أي: ظنَّ أن لن نُضيِّقَ عليه بإبقائِه عند هؤلاء القومِ الذين سيقعُ بهم العذاب، فقد انتهتْ مهمتُه فيهم، وهو يريدُ أن يذهبَ إلى آخرين يدعوهم.

لذلك سارعَ بالخروجِ والمغادرة، قبلَ أن يوجِّهه الله، على أساسِ أن يوجِّهه اللهُ فيما بعد.

هل أخطأ يونسُ عليه السلام في خروجه؟

لم يخطئ! لأنه في ظنِّه واجتهادِه لم تبقَ فائدةٌ من بقائِه فيهم، فهل يبقى جالساً بينهم بدونِ دعوة؟ إنه داعيةٌ إلى الله، حريصٌ على القيام بواجبه، وإذا ما انتهتْ مهمتُه عند هؤلاء لكفرِهم، فلْيذهبْ إلى آخرين يدعوهم! هل في هذا خطأ؟!

ومع أنَّ تصرُّفَه صحيحٌ صائب، إلا أنه خلافُ الأَوْلى، وقد كانَ الأَوْلى بيونسَ عليه السلام أنْ يبقى في قومِه، حتى يأتيه الإذنُ بالخروجِ والمغادرةِ من الله، لأنه نبيٌّ كريم، والله ُهو الذي يوجِّهه حيثُ يشاء! أي أنه لم يغادرْ قومَه بإذنٍ من الله، على اعتبارِ أن يأتيه ذلك الإذنُ في الطريق. وكان الأَوْلى والأفضل والأكمل له أن لا يتعجَّلْ الخروج، وأن ينتظرَ إذنَ اللهِ بذلك.

فما فَعلَهُ عليه السلام صواب، لكنَّه تركَ الأصوبَ والأفضل، فجاءَ فعلُه خلافَ الأَوْلى، ولذلك جرى له ما جرى بعد ذلك، من الإنزالِ إلى البحر ومحنةِ الحوت ودعائِه في الظلمات.

وهو في فعلِه ـ الذي هو خلافُ الأَوْلى ـ يستحقُّ اللومَ من الله، ولذلك قال تعالى: ﴿ فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ﴾ [الصافات: ١٤٢]، لأنَّ الله يلومُ رسلَه على فعلِ خلافِ الأَوْلى، لأن الأَوْلى بهم أن يكون فعلُهم هو الأَوْلى والأكملَ والأفضلَ!.

٣ ـ هل كانت محنته عقوبة له؟:

غادرَ يونسُ عليه السلام قومَه، وتوجَّه إلى شاطئ البحر، وركبَ سفينةً مملوءةً بالركاب، ولما كانت وسطَ البحرِ فاجأتْها العواصف، فاضطرَّ ركَّابُها إلى الاتفاقِ على التضحيةِ بـأحدِهم لتخفَّ حمولةُ السفينة، ولتتمكنَ من متابعةِ سيرِها، وعملوا قرعةً فيما بينهم، فمن خرجَ اسمُه لا بدَّ أن يُلقيَ بنفسِه في البحر، ولما اقترعوا خرجَ اسمُ يونس عليه السلام، وألقى بنفسِه في الماء، وساقَ الله ُله حوتاً التقمَه ليكونَ أماناً له! قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ﴿١٤٢﴾ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾ [الصافات: ١٣٩ ـ ١٤٤].

وهكذا بدأتْ محنةُ يونسَ عليه السلام!

التقمهُ الحوتُ التقاماً، وابتلعَهُ ابتلاعاً، ولم يمضَغْه، ولما استقرَّ يونس في بطنِه لم يهضمْه، ولم يعتبرْه وجبةَ طعامٍ له!

لقد كانَ الحوتُ آيةً من اللهِ له، والحوتُ جنديٌّ ينفذُ أَمْرَ الله، أمره الله ُأن يتوجَّه نحو السفينة، وأن يفتح فمَه، وبمجردِ وصولِ يونسَ عليه السلام للماء، عليه أن يلتقمَه! ونهى الله الحوتَ عن مضغِه أو خدْشِه أو جرحِه، كما نهاهُ عن

إفرازِ العصارات الهاضمةِ عليه! وعليه أن يكون قاربَ نجاةٍ وإنقاذ له! ونَفَّذَ الحوتُ أوامرَ الله!.

ولما استقرَّ يونسُ عليه السلام في بطنِ الحوت، وغاصَ الحوتُ في أعماقِ البحر، وجدَ يونسُ نفسَه في ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، ظلمةِ البحر، وظلمةِ بطن الحوت، وظلمةِ الموج، وظلمة المحنةِ والهمّ، وهناك لم يلجأ إلاّ إلى الله، فدعاهُ وتضرّع إليه.

وقد يشكلُ أمْرُ محنةِ يونسَ على بعضهم، فيعتبرُها عقوبةً من الله له، عاقبَهُ لأنه فَعَلَ ما يستحقُّ العقوبة!

قد يقولُ بعضُهم: لم يصبرْ يونسُ على تكاليفِ الدعوة، وهربَ من قومِه، وأخطأ في خروجه، وفعلَ ما يوجبُ العقاب، فعاقبَهُ الله بأن ألقاهُ من السفينة، وعاقبهُ بأن أَمَرَ الحوتَ بالتقامه، وعاقبَه بأن صارَ في ظلماتٍ وهَمٍّ وغمٍّ!

وهذا كلامٌ مردود، لأنَّ أنبياءَ الله لا يُذنبون، ولا يفعلون ما يستحقّون به العقابَ من الله، إن الله لا يعاقبُهم لأنه اصطفاهم.

والمحنةُ التي مَرَّ بها يونسُ عليه السلام من بابِ لوم اللهِ له، وقد صَرحت الآيةُ بذلك: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾، أي: فعل ما يستحقُّ به اللوم.

وفرْقٌ بين اللومِ والعقاب: العقابُ يكونُ عن وقوعٍ في ذنب، بتركِ واجبٍ أو فعلِ حرام، أما اللومُ فإنه يكونُ عن فعْلِ خلافِ الأَوْلى، مع جوازِ ذلك الفعل، لامَ اللهُ يونسَ لأنه فَعَلَ خلافَ الأَوْلى، وقَدَّرَ له أنْ يمرَّ بتلك المحنةِ الشديدةِ ليعيَ ذلك الدرس.

وكانت المحنةُ ابتلاءً من الله له، والابتلاءُ لا يكونُ بسببِ الذنوب دائماً، فقد يكونُ بهدفِ رفعِ درجاتِ المبتلى عند الله، ومن هذا الباب ابتلاءُ الأنبياء!

كما كانت محنةُ يونسَ عليه السلام درساً وعبرةً للمؤمنين من بعده، وأخبرَنا اللهُ عنها في القرآن، لنقفَ عندها متدبِّرين، ونأخذَ منها العبرةَ والعظة، ونأخذَ منها دروساً في العقيدةِ والإيمان، والإقبالِ على الله، واللجوء إليه، والاعتمادِ عليه عند المحنِ والمصائبِ والابتلاءات!.

٤ ـ توجيه وصف يونس نفسه بالظلم:

عندما وجدَ يونسُ نفسَه في الظلماتِ أقبلَ على الله، ذاكراً مُسَبِّحاً، داعياً

متضرعاً، وكان تسبيحُه ودعاؤه سبباً لنجاتِه.

قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات: ١٤٣ ـ ١٤٤].

أي: سببُ نجاتِه أنه سبَّحَ الله في بطنِ الحوت، ولو لم يسبِّح الله لهضمَه الحوت، وحوَّله إلى غذاءٍ له.

ماذا قال يونسُ عليه السلام عندما نادى اللهَ وتضرَّعَ إليه؟ قال تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧ ـ ٨٨].

نطقَ يونسُ في دعائِه بالكلمةِ الطيبة، وناجى الله بقوله: ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ ﴾.

ثم وصفَ نفسَه بالظلم ﴿ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

وهذا معناهُ أنَّ يونسَ عليه السلام أدركَ وهو في بطنِ الحوت، أنه تسرَّعَ بالخروجِ من قومِه قبلَ توجيهِ الله له، وأنَّ الله عتبَ عليه ولامَه من أجلِ ذلك، وقدَّرَ أن يوقعَ به هذا البلاء، ويمتحنَه بهذه المحنة.

عند ذلكَ انطلقَ لسانُه بأنه كانَ ظالماً في فعلِه وتصرُّفِه وخروجِه، وطلبَ من الله أنْ يتجاوزَ عن ظلمه!

وقد يقعُ بعضُهم في إشكالٍ في فهمِ وصفِ يونسَ نفسَه بالظلم، لأنَّ الظلمَ جريمةٌ عظمى، فكيف يعترفُ يونسُ أنه كان ظالماً مع أنه نبيٌّ كريم؟ وأيِّ أنواعِ الظلم ينطبقُ عليه؟.

الظلمُ نوعان: ظلمُ كفر، وظلمُ معصيةٍ وذنب.

الكفرُ والشركُ ظلمٌ كبير. قال لقمان لابنه: ﴿ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣].

وكلُّ كافرٍ ظالم، لأنه كفرَ بالله: ﴿ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

ولم يكنْ ظلمُ يونسَ عليه السلام من هذا النوع، لأنه نبيٌّ كريمٌ عليه السلام، لم يكفرْ بالله!

والمعصيةُ ظلم، لأنَّ المذنبَ العاصي يتجاوزُ حَدَّهُ فيكونُ ظالماً. قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

ولم يكن ظلمُ يونسَ عليه السلام من هذا النوع أيضاً، لأنه لم يرتكبْ ذنباً أو معصية، لما سبقَ أن وجَّهْنا به خروجَه من عند قومه

إذن: ما معنى وصفِ يونسَ نفسَه بالظلم؟

لا يرادُ بذلك حقيقةَ الظلم، لأنه نبيٌّ كريمٌ معصومٌ عليه السلام. إنما ذلك من بابِ شعوره بالتقصيرِ في حقِّ الله، وحيائِه من الله، وطلبِه تفريجَ الغمِّ والكربِ والضيق. فهذا الاعترافُ منه من بابِ ذكْرِه لله، وتوسُّلِه إليه.

يجبُ أنْ نفهمَ وصفَ يونس عليه السلام نفسَهُ بالظلمِ من خلالِ استحضارِنا لعصمتِه من المعاصي والذنوب، فلا نعتبرُه كظلمِ العصاةِ والمذنبين من المسلمين، إنما هو ظلمٌ خاص، وصفَ نفسَه به أدباً مع الله، وحياءً من الله، وذكراً لله، وتوسُّلاً إلى الله لتفريجِ كربِه وهمِّه وغمِّه.

٥ ـ توجيه إيمان قوم يونس بعد غيابه عنهم:

أنذرَ يونسُ عليه السلام قومَه العذاب، قبلَ مغادرتِه لهم، وجرى له ما جَرى في رحلته، وعافاهُ الله من محنةِ بطنِ الحوت، وعادتْ له صحتُه، وكلُّ ظنِّه أنَّ قومَه قد أُهلكوا بالعذاب!

ولما استردَّ يونسُ عليه السلام صحتَه أعادهُ الله إلى قومِه، الذين غادرهم وهم كافرون، لأنهم الآنَ مؤمنون!

ولعلَّ يونسَ عليه السلام فوجِىءَ بإيمانِ قومِه! فما الذي جرى؟ لقد مكَثَ فيهم سنواتٍ عديدة يدعوهم، ولم يستجيبوا له، والآن بعدما غادرَهم آمنوا! ثم إنَّ اللهَ أنذرهم العذاب، وكانَ العذابُ على وشكِ الوقوعِ بهم فهل آمنوا قُبيلَ وقوعه؟ وهل يُقبلُ الإيمانُ في هذه الحالة؟

ما الذي حصلَ لقومه بعدَ مغادرته؟

لقد أخبرَهم أنَّ العذابَ سيقعُ بهم بعدَ ثلاثة أيام! فلما غادرَهم، وخلالَ الأيامِ الثلاثة، اجتمعَ عقلاءُ قومه، وفكَّروا في الأمر: لقد أنذرَهم يونسُ العذاب،

وهو صادقٌ في إنذاره، فما عَهِدوا عليه كذباً . . وهذا معناهُ أنَّ العذابَ قادمٌ إليهم لا محالـة، فما أنْ تنتهي الأيـامُ الثلاثـةُ حتى يقعَ بهم العذاب! ولا وسيلةَ لدفعِ العذاب إلا الإيمانُ بالله!

وشرحَ اللهُ صدورَهم للإيمان، فآمَنوا وطَلبوا من قومِهم الإيمان قبلَ انقضاءِ المدة، فآمنَ القوم، وخرجوا إلى العراء متضرِّعين إلى اللهِ بالدعاء، طالبينَ من اللهِ مغفرةَ ذنوبِهم ورفْعَ العذابِ عنهم.

وعلمَ اللهُ صدقهم، فعامَلَهم بلطفِه ورحمتِه، وقَبِلَ إيمانَهم، ورفَعَ العذاب عنهم، ومَتَّعهم إلى حين.

قال الإمامُ ابن كثير: «إنَّ يونسَ بن متّى عليه السلام بَعَثَهُ اللهُ إلى أهلِ قريةِ نينَوى، وهي قريةٌ من أرضِ الموصل، فَدَعاهم إلى الله، فأبَوْا عليه، وتَمادَوْا على كفرهم، فخرجَ من بين أظهرهم، مُغاضِباً لهم . . ووعَدَهم بالعذابِ بعدَ ثلاث . . فلما تحقَّقـوا منه ذلك، وعلمـوا أنَّ النبيَّ لا يكذب، خرجوا إلى الصحراء، بأطفالهم وأنعامِهم ومواشيهم، وَفرَّقوا بين الأمهاتِ وأولادِها، ثم تضرَّعوا إلى الله عزَّ وجلّ، وجأروا إليه، ورغَت الإبلُ وفُصْلانُها، وخارت البقرُ وأولادُها، وثغَت الغنمُ وسِخالُها، فرفعَ اللهُ عنهم العذاب»[1].

وكانَ قومُه يَزيدونَ على مئةِ ألف! قال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [الصافات: ١٤٧ ـ ١٤٨].

وأخبرَنا اللهُ أنَّ قومَ يونسَ آمنوا أثناءَ غيابه عنهم، وأنَّ إيمانَهم نَفَعَهم، ورفعَ بذلك العذابَ عنهم. قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [يونس: ٩٨].

ما معنى هذه الآية؟

﴿لولا﴾: حرفُ حثٍّ وحَضٍّ، بمعنى: هَلاّ. وفيها دعوةُ أهلِ القرى إلى الإيمان.

﴿كانت﴾: فعلُ ماضٍ تامّ، بمعنى: وُجِدَتْ.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ١٨٦ ـ ١٨٧.

﴿قريةٌ﴾: فاعلُ ﴿كانت﴾ الماضي التام.

﴿آمنت﴾: جملةٌ فعلية، في محلٍ رفع صفة لكلمة ﴿قرية﴾.

﴿فنفعها إيمانها﴾: جملةٌ فعليةٌ أخرى، معطوفةٌ على ﴿آمنت﴾.

والتقديرُ: هَلاّ وُجِدتْ قريةٌ مؤمنة، منتفعةٌ بإيمانها.

وهذه الجملةُ بمعنى التوبيخِ لأهلِ القرى من الكافرين السابقين، الذين كَفروا فكان كفرهم سبباً في عذابهم، ولو آمنوا لنفعهم إيمانهم، وكان إيمانهم سبباً في رفعِ العذابِ عنهم.

ومعنى ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ﴾ النفي. أي: لم يُؤمنْ أهلُ القرى السابقون، ولذلك لم يُرفعْ عنهم العذاب.

﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

﴿إلا﴾: حرف استثناء.

﴿قوم يونس﴾: مستثنى.

﴿لما﴾: ظرفُ زمانٍ بمعنى حين، يتضمنُ معنى الشرط. وفعلُ الشرط: ﴿آمنوا﴾، وجواب الشرط ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ﴾.

والاستثناءُ هنا منقطع. فالمستثنى ﴿قوم يونس﴾ ليسَ من جنسِ المستثنى منه: ﴿كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾.

والمعنى: الكافرون السابقون لم يُؤمنوا فلم يُرفعْ عنهم العذاب، أمّا قومُ يونس فإنهم عندما آمنوا نفعَهم إيمانهم، وأدّى إلى رفعِ العذابِ عنهم!

فالآيةُ صريحةٌ في أنَّ قومَ يونسَ آمنوا قُبيلَ وقوعِ العذابِ بهم، ولذلك قَبِلَ اللهُ إيمانَهم، ورَفَعَ العذابَ عنهم!

قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: لم تكنْ قريةٌ آمنتْ، فنفَعَها إيمانُها إذا نزلَ بها بأسُ الله، إلاّ قريةُ قوم يونس، لما آمنتْ نفعَها إيمانها.

وقال سعيدُ بن جبير: لما أرسلَ اللهُ يونسَ إلى قومه، يَدعوهم إلى الإسلام، وتَرْكِ ما هم عليه، دَعاهم فأبَوا، فقيلَ له: أخبرهم أنَّ العذابَ مُصَبِّحُهم. فقالوا:

إنا لم نُجرِّبْ عليه كذباً، فانظروا، فإنْ باتَ يونسُ فيكم فليسَ بشيء، وإنْ لم يبتْ فيكم فاعلموا أنَّ العذابَ مصبِّحُكم!

فلما أَصبحوا تغشاهم العذاب، ففرّقوا بين الإنسان وولدِه، وبينَ البهيمةِ وولدِها، ثم عَجُّوا إلى الله، فقالوا: آمنّا وصَدَّقْنا بما جاء به يونس، فكشفَ الله عنهم العذاب.

وهكذا آمَنَ قومُ يونس جميعاً أثناءَ غيابه عنهم، وقَبْلَ وقوع العذابِ بهم، وقَبِلَ الله إيمانَهم، فرفعَ العذابَ عنهم، وأعادَ يونسَ إليهم، ليبلِّغَهم الأحكامَ والتشريعات.

٦ ـ توجيه أحاديث بشأن يونس عليه السلام:

قد يظنُّ بعضُهم أنَّ يونسَ عليه السلام ضاقَ صدرُه من قومه، وأنه أخطأ في مغادرته لهم، وبذلك يُفَضَّلُ غيرَه من الأنبياءِ والرسلِ عليه! وقد سبقَ أن وجَّهنا تصرُّفَه!

وحَرِصَ رسولُنا ﷺ على عَدمِ انتقاصِ يونسَ عليه السلام، ونهى عن تفضيلِ أَحدٍ من الرسلِ عليه!

روى البخاري [برقم: ٣٤١٤]؛ ومسلم [برقم: ٢٣٧٦] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما يهوديٌّ يَعرضُ سلعتَه، أُعطيَ بها شيئاً كرهَه، فقال: لا. والذي اصطفى موسى على البشر!

فسمعَهُ رجلٌ من الأنصار، فقامَ فلطَمَ وجْهَه، وقال: تقولُ: والذي اصطفى موسى على البشر، والنبيُّ ﷺ بين أظهُرِنا؟

فذهبَ إليه، فقال: يا أَبا القاسم: إنَّ لي ذمةً وعهداً، فما بالُ فلانٍ لطمَ وجهي؟

فقال: «لِمَ لطَمْتَ وجْهَه؟»

فذكَره... فغضبَ النبيُّ ﷺ، حتى رُؤيَ الغضب في وجهه، ثم قال: «لا تُفَضِّلوا بين أولياءِ الله، فإنه يُنفخُ في الصور، فيُصعقُ مَن في السموات ومَنْ في الأرض، إلاّ من شاءَ الله، ثم يُنفخُ فيه أُخرى، فأكونُ أوّلَ من بُعث، فإذا موسى

آخِذٌ بالعرش، فلا أدري: أحوسبَ بصعْقَتِه يومَ الطور، أم بُعِثَ قبلي!.. ولا أقول: إنَّ أَحَداً أفضلُ من يونس بن متّى..»

والشـاهدُ في الحديثِ الجملةُ الأخيرةُ منه، حيث إنه لا يقول: إنَّ أحداً أفضلُ من يونس بن متّى عليه السلام!

أي أنه لا يُجيزُ لأحدٍ تفضيلَ رسولٍ على يونس، إذا كان هذا التفضيلُ يؤدّي إلى انتقاصِ يونس عليه السلام!

وروى البخاري [برقم: ٣٤١٦] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَنبغي لعَبْدٍ أن يقول: أنا خيرٌ من يونس بن متّى»

وروى البخاري [برقم: ٣٤١٢] عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يقولَنَّ أَحَدٌ إني خيرٌ من يونس بن متّى..».

وروى البخاري [برقم: ٣٤١٣] عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما ينبغي لأحدٍ أنْ يقول: إني خيرٌ من يونس بن متّى».

وروى البخاري [برقم: ٤٨٠٥] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قال: أنا أفضلُ من يونسَ بن متّى فقد كَذَب..».

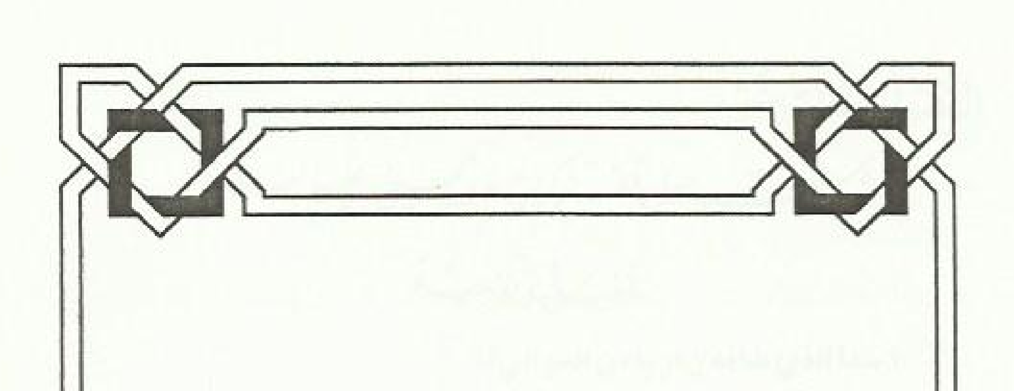
يدافعُ رسول الله ﷺ في هذه الأحاديثِ عن يونس عليه السلام في مغادرته لقومه باجتهادِه، وينهى أيَّ شخصٍ أن يعتبر نفسَه أفضل من يونس، وأنه أوسعُ منه صدراً، أو أنه أكثرُ منه صبراً!!

وهذا معناه أنَّ يونس عليه السلام لم يكنْ مخطئاً في مغادرته لقومه، وأنَّ فعْلَه باجتهادِه كان صواباً، لكنّه خلافُ الأوْلى...

ومعلومٌ أنه لايجوزُ لأحدٍ أن يعتبرَ نفسَه أفضلَ من الرسلِ والأنبياء، وإنَّ أصلحَ صالحٍ من المؤمنين لا يكون أفضلَ عند الله من أيِّ رسولٍ أو نبي!

كما أنه لا يَجوزُ التفضيلُ بين الرسلِ إذا أدّى ذلك التفضيلُ إلى انتقاصِ قدرِ الرسولِ المفضَّلِ عليه!

* * *

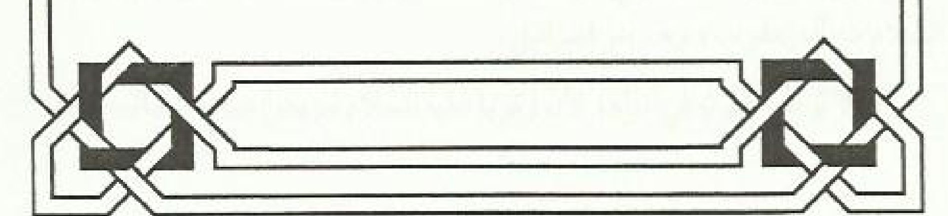


الفَصْلُ ٱلثَّالِث عَشَر

إشكالات حول قصّة زكريّا ويحيى

عليهما السلام

تَحلِيلٌ وَتوْجِيهٌ



الفصل الثالث عشر
إشكالات حول قصة زكريا ويحيى عليهما السلام
تحليل وتوجيه

١ ـ ما الذي خافه زكريا من الموالي؟:

أخبرنا اللهُ عن الدعاءِ الذي دَعا به زكريا عليه السلام ربَّه، قال تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾ [مريم: ٣ـ٦].

لقد تقدَّمَ بزكريا عليه السلام العمر، وأصبح شيخاً طاعِناً في السن، وَهَنَ عظمُه، وشابَ رأسُه، وامرأتُه عاقر، وهو يريدُ الولدَ ليرثَه.

وأخبرَ في دعائِه أنه خافَ الموالي من ورائه: ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى﴾.

والموالي: جمعُ مولى، وهم العصبةُ الأقارب!

ومعنى هذه الجملة من دعائِه أنه خافَ مواليه وأقاربَه وعصبتَه، وخشيَ أن يتصرفوا في الناس شرّاً بعدَ وفاتِه. ولذلك يريدُ ولداً يرثُه ويرثُ آلَ يعقوب.

لماذا خافَ زكريا عليه السلام المواليَ من بعده؟ وفي ماذا سيرثُه؟

خافَ زكريا عليه السلام مواليه وأقاربَه أن يتصرَّفوا تصرفاتٍ سيئةً في الناس بعدَ وفاتـه، بحجةِ أنهم أقاربه، فيستغلّوا قربَهم منه في إيذاءِ الناس وظلمِهم والإساءةِ إليهم. فأرادَ أن يهبهُ اللهُ ولداً صالحاً رضياً، يُحسنُ إلى الناسِ من بعده.

وأراد أن يرثَه هذا الوليُّ الولد، ويرثَ آلَ يعقوب أجدادَه، لأنَّ زكريا عليه السلام من آل يعقوب، وهم بنو إسرائيل.

ولا يُريدُ أن يرثَه في مالِه، لأنَّ زكريا عليه السلام لم يكنْ صاحبَ مال، إنما

كان نجاراً يأكلُ من عملِ يدِه، ولا يَجمعُ من عمله هذا مالاً، والأنبياءُ أزهدُ شيء في الدنيا! ولو تركَ مالاً فإنَّ هذا المالَ يكونُ صدقةً في سبيل الله، ليس لورثتهم منه شيء.

دليلُ ذلك ما رواه البخاري [برقم: ٦٧٣٠]، ومسلم [برقم: ١٧٥٨] عن عائشةَ رضي الله عنها قالتْ: قال رسول الله ﷺ: «نحن معاشرَ الأنبياء لا نُورَث، ما تركْنا صدقة».

يريدُ زكريا عليه السلام ابناً يرثُه في النبوةِ والعلم والدعوة، ليكونَ نبياً في بني إسرائيل، ومعلِّماً لهم وداعياً فيهم.

وهدفُه من طلبِ الولدِ هدفٌ ديني، وخوفُه من مواليه من أجلِ الدين، ويريدُ وارثاً له يرثُ رسالتَه وعلْمَه ودعوتَه، وهذا شيءٌ عظيمٌ عند زكريا عليه السلام.

٢ ـ لماذا تعجب زكريا من البشارة؟:

استجابَ اللهُ دعاءَ زكريا عليه السلام، وأمَرَ الملائكةَ أنْ تُبشرَه وهو يصلي في المحرابِ بذلك.

قال تعالى: ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ [آل عمران: ٣٩ ـ ٤٠].

وقال تعالى: ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾ [مريم: ٧ ـ ٩].

ولما سمعَ زكريا عليه السلام من الملائكة البشارةَ بيحيى تعجَّبَ وفوجئ، مع أنه هو الذي طلبَ الولدَ الوارث!

وصارحَ الملائكةَ بتعجبه ودهشتِه: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ ﴾.

وقد يقعُ بعضُهم في إشكالٍ من تعجبه وسؤالِه: إذ كيفَ يتعجبُ من البشارة

بالولدِ وهو الذي طلَبَه؟ وما معنى سؤاله؟ هل هو الاستبعاد؟.

﴿أنى﴾: اسمُ استفهامٍ للتعجب، بمعنى ﴿كيف﴾. أي: كيفَ يكونُ لي غلام؟

وسؤالُه واستفهامُه ليس من بابِ الاستبعادِ أو الشكِّ أو الإنكار، لأنه هو الذي دعا اللهَ وطلبَ منه الولد، وهو يوقنُ أنَّ الله سيستجيبُ له: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾.

كان سؤالُه عن الجهةِ التي يأتيه منها الغلام، أي: من أين يكونُ لي غلام؟ وكيف سيأتيني الغلام؟ لقد بلغني الكبرُ وأصبحتُ شيخاً هرماً، وامرأتي عاقر! فهل سنبقى على حالِنا أم سيتغير؟

إذن كان سؤالُه عن الكيفيةِ التي يأتيه بها الولد، فأتاهُ الجواب بأنَّ هذا من فعلِ الله: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾.

وبما أنه من فعْلِ الله فلا مجالَ للتعجبِ أو الاستغراب. إنَّ الله هو الذي قَدَّرَ أنْ يرزقَ زكريا عليه السلام الولد، وقَدَرُهُ واقعٌ لا يمنعُه مانع.

صحيحٌ أنَّ زكريا قد بلغَ من الكبرِ عتياً، وليس عنده قدرةٌ ذاتيةٌ على الإخصاب، وصحيحٌ أنَّ امرأتَه عاقر، وليس عندها قدرةٌ ذاتيةٌ على الحمل، إنهما عاجزانِ عن ذلك وفقَ السننِ البشرية! لكنَّ النظرَ إلى بشارتِه بالولد ليس من هذه الزاويةِ البشرية، إنما النظرُ إليها من زاويةِ إرادةِ الله ومشيئتِه، فالأمرُ أمْرُ الله، والفعلُ فعلُه، وهو فعّالٌ لما يريد.

ولذلك أحالَ الجوابُ زكريا عليه السلام على أنَّ الأمْرَ هَيِّنٌ على الله، وذكَّره بخلْقِ اللهِ له هو: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾.

أي: إيجادُ الولـد منهما رغم وضعِهما أمْـرٌ هَيِّنٌ ميسورٌ على الله، لأنه لا يُعجزه شيء. فزكريا نفسُه خلقَه اللهُ من العدم، وجَعَله حَياً، فلْيتذكَّرْ بدايتَه ليعرفَ أنَّ الأمْرَ هَيِّنٌ سهلٌ على الله سبحانه.

٣ ـ آية زكريا في انحباس لسانه:

لما بشَّرَ اللهُ زكريا بالولدِ على كبر، طلبَ أن يجعلَ له آيةً يقدمُها للناس.

قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ [آل عمران: ٤١].

وقال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ [مريم: ١٠ ـ ١١].

لماذا طلبَ زكريا عليه السلام الآية؟ ولمن سيقدمُها؟

إنه لا يريدُها لنفسه، لأنه نبيٌّ كريم، يوقنُ بوعدِ الله، وأنه لا بدَّ أن يتحقق. إنما يريدُ الآيةَ لقومه، لأنَّ ولادةَ امرأتِه رغمَ وضعِهما المعروف أمر عجيبٌ مثير، وسيتعجبُ قومُه كثيراً من ذلك، لذلك أرادَ زكريا عليه السلام أن يقدمَ الآيةَ لقومه لتكون تمهيداً للآيةِ الكبرى بعد ذلك، عندما يولَدُ له يحيى!

واستجابَ اللهُ له، وأعطاهُ تلك الآية. وكانت في لسانه: ينحبسُ لسانُه عن الكلام عندما يواجهُ الناسَ لمدةِ ثلاثِ ليال، مع أنه سويٌّ فصيحٌ متكلم وليس أخرس!

و﴿سويا﴾ في قوله: ﴿ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾، حالٌ من زكريا. أي: أنتَ سويٌّ صحيحٌ معافى، ليس فيك مرضٌ أو خرس، ومع ذلك لا تكلمُ الناس!

كان زكريا عليه السلام في هذه الأيامِ الثلاثةِ على حالتين:

الحالةُ الأُولى: عندما يخلو بنفسِه ويكونُ وحيداً، ليسَ معه أحد، ينطلقُ لسانُه بذكْرِ اللهِ وتسبيحِه، ويسمعُ نفسَه وهو يسبحُ الله.

الحالـة الثانيـة: عندما يخرجُ على قومـه، فإنه يعجـزُ عن مخاطبتهم، وينحبسُ لسانُه عن الكلامِ بطريقةٍ لا إرادية، عند ذلك يتصلُ بهم عن طريقِ الرمزِ والإيحاءِ والإشارة! فيتعجبُ قومُه من ذلك، ويتساءَلونَ عن سببِ انحباسِ لسانِه عن الكلام.. فإذا غادرَ قومَه، وعادَ إلى خلوتِه ومحرابه انطلقَ لسانُه بالكلام!

استمرَّ على هذا الوضعِ ثلاثةَ أيامٍ بلياليها!

وليس هذا غريباً على الله، فالله هو الذي خلقه متكلماً، يمكّن لسانه من الكلام، ولكنه لا يتكلّم كلمةً إلا بقدر الله، والله هو الذي أعطاهُ هذه الآية لقومه.

يحبسُ لسانَه عن الكلام عندما يواجهُ الناس، ويُطلقُ لسانَه بالكلام عندما يخلو إلى نفسه!

وقد جمعتْ آيةُ سورةِ آلِ عمران بين حالتيْ زكريا عليه السلام في الأيامِ الثلاثة: الصمتُ أمامَ الناس، والكلامُ عند الخلوة. قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران: ٤١].

ولما أجرى الله الآيةَ على لسانِه، فانحبسَ عن الكلامِ بطريقةٍ لا إرادية، خرجَ على قومِه صامتاً، يستخدمُ الإشارةَ والرمزَ في التفاهمِ معهم: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١].

خرج على قومِه من المحراب صامتاً، ولعلَّها أولُ مرة يشاهدونَه فيها صامتاً، لا سلامَ ولا كلام، ولا تحيةَ ولا مخاطبة! تعجَّبوا ودُهشوا، وكلَّموه وخاطَبوه، فلم يكلِّمهم، واستخدمَ معهم الإشارةَ والإيحاء، بأنْ أشارَ لهم بيدِه طالباً منهم تسبيحَ الله. وفهمَ القومُ إشارتَه، وقاموا بتسبيحِ الله.

وبعدَ انقضاءِ الأيامِ الثلاثة، أطلقَ اللهُ لسانَه بالكلام أمامَ قومه، فأخبرهم أنَّ اللهَ حبسَ لسانَه عن الكلامِ أمامَهم، وجَعَلَ هذا آيةً له، تمهيداً للآيةِ الكبرى القادمة، حيث سيهبُه ولداً اسمُه يحيى.

وسمعَ أتباعُه المؤمنونَ أخبارَ المعجزةِ القادمة، فازدادَ إيمانُهم بالله، وقدرته على خرقِ العاداتِ والمألوفات. فاللهُ الذي أمسكَ لسانَه عن الكلام، هو الذي سيُزيلُ المانعَ عنده وعند زوجِه عن الإنجاب، وسيمنحُهما الولد!

٤ ـ معنى كون يحيى حصوراً:

أخبرَ اللهُ عن بعضِ صفاتِ يحيى عليه السلام، عندما بَشَّرَ زكريا به. قال تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩].

صفاته المذكورةُ هنا أربعة: مصدِّقٌ بكلمةٍ من الله، وسيد، وحصور، ونبي.

المرادُ بتصديق يحيى بكلمةٍ من الله تصديقُه بعيسى عليهما السلام، حيثُ

سيخلُقُ اللهُ عيسى عليه السلام بكلمةٍ منه بدون أب، وسيصدِّقُه يحيى، لأنه سيكونُ أوَّلَ مَنْ يؤمنُ به أنه رسولٌ من عند الله!

وسيكونُ يحيى عليه السلام سيداً، سيجعلُه اللهُ سيداً شريفاً في قومه، سيسودهم بالنبوةِ والعلمِ والعبادةِ والحلم، والفقهِ والكرم!

وسيجعلُه اللهُ حصوراً. فما معنى هذه الصفة؟

﴿حصوراً﴾: اسمُ مفعولٍ من الحَصْر، وهو المنع.

ولم تَرِدْ كلمةُ ﴿حصوراً﴾ في غيرِ هذا الموضعِ من القرآن.

قال الإمامُ الراغب: «الحَصورُ هو الذي لا يأتي النساء، إمّا من العُنَّه، وإمّا من العفةِ والاجتهادِ في إزالةِ الشهوة.

والثاني هو المرادُ في الآية، لأنه بذلك يستحقُّ المحمدة»[1].

قالَ ابنُ مسعود وابنُ عباس ومجاهد وعكرمة وابن جبير: الحَصورُ هو الذي لا يأتي النساء.

يحيى عليه السلام حصور، مَنَعَ نفسَه عن النساءِ برغبتِه وإرادتِه، وجاهَدَ نفسَه في عدمِ الرغبةِ فيهن، ولم تكن فيه (عُنَّة) تمنعُه من معاشرةِ النساء، لأنَّ هذه العُنَّةَ ـ العجز الجنسي ـ نقصٌ يُنَزَّهُ عنه الأنبياء.

وقد نقلَ الإمامُ ابنُ كثير كلاماً طيباً للقاضي عياض في معنى كونِ يحيى عليه السلام حصوراً:

«قال القاضي فيه: اعلمْ أنَّ ثناءَ اللهِ على يحيى أنه كان ﴿حصوراً﴾ ليس كما قالَه بعضُهم من أنه كان هَيَاباً يخافُ معاشرة النساء، أو أنه لا ذَكَرَ له!

بل قد أنكرَ هذا حُذّاقُ المفسرين ونُقّادُ العلماء، وقالوا: هذه نقيصةٌ وعيب، لاتليقُ بالأنبياء عليهم السلام.

وإنما معنى ﴿حصوراً﴾ أنه معصومٌ من الذنوب، لا يأتيها، كأنه حَصورٌ عنها.

---

(١) المفردات، ص٢٣٨ ـ ٢٣٩.

وقيل: معناه: مانعاً نفسَه من الشهوات.

وقيل: معناه: ليستْ له شهوةٌ في النساء.

وقد بانَ لك من هذا أنَّ عدمَ القدرةِ على النكاح نقص، وإنما الفضلُ في كونها موجودة، ثم يَمنعها، إمّا بمجاهدةٍ كعيسى، أو بكفايةٍ من الله عزَّ وجلَّ كيحيى عليه السلام.

ثم هي في حقِّ مَنْ قَدَرَ عليها، وقامَ بالواجبِ فيها، ولم تُشغله عن ربه، درجةٌ عليا، وهي درجةُ نبيِّنا محمد ﷺ، الذي لم تُشغلْه كثرتهنَّ عن عبادةِ ربِّه، بل زادَه ذلك عبادة، بتحصينِهن وقيامِه عليهن»[1].

كان يحيى عليه السلام حَصوراً، تسامى بغريزتِه وشهوتِه، فلم يفكِّرْ في النساء، ولم يتزوَّج النساء، مع قدرتِه على ذلك لو أراد...

٥ ـ هل قتل اليهود زكريا ويحيى عليهما السلام؟:

لم يذكر القرآن كيفيةَ موتِ زكريا عليه السلام، فموتُه من مبهماتِ القرآن التي لم يُبيِّنْها! ولم يَرِدْ حديثٌ صحيحٌ مرفوعٌ عن رسول الله ﷺ يبينُ كيفيةَ وفاته.

وقد تحدثَت الإسرائيلياتُ عن كيفيةِ وفاةِ زكريا عليه السلام، وذكرتْ أنَّ اليهودَ هم الذين قتلوه، وزعمتْ أنَّ اليهودَ لحقوا به ليقتُلوه، وأنه هربَ منهم، ولما ضاقَتْ به الطريق وجدَ أمامَه شجرة، ففتحَ اللهُ له فيها باباً فدخلَها! ولما انطبقت الشجرةُ عليه بقيَ طرفُ ثوبِه خارجَها، فرآهُ الشيطان ودلَّ عليه اليهودَ، فجاء اليهودُ بالمنشارِ ونشروا به الشجرة، وقطعوا جسمَ زكريا قطعتيْن!!

وردَّدَ بعضُ المفسرين هذه الإسرائيليات، وحَدَّدوا وفاةَ زكريا على هذهِ الصورة، وأنَّ اليهودَ هم الذين قتلوه!

ونحنُ لا نقولُ بهذه الإسرائيليات، ولا نفسِّرُ بها كلامَ الله، ولا نعتمدُها في الحديثِ عن وفاةِ زكريا عليه السلام، ونتوقَّفُ في قَبولها، لا نُصدقُها ولا نكذبُها، لكننا لا نسجلُها ولا نوردُها إلاّ من بابِ التحذيرِ منها!

أي: لا نقول: قتَلَ اليهودُ زكريا عليه السلام، ولا نعرفُ كيفَ كانتْ وفاتُه،

---

(١) تفسير ابن كثير: ١/ ٣٤٢.

هل ماتَ موتاً طبيعياً، أم ماتَ مقتولاً على أيدي اليهود، لعدمِ وجودِ نصٍّ صحيحٍ صريحٍ في مصادرنا الإسلامية نعتمد عليه في التفسير، ونبقى مع القرآن، نقولُ بما قالَ به، ونسكتُ عن ما سكتَ عنه!

هذا عن زكريا عليه السلام، نتوقفُ في الحديثِ عن وفاتِه.

أمّا يحيى عليه السلام فإنَّ ما قالَتْه الإسرائيلياتُ عن قتلِ اليهودِ لأبيه قالتْه عنه، حيثُ ذهبتْ تلك الإسرائيلياتُ إلى أنَّ اليهودَ هم الذين قتلوه أيضاً!!

فصَّلَتْ كيفيةَ قتْلِه، وذكرتْ أنَّ السببَ في ذلك هو أنَّ ملكَ اليهودِ في القدس أرادَ أنْ يتزوجَ ابنةَ أخيه! وهذا الزواجُ محرمٌ في الشريعةِ اليهودية، لكنه كان يعشقُ ابنةَ أخيه، والبنتُ كانتْ تعشقُ عمَّها، ولما صمما على الزواج قامَ يحيى عليه السلام بالإنكارِ عليهما، فغضبت الفتاة، وطلبتْ من الملك أنْ يقتلَ يحيى، ومهرُها هو أن يقدمَ لها رأسَه! ونَفَّذَ الملكُ اليهوديُّ رغبتَها، وأمر جنودَه بقتْلِ يحيى عليه السلام، فنفَّذوا أمْرَه، وقَدَّمَ لها رأسَ يحيى على طبقٍ من ذهب، ثم تزوَّجَها!! وغضبَ اللهُ على اليهودِ لقتْلِهم يحيى عليه السلام وأوقعَ بهم القتلَ والتشريد!

واستهوتْ هذه الإسرائيلياتُ المؤرِّخين والمفسِّرين المسلمين، وردَّدوها في كتبهم، وشاعتْ بين المسلمين، وكأنَّها قضيةٌ بدهيّةٌ مسلَّمة، فما تُقابلُ مسلماً وتسألُه إلا يجيبك قائلاً: اليهودُ هم الذين قتلوا زكريا ويحيى عليهما السلام!

وما قلناهُ عن توقّفِنا في زعمِ قتلِ اليهود لزكريا نقولُه هنا، ونتوقَّفُ في قَبولِ تلك الإسرائيليات التي تزعمُ قتْلَ اليهود ليحيى عليه السلام. ولا نخوضُ في كيفيةِ وفاةِ يحيى عليه السلام، لعدمِ ورودِ ما نعتمدُه عليه من نصٍّ صريحٍ صحيحٍ في مصادرِنا الإسلامية.

لا نقولُ هذا دفاعاً عن اليهود، ولَسْنا حريصين على تبرئة اليهود، فاليهودُ كفارٌ مجرمون، وهم قتلةُ الأنبياء، وقتلُهم الأنبياءَ حقيقةٌ قاطعة، أخبرَنا اللهُ عنها في آياتِ القرآن.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١].

وقال تعالى: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٧].

الآياتُ صريحةٌ في إدانةِ اليهود لقتْلِهم الأنبياء، وهي جريمةٌ قبيحةٌ شنيعة، تجعلُنا نكرهُهم ونبغضُهم، ونحكُم عليهم بالكفر، فلا يَقتلُ النبيَّ إلا كافرٌ مجرم!

أما تعيينُ الأنبياءِ الذين قَتلوهم، وتحديدُ أسمائهم وأعدادِهم، وبيانُ كيفياتِ قتْلِهم، فهذا لا نخوضُ فيه، لأنَّ القرآن لم يتحدَّثْ عنه.

إننا نرى أنَّ ادعاءَ قتْلِ اليهودِ ليحيى عليه السلام يتعارضُ مع القرآن!

قالَ اللهُ عنه: ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم: ١٥].

الآيةُ صريحةٌ في أنَّ اللهَ منحَ يحيى السلامَ في حياته، وركَّزَ على تحقيقِ السلامِ له في ثلاثةِ مواطن: عندَ ميلادِه، وعندَ وفاتِه، وعند بعثِه حياً يومَ القيامة!

وهذا معناه أنه نالَ السلامَ والأمْنَ والأمانَ من الله في هذهِ المواطنِ الثلاثة على الخصوص، وفي حياتِه كلِّها على العموم! فاللهُ عصمهُ من الأخطارِ والآفات، ونَجَّاهُ من المكايدِ والمؤامرات!

فإذا كانَ اليهودُ الكافرون يريدونَ قتْلَ يحيى عليه السلام، فإنَّ اللهَ سيحميه منهم، وسيمنحُه السلامَ والأمنَ والأمان بنصِّ الآية.

أليسَ هذا ما حصلَ مع عيسى عليه السلام؟ حيثُ منحه اللهُ السلامَ في حياتِه كلِّها، وفي المواطنِ الثلاثةِ الخطيرة. قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم: ٣٣].

ولذلك لما أرادَ اليهودُ قتْلَ عيسى عليه السلام وصلْبَه، وصَمَّموا على ذلك، وعزَموا على تنفيذه، عصمهُ اللهُ منهم، ومنحهُ الأمنَ والسلام والأمان، ورفعَه إليه!

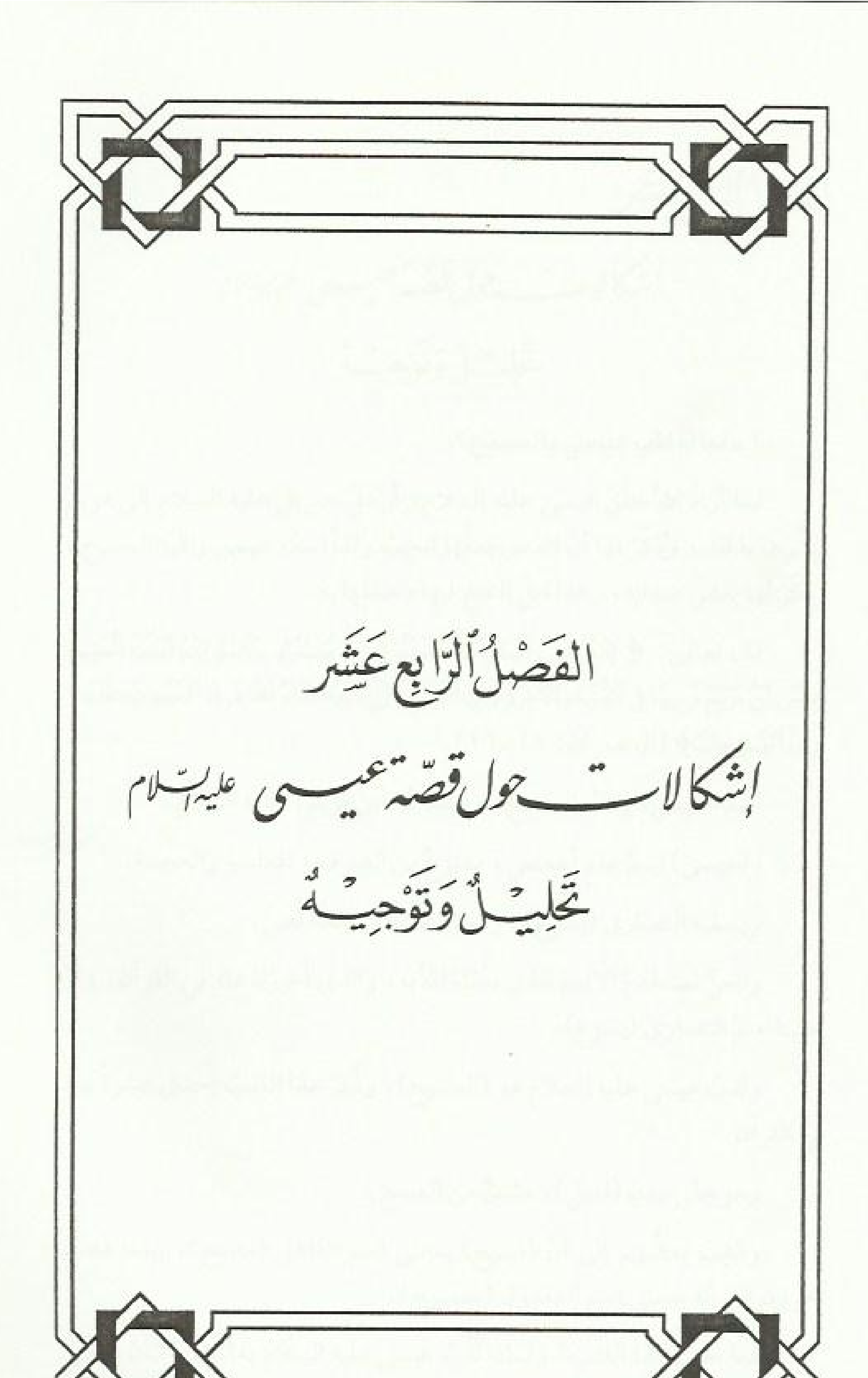
فإذا كان اللهُ قد حمى عيسى عليه السلام من اليهودِ لما أرادوا قتله، لأنه منحَهُ السلامَ بنصِّ الآية فلماذا لا يكونُ قد حمى يحيى عليه السلام! لأنه منحهُ السلامَ بنصِّ الآية، وإذا كانَ اليهودُ يريدونَ قتْلَه، فإن اللهَ سيحميه منهم!

إننا نفهمُ من قوله تعالى عن يحيى عليه السلام: ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ

﴿يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ أنه مات موتاً عادياً، بسلامٍ وأمان، وأنَّ الله لم يُمَكِّن اليهودَ من قتله..

أمّا كيفَ ماتَ يحيى عليه السلام فإنّ هذا من مبهماتِ القرآن، التي لم نعرفْ بيانَها! وما قلناه عن جهلِنا بكيفيةِ وفاةِ زكريا نقولُه عن جهلِنا بكيفيةِ وفاةِ يحيى عليهما السلام!

* * *



الفَصْلُ الرَّابِعَ عَشَر

إشكالات حول قصّة عيسى عليه السلام

تَحليلٌ وتَوْجِيهٌ

الفَصْلُ الرَّابِعَ عَشَر

إشكالات حول قصة عيسى عليه السلام

تحليل وتوجيه

١ ـ لماذا لقب عيسى بالمسيح؟:

لما أرادَ اللهُ خلْقَ عيسى عليه السلام، أرسلَ جبريلَ عليه السلام إلى مريمَ يبشِّرُها بذلك، وذكَرَ لها أنَّ اللهَ سيجعلُها تنجبُ ولداً اسمُه عيسى ولقبُه المسيح، وذكَرَ لها بعضَ صفاتِه، وهذا قبلَ النفخِ فيها وحملِها به.

قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٥ ـ ٤٦].

اسمُه عيسى، ولقبُه المسيح، وصفتُه أنه ابنُ مريم، عليه السلام.

و(عيسى) اسمُ علمٍ أعجمي، ممنوعٌ من الصرف، للعلميةِ والعجمة.

ويسمّيه النصارى (يسوع). ومعناه عندهم: المخلِّص.

ونحنُ نستخدمُ الاسمَ الذي سمّاهُ اللهُ به، والذي أخبرَنا عنه في القرآن، ولا يعنينا اسمُ النصارى (يسوع).

ولقبُ عيسى عليه السلام هو (المسيح)، وذُكِرَ هذا اللقبُ إحدى عشرةَ مرة في القرآن.

وهو على وزنِ (فعيل)، مشتقٌّ من المسح.

وذهبَ بعضُهم إلى أنَّ (مسيح) بمعنى اسم الفاعل (ماسح)، بينما ذهبَ آخرونَ إلى أنه بمعنى اسم المفعول (ممسوح).

فما معنى هذا اللقب؟ ولماذا لُقِّبَ عيسى عليه السلام به؟ سواءٌ كان بمعنى

اسمِ الفاعل (ماسح)، أو كان بمعنى اسم المفعول (ممسوح)!

قالَ الإمامُ الراغبُ الأصفهاني: «المَسْحُ: إمرارُ اليدِ على الشيء، وإزالةُ الأثرِ عنه.

وقيل: سُمّي عيسى عليه السلام مسيحاً، لكونه ماسحاً في الأرض، أي: ذاهباً فيها.

وقيل: سُمي مسيحاً لأنه كان يمسحُ ذا العاهةِ فيبرأ.

وقالَ بعضُهم: . . . وعيسى ابنُ مريم هو المسيحُ لأنه مُسِحَتْ عنه القوةُ الذميمة، مِن الجهلِ والشره والحرص، وسائرِ الأخلاق الذميمة. . .»[1].

فإذا كان (المسيح) بمعنى اسم الفاعل (ماسح) فإنَّ عيسى عليه السلام لُقِّبَ به لأنه كان يمسحُ الأرضَ بالسياحةِ والسير فيها، أو لأنه كان يمسحُ بيده على المريض فيبرأ.

وإذا كان (المسيح) بمعنى اسم المفعول (ممسوح) فإنه لُقِّبَ به لأنَّ اللهَ مَسَحَه بالبركة، فكان ممسوحاً مباركاً!

ونرى أنَّ لقبَهُ جَمَعَ بين اسم الفاعل واسم المفعول، ويكونُ صيغةَ مبالغةٍ على وزن (فعيل).

كان عيسى عليه السلام ماسحاً، يمسحُ بيدِه على المريض فيبرأ، وكان ممسوحاً مسحهُ اللهُ بالبركة.

أما معنى المسيح عند النصارى فهو المكرَّسُ للخدمةِ والفداء. «سُمّيَ يسوعُ المسيحَ لأنه مُعَزَّزٌ ومكرَّسٌ للخدمةِ والفداء، ووُعِدَ بمجيئِه حالاً بعد السقوط..»[2].

ونُسبَ عيسى عليه السلام إلى أمه (عيسى ابن مريم) لأنه لا أبَ له، وذلك للردِّ على مزاعمِ النصارى حولَ تأليهِ عيسى عليه السلام، فهم يقولون: عيسى ابنُ الله!

---

(١) المفردات، ص٧٦٧ـ٧٦٨.

(٢) قاموس الكتاب المقدس، ص٨٦٠.

والقرآنُ يكذبُهم قائلاً لهم: إنه ابنُ مريم، وأمه تعرفونها عن يقين، فكيفَ صارَ ابناً لله!؟ تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

٢ - توجيه الحوار بين مريم وجبريل:

لما بشَّرَ جبريلُ مريمَ بعيسى دُهشتْ واستغربتْ، فأزالَ استغرابَها بأنها إرادةُ الله، واللهُ يفعلُ ما شاء، وهو قادرٌ على أنْ يجعلَها تحملُ وتلدُ من غير زواج، ودونَ أن يمسَّها بَشر. قال تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧].

وبعد ما ابتعدَتْ مريمُ عن أهلِها، وانتبذَتْ منهم مكاناً شرقياً، أرسلَ اللهُ لها جبريلَ لتنفيذِ البشارةِ السابقة. قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٦ ـ ١٩].

كانتْ مريمُ في ذلك المكانِ الشرقيِّ وحيدة، تخلو إلى نفسها، وتنشغلُ بأورادِها وأذكارِها ومناجاتِها لله، وفوجئتْ ببشرِ رجلِ أمامها: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾.

والمرادُ بكلمةِ ﴿روحنا﴾ جبريلُ عليه السلام. وقد أطلقَ عليه القرآنُ كلمةَ (روح) في أكثر من آية. منها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٤].

ولما أرسلَ اللهُ جبريلَ إلى مريم مكَّنه من أن يتحولَ إلى صورةٍ آدميةٍ بشرية: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾.

ومعنى ﴿سَوِيًّا﴾: مستوياً، سويَّ الخلق، كاملَ الآدمية.

فوجئتْ مريمُ العذراءُ البتولُ برجلٍ غريبٍ واقفٍ أمامها، وهي وحيدةٌ بعيدةٌ عن أهلِها، فخافَتْ خوفاً شديداً.

ماذا تفعل؟ ليس أمامها إلا أن تلجأ إلى الله، لذلك خاطبت الرجلَ الغريبَ قائلة: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾. أي: إني أعوذُ بربي الرحمن، وأطلبُ منه أن يحميني منك.

وجملةُ ﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ جملةٌ شرطية، مكوَّنـةٌ من حرفِ الشرط وفعل الشرط، وجوابُ الشرط محذوف، والتقدير: إن كنتَ تقياً تخافُ الله فلا تقتربْ مني، ولا تمسَّني بأذى.

لقد خاطبت الإيمانَ عنده، واستحيت التقوى في قلبه. و﴿تَقِيًّا﴾: صاحبَ التقوى.

ومن سخافاتِ الإسرائيلياتِ الكاذبة أنَّ ﴿تَقِيًّا﴾ اسمُ رجلٍ فاسقٍ مجرمٍ معروفٍ عند الناس، اسْمُه (تقي). فقالتْ مريم للرجل: إن كنتَ أنت ذلك الرجلَ الفاسقَ الذي اسمُه تقيّ، فلا يعيذُني منك إلاّ الله!

وعلقَ الإمامُ ابنُ كثير على الإسرائيليات بقوله: «وهذا يَرُدُّ قولَ مَنْ زعمَ أنه كان في بني إسرائيلِ رجلٌ فاسق، مشهورٌ بالفسق، اسمُه (تقيّ)، فإنَّ هذا قولٌ باطلٌ بلا دليل، وهو من أسخفِ الأقوال»[1].

وطمأنَها بأنه ليس رجلاً في الحقيقة، وإنما هو رسولٌ من عند الله، ومَلَكٌ من الملائكة، بعثَهُ الله إليها ليهبَ لها غلاماً زكياً، ويُنفذَ وعْدَه السابق لها، وأزالَ استغرابَها بأنْ أحالها على قدرة الله: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ١٩ ـ ٢١].

٣ ـ معنى قوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾:

أخبرَ القرآنُ عن نفخ جبريلَ في مريم مما جعلَها تحملُ بعيسى عليه السلام: قال تعالى: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١].

وقدمت الآيةُ شهادةً لمريم رضي الله عنها بالعفةِ والطهارةِ وعدم ارتكابِ الفواحش، حيث وصفَتْها بأنها أحصنتْ فرجَها. وإحصانُ الفرجِ بالعفةِ وعدمِ الزنا.

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير، ص٥٠١.

وقد يظنُّ بعضُهم تناقضاً في القرآن عند حديثِه عن النفخ في مريم. فقال في سورة الأنبياء: ﴿ وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ [الأنبياء: ٩١]. وقال في سورة التحريم: ﴿ وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ﴾ [التحريم: ١٢].

فلماذا عَبَّرَ بالمؤنثِ في سورةِ الأنبياء: ﴿ فَنَفَخۡنَا فِيهَا ﴾؟ وعَبَّرَ بالمذكَّرِ في سورةِ التحريم: ﴿ فَنَفَخۡنَا فِيهِ ﴾؟.

(هاء) المؤنثِ في سورةِ الأنبياءِ تعودُ على مريم رضي الله عنها. أي: أَحصنتْ مريمُ فرجَها فنفخْنا في مريم من روحنا.

و(هاء) المذكرِ في سورةِ التحريمِ تعودُ على فرجها، لأنَّه لفظٌ مذكَّر، أي أحصنَتْ مريمُ فَرْجَها، فنفخْنَا في فرجها من روحِنا.

وفرجُ المرأةِ معروف، والنفخةُ كانت في فرجِها المعروف.

ولا تعارضَ بين آيةِ سورةِ الأنبياءِ وآيةِ سورةِ التحريم.

تخبرُ آيةُ سورةِ الأنبياءِ أنَّ النفخةَ كانتْ في مريم، أي في بدنِ مريم، وهو تعبيرٌ عام، بينما تخبرُ آيةُ سورةِ التحريم أنَّ النفخةَ كانت في فرج مريم على وجْه الخصوص، وهذا من ذكْرِ الخاصِّ بعد العام، فلا تعارضَ بين الآيتين!

ولا ننسى أنَّ سورةَ الأنبياءِ مكية، فجاءَ التعبيرُ فيها عاماً، أخبرَ أنَّ النفخةَ كانتْ في بدنِ مريم، وأن سورةَ التحريم كانتْ مدنية، فجاءَ التعبير فيها خاصاً، أخبرَ أنَّ النفخةَ كانتْ في فرجِ مريم، الذي هو جزءٌ من بدنها!

ومن لطائفِ التعبيرِ القرآنيِّ أنه اختلفَ التعبيرُ بين نفخِ الروحِ في آدم ونفخِ الروحِ في فرجِ مريمَ لتلدَ عيسى عليه السلام.

عَبَّرَ عن نفخِ الروحِ في آدم بالمفرد: ﴿ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ [الحجر: ٢٩]، بينما عَبَّرَ عن النفخِ في مريمَ بالجمع: ﴿ فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾.

بالنسبةِ لآدمَ عليه السلام فإنَّ اللهَ هو الذي نفخَ في جسدِه الممدَّد، وكانت نفخةً مباشرةً من الله، بطريقةٍ غيبية، فدبَّت الروحُ في آدم، وقامَ إنساناً حياً، ولهذا

أسندَ النفخَ إليه وحدَه، وجاءَ التعبيرُ بالمفرد: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾.

أما بالنسبةِ لعيسى عليه السلام فإنَّ اللهَ بعثَ جبريلَ عليه السلام لينفخَ في مريمَ من روحه، فقامَ جبريلُ بالمهمة. ولهذا عبَّرَ بالجمع: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾.

لقد اجتمعَ في شأنِ عيسى كلٌّ من السببِ والمسبِّب، فاللهُ هو المسبِّبُ في النفخ، لأنه هو الذي أمر به، وجبريلُ هو السببُ الماديُّ، لأنه هو الذي نَفَّذَ أَمْرَ اللهِ وقامَ بالنفخ، فعبَّرَ بالجمع ﴿فَنَفَخْنَا﴾ لنلحظَ دورَ المسبِّبِ والسببِ الماديّ!.

٤ ـ ﴿رُّوحِنَا﴾ لها معنيان:

وردَتْ ﴿رُّوحِنَا﴾ المضافةُ إلى الله في قصةِ عيسى عليه السلام بمعنيين:

الأول: جبريلُ عليه السلام. وذلك في قوله تعالى: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧].

جبريلُ روحٌ من الله، وإضافتُه إلى الله لتكريمه وتشريفه، وهو روحٌ من الله، ينزلُ بالروحِ على رسلِه، واعتبرَه القرآن (الروحَ الأمين). ولما وقفَ جبريلُ الروحُ الأمينُ أمامَ مريم كان رجلاً سوياً. كما سبقَ أنْ بيّنّا.

الثاني: الروحُ من الله الخفيةُ الغيبية، التي يجعلُها اللهُ في الناس الأحياء، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾.

لقد كان جبريلُ الروحُ الأمينُ يحملُ الروحَ الخفيةَ الغيبية، التي يخلقُ اللهُ بها الناس، ويجعلُها في أبدانهم، فيصيرون بها أحياء، ويحملُها معه لينفخها في مريم، ولما نفخها في فرجِ مريم، تخلَّقَ عيسى جنيناً في رحمِ مريم بأمرِ اللهِ سبحانه.

ولا نعرفُ حقيقةَ تلك الروح التي كان يحملُها جبريلُ معه، لأنها سِرٌّ من الله، لايمكنُ معرفتُه، قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

ولا نعرفُ كيفَ نفخَ جبريلُ في فرج مريم، ولا كيفَ انتقلتْ تلك الروحُ الغيبيةُ إلى رحمها، ولا كيف صارَتْ جنيناً حياً!.. لانعرفُ ذلك لأنه من عالم

الغيب، وعقولُنا البشريةُ لم تُجهزْ بوسائلَ للبحثِ في عالم الغيب، والعقلَ المسلمُ يؤمنُ ويصدقُ بالنصِّ الذي يتحدثُ عن عالمِ الغيب!

المهمُّ أنَّ الروحَ التي نفخَها جبريلُ في فرجِ مريم بأَمْرِ الله، والتي خُلقَ منها عيسى في رحمها، هي نفسُها الروحُ الغيبيةُ التي نفخَها الله في آدمَ عليه السلام فصار إنساناً حياً، وهي نفسُها الروحُ التي يأمرُ اللهُ المَلَكَ أن يَنفخَها في الجنين وهو في رحمِ أمه فيكون حياً، وتبقى هذه الروحُ فيه ما دامَ حياً! ولا تختلفُ روحُ عيسى عليه السلام عن روح آدم، ولا عن روحِ أيِّ إنسان آخر.

قال سيد قطب عن المعنيَيْن المذكورَيْن لكلمةِ ﴿رُوحِنَا﴾ في الآيتَيْن السابقتَيْن:

«هل كلمةُ ﴿رُوحِنَا﴾ التي في سورة مريم هي نفسُها الروحُ التي في سورةِ التحريم؟ وهل مدلولُها فيهما واحد؟

نحنُ نميلُ إلى أنها ذاتُ مدلولَيْن: فهي في سورةِ مريم تعني الروحَ الأمين، وهو رسولُ الله إلى مريم.

أما في سورةِ التحريم فتعني الروحَ الذي نَفَخَ اللهُ منه في آدم، فإذا هو إنسان، ونفخَ منه في فرْجِ مريم، فإذا البويضةُ حيَّةٌ مستعدَّةٌ للنمو.. فهي النفخةُ الإلـٰهيةُ التي تمنحها الحياة، وتمنحُ معها الخصائصَ المرافقةَ لنوعِ الحياة...»[1].

٥ - توجيه كون عيسى «كلمة الله وروح منه»:

اعتبرَ القرآنُ عيسى عليه السلام كلمةَ الله، وروحاً منه. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ﴾ [النساء: ١٧١].

عيسى عليه السلام رسولُ الله، أرسلَه إلى بني إسرائيلَ.. وهو كلمتُه ألقاها إلى مريم، ومعنى كونِه «كلمةَ الله» أنه مخلوقٌ بكلمةِ الله، التي يخلق اللهُ بها المخلوقين، وهي كلمةُ ﴿كن﴾ التكوينية، فإذا أرادَ اللهُ خلقَ شيء، يقول له

(١) الظلال: ٤/٢٣٠٦.

﴿كن﴾ فيكونُ ويوجَدُ في عالَم الواقع في لحظة. كما يريدُ الله، وهي الكلمةُ المذكورةُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يسٓ: ٨٢].

فلما أرادَ اللهُ خلقَ عيسى عليه السلام في رحمِ مريمَ من غيرِ أب، توجَّهتْ إرادتُه إليها، وقال: كنْ يا عيسى مخلوقاً حياً في رحمِ مريم، فكانَ كما أَمَرَ الله. ولهذا كان عيسى كلمةَ الله التي ألقاها إلى مريمَ بهذا الاعتبار.

وليس عيسى وحدَه كلمةَ الله، مع أنه خُلقَ خَلْقاً معجزاً بأَمْرِ الله، فكلُّ إنسانٍ منّا يمكنُ اعتبارُه كلمةَ الله، لأنَّ كلَّ إنسانٍ منا خُلِقَ بأَمْرِ الله، وخُلقَ بكلمةِ اللهِ التكوينية «كن»، قال له: ﴿كن﴾، فكانَ إنساناً حيّاً في رحمِ أمه!

وعيسى روحٌ من الله بنصِّ الآية: ﴿وَرُوحٌ مِّنۡهُ﴾.

و(من) حرفُ جر. والهاء: ضميرٌ متصلٌ في محلِّ جَرّ. وشبهُ الجملةِ ﴿منه﴾ متعلقةٌ بصفةٍ لكلمةِ ﴿روح﴾، والتقدير: وروحٌ كائنةٌ من الله.

وحرفُ الجرِّ (مِن) ليس للتبعيض، ولا تصلحُ أن تكونَ للتبعيض، لأنَّ روحَ الله لا يمكنُ أن تتبعَّضَ أو تتجزأ، أو تنقسم إلى أجزاء. ولو كانت (من) للتبعيض لكان المعنى: اللهُ له روح، وقَطَعَ اللهُ جزءاً وبَعْضاً وقطعةً من هذه الروح، وَحَمَّلَها إلى جبريل، ووضعَها جبريلُ في رحمِ مريم، وخُلِقَ منها عيسى!!.

النصارى الذين أَلَّهوا عيسى عليه السلام، واعتبروه ابناً لله، ذهبوا إلى أنَّ (من) في قوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنۡهُ﴾ للتبعيض، واعتبروا أنَّ الروحَ التي في عيسى عليه السلام هي جزءٌ من روحِ الله، أي أنَّ في عيسى (قطعة) من ذاتِ الله! ولهذا هو ابنٌ لله!! تعالى اللهُ عما يقولون علواً كبيراً.

(مِنْ) في قوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنۡهُ﴾ للبيان، أي أنها تبيِّنُ أنَّ هذه الروحَ التي خُلِقَ منها عيسى هي من عندِ الله، وهي الروحُ الغيبيةُ التي يُخْلَقُ منها كلُّ البشر، كما سبقَ أنْ قلْنا!

وقد أَوردَ السمينُ الحلبي حواراً طريفاً بين نصرانيٍّ وعالمٍ مسلم، أَفحمَ المسلم النصرانيَّ وأقامَ عليه الحجة. قال: «ومن غريبِ ما يُحكى أنَّ بعضَ النصارى ناظرَ عليَّ بن الحسينِ بنِ واقد المروزي، وقال له: في كتابِ الله (القرآن) ما يَشهدُ

أنَّ عيسى جزءٌ من الله! وتلا هذه الآية: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾.

فعارضَهُ ابنُ واقد بقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣].

وقال له: لو صَحَّ كلامك للزِمَ أنْ تكونَ جميعُ هذه الأشياءِ في السموات والأرض جزءاً من الله! وهذا مستحيل!

فسكتَ النصرانيُّ وانقطع، ثم أسلم..»[1].

القرآنُ حريصٌ على إضافةِ شبهِ الجملة ﴿منه﴾ إلى الروح، ولهذا قال: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ وهذا تكذيبٌ للنصارى، الذين يَحرصون على حذفِ شبه الجملة ﴿منه﴾ ويقولون: عيسى روحُ الله!

وهم يريدونَ من إضافةِ الروحِ إلى اللهِ مباشرة (روحُ الله) تأكيدُ كونِه ابناً لله، وأنَّ الروحَ التي فيه قطعةٌ من ذاتِ الله!

والقرآن يؤكِّدُ على أنَّ عيسى ليس روحَ الله، إنما هو (روحٌ من الله)! ، أي الروحُ التي في بدنه عليه السلام من عندِ الله، خلقَهُ اللهُ بها، وجعلَها في بدنِه بأمره!

فرْقٌ بعيدٌ إذنْ بين قولِ النصارى: عيسى روحُ الله، وقول القرآن: عيسى روحٌ من الله!.

٦ ـ توجيه حملِ مريم وولادتها في ساعات:

أخبرَ القرآنُ عن حملِ مريمَ بعيسى عليه السلام: ﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ [مريم: ٢٢ ـ ٢٣].

لما حملتْ بعيسى عليه السلام ابتعدتْ عن أهلها مسافةً أكثر، وتوجَّهَتْ من المكان الشرقي ـ الذي أتاها فيه جبريلُ عليه السلام، ونفخ فيها من روحِ الله ـ إلى مكانٍ آخرَ قصيّ!

أخبر القرآنُ أنَّ مريمَ انتبذتْ من أهلِها مرتين:

---

(١) الدر المصون: ٤/١٦٦.

المرة الأُولى: قالَ اللهُ عنها: ﴿ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ [مريم: ١٦]، وجاءها في ذلك المكانِ الشرقيِّ جبريلُ عليه السلام، وحملَتْ بعيسى بأمْرِ الله.

المرة الثانية: قال الله عنها: ﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ [مريم: ٢٢].

وهذه مرحلةٌ ثانية، وخطوةٌ تالية، فبعدما حملَتْ بعيسى عليه السلام مباشرة، انتقلتْ من المكان الشرقي، إلى مكانٍ أبعد، هو المكانُ القصيُّ بالنسبة إلى المكانِ الشرقي.

وهذا المكانُ القصيُّ هو (بيت لحم) الذي ولدَتْ فيه عيسى عليه السلام. وهو مكانٌ قصيٌّ بالنسبةِ إلى القدس، لأن أهلها كانوا يُقيمون في القدس، وبينَ القدس وبيت لحم حوالي ستة أميال!

وردَ في (قاموس الكتاب المقدس) عن بيتِ لحم مايلي: «بيتُ لحم: اسمٌ عبري، معناه (بيت الخبز). وهي قريةٌ صغيرة، مبنيةٌ على أكَمَة، تبعدُ ستةَ أميالٍ إلى الجنوبِ من بيت المقدس، وهي محاطةٌ بتلالٍ تكسوها الأشجارُ والنباتاتُ الجميلة. وفيها مياهٌ عذبة، تنفجرُ من أراضيها الخصبة.. وكانَ داودُ عليه السلام يشربُ الماءَ من البئرِ الذي فيها.. وكانتْ مدفنَ راحيل، ومسقط داود، ومسكنَ نُعمى وبوعز وراعوث.

وأعظمُ من ذلك جميعِه أنه وُلدَ فيها المخلِّص.

ولبيت لحم أكثرُ من أربعةِ آلافِ سنة منذ أُسِّست، ولم تزلْ صغيرةً حتى إلى ما بعدَ أيامِ المسيح.

وبَنَت الامبراطورة (هيلانة) كنيسةً فوقَ المغارةِ التي يُظَنُّ أنَّ مخلِّصنا وُلدَ فيها، وهي أقدمُ كنيسةٍ مسيحيةٍ في العالم، وهي كنيسةُ المهد»[1].

لما ذهبتْ مريمُ إلى المكانِ القصيِّ في بيتِ لحم، منتبذةً بجنينِها عن أهلها، أحستْ هناكَ بآلامِ المخاض: ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾ [مريم: ٢٣].

---

(١) قاموس الكتاب المقدس، ص٢٠٥ ـ ٢٠٦.

وقد اختلفَ العلماءُ في مدةِ حملِها بعيسى عليه السلام :

فذهبَ بعضُهم إلى أنها حملَتْ به حملاً طبيعياً عادياً ، كما تحملُ النساء ، فكانتْ مدةُ الحملِ تسعةَ أشهر .

وذهبَ آخرونَ إلى أنَّ حملَها به كان سريعاً ، لم يزدْ على ساعات ! !

والراجحُ عندنا هو القولُ الثاني ، فما أنْ حملَتْ به في المكانِ الشرقي ، ثم توجَّهتْ إلى المكانِ القصي ، حتى أجاءَها المخاضُ إلى جذع النخلة .

ومما يدلُّ على هذا تعبيرُ القرآنِ عن تسارع الأحداث بالفاء : ﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾ . والفاءُ تدلُّ على الترتيبِ مع التعقيبِ الفوري ، أي أنَّ المراحلَ كانتْ مرتبةً سريعة .

ثم كونُ حملِها لم يستغرقْ إلاّ ساعات يتوافقُ مع المعجزةِ في خلقِ عيسى عليه السلام من غيرِ أب ، وفي معجزاتِ ولادته بعدَ ذلك . فاللهُ الذي خلَقَه خلقاً معجزاً ، هو نفسُه الذي جعلَ حملَه في ساعات ، ليكونَ حملُه معجزاً كخلْقه .

ولو استمرَّ حملُها به تسعةَ أشهر للاحظَ أهلُها مظاهرَ الحملِ عليها ، ولأنكروا عليها !

الراجحُ أنَّ مريمَ رضي الله عنها خرجَتْ من عندِ أهلِها في الصباح ، وعادَتْ إليهم في المساءِ وهي تحملُ ابنَها عيسى !

وهذا هو رأيُ ابنِ عباس رضي الله عنهما ، حيث قال : ما هو إلا أنْ حملَتْ وولدَتْ ، فليس بين حملِها وولادتِها زمَن .

٧ ـ معنى فعل ﴿فَأَجَآءَهَا﴾ :

نقفُ مع فعلِ «فأجاءها» الواردِ في قوله تعالى : ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾ [مريم : ٢٣] .

الفاءُ فيه حرفُ عطف . و«أجاء» فعلٌ ماض ، والهاءُ «ها» تعودُ على مريم ، ضميرٌ متصلٌ في محلِّ نصبِ مفعولٍ به مقدَّم ، و«المخاض» فاعل مؤخر . والتقدير : أجاءَ المخاضُ مريمَ إلى جذع النخلة .

و«أجاءَ» من تصريفاتِ فعل «جاء» مُتَعَدٍّ، يَنصبُ المفعولَ به. والهمزةُ الأولى فيه تسمّى همزةَ التعدية.

وهذه الهمزةُ تصلحُ أنْ تكونَ عِوَضاً عن الباءِ المحذوفة، تقول: جاءَ بها المخاض، وإنْ حذفْتَ الباءَ عوضتَ عنها الهمزة، فتقول: أجاءَها المخاضُ.

وفعلُ «أجاءَ» يدلُّ على الإلجاءِ والإكراهِ والاضطرارِ والدفع.

قالَ زهيرُ بنُ أبي سلمى:

وَجـارٍ سـارَ مُعْتَمِـداً إلَيْكُـمْ أجـاءَتْـهُ المَخـافَـةُ والـرَّجـاءُ

والمعنى: ألجأتْه المخافةُ والرجاء.

وكأنَّ فعلَ «أجاءها» يشيرُ إلى مرحلتيْن مَرَّتْ بهما مريمُ رضي الله عنها، عندما شعرتْ بآلامِ المخاض.

المرحلةُ الأُولى: جاءَ بها المخاضُ إلى جذعِ النخلة، وذلك عندما أحَسَّتْ بآلام الوضع، من أجلِ أنْ تستندَ إلى جذعِ النخلة.

المرحلة الثانية: ألْجَأَها المخاضُ إلى جذع النخلة إلجاء، ودفَعها إليه دفعاً، وأكرهها إليه، واضطرَّها للبقاء عنده، وذلك عندما اشتدَّت بها آلام الوضع، فأمسكَتْ به وقالت: يا ليتني متُّ قبلَ هذا وكنتُ نسياً منسياً.

والخلاصـةُ أنَّ فعلَ (أجاءها) يتضمنُ فعلَ (جاءَ بها). ويدل على معنى الإلجاء والإكراه والاضطرار والدفع، وهذه المعاني لا يؤديها فعل (جاء بها).

٨ - توجيه تمني مريم للموت:

عندَ جذع النخلـةِ أخذها الطلق، واشتدَّتْ بها آلامُ المخاضِ والوضع، فأمسكتْ بالجذع، وأطلقتْ زفرةً موجعة، وقالت: ﴿يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣].

تمنَّتْ رضي اللهُ عنها لو كانت ماتَتْ قبلَ «هذا» الحالِ المكروبِ الذي هي فيه، وكانت نسياً منسياً.

والنَّسْيُ هو الشيءُ الذي ينساهُ أصحابُه ويتركونه ويذهبونَ عنه، لحقارته

عندهم. و﴿مَّنسِيًّا﴾: اسمُ مفعول، صفةٌ لهذا النسي المتروك، مبالغةٌ في إهماله وتركِه.

وينطبقُ النسيُ المنسيُ على كلِّ شيءٍ تافهٍ حقير، يتركُه أصحابُه لحقارتِه، مثلُ خرقةِ الحيضِ التي تطرحُها المرأةُ وتهملُها، لكنه ليس خاصّاً بخرقةِ الحيض، إنما هو عامٌ يشملُ كلَّ ما كان كذلك في تفاهتِه وحقارته!

وقد يشكلُ تمنّيها الموتَ على بعضهم، فيتساءَل: كيفَ تتمنى مريمُ الموت، وهي الفتاةُ المؤمنة، وتمنّي الموت لا يجوز؟

الذي دفعها إلى تمنّي الموتِ هو الحالةُ الخاصةُ التي تمرُّ بها، والآلام الشديدةُ التي تسيطرُ عليها.

إن آلام المخاضِ والوضع شديدةٌ مؤلمةٌ لكلِّ امرأة، حتى وهي في بيتها وحولَها أهلُها وأقاربُها. وتزيدُ الآلامُ عندما تضعُ المرأةُ حملَها الأول، وتنجبُ أولَ مولودٍ لها، وتمرُّ هذه المرأةُ بحالةٍ نفسيةٍ شديدة، من الكربِ والألم والمعاناةِ والتوتر، هذا وهي في بيتها وبين أهلها!

فهل كانت مريمُ كذلك؟ هل كانتَ في بيتها، وأهلُها حولَها يقدمون لها المساعدة؟

إنها فتاةٌ عذراء، لاخبرةَ لها بالولادة، وإنها وحيدةٌ ممسكةٌ بجذعِ النخلة، ليس بجانبها مساعد أو معين من البشر، وإنَّ آلام المخاض تزداد وتشتد، وإنها تمرُّ بحالةٍ شديدةٍ من التوترِ والمعاناة والضيقِ والاضطراب!

هاجمتْها الأفكارُ والوساوس، وهي تُعاني ما تُعاني من الآلام، كيف ستلدُ ولا خبرةَ لها بذلك؟ وكيف ستنقذُ المولودَ ولا وسائلَ معها لذلك؟ وكيف ستأكلُ أو تشربُ ولا شيءَ عندها من ذلك؟ ثم كيفَ ستواجه أهلَها بمولودها؟ وماذا سيقولون لها؟ وكيف ستدافعُ عن نفسِها؟ وكيفَ ستقنعُهم ببراءتِها؟.

هذه أسئلةٌ صعبةٌ تمرُّ بذهنها، وغيرها كثير، وكلُّها لا جوابَ عليها عندها.

فأقلُّ شيءٍ تقوله في تلك الحالة الحرجة: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾... ولو كانت فتاةٌ أخرى مكانَها لقالتْ أكثرَ من هذه العبارة!

إنها لم تكن مخطئةً في تمنّيها الموت، ولا تُلامُ عليه... ثم إنَّ الحالةَ لم

تدُمْ طويلاً، فسرعانَ ما أسعفَها اللهُ بالطمأنينةِ والرحمة، وأنجبتْ عيسى عليه السلام بسلام، وزالتْ عنها مشاعرُ التوتر والقلق والاضطراب، وعادَتْ لها طمأنينتُها . .

٩ ـ من الذي ناداها؟ وماذا قال لها؟:

قال تعالى: ﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ [مريم: ٢٤].

من هو الذي ناداها منْ تحتِها، عندما وضعَتْ عيسى عليه السلام مباشرة؟

ذهبَ بعضُ العلماءِ إلى أنَّ الذي ناداها من تحتها هو جبريلُ عليه السلام، حيث كان قريباً منها، ولما وضعتْ مولودَها جاءها ووقفَ بين يديها، في مكانٍ أسفلَ منها.

وذهبَ آخرون إلى أنَّ المنادي هو ابنُها عيسى عليه السلام، الذي لم يولَدْ إلاَّ قبلَ لحظات!

والراجحُ هو القولُ الثاني، لأنَّ السياقَ يتحدثُ عن عيسى عليه السلام وليس عن جبريل.

والضمائرُ السابقةُ تعودُ على عيسى: ﴿فحملته . . . فانتبذت به . . . فناداها من تحتها . . ﴾.

ثم إنها لما ذهبت إلى قومِها وهي تحملُه، واستغربوا أمرها، أشارتْ إليه ليشرحَ لهم الأمر، وهي لم تفعلْ ذلك إلاَّ لأنها سمعتْه يكلمُها من قبل!

وكونُ المنادي لها ابنَها الذي أنجبتْه قبلَ لحظات، أبلغُ وأظهرُ في المعجزة، لأنَّ اللهَ هو الذي أنطقَه بكلامٍ فصيح، وهذا ليس مألوفاً في حياةِ المواليد! ولْنتصورْ مدى دهشةِ مريم ومفاجأتِها وهي تسمعُ ابنَها يكلمُها ويوجهُها ويرفعُ معنوياتِها!

ماذا قالَ ابنُها لها؟

قال تعالى: ﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۝٢٤ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ۝٢٥ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ [مريم: ٢٤ ـ ٢٦].

اللهُ هو الذي ألهمَ الوليدَ عيسى أنْ يقولَ لأمّه هذا الكلام، لأنه لا علمَ له بذلك، حيثُ لم تمضِ على ولادتِه إلا لحظات!

قال لها: ﴿لاتحزني﴾: دَعاها إلى إزالةِ ما اعتراها من حُزنٍ وهَمٍّ وكرب، مما مر بها من أحداث، لأنَّ اللهَ معها، يحفظُها ويرعاها.

﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾.

الراجحُ أنَّ المرادَ بالسريِّ هنا جدولُ الماء، وسُمّي (سرياً) لأنَّ الماء يسري ويجري فيه.

والراجح أنَّ الله فجّرَ لها جدولَ الماءَ أمامَها لحظةَ ولادتها، وأنه لم يكن موجوداً عندما أتتْ إلى جذع النخلة، وهذه معجزةٌ من معجزاتِ الله، أكرمَ بها مريم رضي الله عنها، يُضافُ إلى المعجزاتِ والخوارقِ الأخرى، التي صاحبَتْ ولادةَ عيسى عليه السلام.

﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾:

أمرها أن تهزَّ وتحركَ جذع النخلة، وعندما تفعلُ ذلك فسوف يتساقطُ عليها الرطبُ الجنيُّ الناضج.

وذهبَ بعضُهم إلى أنه كانَ جذعاً يابساً، فلما هَزَّته جعلَه اللهُ نخلةً خضراءَ حية تحملُ الرطبَ الجني!

والراجحُ أنه لم يكنْ يابساً، وأنَّ النخلةَ كانت حيةً خضراء!

لكن هل كانت تلك النخلةُ الخضراءُ مثمرةً ثمراً طبيعياً؟ وهل كانت ولادةُ عيسى عليه السلام في وقتِ نضوجِ التمر؟

من المعلوم أنَّ التمرَ ينضجُ في وقتِ الصيف، فهل كانتْ ولادةُ عيسى في الصيف؟

يذهبُ النصارى إلى أنَّ ولادةَ عيسى عليه السلام كانت في الشتاء، في الرابع والعشرين من شهر كانون أول! ولا يكونُ التمرُ ناضجاً في هذا الوقت، بل إنَّ النخلةَ لم تكنْ قد بدأتْ في حملِ البلح!

الراجحُ أنَّ إثمارَ النخلةِ كان معجزةً من الله سبحانه! أمرها اللهُ أن تُثمرَ البلحَ

في لحظة، وأن يتحولَ إلى رطبٍ جني في لحظة! فنَفَّذَتْ أمر الله!

وإذا كنّا قد رجّحنا أنَّ إنباعَ سَرِيِّ الماءِ كان معجزةً من الله، فإنَّ هذا يؤكِّدُ أنَّ إثمارَ النخلةِ كان معجزةً من الله أيضاً، ليتكاملَ الطعامُ مع الشراب، فتأكلَ مريمُ من الرُّطبِ الجَني، وتشربَ من ماءِ السَّري!

وأُمرتْ مريمُ بأنْ تَهزَّ جذعَ النخلة من باب الأخذِ بالأسباب، وإلاّ فإنَّ جذعَ النخلةِ كبيرٌ قوي، تعجزُ مجموعةُ الرجالِ عن هَزِّه، وهم أشداءُ أقوياء! فكيف تستطيعُ مريمُ أن تحركَه، وهي الفتاةُ الضعيفة، وهي الآنَ نفساءُ واهنةُ القوة؟!

إنها مطالبةٌ بالأخذِ بالأسباب، وعليها أنْ تضعَ يَدَها على الجذعِ محاوِلةً هَزَّه، واللهُ هو الذي سيحركُ النخلةَ ويجعلُها تُسقطُ الرطبَ الجنيَّ على مريم!

والرطبُ الجنيُّ هو المجتنى المأخوذُ طرياً.

وهذا يدلُّ على أهميةِ الرطبِ للمرأةِ النفساءِ بعد ولادتها، لتستعيدَ قوتَها.

﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾:

كُلي من الرطبِ الجنيِّ الناضجِ الطيبِ الذي تُسقطهُ عليك النخلة، واشْربي من ماءِ السَّريِّ الذي أجراهُ اللهُ أمامكِ، ولا تخشَيْ جوعاً ولا عطشاً! وعليكِ أنْ تَقَري عيناً، وأن تَطيبي نفساً، وأن لا تحزني مما مَرَّ بك من أحداث!

﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾:

قال عيسى لأُمه: اذهبي إلى أهلك، وأنت تحملينِي، فإنْ شاهدتِ أحداً من البشر، سواء كان من أهلك أو من غيرهم، واستغربَ منك، وسألك عن سرِّ الأمر، فلا تُجاوبيه ولا تكلميه، وأعطيه إشارةً يَفهمُ منها أنك صائمةٌ عن الكلام، وناذرةٌ أنْ لا تكلمي أيَّ إنسان! وأحيلي عليَّ، وأنا سأتولى الكلام!

لماذا تصومُ مريمُ عن الكلام؟

لأنها فتاةٌ عذراءُ صالحة، تَحملُ وليداً، وقد لا يصدقُها الناسُ إذا كلمتْهم ودافعتْ عن نفسِها، ولذلك أمرها اللهُ بالصومِ عن الكلام، وأنطقَ وليدَها، الذي لم تمضِ على ولادتِه إلا ساعاتٌ معدودة! وكان إنطاقُه معجزةً من الله سبحانه.

ولا يَقتدينَّ أحدٌ بمريمَ رضي الله عنها في ذلك، فينذرُ أنْ يصومَ عن الكلام!

وقد دخلَ رجلانِ على عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، فسلَّمَ أحدهما ولم يُسلِّم الآخر!

فقالَ له ابنُ مسعود: ما شأنُك؟

فقال أصحابه: حلفَ أن لا يكلمَ الناسَ اليوم!

فقال له ابنُ مسعود: كلِّم الناس، وسلِّم عليهم: فإن تلك المرأةَ علمتْ أنَّ أحداً لا يصدقُها، لأنها حملتْ من غيرِ زوج!.

١٠ ـ توجيه كون مريم أخت هارون!:

حملتْ مريمُ وليدَها، وتوجَّهتْ إلى قومِها، فاستغربوا ودُهشوا. وأخبرنا الله عما قالوه لها. قال تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٧ ـ ٢٨].

قولُهم لها: ﴿يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ فيه اتهامٌ غيرُ صريحٍ لها. وهم لم يتهموها بارتكابِ الفاحشةِ بصراحة، بسبب إيمانِهم بالله، وتقواهم له، وتحرَّجوا من قذفِها لما يعلمونَ من صلاحِها واستقامتِها وعفافِها..

لكنهم رأوا وليداً على حضنها، وهو أمرٌ غريب، يدعو إلى الريبة، فكيفَ يوفِّقون بين ما يعرفونَه عنها من عفةٍ وطهارة، وبين الطفلِ الذي تحملُه؟

اكتفوا بقولِهم: ﴿يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾.

والشيءُ الفريُّ هو الشيءُ العجيبُ المختلَق.

أي: لقد جئتِ بشيءٍ عظيمٍ عجيب، فمن أينَ لكِ هذا الوليد الذي تحملينه، وأنتِ معروفة، ونشأتِ في أُسرةٍ صالحةٍ تقية عفيفة، كان أبوكِ رجلاً صالحاً، ولم يكن امرأَ سَوْء، وكانتْ أمك امرأةً صالحة، ولم تكنْ بغياً، وأخوك هارونُ صالح.

والقولُ المشْكِل هو: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾، حيثُ أشكلَ فهمُه على بعضهم، واتخذَه بعضُهم وسيلةً لإثارة الشبهاتِ على القرآن. فمن هو هارونُ المذكورُ هنا؟ وكيفَ كانت مريمُ أُختاً له؟

ذهبَ بعضُهم إلى أنه لا يُرادُ بالأُخوةِ هنا الأُخوةُ الحقيقية، وإنما الأُخوةُ التشبيهية، أي أنَّ القومَ أرادوا تشبيهَ مريمَ بهارونَ النبيِّ شقيقِ موسى عليهما السلام، في العبادةِ والعفةِ والصلاح.

أي: أنتِ يا مريم أُختُ هارونَ في العبادة، شبيهةٌ به في ذلك، فمن أينَ لكِ هذا الوليد؟

وذهبَ علماءُ آخرون إلى أنَّ المرادَ بالأخوةِ هنا الأُخوةُ الحقيقية، فهي أُختٌ شقيقةٌ لهارون!

ولكنَّ هذا فيه إشكال: إذا كانَ هارونُ أخو موسى عليهما السلام، فكيفَ تكونُ مريمُ أُختاً شقيقةً له، وبينهما قرونٌ عديدة؟

الراجحُ أنَّ هارونَ المذكورَ هنا ليس هو هارونَ النبيَّ أخا موسى عليهما السلام، وإنما هو أخٌ شقيقٌ لمريم، أنجبتْه أمها، وسُمِّي هارونَ على اسمِ النبيِّ هارون! وهي أُختٌ شقيقةٌ له بهذا الاعتبار!

يؤيدُ هذا القولَ الراجحَ حديثُ رسولِ الله ﷺ.

روى مسلم [برقم: ٢١٣٥]؛ والترمذي [برقم: ٣١٥٥] عن المغيرةِ بن شعبة رضي الله عنه قال: بَعَثَني رسولُ الله ﷺ إلى نجران.

فقالوا: ألستُم تقرؤون: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾؟

قلتُ: بلى.

قالوا: وموسى قبلَ عيسى بكذا وكذا؟

فرجعتُ إلى رسولِ الله ﷺ فأخبرتُه.

فقال: «ألا أخبرتَهم أنهم كانوا يسمونَ بالأنبياءِ والصالحين قبلَهم...».

قابلَ المغيرةُ بن شعبة رضي الله عنه النصارى في نجران، فأثاروا أمامَه شبهةً على القرآن، ووجَّهوا له مطْعَناً، فكيفَ يُخبرُ القرآنُ أن مريمَ أُختٌ لهارون، وبين موسى وعيسى قرونٌ عديدة؟

لم يَعرف المغيرةُ الجواب، فأتى رسولَ الله ﷺ فأخبره، فبَيَّنَ له ﷺ أنَّ

الصالحين زمنَ مريم كانوا يسمّون أبناءهم بأسماءِ الأنبياء والصالحين الذين كانوا قبلَهم.

أي أنَّ رسولَ الله ﷺ أخبره أنه كان لمريمَ شقيقٌ اسمه هارون، فهي أخته حقيقة!

١١ - توجيه خصوصية رسالة عيسى وعالمية المسيحية:

بعثَ اللهُ عيسى عليه السلام رسولاً إلى بني إسرائيل فقط.

قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم﴾ [الصف: ٦].

وبعثةُ عيسى عليه السلام إلى بني إسرائيل فقط، لأنَّ كلَّ نبيٍّ من السابقين كان يُرسلُ إلى قومِه خاصة، والذي بُعثَ إلى الناسِ كافةً هو رسولُنا محمدٌ ﷺ فقط.

كلُّ نبي كان يقولُ لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾، أما رسولنا ﷺ فقد قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وهذا المعنى وردَ صريحاً في الحديثِ الذي أخرجه مسلم [برقم: ٥٢١].
عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أعطيتُ خمساً لم يُعطَهنَّ أحدٌ قبلي: كان كلُّ نبيٍّ يُبعثُ إلى قومِه خاصة، وبُعثتُ إلى كلِّ أحمرَ وأسود، وأُحلَّتْ ليِ الغنائم، ولم تُحلَّ لأحدٍ قبلي، وجُعلتْ لي الأرضُ طيبةً طهوراً ومسجداً، فأيما رجلٌ أدركتْه الصلاةُ صلّى حيث كان، ونُصرتُ بالرعبِ بين يديْ مسيرةِ شهرٍ، وأُعطيتُ الشفاعة...».

ومن لطائفِ التعبير القرآني أنه أخبرَ عن تبليغ موسى عليه السلام رسالتَه بقوله: ﴿يَا قَوْمِ﴾. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ﴾ [الصف: ٥]، بينما بلَّغ عيسى عليه السلام رسالتَه بقوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم﴾.

فلماذا موسى يقولُ لهم: ﴿يَا قَوْمِ﴾ بينما عيسى يقولُ لهم: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ولم يقلْ يا قوم؟

الجواب: الرجلُ يُنسبُ إلى قومِ أبيه، فيُقال: هو من بني فلان، ويخاطبُهم بقوله: يا قوم. وهذا متحققٌ في موسى عليه السلام، فهو ابنُ عمران، وعمرانُ أبوه من بني إسرائيل، لذلك قالَ لهم موسى: ﴿يَٰقَوْمِ﴾.

أما عيسى عليه السلام فإنه لا أبَ له، ولذلك لا يُنسَبُ إلى بني إسرائيل، فلا يصحُ أنّ يقولَ لهم ﴿يَٰقَوْمِ﴾، ولذلك قالَ لهم: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم﴾.

وإذا كانَ عيسى عليه السلام رسولاً إلى بني إسرائيل فقط، بنصِّ القرآنِ والحديث، فإنَّ معنى هذا أنَّ (النصرانية) ديانةٌ إسرائيليةٌ خاصة، موجَّهةٌ إلى بني إسرائيل، وغيرهم ليسوا مُطالَبين بها!

ولكنَّ الواقعَ التاريخيَّ للنصرانية لا يتفقُ مع هذه الحقيقة، فبعدما رفعَ اللهُ عيسى عليه السلام إلى السماءِ دخلَ في النصرانية أُناسٌ من غيرِ بني إسرائيل، وانتشرت النصرانيةُ في الشام ومصر، ثم امتدتْ إلى الحبشةِ في الجنوب، وإلى تركية واليونان في الشمال، ووصلتْ إلى روما في الغرب، ثم انتشرتْ في مختلفِ بقاع العالم! والنصرانيـةُ هي أكثرُ الأديان أتباعاً، حيثُ يزيدُ عددُ النصارى الآن على مليارَيْن من الناس! بينما لا يتجاوزُ عددُ اليهودِ ستةَ عشرَ مليوناً!

إنَّ هذا الانتشارَ العالميَّ للنصرانيةِ خلافَ طبيعتِها وأصْلِها، فهي رسالةٌ إسرائيليةٌ مجردة، ولكنَّ اليهودَ كفروا بها، واضطهدوا النصارى، فتفرقَ الرهبانُ في الأديرةِ والكهوف والجبال، هاربينَ بدينهم، وأُعجبت الأقوامُ الأُخرى في الشام ومصر وغيرهما بهم وبعبادتِهم وزهدهم، فدخلوا في دينهم وصاروا نصارى، ولكنَّ هذا خلافَ طبيعةِ النصرانية.. وحَرَّفَ الرهبانُ رسالةَ عيسى التوحيدية، وزعموا أُلوهيةَ عيسى أو بنوّتَه لله! وبذلك انحرفت النصرانية، فنسخَها اللهُ بالإسلام!

١٢ ـ كيف كان عيسى يخلق الطير؟:

آتى اللهُ عيسى عليه السلام آياتٍ باهرةً ومعجزاتٍ بينة، تدلُّ على أنه رسولُ الله، ومن تلك الآياتِ أنه كان يخلقُ الطير!

وقد أخبرَنا اللهُ عن هذا في قوله تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى﴾ [المائدة: ١١٠].

كان عيسى عليه السلام يصنعُ من الطينِ تمثالاً على شكْلِ طائر، ثم كان ينفخُ في ذلك التمثال، فيتحوّل إلى طائر حيٍّ حقيقيٍّ بإذنِ الله!

ونَسبت الآيتانِ ﴿الخلق﴾ إلى عيسى عليه السلام، فكيفَ يخلقُ عيسى من الطينِ طيراً، مع أن الخالقَ هو اللهُ وحده؟

قالَ الإمامُ الراغبُ الأصفهاني: الخلْقُ: أصلُه التقديرُ المستقيم.

ويُستعملُ في إبداع من غيرِ أصلٍ ولا احتذاء. قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١].

ودليلُ خلْقِ السمواتِ والأرض بمعنى إبداعهما من غيرِ أصْل، هو قولُه تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٠١].

وهذا الخلقُ الذي هو الإبداعُ من لا شيء، خاصٌّ بالله، ولهذا جعلَه اللهُ فَصْلاً بينه وبين غيرِه سبحانه. قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧].

ويُستعملُ الخلقُ في إيجادِ الشيء من الشيء. قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ٤]، وقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٤ ـ ١٥].

هذا الخلْقُ الذي هو بمعنى التحويل قد جعلَه اللهُ لغيرِهِ في بعضِ الأحوال، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى﴾.

إذن إسنادُ خلْقِ الطيرِ إلى عيسى عليه السلام من النوع الثاني، الذي هو بمعنى التحويل، فكانَ يصنعُ من الطينِ تمثالاً على شكلِ طيرٍ، ثم ينفخُ فيه، فيكونُ طيراً بإذن الله، أي: يُحولُ هذا الشكلَ الطينيَّ إلى طيرٍ حيٍّ بإذن الله!

وهذا الخلقُ ليس إبداعاً من العدم، ولا إيجاداً من لا شيء، وإنما هو تحويلُ أشياءَ خلقَها اللهُ من العدم، وأوجدَها في الأرض، فأخذَها عيسى عليه السلام، وحوّلَها من حالةٍ إلى حالة: ترابٌ خلقَه الله، وماءٌ خلقَه الله.. فأخذَ عيسى عليه السلام هذين العنصريْن، ومَزَجهما معاً، فصارا طيناً، ثم جعلَهما تمثالاً! وليس هذا خلقاً حقيقياً، إنما هو تحويلٌ من شيء موجود إلى شيء موجود!

عيسى عليه السلام لم يخلق الطيرَ حقيقة، لأنَّ خالقَ الطير من العدمِ هو اللهُ

وحده، إنما كان عيسى يحوِّلُ تمثالَ الطيرِ إلى طير حقيقي، وهذا تحويلٌ وليس خلْقاً وإبداعاً وإيجاداً من العدم!

وحَرِصَ القرآن على بيانِ إذْنِ اللهِ بذلك التحويل، وإذْنِ الله في بثِّ الحياةِ في الطير: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾. فكررَ (إذن الله) مرتين؛ مرة في صنعِ تمثالِ الطير من الطين، ومرةً في تحوُّلِ التمثالِ إلى طيرٍ حيٍّ بعد النفخ فيه!

وهذه المعجزةُ آيةٌ بينةٌ لعيسى عليه السلام، تدلُّ على أنه رسولُ الله، فكانَ يصنعُ تمثالَ الطيرِ من الطين، ثم ينفخُ فيه، وكان اللهُ يجعلُ الحياةَ في ذلك الطير، فيصيرُ طيراً حياً، عيسى عليه السلام يأخذُ بالأسباب، واللهُ هو المسببُ المقدِّر، يبثُّ الحياة في الطير.

١٣ ـ هل شك الحواريون في قدرة الله؟:

الحواريون هم أنصارُ اللهِ الذين آمنوا بعيسى عليه السلام. قال تعالى: ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٢ ـ ٥٣].

أعلنوا إسلامَهم، وقالوا: ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، لأنَّ عيسى عليه السلام جاءَ بالإسلام، ودينَه هو الإسلامُ بالمفهومِ التاريخي[1]، وأتباعه مسلمون.

ومع إيمانِ الحواريِّين بالله، إلاّ أنهم طلبوا من عيسى عليه السلام طلَباً غريباً، وتكلموا عن اللهِ كلاماً عجيباً فيه إشكال، وذلك عندما طلبوا منه المائدة!

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٢ ـ ١١٥].

---

(١) للوقوف على معنى الإسلام التاريخي انظر: ص٣٣٢ من هذا الكتاب. (الناشر)

والإشكالُ في قولهم لعيسى عليه السلام: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾!

ظاهرُ الآيةِ أنهم يتساءلون عن مدى قدرةِ الله واستطاعتِه إنزالَ مائدةٍ عليهم من السماء، وهذا يوحي بأنهم كانوا شاكّين في قدرةِ الله واستطاعتِه! فهل كانوا شاكّين بذلك؟ وهل يتفقُ هذا مع إيمانهم بالله؟

قبلَ الإجابةِ على السؤال نذكرُ أنَّ في قوله: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ قراءتان: الأولى قراءةُ الكسائي: «هل تستطيعُ ربَّك»: بالتاء بالفعل، ونصب ﴿ربَّك﴾ على أنها مفعولٌ به.

ومعنى هذه القراءة: يا عيسى ابن مريم: هل تستطيعُ أنت أن تسألَ ربَّك، وأن تطلبَ منه إنـزالَ مائدةٍ علينـا من السماء؟ وهل يَقبلُ اللهُ منـك هذا الطلبَ والسؤال؟

ولا إشكالَ على هذه القـراءة، لأنهم لم يشكّوا في قدرةِ اللهِ على إنـزالِ المائدة، وإنما أرادوا أن يعرفوا مدى صلاحيةِ عيسى عليه السلام في السـؤال والطلب، وهل يدخلُ هذا ضمن إمكانياتِه أم لا؟!

قالت عائشةُ رضي الله عنها معتمدةً هذه القراءة: كان الحواريّون لا يشكّون أنَّ الله قادرٌ على أنْ يُنزلَ عليهم المائدة، وإنما قالوا: يا عيسى: هل تستطيعُ سؤالَ ربِّك إنزالَها!.

الثانية: قراءةُ الستة الباقين ـ ابن كثير ونافع وابن عامر وأبي عمرو وحمزة وعاصم ـ: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ بالياءِ بالفعل، ورفع ﴿ربُّك﴾ على أنه فاعل.

والإشكالُ على هذه القراءة، فما معنى سؤالِ الحواريين؟ هل كانوا شاكّين في قدرة الله؟ أم كانوا شاكّين في كمالِ قدرته؟ أم أنَّ للاستطاعةِ هنا معنى آخر؟

ذهبَ بعضُهم إلى أنَّ الاستطاعة هنا ليست بمعنى القدرة، وإنما هي بمعنى الاستجابة، فمعنى قولهم: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؟ هل يستجيبُ لك ربُّك إن دعوتَه وسألتَه وطلبتَ منه أن يُنزلَ علينا مائدة؟

وهذا كقولِ القائل: هل تستطيعُ أن تنهضَ معنا؟ وهو يعلمُ أنه يستطيعُ ذلك ويقدرُ عليه، لكنَّ السؤالَ بمعنى: هل تستجيبُ لنا وتنهضُ معنا؟

وفسَّرَ هؤلاء العلماء الاستطاعةَ هنا بمعنى الاستجابة لتتوافق الآيةُ مع إيمانِ الحواريين بالله، فهم لم يكونوا شاكّين في استطاعةِ اللهِ وقدرتِه على إنزالِ المائدة، لكنهم أحبوا أن يَعرفوا مدى استجابة اللهِ لسؤالِ عيسى عليه السلام!

وذهبَ علماء آخرون إلى أنَّ الاستطاعةَ هنا على ظاهرها، وأنها بمعنى القدرة، ومعنى سؤالهم: هل يقدرُ ربُّك على إنزال المائدة؟

وهذا معناه أنهم كانوا شاكّين في كمالِ قدرةِ اللهِ على إنزالِ المائدة، رغم إيمانهم بالله!

وهذا هو القولُ الراجح، فقد كانوا مؤمنين بالله، ولكنَّ إيمانَهم به لم يكن تاماً، رغم ما شاهدوا من الآياتِ والمعجزات. إنهم لم يكونوا شاكّين في قدرةِ الله أساساً، لكنهم كانوا شاكّين في تمام وكمالِ قدرته!

كأنهم قالوا: آمنّا أنَّ اللهَ قادرٌ على إحياءِ الموتى وإبراءِ الأكمهِ والأبرص، فهل هو قادرٌ على إنزالِ المائدة علينا من السماء؟!

لقد دلَّ سؤالُهم على ضعفِ إيمانِهم بقدرةِ الله المطلقة، ولذلك كرهَ عيسى عليه السلام سؤالَهم، فقال لهم: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

ومعنى كلامِه: راقِبوا الله، وخافوه، واحذروا أنْ يُنزلَ بكم عقوبةً على كلامكم، فإنَّ اللهَ لا يُعجزُه شيء، فلا تشكّوا في قدرةِ اللهِ على إنزالِ المائدة، واتقوه إن كنتم مؤمنين بالله حقاً!

ولما رأى الحواريون كراهيةَ عيسى عليه السلام سؤالَهم، وتهديدَه لهم، ذكَروا له هدفهم من السؤال، فقالوا: ﴿ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾.

عند ذلك دعا عيسى عليه السلام ربَّه، وطلبَ منه إنزالَ المائدةِ على أتباعِه: ﴿ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾.

وقد ردَّ اللهُ عليه بتهديدِ الحواريين. قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

هل أنزلَ اللهُ المائدةَ على الحواريين بعدَ هذا التهديد؟

ذهب بعضُهم إلى أن الله لم يُنزلْها عليهم، لأنهم لما سمعوا التهديدَ خافوا، وقالوا: لا حاجةَ لنا إلى المائدة، طالما هذه عاقبةُ مَنْ يكفرُ بها. فلم ينزلْها الله.

وذهبَ جمهورُ العلماءِ إلى أنَّ اللهَ أنزلَها عليهم فعلاً، وأكلوا منها، وشكروا اللهَ عليها.

والراجحُ هو قولُ الجمهور، لأنَّ هذا هو ظاهرُ الآيات، فالقومُ طلبوا المائدة، وعيسى عليه السلام دعا اللهَ طالباً إنزالَها، واللهُ استجابَ له، وقال: ﴿ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾.

«مُنَزِّلُ» اسمُ فاعل، ويدلُّ على وعدٍ قاطعٍ من الله بإنزالها، واللهُ لا يخلفُ الميعاد، فلا يجوزُ أن يسمعَ شخصٌ أو يقرأَ قولَ الله: ﴿ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾، ثم يقول: إنَّ اللهَ لم ينزلها عليهم!!

أما تفصيلاتُ أصنافِ المائدة التي أنزلَها اللهُ على الحواريين. فإنَّ هذا من (مبهمات القرآن)، لم يذكر القرآنُ عنها شيئاً، ولا يجوزُ لنا أنْ نفترضَ أو ندعيَ أصنافاً لم يخبرْنا اللهُ عنها، كأن نقول: أنزلَ اللهُ عليهم لحماً أو خبزاً أو طبيخاً! ويكفينا القولُ بأنَّ اللهَ أكرمَ الحواريين وأنزلَ عليهم مائدةً من السماء، فأكلوا وشربوا وشكروا الله عليها!

١٤ ـ هل بشر عيسى بمحمد أم بأحمد؟:

أخبرَ القرآنُ عن بشارةِ عيسى عليه السلام بالنبيِّ الخاتم من بعده. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الصف: ٦ ـ ٧].

وأخبرَ رسولُ الله ﷺ عن هذه البشارة. روى أحمد في المسند [٤: ١٢٧ ـ ١٢٨]، عن العرباضِ بن سارية رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إني عندَ الله في أمِّ الكتابِ لخاتم النبيين، وإنَّ آدمَ لمنجدلٌ في طينته، وسأنبئكم بتأويلِ ذلك: دعوةُ أبي إبراهيم، وبشارةُ عيسى قومَه، ورؤيا أُمي التي رأتْ أنه خرجَ منها نورٌ أضاءتْ له قصورُ الشام...».

والذي يُلفتُ النظرَ في التعبيرِ القرآني عن بشارةِ عيسى بمحمد عليهما

السلام أنه جاءَ فيه اسمُ (أحمد)!!

فهل بَشَّرَ عيسى بالنبيِّ الخاتم أحمد؟ أم بَشَّرَ بمحمد؟ وما الفرقُ بين أحمد ومحمد؟

وقد يثيرُ بعضُهم على هذا إشكالاً، فيقول: نبيُّ المسلمين اسمُه محمد ﷺ بالاتفاق، والقرآنُ نصَّ على أنَّ عيسى بَشَّرَ بأحمد، إذنْ هو لم يبشرْ بالرسول الخاتم! لأن عيسى هو خاتمُ الرسلِ والأنبياء!

لقد بَشَّرَ عيسى عليه السلام بأحمد، وأحمد هو محمد، ولا فرقَ بين الاسمين اللذين سُميَ بهما رسولُ الله الخاتم ﷺ.

أحمد ومحمد اسمان مشتقان من (الحَمْد). تقول: حَمِدَ، يَحْمَد، حَمْداً، فهو حامد وأحمد ومحمود ومحمد.

(أَحمد): أَفعلُ تفضيل. أي أنه أكثرُ حمداً لربِّه من غيره. و(محمد): على وزن (مُفَعَّل).

ولعلَّ اختيارَ عيسى عليه السلام لأفعل التفضيل (أحمد) للإشارةِ إلى فضلِ النبيِّ الخاتم ﷺ على كلِّ مَنْ سبقَه من الرسلِ والأنبياء، فهو يقول: النبيُّ الذي يأتي من بعدي هو (أَحمدُ) لله منّي ومن كلِّ نبيٍّ قبلي، فهو أفضلُنا جميعاً!!

قال الإمامُ الراغب: «يقال: فلان محمود: إذا حُمِد. وهو محمد: إذا كثرت خصالُه المحمودة.

وقوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾: فأحمد إشارةٌ إلى النبيِّ ﷺ باسمِه وفعلِه، تنبيهاً أنه كما وُجدَ اسمُه أحمد، يوجَدُ وهو محمودٌ في أخلاقه وأفعاله..

وخصَّ لفظة (أحمد) فيما بَشَّرَ به عيسى عليه السلام، تنبيهاً أنه أحمدُ منه ومن الذين من قبله، أي: أكثرُ حمداً منهم لله.

وقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩] فمحمد هنا ـ وإن كان من وجهٍ اسماً له عَلَماً ـ ففيه إشارةٌ إلى وصفِه بذلك، وتخصيصِه بمعناه...»[1].

---

(١) المفردات، ص٢٥٦.

إذن: لما بَشَّرَ عيسى بأحمد، في قوله: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾، إنما هو مُبَشِّرٌ بمحمدٍ النبيِّ الخاتم عليه الصلاة والسلام، ولا فرقَ بين الاسمين الكريمَيْن: أحمد ومحمد، لأنهما اسمان لمسمّى واحد، ومشتقّان من مادةٍ واحدة!

وأخبرَنا رسولُنا ﷺ عن بعضِ أسمائه:

روى البخاري [برقم: ٣٥٣٢]؛ ومسلم [برقم: ٢٣٥٤] عن جُبير بن مُطْعِم رضي اللهُ عنه عن رسولِ الله ﷺ قال: «لي خمسةُ أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو اللهُ بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحْشَرُ الناسُ على قدمي، وأنا العاقبُ الذي ليس بعدَه نبي..».

وروى مسلم [برقم: ٢٣٥٥] عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كان رسولُ الله ﷺ يُسمّي لنا نفسَه أسماء، قال: «أنا محمد، وأحمد، والمقفّي، والحاشر، ونبيُّ التوبة، ونبي الرحمة..».

هو الماحي، محا اللهُ به الكفر. وهو الحاشر، يُحْشَرُ الناسُ على قدميه يوم القيامة، يُشفِّعُه اللهُ فيهم، ويَدخلُ المؤمنون الجنةَ بعده. وهو العاقب، جاءَ عقبَ الأنبياءِ جميعاً، فكان آخرَهم وخاتمهم. وهو المقفّي، قَفّى اللهُ به الأنبياء، وختمَهم به. وهو نبيُّ الرحمةِ والتوبة، جعله اللهُ رحمةً للعالمين، وحَثَّ على التوبةِ والاستغفار.

هذه الأسماءُ الكريمةُ لرسول الله ﷺ، تدلُّ على أنه هو أحمد وهو محمد ﷺ، وعيسى بَشَّرَ به، ودعا بني إسرائيل إلى الإيمانِ به!

١٥ ـ كيف توفى الله عيسى عليه السلام؟:

أخبرَنا اللهُ أنه توفّى عيسى عليه السلام، عندما أرادَ اليهودُ قتلَه. قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٥٤ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ٥٤ ـ ٥٥].

تُخبرُ الآيةُ الأولى أنَّ اليهودَ مكروا ضدَّ عيسى عليه السلام وتآمروا عليه. وأرادوا قتلَه، ولكنَّ اللهَ مكرَ ضدهم، وذلك بإبطالِ مكرِهم وكيدِهم وتآمرهم،

وحمى عيسى عليه السلام منهم، واللهُ خيرُ الماكرين، يَنصرُ رسلَه وأولياءه، ويُهلكُ أعداءَه.

أسندت الآيةُ المكرَ إلى اليهود، كما أَسندته إلى الله!

وقد يُشكلُ فهم هذا على بعضِهم، فإذا كانَ إسنادُ المكرِ إلى اليهودِ مفهوماً، فكيفَ يُفهمُ إسنادُ المكرِ إلى الله؟

هذا يُسمّى في البلاغة (مشاكلة).. والمشاكلةُ هي: «ذكْرُ الشيء بلفظِ غيره، لوقوعِه في صحبته»، أو هي: الاتفاقُ في اللفظ، والاختلافُ في المعنى.

مكْرُ اليهودِ مكرٌ حقيقيٌّ مذموم، لأنهم أرادوا قتلَ عيسى عليه السلام، ومكْرُ اللهِ (مشاكلةٌ) لمكرِهم، لكنه محمود، لأنه أبطلَ مكرهم وكيدهم.

أنقذَ اللهُ عيسى عليه السلام منهم، وامتنَّ عليه بذلك. قال تعالى: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠].

أنجى اللهُ عيسى عليه السلام بأنْ توفاه، ورفعَه إليه: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

وهذه الجملةُ من (مشكلات) القرآن، التي لم يُحسنْ كثيرون فهمَها، فما معنى قوله: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾؟ وهل توفّى اللهُ عيسى وأماته على الأرض؟ أم رفعَه بروحِه وجسمِه إلى السماء؟ وإذا كان أَماتَه على الأرض فكيف سينزلُ في آخر الزمان؟ وإذا رفعه إلى السماءِ حياً فكيف قال له: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾؟

للمفسرين أقوالٌ عديدةٌ مختلفة في فهمِ هذه الجملةِ من الآية، لا يَعنينا استعراضُها وإيرادُها هنا، إنما نذكرُ القولَ الراجح ونوجِّهه، ونَحلُّ الإشكالَ بعون الله!

كيفَ توفّى اللهُ عيسى عليه السلام ورفعَه إليه؟:

﴿مُتَوَفِّيكَ﴾: اسم فاعل. فعلُه الماضي خُماسي (توفّى). تقول: توَفّاه، فهو متوفّيه. أي أنَّ اللهَ توفّى عيسى عليه السلام ورفعه إليه.

التوفّي في القرآن له معنيان:

الأول: الموت. فاللهُ يتوفّى الناسَ، أي يُميتُهم. ووردَ هذا في آيتَين: قوله

تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ﴾ [يونس: ١٠٤]، أي: أعبدُ اللهَ الذي يميتكم ويقبضُ أرواحكم.

وقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾ [النحل: ٧٠]، أي: اللهُ أحياكم، ثم يتوفاكم ويميتكم عند انتهاءِ أعماركم.

الثاني: النوم. فاللهُ يتوفّى الناس عندما ينامون. وورِدَ هذا في آيتين:

قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ [الأنعام: ٦٠].

أي: اللهُ يجعلكم تَنامونَ في الليل، ويتوفّى أرواحكم أثناءَ نومكم، ثم يُعيدُ أرواحكم إلى أجسادكم في النهار.

وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الزمر: ٤٢].

نصّت الآيةُ على أنَّ النومَ موت. فمعنى قوله: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ يقبضُ اللهُ الأنفسَ حين نومها، ويُخرجُ الأرواحَ من الأجسادِ عند النوم!

وقسمت الناسَ بعدَ النومِ إلى قسمين:

القسم الأول: الذين أنهى اللهُ أعمارهم عند النوم، فيُمسكُ أرواحهم، ولا يعيدها إلى أجسادهم، ويُصبحون جثثاً هامدة: ﴿ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ ﴾.

القسم الثاني: الذين بقيتْ من أعمارِهم بقية، فهؤلاء يتوفّى اللهُ أرواحَهم عند النوم، ولكنه يُعيدُ أرواحَهم إلى أجسادهم عند الاستيقاظ: ﴿ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾.

فالآيتانِ السابقتانِ صريحتان في أنَّ النومَ موت، وأنَّ الاستيقاظَ حياةٌ وبعث.

وأكّدَ هذه الحقيقة رسول الله ﷺ في أدعية النوم والاستيقاظ:

روى البخاري [برقم: ٦٣٢٠]؛ ومسلم [برقم: ٢٧١٤]، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا أوى أحدكم إلى فراشِه، فلْينفضْ

فراشَه بداخلةِ إزاره، فإنه لا يدري ما خَلَفَه عليه، ثم يقول: باسمِك ربّي وضعْتُ جنبي، وبك أرفعُه، إن أمسكتَ نفسي فارحمها، وإن أرسلْتَها فاحفظْها بما تحفظ به عبادك الصالحين».

أي: إن قبضتَ روحي وأمسكْتَها، ولم تُرجعها إلى جسمي، فاغفر لها وارحمها.. وإنْ أرسلتَ روحي، وأعدتها إلى جسمي في الصباح فاحفظني بحفظك.

أما دعاءُ الاستيقاظ من النوم فقد رواه البخاري [برقم: ٦٣١٢]، عن حذيفة ابن اليمان رضي الله عنه؛ ومسلم [برقم: ٢٧١١] عن البراء بن عازب رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذ أوى إلى فراشه قال: «باسمك أحيا، وباسمك أموت» وإذا استيقظ قال: «الحمدُ لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور».

فدعاءُ النومِ ودعاءُ الاستيقاظ صريحان في أنَّ النومَ موت، والاستيقاظ بعث، وفي أنَّ اللهَ يتوفّى روحَ النائم ويُخرجُها من جسمه، وعندما يستيقظُ يُعيدُ روحَه إليه.

بعد هذا التوضيحِ يمكنُنا أنْ نفهمَ قولَه تعالى: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾.

التوفّي هنا بالمعنى الثاني، وهو توفّي النوم، وليس بالمعنى الأول، وهو توفّي الموت.

لا يمكن أن يكونَ اللهُ توفّى عيسى عليه السلام توفّي موت، لأنه سينزلُه في آخرِ الزمان، ثم يميتُه بعد ذلك موتاً طبيعياً، ولا يجمعُ اللهُ عليه موتتان، فاللهُ توفّاه عندما أرادَ اليهودُ صلبَه وقتْلَه، بأنْ جعلَه ينام، عندما كان بين تلاميذه وحوارييه، ثم رفعَه إلى السماءِ وهو نائم.

إذن: معنى قوله تعالى: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: عندما يأتيك اليهودُ ليقتلوك، سأتوفّاك، بأنْ ألقيَ عليك النوم، وسأرفعك إليَّ وأنت نائم، وبذلك سأُطهركَ من اليهود الذين كفروا، فلن تمتدَّ أيديهم إليك، ولن يؤذوك!

وليس عيسى عليه السلام هو النبيَّ الوحيدَ الذي رفعَه اللهُ إلى السماءِ وهو نائم، بل حصلَ هذا مع رسولِنا محمدٍ ﷺ، وذلك في حادثةِ الإسراء والمعراج.

روى البخاريُّ [برقم: ٣٢٠٧]؛ ومسلمٌ [برقم: ١٦٤] عن مالك بن صعصعة رضي الله عنه أن رسولَ الله ﷺ قال: «بينما أنا عند البيت، بين النائم واليقظان، إذ سمعتُ قائلاً يقول: أحَدُ الثلاثةِ بين الرجلَين. . فأُتيتُ، فانطُلِقَ بي. . . .».

أخبرَ رسولُ الله ﷺ أنه بينما كانَ عند بيتِ الله الحرام، بين النائم واليقظان، قد أخذتْه سِنَةٌ من النوم، أتاهُ مَلَكان، وبدأتْ رحلةُ الإسراءِ والمعراج.

رُفع عيسى عليه السلام إلى السماء وهو نائم، وهذا توفّي اللهِ له، وأُسريَ برسولِ اللهِ محمد ﷺ ثم عُرِجَ به إلى السماءِ وهو نائم!!

١٦ ـ أحداث ليلة صلب شبه عيسى!:

أخبرَنا اللهُ عن الأحداثِ الأخيرة، التي مَرَّ بها عيسى عليه السلام في حياتِه على الأرض، قبل أن يرفعَه إلى السماء.

قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٣ ـ ١٥٩].

تُسجلُ هذه الآياتُ مجموعةً من جرائمِ اليهودِ التي استحقوا بها غضبَ اللهِ ولعنتَه وعقابَه، ويهمُّنا في هذا الموضعِ الحديثُ عن محاولتِهم قتْلَ عيسى عليه السلام.

من أسبابِ لعنةِ اللهِ لهم وغضبِه عليهم قولُهم: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾.

وقد كذَّبَهم اللهُ في هذا الزعم، وأخبرَ أنهم لم يَقتلوه ولم يصلبوه، وإنما

قتلوا شبهه، أما هو فقد رفعه اللهُ إليه: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾.

نفت الآيةُ قتْلَهم له: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾، كما نفَتْ صلبَهم له: ﴿وَمَا صَلَبُوهُ﴾..

وإذا كانوا لم يقتلوه ولم يصلُبوه، فلماذا قالوا: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾؟

الجوابُ في الجملةِ الاستدراكية: ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾!

﴿شُبِّهَ﴾: فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ للمجهول. ونائبُ الفاعلِ مستترٌ تقديرُه (هو)، يعودُ على الشخصِ الذي قتلوه. والمعنى: شُبِّهَ الشخصُ لهم بعيسى، فقتلوا هذا الشبيهَ وصَلبوه، ظانّين أنه عيسى عليه السلام!

عيسى عليه السلام هو المشبَّهُ به، ولا يمكنُ أن يكونَ هو نائبَ الفاعلِ لفعْل ﴿شُبِّهَ﴾، وإنما نائبُ الفاعل هو الشخصُ المشبَّه، وهو الذي قتلوه وصَلبوه، والذي شَبَّه هذا الشخصَ لهم هو اللهُ ربُّ العالمين، حيثُ ألقى عليه شبهَ عيسى عليه السلام، فكان كأنه عيسى، أو قُل: صار عيسى في هيأتِه وشكلِه ومظهرِه الخارجي، مع أنه لم يكنْ عيسى حقيقة! فأخذوه وقتلوه وصلبوه وكلٌّ ظَنهم أنه عيسى، مع أنه لم يكنْ عيسى في الحقيقة!!.

ماذا جرى في تلك الليلةِ الخطيرة التي جاءَ اليهودُ والرومانُ فيها لقتْلِ عيسى عليه السلام؟ وكيفَ شُبِّهَ ذلك الشَّبَهُ القتيلُ لهم؟

خيْرُ مَنْ لَخّصَ تلك الأحداثَ الخطيرة هو الإمام ابن كثير في تفسيره.

قال: «وكانَ من خَبَرِ اليهود ـ عليهم لعائِنُ اللهِ وسخطُه وغضبُه وعقابُه ـ أنه لما بعثَ اللهُ عيسى ابنَ مريمَ بالبينات والهدى، حسدوه...

... وسَعَوْا في أذاهُ بكلِّ ما أمكنهم! حتى جعلَ نبيُّ اللهِ عيسى عليه السلام لا يساكنُهم في بلدة، بل يُكثِرُ السياحةَ هو وأُمُّه...

... ثم لم يقنعْهم ذلك حتى سَعوا إلى ملكِ دمشقَ في ذلك الزمان ـ وكان رجلاً مشركاً من عبدةِ الكواكب، وكان يُقالُ لأهْلِ ملّته اليونان ـ وأنهوا إليه أنَّ في بيتِ المقدس رجلاً يَفتنُ الناسَ ويُضلُّهم، ويُفسدُ على الملك رعاياه.

فغضبَ الملكُ من هذا، وكتبَ إلى نائبه بالقدس أنْ يَحتاطَ على هذا

المذكور، وأن يصلبَه، ويضعَ الشوكَ على رأسه، ويكفَّ أذاهُ عن الناس!

فلما وصلَ الكتابُ امتثلَ والي بيت المقدس ذلك . . .

وذهبَ هو وطائفةٌ من اليهودِ إلى البيتِ الذي فيه عيسى عليه السلام، وهو في جماعةٍ من أصحابه، اثني عشر أو ثلاثةَ عشر، وقيل سبعة عشر نفراً . . وكان ذلك يوم الجمعة بعد العصر، ليلةَ السبت، فَحَصروه هناك . . .

فلما أَحَسَّ بهم، وأنه لا محالةَ من دخولهم عليه، أو خروجه إليهم، قالَ لأصحابه: أيكم يُلقى عليه شَبَهي، وهو رفيقي في الجنة؟!

فانتدبَ لذلك شابٌّ منهم. فكأنَّه استصغَره! فأعادَها ثانيةً وثالثة، وكلُّ ذلك لا يَنتدبُ إلاّ ذلك الشاب!

فقال له: أنتَ هو!

وألقى اللهُ عليه شبَه عيسى، حتى كأنه هو!!

وفُتحتْ (روزنةٌ) من سقْفِ البيت، وأخذتْ عيسى عليه السلام، سِنَةٌ من النوم، فَرُفعَ إلى السماء وهو كذلك، كما قالَ تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ .

فلما رُفعَ عيسى من سقْفِ البيت، خرجَ أولئك النفرُ من البيت . . .

فلما رأى اليهودُ والجنودُ ذلك الشابَّ ظَنّوا أنه عيسى، فأَخذوهُ في الليل وصَلَبوه، ووضَعوا الشوكَ على رأسه . .

وأظهرَ اليهودُ أنهم سَعَوْا في صلبه، وتبجَّحوا بذلك . .

وسلَّمَ لهم طوائفُ من النصارى ذلك، لجهْلِهم وقلةِ عقولهم، ما عدا مَن كان في البيتِ مع المسيح، فإنهم شاهَدوا رفعه . . وأما الباقون فإنهم ظنّوا كما ظنَّ اليهودُ أنَّ المصلوبَ هو المسيحُ ابنُ مريم . .

وهذا كلُّه امتحانُ اللهِ لعباده، لماله في ذلك من الحكمةِ البالغة . .

وقد أوضحَ اللهُ الأمرَ وجلاّه وبيّنه وأظهره في القرآنِ العظيم، الذي أنزله على رسوله الكريم ﷺ، حيثُ بَيَّنَ أنهم ما قتلوا عيسى عليه السلام وما صلبوه، ولكن شُبِّهَ لهم، حيثُ ألقى اللهُ شَبَهَه على ذلك الشاب، فبدا لهم كأنّه عيسى فقتلوا

الشابَ وصَلَبوه، ظانّين أنه عيسى عليه السلام!

وأخبرَ اللهُ أنَّ الذين اختلَفوا في عيسى عليه السلام من اليهودِ الذين ادَّعوا قتْلَه، والنصارى الجهّالِ الذين سَلَّموا لهم بذلك، كلُّهم في شكٍّ وحيرةٍ وضلالٍ من ذلك . .

قالَ ابن عباس رضي الله عنهما: «لما أرادَ اللهُ أنْ يرفعَ عيسى إلى السماء، خرجَ على أصحابه، وفي البيتِ اثنا عشر رجلاً من الحواريين، خرجَ عليهم من عينٍ في البيت، ورأسُه يقطرُ ماء! فقال: إنَّ منكم مَنْ يكفرُ بي اثنتي عشرة مرةً بعد أنْ آمَنَ بي . .

ثم قال: أيكم يُلقى عليه شَبَهي، فيُقتَلُ مكاني، ويكونُ معي في درجتي؟

فقامَ شابٌّ من أحدثِهم سناً. فقالَ له: اجلس! ثم أعادَ عليهم، فقامَ ذلك الشاب، فقال له: اجلس!! ثم أعادَ عليهم، فقامَ ذلك الشاب فقال: أنا. فقال عيسى عليه السلام: هو أنت!

فأُلقيَ عليه شَبَهُ عيسى . . ورُفعَ عيسى من روزنةٍ في البيت إلى السماء!!

وجاءَ الطلبُ من اليهود، فأخذوا الشبهَ فقتلوه، ثم صلبوه».

وهذا إسنادٌ صحيحٌ إلى ابنِ عباس . . .»[1].

اليهودُ لم يقتلوا عيسى عليه السلام ولم يَصلبوه، رغمَ حرصِهم على ذلك، لأنَّ اللهُ عصمَه وحماهُ منهم، ورفعهُ إليه، والذي قَتلوهُ وصَلبوهُ هو ذلك الشخصُ الذي شُبِّهَ لهم، الذي تطوّعَ ليفدي عيسى عليه السلام بنفسه، فألقى اللهُ بقدرتِه شَبَهَ عيسى عليه، فصارَ يبدو على أنه عيسى!!

بقيتْ مسألةٌ في هذا الموضوع، وهي معنى قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا﴾ [النساء: ١٥٧].

الهاءُ في ﴿فيه﴾ ضميرٌ يعودُ على القتلِ والصلب. والهاءُ في ﴿منه﴾ ضميرٌ يعودُ على القتلِ والصلب أيضاً.

والمعنى: إنَّ الذين اختلفوا في قتلِ عيسى وصلبِه في شكٍّ من قتلِ عيسى

---

(١) تفسير ابن كثير: ١/ ٥٤٣ـ٥٤٤.

وصلبه! والسببُ في هذا الاختلافِ والشكِّ هو أنه يوجَدُ شخصٌ مقتولٌ مصلوب، يُشبه عيسى تماماً، لكن مَنْ هو؟ أهو عيسى الحقيقيُّ أم عيسى الشَّبَه؟

والذين اختلفوا في القتلِ والصلبِ هم اليهود والنصارى، اختلفوا في تحديد هويةِ الشخصِ المقتول؛ ومالهم بذلك من علم، وإنما يتبعونَ فيه الظنَّ والحدسَ والتخمين.

وبعد ما نفت الآيةُ عن اليهودِ العلم بهويةِ المقتول، نفتْ عنهم القتلَ اليقينيَّ لعيسى عليه السلام، فقالت: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾.

اليهودُ قَتلوا وصَلبوا شخصاً، يشبهُ عيسى في الظاهر، ولكن ما قتَلوا عيسى يقيناً، لأنَّ اللهَ عصمه منهم ورفعَه إليه.

١٧ ـ توجيه نزول عيسى في آخر الزمان:

حمى اللهُ عيسى عليه السلام من اليهود، ورفعَه إليه حياً وهو نائم، وهو الآنَ حيٌّ في السماء، بلحمِه ودمِه وروحِه، رغم مرورِ حوالي ألفي سنة على رفعه. وهذا ليس أمراً عادياً، إنما هو آيةٌ خارقةٌ ومعجزةٌ باهرة، أرادَها الله تعالى بحكمته.

وقد التقى به رسولُ الله ﷺ في رحلةِ المعراج، حيث كان في السماءِ الثانية، مع ابنِ خالته يحيى، عليهما الصلاة والسلام.

وسيُنزِّلُ اللهُ عيسى عليه السلام في آخر الزمان، ليحكمَ بالإسلام ويُجاهدَ أعداءَ الله، ثم يموتُ بعد ذلك موتاً طبيعياً، ثم يُصلّي عليه المسلمون ويدفنونَه.

ووردَ الكلامُ عن نزولِه في آياتِ القرآن، وفي حديثِ رسول الله ﷺ.

من إشاراتِ القرآنِ عن نزوله قوله تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٤٦].

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ [المائدة: ١١٠].

نَصّت الآيتان على كلامٍ خاصٍّ لعيسى عليه السلام في مرحلتيْن من حياته: مرحلةِ الطفولةِ في المهد، ومرحلةِ الكهولة. وكلامُه في المرحلتيْن معجزةٌ من آياتِ الله.

وقد كلَّمَ الناسَ وهو في المهد، بعد ساعاتٍ من ولادته، عندما كان على حضْنِ أمه، فقدَّمَ نفسَه إلى الناس، كما ذكرتْ ذلك آياتُ سورةِ مريم.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا . . .﴾ [الزخرف: ٦١].

والمعنى: إنَّ عيسى عليه السلام عِلْمٌ للساعة. أي: إنَّ نزولَه في آخرِ الزمانِ سيكون علامةً من علاماتِ الساعة الكبرى، دالةٌ على قربِ قيامها.

ومن ذلك أيضاً قولُه تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٩].

﴿إنْ﴾: حرفُ نفي، دلَّ هنا على معنى الحصر، لمجيء ﴿إلا﴾ بعدَه، واجتماعُ ﴿إنْ﴾ و﴿إلا﴾ يدلُّ على الحصر، والمعنى المحصور: ما من أهلِ الكتاب من أحدٍ إلاّ ليؤمنَنَّ بعيسى عليه السلام قبلَ موته.

والهاءُ في ﴿به﴾ وفي ﴿موته﴾ تعودُ على عيسى عليه السلام.

أي: كلُّ واحدٍ من أهلِ الكتاب سيؤمنُ بعيسى عليه السلام أنه عبدُ الله ورسولُه، ويكونُ هذا عند نزولِه في آخرِ الزمان، حيث يَقتلُ الخنزيرَ ويكسرُ الصليب، ولا يَقبلُ من الناسِ إلا الإسلام.

فهذه ثلاثُ آياتٍ تُخبرُ عن نزولِ عيسى عليه السلام في آخرِ الزمان، وهي كافيةٌ لإثباتِ هذه الحقيقة، وإيمانِنا بها.

وقد وردَتْ عدةُ أحاديثَ صحيحةٍ عن رسول الله ﷺ، تُصرِّحُ بنزوله، تُضافُ إلى هذه الآيات. وقد جمعَ هذه الأحاديثَ وشرحَها الإمامُ محمد أنور شاه الكشميري، في كتاب (التصريح بما تواتر في نزول المسيح) وقد اعتنى بالكتابِ وعلَّقَ عليه الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله.

روى البخاريُّ [برقم: ٢٢٢٢] ومسلمٌ [برقم: ١٥٥] عن أبي هريرةَ رضي الله عنه، عن رسولِ الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيدِه، لَيوشِكَنَّ أنْ يَنزلَ فيكم ابنُ مريمَ حكَماً عدلاً، فيكسِرُ الصليب، ويقتلُ الخنزير، ويضعُ الحرب، ويفيضُ المالُ حتى لا يقبلَه أحد، حتى تكون السجدةُ الواحدةُ خيراً من الدنيا وما فيها. . .».

ثم قالَ أبو هريرة رضي الله عنه: اقرؤوا إنْ شئتُم قولَه تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ

ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٩].

وروى مسلمٌ [برقم: ١٥٦] عن جابرِ بن عبدِ الله رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لا تزالُ طائفةٌ من أُمتي يقاتلونَ على الحق، ظاهرينَ إلى يومِ القيامة، فينزلُ عيسى ابنُ مريمَ عليه السلام.

فيقولُ أميرُهم: تعالَ صَلِّ لنا!

فيقول: لا. إنَّ بعضَكم على بعضٍ أمراء، تكرمةَ اللهِ هذه الأُمة...».

وأخبرنا رسولُ الله ﷺ أنه سيبقى أربعين سنةً بعد نزوله. روى أبو داود [برقم: ٤٣٢٤] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «ليسَ بيني وبين عيسى نبيٌّ، وإنَّه نازِلٌ، فإذا رأيتُموه فاعرفوه: رجلٌ مربوع، إلى الحمرةِ والبياض، ينزلُ بين مُخَصَّرَتَيْن، كأنَّ رأسَه يقطر، وإنْ لم يصبْه بلَل، فيقاتِلُ الناسَ على الإسلام، فيدقُّ الصليب، ويقتلُ الخنزير، ويضعُ الجزية، ويُهلكُ في زمانه المللَ كلَّها إلا الإسلام، ويُهلكُ المسيحَ الدجال.. فيمكثُ في الأرضِ أربعين سنة، ثم يُتوفَّى، فيصلِّي عليه المسلمون».

وهناك أحاديثُ صحيحةٌ أُخرى كثيرة، تتحدَّثُ عن نزولِه، وتذكرُ بعضَ أعمالِه.

وقد يُشكلُ نزولُ عيسى عليه السلام في آخرِ الزمانِ على بعضِهم، وقد يُثيرُ آخرونَ شبهاتٍ وتساؤلاتٍ عليه.

من ذلك استبعادُ أنْ يُرفَعَ عيسى عليه السلام بجسمِه إلى السماء، وبقائِه بجسمِه حياً إلى قرب قيام الساعة؟

وهذا الأمرُ لا يدعو إلى الاستبعادِ والإنكار، لأنَه من فعْلِ الله سبحانه، واللهُ فعَّالٌ لما يُريد، ولا يُعجزُه شيءٌ في السماوات والأرض، فبما أنه سبحانه أرادَ رفعَه إلى السماءِ بجسمِه وروحِه، فسوفَ يفعلُ ذلك، لأنه لا يمنعُ أحدٌ إرادتَه، وبما أنه أراد إبقاءَه حياً في السماء بجسمه وروحِه إلى قربِ قيامِ الساعة، فسوفَ يفعلُ ذلك، لأنه لا يمنعُ إرادتَه أحد!

وإنَّ كلَّ ما يتعلَّقُ بعيسى عليه السلام خوارقُ ومعجزاتٌ وآيات، وهذا ما أرادَه الله، ومعظمُ ما جرى له لا يُقاسُ بمألوفِ البشر وعاداتِهم وطاقاتِهم..

ثم أيهما أعجبُ: ولادةُ عيسى عليه السلام من غيرِ أب، أم رفعُهُ بجسمِه وروحِه إلى السماء، وإبقاؤه حياً فيها؟ لا شكَّ أنَّ الأولَ أعجب! فلماذا صَدَّقْنا الأول واستبعَدْنا الثاني؟!

وقد يعتبرُ بعضُهم هذا الأمرَ متناقضاً مع قوله تعالى: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧]

لأنَّ عيسى عليه السلامُ يصرحُ بأنَّ اللهَ قد توفَّاه: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾، والتوفِّي هنا توفِّي موت! والمعنى: لما أَمَتَّني كنتَ أنتَ الرقيبَ عليهم.

قال هؤلاء: لما أراد اليهودُ صلْبَ عيسى عليه السلام، عَصمَهُ اللهُ وحماه منهم، وأخرجه من المكانِ إلى مكانٍ آخر آمن، ثم توفَّاهُ اللهُ وقبضَ روحَه وأماتَه، ورفعَ روحَه إلى السماء، ودُفِنتْ جثتُه في الأرض!!

وهذا قولٌ مردود، فليس التوفِّي في قوله: ﴿تَوَفَّيْتَنِي﴾ بمعنى الموت، وإنما هو بمعنى النوم، وقد وضَّحنا هذا بالتفصيل في بيان معنى قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥].

ألقى اللهُ عليه النوم، ورفعَهُ إلى السماءِ نائماً. وقد عرضْنا عدةَ آياتٍ قرآنيةٍ وردَ فيها التوفي بمعنى النوم.

على هذا الفهمِ القرآني يكونُ معنى قوله: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ لما قبضْتَني، وألقيتَ عليَّ النوم، ورفَعْتَني إلى السماءِ نائماً، وغيَّبْتَني عنهم، كنتَ أنَ الرقيبَ عليهم.

ثم إنَّ بقاءَ عيسى عليه السلام حياً في السماءِ حوالي ألفَيْ سنة حتى الآن ـ ولا نعلمُ كم ستنقضي من السنواتِ حتى ينزلَ في آخر الزمان ـ ليسَ فيه ما يدعو إلى الاستبعاد والإنكار، لأنَّ الله هو الذي أراد ذلك، وهو فعَّالٌ لما يُريد، والموتُ والحياةُ بيدِ اللهِ وحدَه، واللهُ يقدِّرُ لكلِّ إنسانٍ عمرَه!

ولماذا نذهبُ بعيداً؟ ألم يخلق اللهُ إبليسَ الملعونَ قبلَ آدمَ عليه السلام بفترة، ولما طلبَ من اللهِ أنْ يُبقيَهُ حياً إلى يوم يبعثون أبقاهُ اللهُ حياً إلى يومِ الوقتِ المعلوم؟ أي أنَّ إبليسَ سيموتُ قبيلَ قيام الساعة! فكم المدةُ الزمنيةُ من خلقِ

إبليس حتى وفاتِه قبيلَ الساعة؟ لا شكَّ أنَّ ذلك قد يكونُ ملايين السنين!!

فإذا كانَ اللهُ قدَّرَ أنْ يعيشَ إبليسُ ملايين السنين، فهل نستبعدُ أنْ يكونَ قد أوقفَ عمرَ عيسى في السماء آلافَ السنين، ليُنزلَه بعدَ ذلك في آخرِ الزمان؟

وقد يتساءَلُ بعضُهم: ألا يتعارضُ إنزالُ عيسى عليه السلام في آخر الزمان مع قولِ رسولنا محمدٍ ﷺ: «لا نبيَّ بعدي»؟ فها هو عيسى نبيٌّ جاءَ بعدَه!!

لا يتعارضُ ذلك مع الحديثِ في الحقيقة، لأنَّ محمداً ﷺ خاتمُ الأنبياءِ والمرسلين، فلا يبعثُ اللهُ بعدَه نبياً ولا رسولاً. وعيسى عليه السلام نبيٌّ رسول بعثَهُ اللهُ قبلَ محمد ﷺ إلى بني إسرائيل، فهو نبيٌّ قبلَه وليس بعده، وإنزالُه نبياً رسولاً في آخرِ الزمان استمرارٌ لنبوّته ورسالتِه التي ثبتتْ قبلَ نبوةِ ورسالةِ محمدٍ ﷺ!!

بل إنَّ إنزالَ عيسى عليه السلام في آخر الزمان هو تأكيدٌ لنبوةِ محمد ﷺ وتصديقٌ لها، لأنَّ محمداً ﷺ أخبرَ في عدةِ أحاديثَ صحيحةٍ عن إنزالِه في آخرِ الزمان، فإنزالُه تصديقٌ عمليٌّ لتلك الأخبارِ الصادقة التي ذكرها محمدٌ رسولُ الله ﷺ.

وقد يتساءلُ بعضُهم: بأيةِ شريعةٍ سينزل؟ أبشريعتِه هو أمْ بشريعةِ محمدٍ ﷺ؟ وإذا نزلَ بشريعتِه ألا يُعتبرُ هذا نسخاً لشريعةِ محمدٍ ﷺ؟ وإذا نزلَ بالشريعةِ الإسلامية ألا يُعتبرُ هذا إلغاءً لشريعتهِ ورسالتِه؟

إنَّه سينزلُ بشريعةِ محمد ﷺ، وسيكونُ منفِّذاً ومطبِّقاً لها، وحاكماً يحكمُ الناسَ بها، لأنَّ هذه الشريعةَ هي الشريعةُ المستمرةُ حتى قيام الساعة.

ولا يُعتبرُ هذا إلغاءً لشريعتِه ورسالتِه هو، لأنَّ الأنبياءَ إخوةٌ «أبناءعَلاَّت» كما أخبر رسولُ الله ﷺ - وأبناءُ العَلاَّت هم الإخوةُ لأُمّ - أيْ أنّ الأنبياءَ متقاربون في الشرائعِ والرسالات.

ومن أهمِّ الحِكَمِ لنزولِه عليه السلام في آخر الزمان:

١ - تكذيبُ اليهـودِ في زعمهم أنهم قتلوه وصَلبوه، فها هو حيٌّ يقاتلُهم ويجاهدهم، ويقتلُ ملكَهم المسيحَ الدجال، هم لم يقتلوه، وهو الذي سيقتلُهم!

٢ - تكذيبٌ للنصارى الذين زعموا أنه قُتِلَ وصُلب، فها هو حيٌّ لم يمت، وتكذيبٌ للنصارى الذين جَعلوه إلـهاً أو ابناً لله، حيثُ يدعوهم إلى عبادةِ الله وحده.

٣ ـ وتكذيبٌ آخر للنصارى في أُسطورةِ الصليب، حيث سيكسرُ الصليبَ ويتبرّأُ منه، ويقتلُ الخنزير ويُحرمُه، الذي يزعم النصارى أنّه مباحٌ لهم.

٤ ـ تصديقٌ لمحمدٍ رسولِ الله ﷺ، حيث سينزلُ برسالتِه وشريعتِه، وشهادةٌ عمليةٌ للإسلام بأنّه الرسالةُ الخاتمة، الناسخةُ لما قبلَها من الرسالاتِ، كاليهودية والنصرانية، ولهذا يضعُ الجزيةَ، ويُجاهدُ غيرَ المسلمين، فلا يَقبلُ من الناسِ إلا الإسلام!

٥ ـ استكمالُ عمرِه الذي قَدَّرَه الله له، فلما رفعَه اللهُ إلى السماءِ بقيتْ من عمره بقيةٌ وفقَ قدرِ الله، وسينزله اللهُ ليستكمل هذه البقية، حيث سيعيشُ أربعينَ سنة، ثم يموتُ موتاً طبيعياً بعد ذلك.

على أساسِ هذا التحليلِ والتوجيهِ نُحسنُ فهمَ مسألةِ نزولِ عيسى عليه السلام في آخر الزمان. والله أعلم.

وصلّى اللهُ على سيّدِنا محمد، وعلى آلهِ وصحبِه وسلَّم.

* * *

الفهرس

الموضوع الصفحة

الفَصْلُ الأَوَّلُ

إشكالات حول قصة آدم عليه السلام

الفصل الثاني

إشكالات حول قصة نوح عليه السلام

الفصل الثالث

إشكالات حول قصة هود عليه السلام

الفصل الرابع

إشكالات حول قصة صالح عليه السلام

الفَصْلُ الخامِسُ

إشكالات حول قصة إبراهيم عليه السلام

الفَصْلُ السَّادِسُ

إشكالات حول قصة لوط عليه السلام

الفَصْلُ السَّابِعُ

إشكالات حول قصة يعقوب ويوسف عليهما السلام

الفَصْلُ الثَّامِنُ

إشكالات حول قصة موسى عليه السلام

الفَصْلُ التَّاسِعُ

إشكالات حول قصة داود عليه السلام

الفَصْلُ العَاشِرُ

إشكالات حول قصة سليمان عليه السلام

الفَصْلُ الحَادِي عَشَر

إشكالات حول قصة أيوب عليه السلام

الفَصْلُ الثَّانِي عَشَر

إشكالات حول قصة يونس عليه السلام

الفَصْلُ الثَّالِثَ عَشَر

إشكالات حول قصة زكريا ويحيى عليهما السلام

الفَصْلُ الرَّابِعَ عَشَر

إشكالات حول قصة عيسى عليه السلام

* * *

صدر عن دار القلم من سلسلة (من كنوز القرآن)

١ ـ مفاتيح للتعامل مع القرآن.

٢ ـ في ظلال الإيمان.

٣ ـ الشخصية اليهودية من خلال القرآن.

٤ ـ تصويبات في فهم بعض الآيات.

٥ ـ لطائف قرآنية.

٦ ـ مع قصص السابقين في القرآن: ١ ـ ٣.

٧ ـ القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث ١ ـ ٤.

٨ ـ مواقف الأنبياء في القرآن: تحليل وتوجيه.

❊ ❊ ❊

كتب صدرت للمؤلف مرتبة وفق صدورها

١ ـ سيد قطب الشهيد الحي .

٢ ـ نظرية التصوير الفني في القرآن عند سيد قطب .

٣ ـ أمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب .

٤ ـ مدخل إلى ظلال القرآن .

٥ ـ المنهج الحركي في ظلال القرآن .

٦ ـ في ظلال القرآن في الميزان .

٧ ـ مفاتيح للتعامل مع القرآن .

٨ ـ في ظلال الإيمان .

٩ ـ الشخصية اليهودية من خلال القرآن .

١٠ ـ تصويبات في فهم بعض الآيات .

١١ ـ مع قصص السابقين في القرآن : ١ ـ ٣ .

١٢ ـ البيان في إعجاز القرآن .

١٣ ـ ثوابت للمسلم المعاصر .

١٤ ـ إسرائيليات معاصرة .

١٥ ـ سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد .

١٦ ـ لطائف قرآنية .

١٧ ـ هذا القرآن .

١٨ ـ حقائق قرآنية حول القضية الفلسطينية .

١٩ ـ الخلفاء الراشدون بين الاستخلاف والاستشهاد.

٢٠ ـ التفسير والتأويل في القرآن.

٢١ ـ الأتباع والمتبوعون في القرآن.

٢٢ ـ التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق.

٢٣ ـ الخطة البراقة لذي النفس التواقة.

٢٤ ـ تفسير الطبري: تقريب وتهذيب: ١ ـ ٧.

٢٥ ـ الرسول المبلِّغ ﷺ.

٢٦ ـ القصص القرآني: ١ ـ ٤.

٢٧ ـ تهذيب فضائل الجهاد لابن النحاس.

٢٨ ـ تعريف الدارسين بمناهج المفسرين.

٢٩ ـ القبسات السنية من شرح العقيدة الطحاوية.

٣٠ ـ سيد قطب: الأديب الناقد والداعية المجاهد والمفكر المفسِّر الرائد.

٣١ ـ صور من جهاد الصحابة.

٣٢ ـ إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني.

٣٣ ـ سعد بن أبي وقاص: المجاهد الفاتح ومعتزل الفتنة ومجاب الدعوة.

٣٤ ـ مواقف الأنبياء في القرآن: تحليل وتوجيه.

* * *



تُطلب جميع كتبُنا مِن :

دَار القَلم ـ دمَشق: ص ب : ٤٥٢٣ ـ ت : ٢٢٢٩١٧٧

الدَّار الشاميَة ـ بَيروت ـ ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦

ص ب : ١١٣/٦٥٠١

توزّع جميع كتبنا في السّعُوديَة عَن طريق

دَار البَشير ـ جدّة : ٢١٤٦١ ـ ص ب : ٢٨٩٥

ت: ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

